رسائل جامعية

الكليات الشرعية في القرآن الكريم

تأليف
الدكتور الحسن حريفي

المجلد الأول

دار ابن القيم
دار ابن عفان

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ﴾

الكُلِّيَّاتُ الشَّرْعِيَّة

فِي

القُرْآنِ الكَرِيمِ

رقم الإيداع : ٢٦٧٨ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N
977-6052-46-0

○ الطبعة الأولى ○
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



دار ابن القيم للنشر والتوزيع
هاتف: ٨٢٧٤٥٤٥ - فاكس: ٨٠٥٦٥٥٤
الدمام - مدينة العمال - ص.ب: ٢٠٧٤٥
الرمز البريدي: ٣١٩٥١ بريد الخبر

دار ابن عفان
للنشر والتوزيع
الجيزة - ت: ٣٢٥٥٨٢٠ - ص.ب: ٨ بين السرايات
القاهرة: ١١ ش درب الأتراك - الأزهر - خلف الجامع الأزهر
هاتف محمول: ٠١٠١٥٨٣٦٢٦ - ٠١٠٦٥٨٣٥٠٦
جمهورية مصر العربية
E-mail:ebnaffan@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم :

الثابت والمتغير في التشريع الإسلامي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه، وبعد:

فلقد تقرر في القرآن الكريم: أن البشر على اختلاف ألوانهم وأزمنتهم وأمكنتهم يعودون إلى أصل واحد، قال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[النساء، الآية: ١]، والآية دلت على أن الجماعة الإنسانية واحدة، مردها إلى ربٍّ واحد، وخالق واحد، وتعود إلى أصل واحد[١].

وهذه التقاسيم - في الجماعة الإنسانية - حيث قسمت إلى شعوب وقبائل، «وهذا الاختلاف في الأشكال والألوان والألسن، كان الغرض منه أن يعرف الناس بعضهم بعضًا، ويتميز بعضهم عن بعض، لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض»[٢]، قال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾[الحجرات، الآية: ١٣]، فلما دلت الآية الكريمة على الاستواء في الأصل، كان ذلك برهانًا على وحدة البشر، ومن ثَمَّ فخصائص البشرية واحدة على الرغم من

---

(١) في ظلال القرآن ١/٥٧٤.

(٢) أضواء البيان ٧/٦٣٥.

اختلافهم في الشكل، مما يدعو إلى القول: إن البشرية قابلة ومستعدة إلى هذه الوحدة المتكاملة.

غير أن الوحدة لن تتم إلا إذا تحقق الهدف الذي من أجله وجدت البشرية، وهو عبادة الواحد الأحد، الفرد الصمد، قال - تَعَالَى -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات، الآية: ٥٦]، فتحقيق هذه الغاية يتم بالرجوع إلى هذه الرسالة المنزلة على الرسول محمد ﷺ والتي دعا الحق - سبحانه - إلى التحاكم بها وجعلها قانونًا عالميًا للناس[1]، وهو القانون العالمي الوحيد الذي يصلح لحكم الإنسانية وإصلاحها، الحكم الذي يسع الناس على اختلاف الزمان والمكان؛ حيث أراد اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - أن تكون هذه الشريعة لجميع البشر، ويكون الرسول ﷺ المبلغ عن ربه رسولًا للبشرية جمعاء.

وشمول هذه الرسالة من الخصائص التي تميز بها هذا الدين عن كل ما عرفه الناس من الأديان والمذاهب، إنه شمول يستوعب الزمان كله، ويستوعب الحياة كلها ويستوعب كيان الإنسان كله، فهي كما عبر حسن البنا - رحمه اللَّه -: « الرسالة التي امتدت طولًا حتى شملت آباد الزمن، وامتدت طولًا حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقًا حتى استوعبت شئون الدنيا والآخرة »[2]، ويتحدث الدهلوي - رحمه اللَّه - في هذا الصدد؛ فيقول: « ولا ينبغي أن يظن عند تلاوة القرآن الكريم أن جداله ومحاجته كانت مع أناس قد انتهوا وانقضوا، كلا بل إنه بحكم ما جاء في الحديث: « لتتبعن سنن من كان قبلكم » فليست هناك من فتنة كانت في عهد الرسالة ﷺ إلا ولها نماذج وأمثلة في عصرنا، ولذلك فالمقصود الحقيقي هو بيان كليات هذه المقاصد والمعاني، لا خصوص الحوادث والتفصيلات الجزئية »[3].

---

(١) خصائص الشريعة الإسلامية ص: ٤٧

(٢) الخصائص العامة للإسلام ص: ١٠٥.

(٣) الفوز الكبير في أصول التفسير ص: ٦٢.

وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم في كثير من الآيات؛ كقوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان، الآية:١]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ، الآية:٢٨]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف، الآية:١٥٨]، وفي الحديث عن جابر بن عبد الله - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيتُ خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيتُ الشفاعة، وكان الرجل يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»[(١)].

فمن هذه النصوص، نقطع بأن رسالة الإسلام رسالة لكل الأزمنة، والأجيال «ليست رسالة موقوتة بعصر معين، أو زمن مخصوص ينتهي أثرها بانتهائه، كما هو الشأن في رسالات الأنبياء السابقين؛ فقد كان كل نبي يبعث لمرحلة زمنية محدودة - كما صرَّح الحديث - حتى إذا ما انقطعت، بعث اللّه نبيًا آخر، أما محمد ﷺ، فهو خاتم النبيين، ورسالته رسالة خالدة وسمها اللّه بسمة البقاء إلى قيام الساعة، فليس بعد الإسلام شريعة، ولا بعد كتابها كتاب، ولا بعد رسولها رسول»[(٢)]؛ لذلك زينَّها مُنَزِّلُها بمنزلة الكمال، فقال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة، الآية:٤]، وبهذا الكمال، كانت تسعُ الحياة بكل أطرافها وأبعادها، وافية لصالح الإنسان، غير متناقضة في أحكامها كما تحدث به الكتاب؛ قال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف، الآية:١] «إنها هداية اللّه التي تصحب الإنسان أنَّى اتجهُ، أنَّى سار في أطوار حياته إنها تصحبه طفلًا ويعافعًا وشابًا وكهلًا وشيخًا، وترسم له في كل هذه

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٤٣٤/١ (كتاب التيمم باب ١).

(٢) خصائص الإسلام العامة ص: ١٠٥-١٠٦.

المراحل المتعاقبة المنهج الأمثل الذي يحبه الله ويرضاه»[١]؛ فهي - إذًا رسالته في مجالات الحياة، وفي كل ميادين النشاط البشري، فلا تدع جانبًا من جواب الحياة الإنسانية إلا كان لها فيه موقف، وقد يتمثل في الإقرار والتأييد، أو التصحيح والتعديل، أو في الإتمام والتكميل، أو في التغيير والتبديل، وقد تتدخل بالإرشاد والتوجيه، أو بالتشريع والتفنين، وقد تسلك سبيل الموعظة الحسنة، وقد تتخذ أسلوب العقوبة الرادعة، كل في موضعه.

وها هنا دلائل حقة تبرز شمولية القرآن؛ وذلك حين يخاطب «الإنسان»، هذه العبارة التي بثها كتاب الله في كثير من الآيات، قال - تَعَالَى -: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر، الآيات:١-٣]، فالتعريف في الإنسان للجنس، أُريدَ به الاستغراق حيث يشمل أفراد النوع الإنساني، فهو حكم عام في حق الإنسان الذي بلغته الدعوة[٢] وقال - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق:٦،٧]؛ وهو حكم على طبع الإنسان كله في الحاضر، والماضي، والمستقبل حيث «بينت الآية حقيقة نفسية من الأخلاق وعلم النفس»[٣]، وقال - تَعَالَى -: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل، الآية:٤]، وهي حقيقة أخرى يجليها القرآن من خلال تلك النقلة الضخمة بين النطفة المهينة والإنسان المخاصم المجادل الذي يخاصم خالقه فيكفر، ويجادل في وجوده أو في وحدانيته، وليس بين مبدئه من نطفة، وصيرورته إلى الجدل والخصومة فارق مهلة، فيقف الإنسان بين مشهدين وعهدين متواجهين: مشهد النطفة المهينة، ومشهد الإنسان الخصيم المبين[٤]؛ وقال - تَعَالَى -: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم، الآية:٣٦]، فبعد ذكره للامتنان

---

(١) خصائص الإسلام العامة ص: ١٠٩.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥٣٠.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٤٤٤.

(٤) في ظلال القرآن ٤/٢١٦٠.

على الخلق في قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ إجمالاً لما ذكر من النعم، عقَّب بتسطير هذه الحقيقة وهي أن الإنسان كثير الظلم كثير الكفر، وقال - تَعَالَى -: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾ [هود، الآية:٩] والآية من الآيات التي تطلعنا على شمولية العلم ودقة الخبرة بكوامن هذا الإنسان من قبل خالقه، فقد انبعثت منها صورة حقيقية لهذا المخلوق العجول القاصر الذي لا يعيش إلا للحظته الحاضرة وينسى مآله، فلا يفكر فيما هو آت، يؤوس من الخير، كفور بالنعمة، بمجرد أن تنزع منه، مع أنها كانت هبة من اللَّه له»[1].

ومثل ما قيل في هذه الآيات، يقال في نظائرها التي تناولت الإنسان بالحديث؛ فأحاطت به علمًا في ظاهره، وباطنه وكشفت عن علم الصانع الخبير وإحاطته بأخفى وأدق أسرار الصنعة.

أَوَلا يكون هذا الصانع، هذا العالم، هذا الخبير جديرًا بأن يضع قانونًا يعصم هذه الصنعة من الخلل - بَلْهَ الضياع والفساد - ودستورًا يحوي قواعد جامعة تكون قواسم مشتركة لهذا الإنسان في كل زمان ومكان لا يعتورها ضعف، ولا يجد القصور إليها سبيلًا؟!

إن القرآن حين تحدث قائلًا: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم، الآية:٢٩]، أراد أن يوجّه حديثه إلى الفطرة الإنسانية وهي شركة بين بني البشر، ومن ثم فخطابه - عقديًّا كان أم شرعيًّا - مقبول عند ذوي الفطرة السليمة التي لم تتبدل فطرتهم، ولم تتحور، ولم ينلها تغيير، بحيث ستتناول الشريعة حياتهم من جميع أطرافها وتضع مبادئ كلية وقواعد أساسية فيما يتطور ويتحور بتغير الزمان والمكان، فهي بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية على ما تحتاجه حياة الإنسان من ضوابط، وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ١٨٦٠.

ومن ثم فقد راعت الشريعة في خطابها للإنسان منهجًا تجلى في ورود كثير من النصوص القرآنية مورد العموم؛ حيث جاءت هذه النصوص في صورة تعبيرات كلية جامعة؛ وذلك كقوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة، الآية:١٨٥]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة، الآية:١٧٩]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة، الآيتان: ٧،٨]، وكذلك سارت أحاديث رسول اللّٰه ﷺ على هذا المنهج من ذلك قوله ﷺ عن عبادة بن الصامت - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «لا ضرر ولا ضرار»(١)، وقوله: «ومن عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»(٢)، وقوله: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»(٣).

وهكذا يتحدث الإسلام إلى البشرية بهذا المنطق، بهذه القوانين، والقواعد التي تنسجم وطبيعة الحياة الإنسانية العامة والخاصة، ويدعو - أول ما يدعو - إلى التسليم للخالق، ثم يفتح الطريق نحو هذا التسليم، وذلك بتوجيه أبناء البشر نحو سلسلة من العقائد، والأخلاق والأحكام الثابتة الضرورية التي ليست قابلة للتغيير في كل الظروف(٤).

فالمنهج المتَّبع في القرآن بالنسبة للإنسان في مسيرته الحياتية يتمثل في أحكام وقوانين ذات طابعين متميزين كل منهما على الآخر:

١- أحكام وقوانين ترتبط بالمحافظة على المصالح الحياتية للإنسان، ولها صفة ثابتة؛ لأنها تنصرف إلى تنظيم أسس حياتية في كل زمان ومكان.

---

(١) سنن ابن ماجه ٧٨٤/٢ (كتاب الأحكام، باب من بني في حقه ما يضر بجاره).

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري، (كتاب البيوع، باب النجش ومن قال: لا يجوز ذلك البيع...).

(٣) نفسه ٩/١ (كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول اللّٰه...).

(٤) انظر: الإسلام والتغيير الاجتماعي، ص: ١٨.

٢- **أحكام وقوانين ترتبط بالجانب المؤقت الخاص للإنسان**، وتختلف هذه باختلاف طريقة الحياة، وتتغير بتغير المدنية، وتطور المظاهر الاجتماعية. وفي هذا يقول ابن القيم - رحمه الله -: «الأحكام نوعان: نوع لا يتغير، على حالة واحدة هو عليها لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة ولا اجتهاد الأئمة؛ كوجوب الواجبات، وتحريم المحرمات، والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم، ونحو ذلك. والنوع الثاني: ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة زمانًا ومكانًا وحالًا؛ كمقادير التعزيرات، وأجناسها وصفاتها، فإن الشارع ينوع فيها بحسب المصلحة.. ثم قال: وهذا باب واسع اشْتَبَه فيه على كثير من الناس الأحكام الثابتة اللازمة التي لا تتغير بالتعزيرات التابعة للمصالح وجودًا أو عدمًا»(١)، فالثابت لا إشكال فيه؛ إذ يستند إلى طبيعة الإنسان وخصائصه، والمتغير بَيِّنٌ من خلال ما يطرأ من تغيرات مصالح الناس في الأزمنة والأمكنة المختلفة، والأمر منوط بالعلماء المجتهدين الذين يشخصون الاحتياجات ضمن إطار المصلحة الزمنية وفي ضوء أحكام الشريعة الثابتة دون أن يطرأ تغير على الأحكام الثابتة(٢). ومن الأدوات الفاعلة في هذا المجال: العلل، والحكم، «التي هي من مدركات العقول لا تختلف باختلاف الأمم والعوائد، وقد أجمع علماء الإسلام في سائر العصور - إلا الظاهرية وقلة من غيرهم - على أن علماء الأمة مأمورون بالاعتبار في أحكام الشريعة والاستنباط منها، وجعلوا من أدلة ذلك قوله - تَعَالَى -: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن، الآية:١٦] وقوله - تَعَالَى -: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر، الآية:٢]، وهما دليلان خطابيان، ولكننا نتمسك في هذا بالإجماع وعمل الصحابة وعلماء الأمة في سائر العصور»(٣).

---

(١) إغاثة اللّهفان ١/ ٣٤٦-٣٤٩.

(٢) انظر: الإسلام والتغيير الاجتماعي ص: ٢١.

(٣) مقاصد الشريعة ص: ٨٩.

فقسم الثابت في القرآن هو المتمثل في تلك الآيات الكليات من نحو قوله - تَعَالَى -: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة، الآية:١٨٥]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة، الآية: ٢٠٥]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد، الآية:٢٥]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة، الآية:١٧٩]، فهذه كلها أصول دلَّت على أن القرآن قد استوعب الأحكام بطريقة كلية، ومن ثم وجب القياس على هذه الأصول؛ فالنصوص محدودة غير أنها تستوعب جميع التطورات اللامحدودة متى نظر إليها المجتهد، وقاس الغائب على الشاهد، فاستقراء الشريعة في تصرفاتها، قد أكسبت فقهاء الأمة يقينًا بأنها ما سوت في جنس حكم من الأحكام جزئيات متكاثرة إلا ولتلك الجزئيات اشتراك في وصف يتعين عندهم أن يكون هو موجب إعطائها حكمًا متماثلًا، ومن ثم استقام لهم من عهد الصحابة إلى هلم جرا أن يقيسوا بعض الأشياء على بعض؛ فينوطوا بالمقيسة نفس الأحكام الثابتة بالشرع للمقيس عليها في الأوصاف التي أثبتوا أنها سبب نوط الحكم، وأنها مقصود الشارع من أحكامه»(١)، فالقرآن الكريم - إذًا - تمثلت فيه القواعد العامة، والكليات الجامعة التي لا تتعرض للتفريع اكتفاء بما تقرره من مبادئ عامة في تشريع الأحكام العملية سواء في الأحكام المدنية والدستورية والجنائية والاقتصادية، ففي البيع - مثلًا - اقتصر القرآن على تقرير أربعة من أحكامه فقط فأباحته آية: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة، الآية:٢٧٥]، واشترطت فيه التراخي آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء، الآية:٢٩]، وأوجبت الإشهاد فيه آية: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة، الآية:٢٨٢]، ونهت عنه وقت النداء للصلاة من يوم الجمعة آية: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة، الآية:٩]، هذا مع العلم أن أحكام البيع التفصيلية في الفقه الإسلامي كثيرة تختلف في مذهب عنها

(١) مقاصد الشريعة ص: ١٠٨.

في مذهب آخر.. وفي القانون الدستوري اكتفت بعض النصوص بتقرير المبادئ الأساسية الثلاثة لكل سياسة دستورية عادلة وهي: الشورى والعدل والمساواة، فالشورى تقررها آية: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران، الآية:١٥٩]، والعدل تقرره آية: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء، الآية:٥٨]، والمساواة تقررها آية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات، الآية:١٠]، أما تفاصيل أحكامها جميعًا بما يكفل المصلحة، فقد تركته لكل أمة تقضي فيه بما يلائم بيئتها وأحوالها وما يحقق مصلحتها.

على أن من بين هذه النصوص التي تمثل الكليات نجد نصوصًا أعم وأشمل مما سبق ذكره حيث تتقرّر من خلالها مبادئ عامة، وذلك كالنصوص التي قرّرت أن الأصل في الأشياء الإباحة؛ مثل قوله - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة، الآية:٢٩]؛ وكقوله - تعالى -: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة، الآية: ٦] فهي من النصوص التي جعلت أساس التشريع رفع الحرج واليسر بالناس، وقوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة، الآية:١]، فهي من النصوص التي أوجبت الوفاء بالالتزام وأداء الحقوق، وهكذا[١].

ومن أشرف على مراحل وأطوار تاريخ الشريعة الإسلامية، يجد أن المبادئ الكلية والأصول العامة من القرآن، هي أول ما نزل، وكان ذلك بمكة، وليس عفوًا أن تكون هذه القواعد هي الأولى في التنزيل؛ وإنما كان ذلك لبيان وزنها وقدرها في مجال التشريع، وبيان أنها أساسه الذي يشّيدُ عليه فيما بعد بالمدينة البناء التشريعي بكل جزئياته وتفاريعه، وفي هذا الشأن يعبّر الإمام الشاطبي - رحمه الله - بقوله: «اعلم أن القواعد الكلية هي الموضوعة أولًا، والذي نزل به القرآن على النبي ﷺ بمكة، ثم تبعها أشياء بالمدينة كَمُلَت بها تلك القواعد التي وُضِعَ أصلها بمكة، وكان أولها

(١) انظر: المصلحة في التشريع الإسلامي ونجم الدين الطوفي لمصطفى زيد ص: ٢٢.

الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، ثم تبعه ما هو من الأصول العامة؛ كالصلاة والإنفاق وغير ذلك، ونهى عن كل ما هو كفر أو تابع للكفر؛ كالافتراءات على الله وسائر ما حرّموه على أنفسهم أو أوجبوه من غير أصل مما يخدم أصل عبادة غير الله، وأمر مع ذلك بمكارم الأخلاق كلها، كالعدل والإحسان والوفاء بالعهد، وأخذ العفو والإعراض عن الجاهل، والدفع بالتي هي أحسن، والخوف من الله وحده، والصبر والشكر ونحوهما، ونهى عن مساوئ الأخلاق من الفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على الله بغير علم، والتطفيف في المكيال والميزان، والفساد في الأرض، والزنا، والقتل، والوأد وغير ذلك مما كان سائرًا في عهد الجاهلية.. ثم قال: وإنما كانت الجزئيات المشروعات بمكة قليلة، والأصول الكلية في النزول والتشريع أكثر، ثم لمَّا خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة واتسعت خطة الإسلام، كملت هناك الأصول الكلية على تدريج؛ كإصلاح ذات البين، والوفاء بالعقود، وتحريم المسكرات، وتحديد الحدود التي تحفظ الأمور الضرورية، وما يكملها ويحسنها، ورفع الحرج بالتخفيفات، والرخص وما أشبه ذلك كله تكميلًا للأصول الكلية[1].

فتأسيس الشريعة بهذه الكيفية، وتقنين الأحكام بهذا المنهج، يوحي بمقصد من أسنى المقاصد القرآنية، هو العمل على ترسيخ القواعد والأصول الدينية في المكلفين؛ ليرقى - بعد ذلك - إلى مستوى التشريع الجزئي غايته - هو الآخر - إحدى القواعد المبثوثة في ثنايا الرسالة الربانية هي رفع الحرج عن المكلف ودرء العنت عنه؛ «خشية لحوق الضرر أو الملل به أو خوف تعطيل الأعمال الشرعية»[2].

فإذا تقرر هذا، فلا يعني التقليل من شأن الجزئيات، وإنما هو تأكيد قيمة هذه القواعد الشرعية الكبرى التي أرادها الحق - سبحانه وتعالى - وأهّلها لتبقى موسومة

---

(١) الموافقات ٣/٦٢،٦٣.

(٢) الموافقات ٢/٤٤٦.

بسمة الديمومة، وخصائص أخرى؛ كالقطعية، والثبات، والأبدية، والعموم، والوسطية، والإحكام وعدم منافاتها للعقول، وغيرها مما سنأتي على بسطه بإيجاز، مع بيان أهميتها التشريعية وورودها في القرآن الكريم، **وذلك بعد تعريفها في اللغة والإصطلاح .**

١- تعريف الكلية :

أ- في اللغة :

أصل الكلية لفظة مأخوذة - اصطناعًا - من لفظ: « الكل »، كالجزئية من الجزء، وما أشبه ذلك مما يُصْنَعُ فيه صنيع المصدر الاصطناعي، إلا أنها لم تخرج عن الاسمية؛ ولكن الفائدة منه هو استقلالها بالدلالة الاصطلاحية التي لا يشاركها فيها غيرها.

ومعنى الكلية في اللغة يساعد عليه معنى كلمة: « كل »، وقد عرَّفها أهل اللغة بعدّة تعريفات، منها:

* عرفَّها ابن عساكر بأنها: « الإحاطة بالأجزاء »، وذكر أن أصل الكل من قولك: تكللَّه أي أحاط به، ومنه الإكليل سُمي لإحاطته بالرأس[١].

* وذكر صاحب اللسان: أنَّ « الكل » اسم يجمع الأجزاء، يقال: كلهم منطلق، وكُلُّهنَّ منطلقة[٢].

* وذكر الفيروزآبادي: أن الكل يكون بمعنى التناهي[٣].

---

(١) الفروق اللغوية لابن عساكر، ص: ١١٥.

(٢) لسان العرب ١١/٥٩٠، مادة « كلل ».

(٣) القاموس المحيط ٤/٤٥.

* وذكر الفيومي: أنها تكون بمعنى الكثير؛ كقوله - تَعَالَى -: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف، الآية:٢٥]؛ أي كثيرًا لأنها إنما دمرتهم ودمرت مساكنهم دون غيرهم[١].

ولو تأملنا هذه المعاني والاستعمالات وجدناها آيلة إلى أصل واحد هو الإحاطة، وهو الذي ورد عند ابن عساكر، وابن منظور. وما سوى هذا المعنى، فهو من لوازمه؛ إذ التناهي والكثرة والاستغراق إنما هي من لوازم الإحاطة، فالكلية - إذًا - هي ما يحيط بأجزائه إحاطة استغراق وتناه.

ب- في الاصطلاح:

ولا يبتعد معناها في اصطلاح العلماء كثيرًا عن معناها اللغوي، فالإحاطة ولوازمها هي جوهر مدلول الكلية في الاصطلاح، إلا أنها قاصرة فيها على ما له صلة بالأحكام الشرعية، ومن هنا سُميت بالكلية الشرعية؛ لأن مدارها على أحكام الشرع.

* عرّف القرافي الكلية: بأنها القضية المسورة بالسور الكلي، ككل، وما، ومن وغيرها من صيغ العموم المحكوم فيها على كل فرد من أفرادها إيجابًا أو سلبًا[٢].

* كما عرّفها - أيضًا - بأنها الحكم على كل فرد من أفراد الموضوع بحيث يشمل الحكم على استقلال[٣].

* وعرّفها أبو البقاء الكفوي بأنها: الحكم على كل فرد فرد، نحو كل بني تميم يأكلون الرغيف[٤].

---

(١) المصباح المنير، ص: ٥٣٨.

(٢) شرح تنقيح الفصول، ص: ٢٨ وفي ١٩٦.

(٣) شرح تنقيح الفصول، ص: ٢٨ وفي ١٩٦.

(٤) كليات أبي البقاء، ص: ٧٤٥.

فالكلية - إذًا - هي حكم ينطبق انطباقًا كليًا على موضوع ما بكافة أفراده دون أن يتخلف أي فرد منه، هذا بإطلاق، فإذا كان الحكم الشرعي واردًا من الشرع ومأخوذًا منه، فالكلية توسم - حينئذ - بأنها شرعية؛ تمييزًا لها عمَّا سواها من الكليات الأخرى، فقولنا - مثلا -: «الحرج مرفوع» هذه كلية شرعية؛ لاشتمالها على حكم كلي هو رفع الحرج، وانطباق هذا الحكم على كل الجزئيات التي تدخل في التكليف الشرعي، فالمتتبع لنصوص الشرع، يجد أن رفع الحرج مرعي في كل من الأحكام الشرعية التكليفية، فهو من مقاصد الشرع وأصل من أصوله، ومن ثَمَّ فالكليات الشرعية هي أصول الشرع وقواعده العامة التي عليها بُنيَتْ أحكامه، وهي - أي الكليات الشرعية - غير القواعد الفقهية؛ إذ الفرق بينهما كالفرق بين الشرع والفقه.

فالكليات الشرعية معلومة من نصوص الشرع المتظاهرة المتعاضدة، أو معلومة من الدين بالضرورة، ولا يختلف فيها العلماء[1].

أما القواعد الفقهية فهي مستنبطة من أدلَّة الشرع النقلية، والعقلية عن طريق الاجتهاد، وإعمال قواعد الفهم، والاستنباط؛ ولذلك وُصِفَتْ بالفقهية؛ لأنها تنبعث من فقه الفقهاء، وهو ظني ويرد عليه الاختلاف كما هو معلوم.

وقد نجد إطلاقات أخرى على الكليات من قبل علماء الفقه، والأصول، من ذلك:

* الأصول الشرعية؛ ولذلك حينما عرَّف أبو عبد اللّٰه المقري - رحمه اللّٰه - القاعدة الفقهية جعلها وسطًا بين الأصول «أي الكليات الشرعية»، وبين الضوابط الفقهية،فقال: «هي كل كلي أخص من الأصول والمعاني العقلية العامة، وأعم من العقود وسائر الضوابط الفقهية الخاصة».

---

(١) أعني أنهم لا يختلفون من حيث هي كليات ومن حيث ثبوتها ودلالتها العامة، أما من جهة فروعها وما يدخل فيها وما لا يدخل فهذا مما يرد عليه الخلاف؛ لأنه من قبيل الفروع.

* القواعد الشرعية، أو القواعد الكلية العامة، قال الإمام الشاطبي - رحمه اللَّه -: «إن المراد بالأصول: القواعد الكلية، كانت في أصول الدين، أو في أصول الفقه، أو في غير ذلك من معاني الشريعة الكلية»[١].

* العمومات الشرعية: لأنها تشتمل - كما تقدم - على حكم شرعي كلي، أو على معنى عام في الشريعة؛ فالكلية الشرعية حكم كلي عام يضبط بالقوة جملة كثيرة من الجزئيات، ومن ثَمَّ أُطلِقَ عليها العمومات الشرعية؛ لدورانها على الأحكام الشرعية العامة[٢].

* المقاصد الشرعية؛ لأن الكليات الشرعية هي أحكام ومعانٍ كلية عامة مقصودة للشرع؛ فرفع الحرج - كما تقدّم - هو - بالإضافة إلى كونه حكمًا عامًّا كليًّا - مقصود من قبل الشرع، وقد يطلق الشاطبي - رحمه اللَّه - الكليات - أحيانًا - على المقاصد الشرعية الثلاثة: الضروريات، والحاجيات، والتحسينيات[٣]. كما أنه قد يطلقها أحيانًا أخرى على المصالح[٤]؛ لأنها مقصود الشرع.

ولا يعدم القارئ إطلاقات أخرى على الكليات الشرعية عند العلماء؛ فليس المقصود في هذا المقام جرد الإطلاقات، وإنما الذي يهمنا هو بيان محتوى الكلية الشرعية ومضمونها وطبيعتها بصرف النظر عن ألقابها وأسمائها؛ إذ لا مشاحة في الاصطلاح.

فمهما كان هناك ما يدل على حكم شرعي كلي عام ينطبق على أفراده، وجزئياته على سبيل الاطِّراد والاستغراق والتناهي، فثمة الكلية الشرعية، ولا جناح على العلماء - بعد ذلك - أن يسموها كليات، أو أصولًا، أو قواعد أو غير ذلك من الأسماء والألقاب.

---

(١) الموافقات ٣/٥٩.
(٢) انظر: الموافقات ٣/١٥٢ بتصرف.
(٣) انظر: الموافقات ٣/٧٠.
(٤) نفسه ١/٩٩.

٢- خصائص الكلية الشرعية:

لمزيد من بيان حقيقة الكلية الشرعية، والنظر إليها من عمق داخلها وصميم ماهيتها، فإنه يحسن أن نورد جملة من خصائصها التي تميزها، والتي منها:

أ- الشمولية والعموم: ومعنى ذلك أن مضمون الكلية عام يسري على كل أفرادها، وجزئياتها وعمومها، قال الإمام الشاطبي - رحمه اللّٰه -: «إنه قد ثبت في الأصول العلمية أن كل قاعدة كلية أو دليل شرعي كلي إذا تكررت في مواضع كثيرة، وأتي بها شواهد على معانٍ أصولية، أو فروعية ولم يُقْتَرن بها تخصيص، ولا تقييد مع تكررها وإعادة تقررها، فذلك دليل على بقائها على مقتضى لفظها من العموم»(١).

وواضح في كلامه أن خاصية العموم، والشمولية في الكلية الشرعية، لا تتحقق إلا بعدم ورود تخصيص، ولا تقييد عليها، وبتكررها وإعادة تقررها في نصوص الشرع، وكل ذلك حاصل فيها وثابت لها بالاستقراء، فقوله - تَعَالَى - مثلًا: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج، الآية:٧٨]، كلية شرعية عامة شاملة؛ لأنّا وجدنا بالاستقراء أنها باقية على عمومها، وشمولها وإطلاقها، فليس هناك ما يخصصها من النصوص ولا ما يقيدها، ثم إن معناها ومضمونها متكرر في القرآن والسنة بشكل لا مزيد عليه.

ومثله يُقَال في قوله - تَعَالَى -: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر، الآية:١٨]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم، الاية:٣٩] فهما كالتي قبلهما.

---

(١) الاعتصام ١٤١/١.

فالعموم والشمول - إذًا - صفة لازمة للكلية الشرعية، وهذا ما يفسّر تسمية العلماء لها - أي الكلية الشرعية - واصطلاحهم عليها بالعمومات الشرعية كما تقدّم.

وقد أكّد الإمام الشاطبي - رحمه اللَّه - هذه الخاصيه في مواطن كثيرة من كتابه: «الموافقات» من ذلك قوله - يقرّر ذلك -: «فلذلك جرت الأحكام الشرعية في أفعال المكلفين على الإطلاق، وإن كانت آحادها الخاصة لا تتناهى، فلا عمل يفرض، ولا حركة ولا سكون إلا والشريعة عليه حاكمة إفرادًا وتركيبًا، وهو معنى كونها عامة وإن فرض في نصوصها أو معقولها خصوصٌ ما، فهو راجع إلى عموم»[(١)].

ويلزم من اتصاف الكلية الشرعية بخاصية العموم، والشمول، والإطلاق اتصافها بخصائص أخرى هي لازمة لهذه الخاصية غير منفكة عنها:

١- الاطراد: ونعني به أن انطباق الكلية الشرعية على جزئياتها هو مطرد لا يتخلف، على خلاف القواعد الفقهية، فانطباقها على جزئياتها إنما هو أغلبي.

وإنما كانت الكليات الشرعية مطردة لعمومها المقطوع به، فعمومها موجب لاطرادها وملازم لهِ، وكما عُلِمَ العموم في الكلية من طريق الاستقراء والتتبع، فكذلك الاطراد معلوم من الاستقراء، قال الإمام الشاطبي - رحمه اللَّه - يؤكد ذلك، ويقرره: «إذ العلم بها مستفاد من الاستقراء العام الناظم لأشتات أفرادها؛ حتى تصير في العقل مجموعة في كليات مطردة عامة ثابتة غير زائلة، ولا مستبدلة، وحاكمة غير محكوم عليها»[(٢)].

٢- الديمومة والاستمرار، وقد عبّر عن ذلك الشاطبي - رحمه اللَّه - في كلامه السابق بقوله: «ثابتة غير زائلة ولا مستبدلة»، ومعنى ذلك أن الكلية الشرعية

---

(١) الموافقات ٥٤/١.   (٢) نفسه.

دائمة، وأن العمل بها لا ينقضي ولا ينتهي ما دام هناك مكلَّفون، فهي صالحة لكل زمان، قال الإمام الشاطبي - رحمه اللَّه - في سياق ذلك: «فلا بد أن يكون وضعها على ذلك الوجه أبديًّا وكليًّا عامًّا في جميع أنواع التكليف والمكلفين وجميع الأحوال»(١).

ودوام الكلية الشرعية، وأبديتها متفرع عن عمومها؛ لأن هذا العموم يدخل فيه: عموم المكلفين وعموم أحوالهم وعموم أزمانهم.

٣- التجريد: ونعني بذلك أن من خصائص الكلية الشرعية أنها مجردة عن الزمان والمكان والإنسان، فهي صالحة لكل زمان ولكل مكان، ولكل إنسان، وهذا بمقتضى عمومها؛ لأنها لما كانت عامة، لزم من عمومها أن لا تكون خاصة بزمانٍ دون زمان ولا بمكانٍ دون مكان ولا بإنسانٍ دون إنسان، فمضمونها موضوعي لا عيني، ومن ثَمَّ فإنه يدخل في دائرة تجريدها أنها غير قاصرة على جزئية أو مجموعة محدودة من الجزئيات.

ب - القطعية: هذه هي الخاصية الثانية للكلية الشرعية وهي أنها قطعية في دلالتها وثبوتها؛ وذلك لأنها عبارة عن حكم شرعي كلي تظاهرت عليه نصوص الشرع، وتضافرت، واستفيدت منها بالاستقراء التام، فكانت بذلك قطعية الوجود، قطعية الدلالة؛ لأن الاستقراء التام قطعي، وما ينتجه القطعي فهو قطعي، وقد أكَّد هذا الإمام الشاطبي، حين قال: «إن القواعد الكلية القطعية مأخوذة من تضافر وتواتر الأدلة بحيث تفيد القطع، بخلاف الأحكام الجزئية، فإنها تستند إلى آحاد الأدلة فتبقى على أصلها في الظن»(٢).

---

(١) نفسه ٢٩/٢.

(٢) الموافقات: ٢٩/١.

ج - الإحكام ويدخل في ذلك أمران:

أولهما: انتفاء التشابه عنها: وذلك أن الكلية الشرعية محكمة لا يلحقها التشابه؛ لأن المتشابه إنما يلحق الفرع لا الأصل، قال الإمام الشاطبي - رحمه الله - يقرِّر هذا: «التشابه لا يقع في القواعد الكلية، وإنما يقع في الفروع الجزئية، **والدليل على ذلك من وجهين:**

أحدهما: الاستقراء أن الأمر كذلك.

والثاني: أن الأصول لو دخلها التشابه لكان أكثر الشريعة من المتشابه وهذا باطل، وبيان ذلك: أن الفرع مبني على أصله يصح بصحته، ويفسد بفساده، ويتضح باتضاحه، ويخفى بخفائه، وبالجملة، فكل وصف في الأصل ثبت في الفروع؛ إذ كل فرع فيه ما في الأصول، وذلك يقتضي أن الفروع المبنية على الأصول المتشابهة متشابهة، ومعلوم أن الأصول منوط بعضها ببعض في التفريع عليها، فلو وقع في أصل من الأصول اشتباه، لزم سريانه في جميعها، فلا يكون المحكم أُمَّ الكتاب، لكنه كذلك، فدلَّ على أن المتشابه لا يكون في شيء من أمهات الكتاب»[1].

الأمر الثاني: انتفاء النسخ، فكما أن الكلية الشرعية محكمة من جهة أنها لا يقع فيها التشابه، فهي محكمة أيضا من جهة أنه لا يرد عليها النسخ، وهذا معلوم بالاستقراء التام، قال الإمام الشاطبي - رحمه الله - في شأن ذلك: «لما تقرر أن المنزل بمكة من أحكام الشريعة هو ما كان من الأحكام الكلية، والقواعد الأصولية في الدين على غالب الأمر، اقتضى ذلك أن النسخ فيها قليل - يعني في أحكام الشريعة عامة المنزلة بمكة -؛ لأن النسخ لا يكون في الكليات وقوعًا وإن أمكن عقلًا، يدل على ذلك الاستقراء التام»[2].

---

(١) الموافقات ١/ ٥٨، ٥٩.

(٢) الموافقات ٣/ ٦٣.

٣- أهمية الكليات الشرعية وقيمتها التشريعية:

لا شك أنه قد تبين - مما سبق - أن للكليات الشرعية قيمة عظيمة، وأهمية بالغة في مجال التشريع، وضبط مضامين الشرع، واستيعاب وقائع الحياة بها؛ إذ لا سبيل إلى هذا الضبط، والاستيعاب إلَّا عن طريقها، أما الجزئيات فلا تتناهى، والضبط والاستيعاب حصر لا يكون بما لا يتناهى؛ ولذلك نبّه القرافيُّ - رحمه اللَّه - على هذا فقال: « ومن جعل يخرج الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية، تناقضت عليه الفروع واختلفت ، وتزلزلت خواطره فيها واضطربت ، وضاقت نفسه لذلك وقنطت ، واحتاج إلى حفظ الجزئيات التي لا تتناهى، وانتهى العمر ولم تقض نفسه من طلب مناها، ومَنْ ضبط الفقه بقواعده، استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات، لاندراجها في الكليات »[١].

وإنما كانت الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، ومستوعبة لكل تطورات الإنسان ومستجدات حياته، بما هي مشتملة عليه من الكليات والأصول والأحكام العامة، وهذا هو السرُّ في كون نصوص الشرع - وهي محدودة متناهية -، حاكمة على المكلفين وضابطة لكل حوادثهم ووقائعهم، وهي غير متناهية، فاستمرار حاكمية الشرع، وضبطه لأفعال المكلفين، إنما هو حاصل لمضامين الشريعة من جهة أن كلياتها من خصائصها الديمومة والاستمرار كما تقدم.

---

(١) الفروق: ١/٢،٣.

٤- الكليات الشرعية في القرآن الكريم:

إننا بالنظر في نصوص القرآن الكريم، ومقارنة مكيه بمدنيه، نستطيع أن نقرّر أن أكثر مضامين الإسلام، وجلّ محتويات الشريعة، قد بسطت وتقرّرت في القرآن المكي؛ إذ فيه كل ما يتعلق بأصول الإسلام وفكرته العامة، وكليات الشريعة وقواعدها الكبرى، أما القرآن المدني فإنما جاء بالتفصيل والتنزيل؛ ولذلك قرّر الشاطبي - رحمه الله - أن القرآن المدني مبني على المكي[١]، والأمثلة على ذلك كثيرة نقتصر منها على مثال واحد، هو: الإنفاق، فقد قرّر القرآن المكي مبدأ الإنفاق وأنه ضروري في حياة المكلفين أفرادًا وجماعاتٍ، وأن خياتهم بدونه تختلُّ، ثمّ حدد بعض الجهات التي لها الأولوية في الإنفاق، كذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، فلما جاء العهد المدني نزل القرآن - حينئذٍ - في التفصيل والتنزيل، فبيَّن ما يجب وما يُنْدَبُ من الإنفاق، والمستحقين للنفقة الواجبة والمندوبة، ثم بين جملة من آداب الإنفاق وغير ذلك مما هو مكمِّل وتابع لما ورد في القرآن المكي.

وقد حرّر الإمام الشاطبي - رحمه الله - هذه المسألة، بما لا مزيد عليه، من ذلك قوله: «وإنما كانت الجزئيات المشروعات بمكة قليلة، والأصول الكلية كانت في النزول والتشريع أكثر، ثم لما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، واتسعت خطة الإسلام، كملت هنالك الأصول الكلية على تدريج، كإصلاح ذات البين، والوفاء بالعقود، وتحريم المسكرات، وتحديد الحدود التي تحفظ الأمور الضرورية وما يكملها ويحسنها، ورفع الحرج بالتخفيفات والرخص، وما أشبه ذلك كله تكميل للأصول الكلية»[٢].

---

(١) انظر الموافقات ٦٢/٣.

(٢) انظر الموافقات ٦٢/٣.

ومن هنا كان القرآن الكريم - مكيه ومدنيه - قد اكتمل فيه التشريع، وتناهى فيه ما يصلح الناس في معاشهم، ومعادهم؛ مصداقًا لقوله - تَعَالَى -: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة، الآية:٣]، وأنه متضمن - بأحكامه - كل ما ليستوعب تطورات المكلفين ومستجداتهم في دينهم ودنياهم؛ مصداقًا لقوله - تَعَالَى -: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام، الآية:٣٨]، على أساس أن المراد بالكتاب هنا هو القرآن الكريم كما سنبينه لاحقًا - إن شاء اللَّه -، وإنما كان القرآن جامعًا غير مفرِّط في شيء عن طريق ما اشتمل عليه من الأصول، والكليات التي وصفناها بالخصائص السابقة، وليس نفي التفريط عنه أنه أحصى كل الجزئيات، فهذا فهم لا يستقيم، وهو ما نبه عليه عبد اللَّه كنون - رحمه اللَّه - وخطَّأ القائلين، وبيّن أنه منفذ للباطنية وغيرهم من فرق المبتدعة، فقال: «إن من المعلوم أن كثيرًا من أمور الدين غير مبينة في القرآن، فضلًا عن أمور الدنيا، فمثلًا الصلاة - وهي أهم أمور الدين بعد التوحيد - لم يبين فيه عددها ولا كيفيته، ولا شيء من تفصيلاتها التي بينتها السنة، ولكن بما أن القرآن أثبت وجوب اتباع الرسول صار دالًّا على ثبوت كل ما ورد في السنة، فكان بذلك غير مُفْرِّط في شيء، يرجع إليه صلاح الناس في معاشهم ومعادهم، وإلى هذا الحد ينبغي أن ينتهي بعموم الآية إذا أُرِيدَ بالكتاب القرآن، فإخواننا الذين يستشهدون بها على الجزئيات والدقائق من نظريات، وأحكام، ومخترعات، ونواميس طبيعية، وحوادث تاريخية وما إلى ذلك - زاعمين أن القرآن أشار إليها بالتصريح، أو التلميح - وأنه لا يخلو من الدلالة على كل ما جدَّ أو يجدُّ في الكون من هذه الأمور محملين لكثير من ألفاظه ما ليس يحمله إلا على كثير من التحمل والتكلف، إنما يذهبون في غير مذهب، ويتقولون على اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - وكتابه العزيز ما لم يقله، وهذا قول الباطنية الذين زعموا أن للقرآن ظاهرًا وباطنًا، وأن الظاهر هو خطُّ القوم من هدايته، والباطن قد يحتوي على الغيوب، والأسرار، والمعارف الربَّانية خاص بأهل نحلتهم لا يطَّلع عليه غيرهم، فمن يريد اليوم

أن يحمِّل القرآن الكريم هذه الدلالات البعيدة، ويطبقه على كل حادثة وكل جزئية كما يتعلق بأصل تنزيله، إنما يذهب مذهب هؤلاء الباطنية المبتدعين(١)، فالقرآن - إذًا - جامع لكل ما تستقيم به حياة المكلفين من الأحكام، والتشريعات، شامل لكل ما يفتقرون إليه مما به تجلب المصالح لهم وتندرئ المفاسد عنهم، مستوعب لكل تطوراتهم ومستجدات أمورهم في العاجلة والآجلة، وذلك لأنه نَصَّ على ما يضبط الخلق كله في زمانه كله ومكانه كله بواسطة الكليات؛ إذ الكلية - كما تقرّر - غير محدودة بزمان ولا مكان ولا إنسان، بل حكمها ومحتواها موضوعي صالح للانطباق على كل ما جدَّ ويجدُّ من الجزئيات التي هي نظائر لجزئياته التي وُجِدَت زمان النزول، فقوله - تَعَالَى -: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف، الآية:١٥٧]، كلية شرعية قرآنية استوعبت كل ما كان في عهد النبوة من: المطعومات، والمشروبات، والمشمومات، والمنكوحات وغير ذلك مما ينتفع به من الطيبات أو يضر من الخبائث، ثم هي صالحة - على الدوام والاستمرار - لتستوعب كل ما يجدُّ في حياة الناس مما هو نظائر لذلك ومتحد معه في مناط الحكم.

ومن كليات القرآن هذه، إحالته على سنة الرسول ﷺ في مثل قوله - تَعَالَى -: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر، الآية:٧]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل، الآية:٤٤]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء، الآية:٨٠] إلى غير ذلك من الآيات التي تظاهرت، وتضافرت في ثبوت هذه الكلية الشرعية وتقريرها في القرآن، فالسنة النبوية وبيان الرسول ﷺ هي باب واسع من أبواب القرآن وأبدية أحكامه وخلودها.

وهذه الكليات الشرعية كثيرة في القرآن مختلفة في الموضوعات متفاوتة في المشمولات، فمنها الكليات التي تنظِّم كافة فروع الشريعة أو جلها، ومنها التي تنظم

---

(١) مفاهيم إسلامية، ص: ٥٠.

الشريعة في قسم من أقسامها؛ كالعبادات أو العادات أو المعاملات، ومنها ما ينظم دوائر أقل حجمًا من ذلك، وكلها تتكامل فيما بينها؛ لتضبط حياة المكلفين بأسرها في كل زمان ومكان.

وقد أمعنتُ النظر والتقليب في آي القرآن الكريم، فوجدتُه حافلًا بهذه الكليات، حتى لكأن كل آية تنطق بأنها كلية إذا نظرتَ إليها بوجهٍ من الوجوه، وبلوتها بنوع من الاعتبارات.. وفيما يأتي نماذج من هذه الكليات:

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ﴾ [النحل، الآية:٩٠].
* ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر، الآية:٧].
* ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف، الآية:١٥٧].
* ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء، الآية:٨٠].
* ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [الأنعام، الآية:٥٧].
* ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل، الآية:٤٣].
* ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال، الآية:٧٠].
* ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام، الآية:١٦٢].
* ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم، الآية:٣٩].
* ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة، الآية:١٨٥].
* ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة، الآية:١٧٩].

* ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة، الآية:٢٧٥].
* ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء، الآية:٢٩].
* ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران، الآية:١٥٩].
* ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة، الآية:١].
* ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف، الآية:١٩٩].
* ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ [الإسراء، الآية:٣٤].
* ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون، الآية:٩٦].
* ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة، الآية:٢٥٦].
* ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران، الآية:١٦٠].
* ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد، الآية:٣٨].
* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء، الآية:٤٨].
* ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة، الآية:٢].
* ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء، الآية:٣٤].
* ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ⑦﴾ [العلق، الآية:٦،٧].
* ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس، الآية:٣٦].
* ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف، الآية:٥٣].
* ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل، الآية:١٢٥].

* ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام، الآية:١٦٤].
* ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء، الآية:٣٠].
* ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر، الآية:٤٣].
* ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ [فصلت، الآية:٣٤].

والبحث في هذه الكليات القرآنية وغيرها مما هو مودع في القرآن، ولم أذكره هنا، لا تسعه أطروحة واحدة، أو مجموعة محدودة من الأطروحات، بل هو مشروع علمي واسع وكبير يجب أن تضطلع به كتيبة من الباحثين المخلصين المُجدّين؛ لاستخراج هذه الكنوز ودراستها ونفع الأمة بها.

غير أني نظرتُ في هذه الكليات، فوجدتُها على كثرتها، وتشعبها، وتفرع بعضها عن بعض، وتكميل بعضها لبعض تئول - بمجموعها - إلى ثلاثة أنواع كبرى، كل الكليات القرآنية داخل دائراتها وصادر عنها، راجع إليها:

١- كليات تنظم دائرة الاعتقاد والتصور، والفهم النظري للإسلام الذي به تستقر فكرة الإسلام بكاملها، وترسو فيه أصوله العامة ومصالحه الكبرى، مما يفضي تحصيله إلى تشكيل العقل المسلم الذي يحمل المفاهيم الإسلامية، والمعتقدات الصحيحة السليمة التي هي أساس للحياة العملية في الإسلام.

٢- كليات تحدد مقاصد الشارع من خلق الخلق ووضع الشريعة لهم.

٣- كليات تحدد المطلوب من المكلفين وترتيب الجزاء على الامتثال أو عدمه.

فالكليات الشرعية القرآنية كلها لا تخرج عن هذه الأنواع الثلاثة، وكل واحدة منها مستودع فيها باقي الأصول، فهي أوعية لها شاملة موعبة.

وإذا نظرنا إلى هذه الكليات من حيث انبثاثها في الأنواع الثلاثة وتوزعها عليها؛ وجدنا أنها من جهة ذاتها، تئول إلى أصولٍ ثمانية، كل ما سواها من الكليات، فهو تابع لها ومتفرع عنها نوعًا من التفرع، ومندرج فيها نوعًا من الاندراج، وهي:

١- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى، الآية:١١]، فهذه كلية قرآنية جامعة لأصول الاعتقاد، متضمنة لما عداها من الكليات القرآنية التي تنظم دائرة العقيدة، إذ مدار العقيدة على معرفة اللّٰه المعبود: ذاتًا، وصفاتًا، وأفعالًا.. وما يتبع ذلك من الإيمان به وبملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، وسائر ما يدخل في عالم الغيب.. وكل ذلك داخل في محتوى هذه الكلية، فهذه الكلية هي أمُّ الكليات، ومفتاح لما سواها؛ لأن أول ما يجب على المكلف معرفة اللّٰه - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأن عبادته والتدين له يعظمان بعظم معرفته، يؤكد ذلك قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد، الآية:١٩]، فالعلم باللّٰه - سبحانه - مقدّم على ما سواه، بل إنَّ العلم بما سواه مأتاه العلم باللّٰه وإلا كان به خلل.

٢- ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام، الآية:٣٨] وترتيب هذه الكلية السابقة، مناسب جدًّا؛ لأن الكلية الأولى قررت القضية الكبرى، وحقيقة الحقائق التي لا انطلاق إلا منها، ولا صدور إلا عنها، وهي: ضرورة معرفة اللّٰه، والإيمان به، فهو المتفرد باستحقاق العبادة، وأن التدين لا يصح إلا بمعرفته - عَزَّ وَجَلَّ -، فلما تقرر فيها ذلك، لزم أن يليها ما يبينه، ويوضحه بيانًا شافيًا، وتوضيحًا وافيًا، ولا يكون البيان والتوضيح كذلك، إلا إذا كان متلقى عن اللّٰه، فكان بذلك كتاب اللّٰه هو المصدر الحق الذي يعرِّف باللّٰه، ويبين ما يجب له - سبحانه - من الحقوق.

ومن ثَمَّ كان الأصل الثاني بعد معرفته - سبحانه -، معرفة ما جاء عنه من العلم الذي به يعرف اللَّه، ويعرف ما يجب له، وهو مودع في كتابه الجامع الذي ما فرط في شيء مما تُحصِّلُ به المعرفة ولوازمها.

فهاتان الكليتان تتكاملان في باب الاعتقاد، وتنتظمان في دائرة الأصول النظرية للإسلام، وتستوعبان جميع الكليات الشرعية القرآنية التي تحيط بأمور العقيدة، وتنظم مسائلها ومضامينها التي هي أسس الدين وأركانه وأعمدته؛ لذلك آخينا بينهما في باب واحد، وأدرجنا فيهما ما سواهما من الكليات العقدية.

وإنما أدرجنا الثانية مع الأولى في باب الاعتقاد؛ لأن الحديث عنها ها هنا مراد به الجانب التصوري، ومقصود به جهة الاعتقاد أي اعتقاد أن القرآن جامع شامل ما فرط في شيء مما تستقيم به أمور المكلفين في دينهم ودنياهم، وفي معاشهم ومعادهم.

فالنظر إلى الكتاب ها هنا هو نظر عام من جهة أنه المعرِّف باللَّه - عَزَّ وَجَلَّ -، وأنه دليل شرعه ومنبع أحكامه، وهذا كله من صميم الاعتقاد، أما النظر إليه من جهة تحصيل مضامينه وأحكامه الشرعية وأوامره ونواهيه وزواجره وما إلى ذلك من مسائل الشريعة وتفاصيلها فهو موزع في الأصول الآتية.

٣- ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

٤- ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

٥- ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

هذه الكليات الثلاث تنتظم كلها في الباب الثاني الذي يضم الكليات القرآنية الناظمة لمقاصد الشرع، وهي بثلاثتها أصول لما سواها من الكليات التي تدخل في هذا النوع ووضعها بعد النوع الأول هو - أيضًا - مناسب جدًّا؛ لأنه إذا كان المنطلق

الهادي في التدين هو معرفة الله ومعرفة ما يجب له، والتسليم والإقرار بأنه لا يصلح الابتداء إلا بهذا والاعتقاد بأن المصدر الحق والمنبع الصافي لتحصيل ذلك هو كتاب الله الجامع، فإن العقل السليم يقتضي أن يلي ذلك ويتبعه معرفة مقاصد الشرع بالنظر في مضامين الكتاب؛ لتنزيل أحكام الشريعة على حياة المكلفين وتصرفاتهم تنزيلًا سليمًا، وإقامة الدين إقامة صحيحة؛ لأن تحصيل الشريعة واستيعاب أحكامها على الوجه الصحيح الدائم المستمر مأتاه تحصيل مقاصد الشارع من وضع الشريعة، فالشريعة بناء أركانه وأصوله وأسسه هي مقاصدها، وأصول هذه المقاصد ثلاثة:

١- عبادة الله.

٢- جلب المصلحة ودرء المفسدة.

٣- رفع الحرج عن المكلفين .

وما سوى هذه الثلاثة كله مندرج فيها بوجه من الوجوه كما سيتضح من خلال الدراسة والتحليل لها.

فتحقيق العبادة، وما يلزمها من تحرير العبودية لله قولًا وعملًا ونية، هذا هو القصد الأكبر من وضع الشريعة، بل هو القصد الأول من خلق الخلق أجمعين، والناظر في طبيعة هذه العبادة، ومادتها التشريعية المبثوثة في القرآن، يجد أنها ترمي في كافة أمرها إلى جلب المصالح للعباد ودرء المفاسد عنهم، ورفع الحرج فيها عنهم، ومن ثم آثرنا الجمع بينهما في باب واحد موزع إلى ثلاثة فصول.

ثم أتبعناه بكليات ثلاث تعتبر أصولًا لما سواها من الكليات التي تدخل في إطار العمل والجزاء وهو نوع ثالث من أنواع الكليات القرآنية، وهي:

٦- ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

٧- ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة، الآية:٧،٨].

٨- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد، الآية:١١].

فإذا كان النوع الأول يحدد الأسس الاعتقادية، والتصورات النظرية العامة التي يقوم عليها الدين، والنوع الثاني يحدد طبيعة الشريعة ومقاصدها العامة، فإن هذا النوع الثالث ينتقل إلى الخطوة النهائية والمرحلة الأخيرة، وهي وجوب العمل بهذه الشريعة وترتيب الجزاء على ذلك امتثالًا وعصيانًا.

فالكلية الأولى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء، الآية:٥٩]، تحدد ما يجب لله على عباده من حقوق الطاعة والخضوع لأمره وذلك باتباع شرعه.

والكليتان الثانية والثالثة تحددان ما يترتب على أفعال المكلفين من الجزاء العادل إلا أن إحداهما: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾؛ تحدد قانون الجزاء فيما يترتب على اتباع الشرع وطاعة الشارع في أحكامه وأوامره ونواهيه، أو مخالفته وعصيانه في ذلك، وثانيتهما: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ تحدد قانون الجزاء العام الذي يسري على الكون كله، وينظم ما يتعلق بأفعال الخلق في دائرة الأسباب والمسببات، وغير ذلك من سنن الله الكونية التي يخضع لقانونها الخلق كله.

وهذه الأصول الثمانية مودعة كلها في أم الكتاب، قال ابن عاشور - رحمه الله -، وهو يعلل تسميتها بأم الكتاب: لأنها تشتمل محتوياتها على أنواع مقاصد القرآن، وهي ثلاثة أنواع: الثناء على الله ثناء جامعًا لوصفه بجميع المحامد وتنزيهه عن جميع النقائص وإثبات تفرده بالإلهية، وإثبات البعث والجزاء، وذلك من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والوعد والوعيد من قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخرها.

فهذه هي أنواع مقاصد القرآن كله، وغيرها تكملة لها؛ لأن القصد من القرآن إبلاغه مقاصده الأصلية، وهي صلاح الدارين، وذلك يحصل بالأوامر والنواهي، ولما توقفت الأوامر والنواهي على معرفة الآمر، وهو اللَّه الواجب وجوده، خالق الخلق، لزم تحقيق معنى الصفات، ولما توقف تمام الامتثال على الرجاء في الثواب والخوف من العقاب لزم تحقيق الوعد والوعيد، والفاتحة مشتملة على هذه الأنواع[١]، فلوحظ - مما سبق - أن الفاتحة «أوجزت معاني القرآن كله؛ إذ إن معانيه كلها تدور حول العقائد والعبادات ومناهج الحياة والجزاء، والسورة بدأت بالعقيدة وثنت بالجزاء وثلثت بالعبادة»[٢] وهي أمهات المطالب العالية كما قرّره ابن القيم[٣]، «فهي مشتملة على مجمل ما في القرآن الكريم، وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها»[٤]، وهكذا نستطيع أن نقرّر أنّ مضامين القرآن التي بينت شرع اللَّه، وعرضت أحكامه وقواعده مجموعة كلها في كلياته وأن كلياته مجموعة في هذه الأصول الثمانية.

فتحصيل هذه الكليات هو تحصيل للشرع وأحكامه، وتحصيل لما به يتنزل الشرع على حياة المكلفين في كل الأعصار والأمصار.

وفي هذه الأطروحة عرض لكليات القرآن من خلال أصولها الثمانية، وقد جاء ذلك انطلاقًا من التوضيحات السابقة في مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة.

- أما المقدمة فقد حاولنا أن نثير فيها ما يُبْرِزُ القيمة العلمية للموضوع، وأن العمل فيه الآن إنما هو رسم للمعالم العامة لمشروع علمي ضخم هو استخلاص الكليات الشرعية القرآنية ودراستها، وبيان أنها قد عرضت مضمون الدين كله، ومحتوى الشريعة كلها، وهذا هو الجواب العلمي الشافي للتساؤل الذي طالما أثاره العلماء، وهو

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٣٣.

(٢) انظر: الرسول، ص: ٢٦٤ بتصرف.

(٣) انظر: مدارج السالكين ١/٧.

(٤) تفسير المنار ١/٣٥.

أن نصوص الشرع محدودة وقضايا الناس غير متناهية، بل هي كثيرة ومتزايدة، فكيف للمحدود أن يضبط ويستوعب اللامحدود؟!

وقد ألممنا في هذه المقدمة بما هو ضروري من إبراز معنى الكلية وخصائصها، وقيمتها العلمية وأهميتها التشريعية، متحاشين فيها الخوض في كثير من المسائل والقضايا المرتبطة بذلك مما هو مطروق ومبحوث ومكرور في الأبحاث والدراسات التي قَدَّمَتْ في موضوع القواعد والأصول والكليات.

وأما الباب الأول: فقد أفردناه للكليات الشرعية في العقيدة، وأدرجنا فيه كليتين جامعتين لما سواهما، جعلت كل واحدة منهما في فصل مستقل وهما:

الفصل الأول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

الفصل الثاني: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾.

وأما الباب الثاني: فقد خصصناه للكليات الشرعية في مقاصد الشرع وأدرجنا فيه ثلاث كليات هي أصول لما سواها، وهي:

الفصل الأول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

الفصل الثاني: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

الفصل الثالث: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

وأما الباب الثالث فقد خصصناه للكليات الشرعية في الطاعة والجزاء وأودعنا فيه ثلاث كليات هي أصول لما سواها، وهي:

الفصل الأول: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

الفصل الثاني: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

الفصل الثالث: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾.

وأما الخاتمة فقد جعلناها سجلًا لما وصلنا إليه من نتائج البحث، وخلاصاته.

هذا وقد كنتُ حريصًا في أبواب البحث وفصوله على إبراز ما بين الكليات القرآنية من الترابط والتكامل، وتفرع بعضها عن بعض، وأخذ بعضها بحجز بعض، كما كنتُ حريصًا على أن أُودع في كل أصل من الأصول الثمانية أكثر ما يمكن من الكليات الأخرى المندرجة فيها بوجه من الوجوه، وقد سلكت في عملي هذا خطة تشتمل على العناصر الآتية:

١- إيراد الكلية الشرعية القرآنية بنصها القرآني.

٢- إيراد بعض مظانها وشواهدها ومحالِّ ورودها في القرآن.

٣- بيان معناها .٤- بيان قيمتها.

٥- إيراد بعض ما يتفرع عنها من القواعد القرآنية التي غالبا ما كانت نصية.

٦- إيراد تطبيقات وتفريعات عليها.

ولا أدعي أنني بهذا العمل قد فوزتُ وبرزتُ، ولا أنني قد أحطتُ واستوعبتُ وحسبي أنني اهتديتُ إلى عرض معالم فكرته التي عليها قام وانبنى، والتي سبق القول: إنها مشروع علمي واسع لا تنهض به وتجلي بناءه إلا كتيبة من الباحثين المُجدّين المخلصين، أرجو اللَّه أن يقيض لي الإسهام في إتمامه، إنه على ذلك قدير، وهو المستعان، وبه التوفيق.

والحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات .

* * *

الباب الأول :

كليات في الاعتقاد

الفصل الأول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

الفصل الثاني: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾

بين يدي الباب :

إن المتأمل في القسم المكي من الكتاب يلحظ أنه يغلب عليه البناء العقدي، وتأسيسه للتصورات والمفاهيم الإسلامية الكلية العامة التي تعرض الإسلام في أصوله وقواعده الجامعة، وهو أمر طبيعي؛ لأن بناء الأفراد والجماعات وإعدادهم لحياة إسلامية رائدة وراشدة تابع لبناء العقول والتصورات ومتفرع عنه ومتأثر به.

فالخطوة الأولى لإقامة الدين، هي ترسيخ أصوله ومفاهيمه الكبرى في الأذهان، وأول ما يدخل في ذلك معرفة اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - الذي لا معبود بحق سواه، والذي منه المبدأ وإليه المنتهى.

ولا سبيل إلى هذه المعرفة إلا عن طريق الوحي الذي جاءنا بواسطة رسوله ﷺ، فهما إذا أمران كبيران وكليتان عظيمتان في باب العقيدة ومجالها.

١- معرفة اللَّه ذاتًا وصفاتًا وأفعالًا، وما يتبع ذلك من معرفة لوازم الألوهية والربوبية وما يجب على العبد بمقتضى هذه المعرفة.

٢- العلم والإيمان بما به تحصل المعرفة؛ أي العلم بمصدرها الحق، وهو القرآن الكريم الذي عرض ذلك وبسطه بما لا مزيد عليه.

فقضايا العقيدة كلها متضمنة فيهما، وآيلة إليهما، فهما جامعتان لهما دون أن يشذ عنهما شيء منها؛ لأن القضية الكبرى في العقيدة هي معرفة المعبود، فهذه هي محور العقيدة ولبُّها وسرها وجوهرها، والطريق الموصل إليها هو القرآن، وما سوى ذلك من مسائل الاعتقاد فهو تابع لهما، ومتفرع عنهما؛ لذا فإن حديثًا عن كليات العقيدة في القرآن الكريم سينحصر فيهما، على أن نتناول كل واحدة منهما في فصل مستقل،

معتمدين في صياغتهما على القرآن ذاته وصياغته بنفسها مجتهدين في ذلك أن نختار العبارة القرآنية التي نراها أجمل وأشمل، وهكذا نتناول هذا الباب من خلال الفصلين الآتيين:

الفصل الأول: كلية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .

الفصل الثاني: كلية ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾.

* * *

الفصل الأول :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

المبحث الأول : بسط بعض مظان ورود الكلية القرآنية

المبحث الثاني : فقهها

المبحث الثالث : قيمتها

المبحث الرابع : توحيد الربوبية

المبحث الخامس : توحيد الأسماء والصفات

المبحث السادس : توحيد الألوهية

المبحث السابع : ما يمكن أن يتفرّع عن الكلية من القواعد القرآنية

المبحث الثامن : تطبيقات

المبحث الأول :

بسط بعض مظان الكلية

ليس من السهل إحصاء جميع متعلقات الكلية من أسماء وصفات واردة في القرآن؛ إذ القرآن كله حديث عن العقيدة، فكيف بهذه الأسماء والصفات، ولله في كل آية اسم وصفة ذات آثار عديدة في تصرفاته المناسبة لغرض هذه السورة أوتلك، وذلك لتعريف المؤمنين بعظمته المقتضية للمزيد من خشيته، وبالصفات الحسنى الموجبة لمحبته، ولإرهاب المعاندين المعرضين من صفات بطشه وجبروته.

وها هي الأحكام الشرعية المختلفة من أحكام: الطهارة، والنساء، والإرث، والأموال وحكمته - تَعَالَى - في الخلق والتدبير وغيرها لم ترد إلا وهي مقرونة بالعديد من الأسماء والصفات - مع مراعاة وضع كل اسم أو صفة في الموضع المناسب له من علم وحكمة وقدرة ومشيئة وحلم وعفو ومغفرة ورحمة ورضًا وما يقابل ذلك -.

بل إن من السور من استأثر بموضوع العقيدة وما تجب معرفته من صفات اللَّه - تَعَالَى - وما يتبع ذلك من هدم هياكل الشرك، وتقويض أركانه. كما هو مسطور في سورة الأنعام، وقد عبّر بعض المفسرين في هذا الشأن بقوله: «في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد»[(١)].

ومنهم من علل نزولها جملة واحدة؛ لما اشتملت عليه من أصول العقيدة وبيان جلالة ورفعة هذا العلم، وأن إنزالها جملة واحدة ما تَمَّ إلا لبيان الحاجة، والضرورة إلى هذا العلم وأنه واجب على الفور لا على التراخي[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٣/١٧.

(٢) انظر: التفسير الكبير ١٤٩/١٢.

قال صاحب المنار عن هذه السورة: «لو سميت سور القرآن بما يدل على جل ما تشتمل عليه كل سورة أو على أهمه، لسميت هذه السورة سورة عقائد الإسلام أو سورة التوحيد - على ما جرى عليه العلماء من التعبير عن علم العقائد بالتوحيد؛ لأنه أساسها وأعظم أركانها»(١). واستهل صاحب الظلال حديثه عنها بقوله: «إن مطلعها يرسم القاعدة الكلية لموضوع السورة ولحقيقة العقيدة، فحق لها أن تصدر بالحمد لله ثناء عليه وتسبيحًا له واعترافًا بأحقيته لهذاالحمد وهذا الثناء على الوصية المتجلية في الخلق والإنشاء»(٢).

وما يقال في هذه السورة يقال في الفاتحة، فقد قيل عنها: إنها «كلها توحيد ف- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ توحيد، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ توحيد، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ توحيد، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد الذين أنعم الله عليهم ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين فارقوا التوحيد.

وكذلك شهد لنفسه بهذا التوحيد، وشهد له به ملائكته وأنبياؤه ورسله، قال - تَعَالَى -: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾؛ [آل عمران، الآية:١٨]، فتضمنت الآية إثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف الضلال؛ كما تضمنت أجلَّ شهادة وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد بأجل مشهود به(٣).

(١) تفسير المنار ٨/ ٢٧٠، والتوحيد مصدر وحد يوحد، ومعنى وحدت الله: اعتقدته منفردًا بذاته وصفاته لا نظير له ولا شبيه، وقيل سلبت عنه الكيفية والكمية، فهو واحد في ذاته لا انقسام له وفي صفاته لا شبيه له في ألوهيته وملكه وتدبيره ولا رب سواه ولا خالق غيره. انظر فتح الباري ١٣/ ٣٤٤،٣٤٥.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٣٠ بتصرف يسير.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، ١/ ٤٣،٤٤.

وكذلك سورة الإخلاص التي نصت الأحاديث الصحاح أنها تعدل ثلث القرآن، فعن أبي سعيد الخدري - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يرددها، فلما أصبح، جاء النبي ﷺ فذكر له ذلك - فكأن الرجل يتقالها - فقال رسول اللَّه ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»[(١)]؛ وذلك لما حوته «من تعليم المكلفين إخلاص العبادة للَّه - تَعَالَى -، أي سلامة الاعتقاد من الإشراك باللَّه غيره في الإلهية»[(٢)].

والحق أن المجال العقدي، قد اتسعت ساحته، فعمت أرجاء القرآن الكريم، سواء على مستوى الآيات أو السور، وهو نسق واضح؛ إذ القارئ يلتقي في كل آية وسورة بحقيقة العقيدة في جانب من جوانبها، فكل سور القرآن داعية إلى التوحيد شاهدة به، متضمنة له؛ لأن القرآن إما خبر عن اللَّه، وأسمائه، وصفاته وأفعاله، وهو توحيد الربوبية وتوحيد الصفات، فذاك مستلزم لهذا متضمن له، وإما دعاء إلى عبادته وحده لا شريك له، وهذا هو توحيد الإلهية، وهو مستلزم للنوعين الأولين متضمن لهما. وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا، فهو جزاء توحيده وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا وعاقبتهم في الأخرى، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد، وهذه جملة من الآيات الدالة على الأسماء والصفات سنعرضها في هذا المبحث كما هو الشأن فيما سيأتي من الكليات.

* قوله - تَعَالَى -: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة، الآية:١-٣].

* قوله - تَعَالَى -: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة، الآية:٣١].

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٣٤٧/١٣ (كتاب التوحيد باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ - أمته في توحيد اللَّه - تبارك وتعالى).

(٢) التحرير والتنوير ٦٠٩/٣٠.

* قوله - تعالى -: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة، الآية:٩٦].

* قوله - تعالى -: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة، الآية:١٥٨].

* قوله - تعالى -: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة، الآية:٢٥٥].

* قوله - تعالى -: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران، الآية:٨].

* قوله - تعالى -: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [آل عمران، الآية:٩٨].

* قوله - تعالى -: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء، الآية:٦].

* قوله - تعالى -: ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء، الآية:١٣٠].

* قوله - تعالى -: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام، الآية:١٨].

* قوله - تعالى -: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام، الآية:١٠٢].

* قوله - تعالى -: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام، الآية:١٠٣].

* قوله - تَعَالَى -: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف، الآية:١٨٠].

* قوله - تَعَالَى -: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الآنفال، الآية:٣٠].

* قوله - تَعَالَى -: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال، الآيتان:٥١،٥٢].

* قول - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود، الآية:٥٧].

* قوله - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود، الآية:٦١].

* قوله - تَعَالَى -: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود، الآية:٧٢].

* قوله - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود، الآية:٩٠].

* قوله - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود، الآية:٩٢].

* قوله - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود، الآية:١٠٧].

* قوله - تَعَالَى -: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف، الآية:٣٩].

* قوله - تَعَالَى -: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾(1) [الرعد، الآيتان:٨،٩].

---

(١) والمتعالي: المتنزه عن صفات الخلق، وقد يكون: العالي فوق خلقه، الاعتقاد، ص: ١٩.

* قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء، الآية: ٦٥].

* قوله - تعالى -: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾(١) [الحشر، الآيات:٢٢-٢٤].

* قوله - تعالى -: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ [الكهف، الآية:٤٤].

* قوله - تعالى -: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء، الآية:٨٩].

* قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج، الآية:٦٥].

* قوله - تعالى -: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون، الآية:٢٩].

* قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور، الآية:٢٥].

* قوله - تعالى -: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر، الآية:٣٠].

* قوله - تعالى -: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان، الآية:٣١].

---

(١) «والسلام: هو الذي سلم من كل عيب وبريء من كل آفة، وقيل: هو الذي سلم المؤمنون من عقوبته والمؤمن: هو الذي صدق نفسه وصدق عباده المؤمنين، فتصديقه لنفسه: علمه بأنه صادق، وتصديقه لعباده: علمه بأنهم صادقون، وقيل: المؤمن: الذي يؤمن عباده المؤمنين يوم القيامة من عقوبته». الاعتقاد، ص: ١٥، وانظر كتاب الحدائق ٤٢/١.

* قوله - تعالى -: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل، الآية:٤٠].

* قوله - تعالى -: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان، الآية: ٣٠].

* قوله - تعالى -: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [الأحزاب، الآية:٥٤].

* قوله - تعالى -: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر، الآية:١٢].

* قوله - تعالى -: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الشورى، الآية:١٢].

* قوله - تعالى -: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى، الآية:٩].

* قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾(١) [الذاريات، الآية:٥٨].

* قوله - تعالى -: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾(٢) [الطور، الآية:٢٨].

* قوله - تعالى -: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن، الآية:٢٦،٢٧].

---

(١) « والمتين: هو الشديد القوة الذي لا تنقطع قوته ولا يمسه في أفعاله لغوب ويرجع معناه أيضا إلى صفة القدرة » الاعتقاد، ص: ١٨.

(٢) « والبر: المحسن إلى خلقه، عمهم برزقه وخص من شاء منهم بولايته ومضاعفة الثواب على طاعته والتجاوز عن معصيته » الاعتقاد، ص: ١٩.

* قوله - تعالى -: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد، الآية:٢٩].

* قوله - تعالى -: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾[1] [الحديد، الآية:٣].

* قوله - تعالى -: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾[2] [الأخلاص].

* * *

(١) «والأول هو الذي لا ابتداء لوجوده، والآخر: هو الذي لا انتهاء لوجوده والظاهر هو: الظاهر بحججه الباهرة وبراهينه النيرة وشواهد أعلامه الدالة على ربوبيته وحجة وحدانيته، وقد يكون الظهور بمعنى العلو والرفعة، والباطن هو الذي لا يستولي عليه توهم الكيفية» الاعتقاد، ص: ١٩.

(٢) «والصمد هو: السيد الذي يصمد إليه في الأمور ويقصد في الحوائج، وقيل هو: الباقي الذي لا يزول، وهو من صفات الذات» الاعتقاد، ص: ١٨.

المبحث الثاني :

فقـه الكلية

إن النفس الإنسانية العالية لا تكتفي بالحقائق النظرية وحدها، فهي في حاجة إلى قاعدة عملية قادرة على توجيه نشاط المكلف في كل وقت وحين، وذلك حينما يتعرف مع نفسه وفي أثناء علاقته مع غيره أو مع خالقه.

وهذه القاعدة لا يثمرها إلا التأثير الإيماني باعتباره موجبا من موجبات التصديق، فيبعث في القلب من اللذات الروحية والحلاوة الإيمانية والعبدية الخالصة ما تسعد به القلوب، وتنشرح له الصدور، فينصلح بذلك التصور، ويقوم الفكر، فتنفتح البصيرة على إدراك علاقة هذا الوجود باللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - ذاتًا وصفات، فيلاحظ في كل زاوية هذا الوجود معنىً عظيمًا دلَّت عليه أسماؤه وصفاته - تَعَالَى -.

والقرآن الكريم يرسم منهجًا لسلوك هذه الغاية تجلت في التعريف باللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - بذاته وصفاته وأفعاله.

قال الغزالي - رحمه اللَّه -: «وأنفس هذه المراتب: معرفة الذات، فهي أعسرها منالًا وأعصاها على الفكر، ولا يشمل القرآن منها إلا على تلويحات وإشارات، ويرجع ذكرها إلى ذكر التقديس المطلق؛ كقوله - تَعَالَى -: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى، الآية:٩]، وسورة الإخلاص، والتعظيم المطلق؛ كقوله - تَعَالَى -: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام، الآيتان: ١٠٠،١٠١].

أما صفاته - سبحانه - فالمجال فيها أفسح؛ ولذلك ألفينا القرآن قد اشتمل على آيات كثيرة في ذكر العلم والقدرة والحياة والكلام والحكمة والسمع والبصر، وأما

الأفعال، فقد اشتمل القرآن على الجلي منها الواقع في عالم الشهادة؛ كذكر السماوات والكواكب والأرض والجبال والشجر والحيوان والبحار والنبات وإنزال الماء، وهي الظاهرة للحس، وعجيب خلقه الإنسان نفسه»[1] قال - تعالى -: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت، الآية:٥٣]، فأخبر سبحانه أنه سيري الإنسان من آياته المشهودة ما يظهر أنَّ هذه المتلوة حق وصدق، فتم بذلك نوعان من الآيات.

١- **مشهودة**: وطريقها النظر إلى المخلوقات قال - تعالى -: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة، الآية:١٦٤].

٢- **مسموعة**: وهي الدعوة إلى التدبر والتفكر في ملكوت الله، من خلال كتابه، قال - تعالى -: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء، الآية:٨٢]، وقوله - تعالى -: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون، الآية:٦٨]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص، الآية:٢٩]، إنها دعوة قرآنية مفتوحة للنظر في الآيات المسموعة، ولا مراء في أن المفعولات المسطرة في هذا الكتاب دالة على الفعل، وأنَّ الفعلَ دال على الصفة وذلك يستلزم الوجود، والعلم والقدرة والمشيئة والحكمة والرحمة والغضب والمحبة والبغض، وآثار هذه الصفات واقعة من خلال التدبر والمشاهدة.

وخطاب كهذا في القرآن الكريم يخاطب القلب البشري، والعقل البشري بدليل الخلق ودليل الحياة ممثلين في الآفاق وفي الأنفس، من خلال تضافر الآيات العيانية الخلقية والآيات السمعية القولية يولد - ولا شك - الأثر ومن ثم التأثير في السلوك،

(١) باختصار عن كتاب جواهر القرآن، ص٢٥،٢٧.

بل الحياة جميعها فيُبْنَى الكيان الاجتماعي برمته على أسس سليمة، على عقيدة راسخة وأصول ثابتة، وتلك هي العقيدة التي كانت منصرف الرسل فانقادت لها الفطرة السليمة، واهتدت إليها العقول الصافية التي تفكرَّت في خلق السماوات والأرض فنطقت بتنزيه الخالق عن العبثية ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران، الآية:١٩١]، ولا ريب أن هذا لم يثمره إلا العقيدة، ولم يثمره إلا التوحيد الذي هو «أصل أصول البر وعمدةُ أنواعه؛ لأنه يتوقف عليه الإخباتُ لربِ العالمينَ الذي هو أعظمُ الأخلاقِ الكاسبةِ للسعادةِ، به يحصل للإنسانِ التوجه التام تلقاءَ الغيبِ»[١]، ومتى استقرت عقيدةُ «**لا إله إلا اللَّه** في أعماقها الغائرة، استقرَّ معها في نفس الوقت النظام الذي تتمثل فيه (**لا إله إلا اللَّه**) ونعني أنه النظام الوحيد الذي ترتضيه النفوسُ التي استقرَّت فيها العقيدة، واستسلمت هذه النفوس لهذا النظام ابتداء حتى قبلَ أن تُعْرَضَ عليها تفصيلاته، وقبل أن تُعْرَضَ عليها تشريعاته، فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الإيمان»[٢].

فالتوحيد - إذًا - هي القضية التي يستهدفها القرآن - كما مرَّ - «وليست هي قضية وجود اللَّه، فلقد كانت المشكلة في تاريخ البشرية، هي مشكلة عدم معرفة الإله الحق بصفاته الحقة، ولم تكن هي مشكلة الإيمان بوجود اللَّه»[٣]. وحتى يؤتي هذا التوحيد ثماره وأُكله، ألفينا القرآن يبني صرح العقيدة في ضمائر الأفراد، واحتاج في ذلك إلى عهد ليس باليسير؛ لأن الأمر لم يكن متعلقًا بدراسة نظرية فحسب، ولكن الأمر أجلُّ وأعظمُ، فكانت المرحلة المكية مرحلة لبناء العقيدة والوجود الفعلي[٤].

---

(١) حجة اللَّه البالغة ١/ ١٧٦.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٠٩.
(٣) نفسه ٢/ ١٠٣٢.
(٤) نفسه ٢/ ١٠١٢.

ولا ريب أن إصلاح التفكير مقدّم على إصلاح العمل؛ ولذلك حين يتناول القرآن الحديثَ عن التشريع غالبًا ما يصدِّره بالنهي عن عبادة غير اللَّه؛ لأن ذلك هو أصل الإصلاح[١].

فبنا أن نمضي إلى هدفنا المحدد من هذه التوطئة، وهو أنه - تَعَالَى - بث في كتابه العديد من أسمائه العلى وذلك لتقرير ألوهيته وربوبيته، وبين الألوهية والربوبية ألفينا حشدا من الأسماء والصفات إعلانًا منه - عَزَّ وَجَلَّ - بما يجب على المؤمن اعتقاده من هذه الأسماء والصفات المكملة لإصلاح الاعتقاد؛ لأن تصور الإله موصوفًا بصفات غير كاملة يُفِيتُ المقصود من إثبات وحدانيته؛ لأنه إذا كان واحدًا ولم يكن كاملًا، كانت وحدانيته مفتقرة إلى سواه - تَعَالَى اللَّه عما يقولون علوًّا كبيرًا - فالحاجة إلى تقرير ما يجب على المؤمن من معرفته مع اعتقاد عموم علمه وقدرته على ما يريد، حاجة أكيدة.

ولئلا يقع المكلف في خطإ تصور عن اللَّه - سبحانه -، نصَّ على ذلك في آية كلية جامعة هي قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى، الآية:١١]، واعتبرت أصلًا في تنزيهه - عَزَّ وَجَلَّ - عن الجوارح والحواس والأعضاء عند أهل التأويل[٢].

قال الراغب - رحمه اللَّه -: «المثل يقال على وجهين: أحدهما بمعنى المثل نحو شبه وشبه، وقد يعبر بهما عن وصف الشيء نحو قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ﴾ [الرعد، الآية:٣٥] والثاني: عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني - أي معنى كان -، وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة، وذلك أن النِدَّ يقال فيما يشارك في الجوهر فقط والمساوي يقال فيما يشارك في الكمية فقط. والشكل يقال فيما يشاركه

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٥/ ٦٧.

(٢) التحرير والتنوير ٢٥/٤٧.

في القدر والمساحة فقط.. ثم قال: والمثل عام في جميع ذلك؛ ولهذا لما أراد اللَّه - تَعَالَى - نفي الشبيه من كل وجه. خصه بالذكر فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وقيل المثلُ - ها هنا - هو بمعنى الصفة، ومعناه: ليس كصفته صفة، تنبيهًا على أنه وإن وصف بكثير مما يوصف به البشر؛ فليس تلك الصفات له على حسب ما يستعمل في البشر(١)، وقيل: المثلان هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر في حقيقته وماهيته(٢) وفي الجمع بين الكاف والمثل، تأكيد للنفي؛ تنبيهًا على أنه لا يَصلح استعمال المثل ولا الكاف؛ فنفى بليس الأمرين جميعًا(٣)، وقد منع اللَّه - تَعَالَى - عن ضرب المثال بقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل، الآية:٧٤]، ثم نبه أنه قد يضرب لنفسه المثل، ولا يجوز لنا أن نقتدي به فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل، الآية:٧٤]، ثم ضرب لنفسه مثلًا، فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ [النحل:، الآية:٧٥] وفي هذا تنبيه على أنه لا يجوز أن نصفه بصفة مما يوصف به البشر إلا بما وَصَفَ به نفسه.

والآية الكريمة نفت أن يكون شيء من الموجودات مثلًا للَّه - تَعَالَى - في صفاته وذاته؛ لأن ذات اللَّه لا يماثلها ذوات المخلوقات، ويلزم من ذلك أن كل ما ثبت للمخلوقات في محسوس ذواتها، فهو منتفٍ عن ذات اللَّه ولفظ التشبيه الوارد في الآية قد صار في كلام الناس لفظًا مجملًا يراد به المعنى الصحيح، وهو ما نفاه القرآن ودلَّ عليه العقلُ من أن خصائص الرب - تَعَالَى - لا يوصف بها شيء من المخلوقات. ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد على الممثلة المشبهة، وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد على النفاة المعطلة(٤)؛

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٤٨٢، وانظر بصائر ذوي التمييز ٤/ ٤٨١، بصيرة في «مثل».

(٢) التفسير الكبير ٢٧/ ١٥٢.

(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٤٨٢.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٥٧.

ولذا كان أعدل المذاهب؛ مذهب أهل السلف، فإنهم أثبتوا النصوص بالتنزيه من غير تشبيه ولا تعطيل؛ وذلك لأن المعطلين لم يفهموا من أسماء الله - تَعَالَى - وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق ، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فجمعوا بين التعطيل والتمثيل، فمثلوا أولًا وعطلوا آخرًا، فهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته - تَعَالَى - بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاته، بخلاف سلف الأمة وأجلاء الأئمة، فإنهم يصفون الله - سبحانه - بما وَصَفَ به نفسه وبما وصفه به نبيه ﷺ من غير تحريف، ولا تشبيه، قال الحافظ ابن عبد البر - رحمه الله -: «أهل السنة مُجْمِعُونَ على الإقرار بالصفات الواردة في الكتاب والسنة وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لم يكيفوا شيئًا من ذلك، والجهمية والمعتزلة والخوارج كلهم ينكرها ولا يحمل منها شيئًا على الحقيقة، قال الذهبي: صدق والله؛ فإن مَنْ تأوَّلَ سائر الصفات، وحمل ما وَرَدَ منها على مجاز الكلام أدّاه ذلك السلب إلى التعطيل[1]، وقال ابن القيم - رحمه الله -: «وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام - وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيمانًا - ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتابُ والسنة، كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم لم يسوموها تأويلًا، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلًا، ولم يبدوا لشيء منها إبطالًا، ولا ضربوا لها أمثالًا، ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها، ولم يقل منهم أحد: يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها، بل تلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم وجعلوا الأمر فيها كلها أمرًا واحدًا، وأجروها على سنن واحدة، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع حيث جعلوها عضين، وأقروا بعضها وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين، مع أن اللازم لهم فيما أنكروه كاللازم فيما أقروا به وأثبتوه[2].

---

(١) انظر محاسن التأويل ١٤/ ٢٩٥.

(٢) إعلام الموقعين ١/ ٤٩.

فحقيقة التوحيد - إذًا - إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة من الصفات.

قال الواسطي: «ليس كذاته ذات ولا كاسمه اسم ولا كفعله فعل ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ»[(١)].

وقريب من هذا نصَّ عليه الطحاوي، حين قال: «فإن اللَّه سمى نفسه بأسماء وسمى بعض عباده بها كذلك، وكذلك سمى صفاته بأسماء، وسمى ببعضها صفات خلقه، وليس المسمى كالمسمى، فسمى نفسه حيًّا عليمًا قديرًا رؤوفًا رحيمًا عزيزًا حكيمًا سميعًا بصيرًا ملكًا مؤمنًا جبارًا متكبرًا، وقد سمى بعض عباده بهذه الأسماء فقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الأنعام، الآية: ٩٥، والروم، الآية: ١٩]، وقال: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[الذاريات، الآية: ٢٨]، وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[الصافات، الآية: ١٠١]، وقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة، الآية: ١٢٨]، وقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الدهر (الإنسان)، الآية: ٢] وقال: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف، الآية: ٥١] وقال: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف، الآية: ٧٩] وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر، الآية: ٣٥] ومعلومٌ أنَّهُ لا يماثلُ الحي الحي، ولا العليم العليم، ولا العزيز العزيز، وكذلك سائر الأسماء[(٢)]، ومن ها هنا ينتفي التماثل انتفاء مطلقًا بين الخالق والمخلوق، وهو معلوم بصريح العقل ونصوص الشرع.

وهذا النفي الوارد في الكلية ليس فيه مدح ولا كمال ما لم يتضمن إثباتًا؛ لأن النفي المحض يعتبر من قبيل العدم المحض، وهو ليس بشيء، وكذلك كان عامة ما وَصَفَ به اللَّه نفسه من نفي، متضمنًا لإثبات مدح، قال - تَعَالَى -: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ

---

(١) العقيد الواسطية، ص: ٣٥ وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٩.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٥٨.

عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة، الآية: ٢٥٥]، فنفي السِّنة والنوم، متضمن لكمال الحياة والقيام، فهو مُبَيِّنٌ لكمال أنه الحي القيوم.

وفي قوله - تَعَالَى -: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ أي لا يكرثه، ولا يثقله وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها، ومثله يقال في قوله - تَعَالَى -: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ، الآية: ٣] لأن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السماوات والأرض الذي هو الإحاطة - كما ذكره أكثر العلماء - ولم ينف مجرد الرؤية؛ لأن المعدوم لا يرى، وليس في كونه لا يرى مدح؛ إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحًا، وإنما المدح في كونه لا يحاط به وإن رؤي كما أنه لا يحاط به وإن علم، فكما أنه إذا علم لا يحاط به علمًا؛ فكذلك إذا رؤي لا يحاط به رؤية، فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمته ما يكون مدحًا وصفة كمال، وهو دليل على إثبات الرؤية لا على نفيها، غير أنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة، وهذا هو الحق الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها(١).

* * *

(١) محاسن التأويل: ١٤/ ٢٤٦، ٢٤٧ بتصرف يسير وانظر دقائق التفسير ٣/ ١٢٦. وانظر الرسالة التدمرية من الفتاوى ٣/ ٣٥-٣٧.

المبحث الثالث :

قيمتها

أ - التعريف بالذات الإلهية إحدى مقاصد القرآن الكبرى :

لقد تقرّر - فيما مضى - أنّ مما تدور عليه معاني القرآن التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال وما ينزه عنه من سمات النقص، وأن هذا ثالث الأصول التي تم بها بعث الأنبياء.

ولن يستقر حال المكلف على الخضوع المطلق والعبودية الخالصة لهذا الإله، ما لم تتم معرفته حق المعرفة، وما كان مأتى الخلل لدى أهل الكتاب والمشركين إلا من جهلهم بالله وعدم تقديرهم له حق التقدير.

أخرج البخاري - رحمه الله - « عن عبد الله بن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أن يهوديًا جاء إلى النبي ﷺ ، فقال: يا محمد، إن الله يمسك السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[1] قال الشاطبي - رحمه الله -: « فالآية بينت أن كلام اليهودي حق في الجملة وذلك قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، وأشارت إلى أنه لم يتأدب مع الربوبية؛ وذلك - والله أعلم -

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١٣/ ٣٩٣ (كتاب التوحيد، باب قول الله - تعالى -: « لما خلقت بيدي »).

لأنه أشار إلى معنى الأصابع بأصابع نفسه[١]، وذلك مخالف لتنزيه الباري - سبحانه - فقال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[٢] [الزمر:٦٧]، وبمثل هذا خُوطِبَ المشركون، وذلك حين جعلوا أصنامهم مماثلة للَّه - تَعَالَى - في الألوهية، فجاءت جملة: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ تذييلًا للمثل المضروب[٣]، بأن عبادتهم الأصنام مع اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - استخفاف بحق الألوهية؛ إذ أشركوا معه أحقر الموصوفين والضعفاء العجز، وهو - سبحانه - الغالب القوي، وهو الذي نَصَّ عليه في آخر الآية؛ حين قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[٤] [الحج، الآية: ٧٢]، ومن وقاحاتهم - أيضًا - سؤالهم رسول اللَّه ﷺ أن ينسب لهم ربه، فأنزل سورة الإخلاص جوابًا على سؤالهم، فجمعت السورة وأوعت؛ حتى «سميت بسورة المعرفة؛ لأنها أحاطت بالصفات التي لا تتم معرفة اللَّه إلا بها»[٥] وعلى رأسها الأحدية التي أريد بها إثبات الوحدانية الكاملة للَّه تعليمًا للناس جميعًا، وإبطالًا لعقيدة المشركين.

قال صاحب الظلال - رحمه اللَّه - في لفظ ﴿وَاحِدٌ﴾: «وهو أدق من الواحد؛ لأنه يضيف إلى معنى «واحد) ألا شيء غيره معه وأن ليس كمثله شيء»[٦]، فهو دال على أنه - تَعَالَى - واحد من جميع الوجوه، حتى يدرك المخاطبون السائلون عن نسبة اللَّه هذه الحقيقة التي تتنافى وما يعتقدونه من كون أصنامهم آلهة، كما أن فيه إبطال التثليث الذي أحدثه النصارى والثنوية المخترعة من قبل المجوس.

---

(١) فإن اليهود مشبهة وفيما يدعونه من التوراة ألفاظ تدخل في باب التشبيه. نفسه ١٣/ ٣٩٨.

(٢) الموافقات ٣/ ٣١٩، ٣٢٠.

(٣) في قوله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ ...﴾ في الآية: ٧٣ من سورة الحج.

(٤) وانظر التحرير والتنوير ١٧/ ٣٤٢.

(٥) نفسه ٣٠/ ٦١٠.

(٦) في ظلال القرآن ٦/ ٤٠٠٣.

ب- معرفة اللَّه من الفطرة :

كل ذلك دال على «أن هذه العقيدة عقيدة واضحة مقبولة؛ إذ العقل ينشد دائما الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة، وهو مبدأ ليس بالغريب على الفطرة الإنسانية، بل هي مُوَافِقَةٌ له تماما وهو ما صرح به القرآن قال - تَعَالَى -: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1] [الروم، الآية:٣٠]، فظاهر الآية أن المعرفة حاصلة بأصل الفطرة، وأن الخروج عن ذلك يطرأ على الشخص لقوله ﷺ: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه» ولا ريب أن أرقى أساليب الإقناع وأبلغ وسائل الإذعان بأصول العقيدة، إحالة المخاطب إلى غريزته وفطرته، وإلزامه الحجة بمحاسبة عقله لنفسه على تعارض الأفكار، وتناقض الأقوال بسبب مخالفة التقاليد والمسلَّمات للغرائز والملكات[2].

ج- ربط هذه العقيدة بالواقع والمحيط:

والصورة العقدية الواضحة تثمر تعمقًا في الحياة على مستوى قيامها فتغدو العقيدة منهجًا عمليًّا في جميع رحاب هذه الحياة وتبدو آثارها جلية في التشريع بعد أن بدت في الاعتقاد، وأول هذه الآثار أن تكون شريعة اللَّه وحدها الحاكمة، ومتى تخلَّفت آثار العقيدة، عرف أنه لا يزال خلل قائم؛ إذ لا يتأتى الإتيان بشيء من المأمورات - عمومًا - على قصد الامتثال التام ولا الانفكاك عن شيء من المنهيات على قصد الانزجار التام، إلا بعد معرفة الآمر والناهي.

---

(١) وانظر الإيمان والحياة، ص: ٣٨، ٣٩.   (٢) تفسير المنار ٨/ ٢٧٣.

فمدار التصور النقي على المعرفة الحقة والإيمان الحق الصافي الخالي من كل شائبة[١]. ومن مثمرات هذا النقاء في المعرفة وهذا الصفاء في الإيمان، استيعاب العقيدة المتمثل في كون الألوهية لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، قيوم السماوات والأرضين، له الأسماء والصفات العلى[٢].

هذه الأسماء والصفات هي التي شملتها الآية الكلية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فهي آية عظيمة فيها تعليم شامل، يحل جميع الإشكالات،

---

(١) انظر في ظلال القرآن: ٦/ ٤٠٠٣-٤٠٠٦.

(٢) الحق الذي لا مفر منه أن الأمة الإسلامية تعيش أزمة عقدية وأن ما يعتورها من تأخر وما تلاقيه من أزمات، إنما هو متشعب من هذه الأزمة، وأفرادها في حاجة إلى إيمان قلبي تترجمه الجوارح أما ترديد جملة **لا إله إلا الله** دون استيعابها والتعمق في فحواها تلقيًا وفهمًا ومن ثَمّ سلوكًا، أمر بات غير مجد لمجريات الحياة كلها إذ العقيدة هي المكيفة لحياتنا المؤسسة لصرحي الدين والدنيا معا. وعقدة الفطرة البشرية - كما قال سيد - رحمه الله -: هي عقدة العقيدة، وما لم تنعقد هذه العقدة فلن يثبت فيها شيء من خلق أو تهذيب أو إصلاح اجتماعي في ظلال القرآن ٧/ ٩٧٣.

- ولا يفوتني في هذا المقام أن أشيد بالسلوك وما له من برهان على صدق صاحب العقيدة؛ لأن الكثير في زماننا ممن يتسمون بالسلفية وهي منهم براء، ويتبجحون بها يقعون في جملة من السلوكيات والأخلاق المخالفة للوازم هذه العقيدة، فيدعي أحدهم أن عقيدته في غاية الصحة والسلامة، وإن وقع في تلك الانحرافات، ولعل السبب في هذه الفجوة بين التوحيد ولوازمه السلوكية، ما يسلك هؤلاء في تعلمهم لعلم التوحيد من الفصل بين هذا العلم ولوازمه ومقتضياته بحجة أن هذا علم التوحيد، وتلك اللوازم تتعلق بعلم السلوك والأخلاق، فأدى ذلك إلى إهمال هذه الجوانب السلوكية إلى حد أن صير هذا التوحيد مجرد جوانب علمية فقط، ولذلك نجد الكثير منهم لا يتورع عن السب والشتم بأفحش العبارات وأقذعها ورمي الغير وقذفه، وتتبع عوراته وهمزه ولمزه، وكان الأولى بهؤلاء أن يعلموا أن من لوازم هذه العقيدة: العفاف، والطهارة من الفواحش والقاذورات، يقول ابن القيم - رحمه الله -: "التوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه، فأي شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه، فهو كأبيض ثوب يكون، يؤثر فيه أدنى أثر، وكالمرآة الصافية جدًا، أدنى شيء يؤثر فيها، ولهذا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية، فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده، وإلا استحكم وصار طبعًا يعسر عليه قلعه" الفوائد، ص: ١٨٤، والله المستعان.

ويجيب عن جميع الأسئلة حول موضوع الأسماء والصفات ذلك؛ لأن اللَّه- تَعَالَى - قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ومعلوم أن السمع والبصر من حيث هما سمع وبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فكأن اللَّه - تَعَالَى - يشير للخلق ألا ينفوا عنه صفة سمعه وبصره بادعاء أن الحوادث تسمع وَتُبْصِرُ وأن ذلك تشبيه، بل عليهم أن يثبتوا له صفة سمعه وبصره على أساس ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

فاللَّه - جلَّ وعلا - له صفات لائقة بكماله وجلاله، والمخلوقات لهم صفات مناسبة لحالهم، وكل هذا حق ثابت لا شك فيه[1]. ولا يقال إن المسألة لا تعلَّق لها إلا بالسمع والبصر المذكورين؛ لأن الآية - واللَّه أعلم - ما ساقتهما إلا نموذجًا لباقي الصفات الأخرى تنزيهًا للَّه - عَزَّ وَجَلَّ - عن أن يُشْبِهَ شيء من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين وهو ما دلَّ عليه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ولن يكون الإيمان بهذه الأسماء والصفات كافيًا ما لم تستعمل بمعنى وجود غايتها وألا يبحث عنها أكثر من استعمالها، وعليه مضت القرون المشهود لها، قال ﷺ: «تفكروا في آلاء اللَّه ولا تفكروا في اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - »[2] وقد ذُكِرَ عند أبي عبيد القاسم بن سلام أحاديث مفادها: «أن اللَّه - تَعَالَى - يضحك من قنوط عباده»، «والكرسي موضع القدمين»، و«أن جهنم لتمالئ فيضع الرب قدمه فيها» وأشباه هذا؛ فقال أبو عبيد: هذه

---

(١) انظر منهج دراسات لآيات الأسماء والصفات، ص: ٤.

(٢) وسند الحديث ضعيف؛ لأن فيه الوازع بن نافع الذي رواه عن سالم. قال البخاري: «منكر الحديث» وقال النسائي: «متروك» وقال ابن معين وأحمد: «ليس بثقة» ميزان الاعتدال: ٤/٣٢٧، والحديث رواه الطبراني في الأوسط من هذا الطريق وقال فيه الهيثمي: «وفيه الوازع بن نافع وهو متروك» انظر مجمع الزوائد ١/ ٨١. غير أن لهذه الرواية أصلًا منها ما ورد في البخاري عن أنس - رضي اللَّه عنه - قال: سمعتُ رسول اللَّه - ﷺ - يقول: «لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا هذا اللَّه خالق كل شيء فمن خلق اللَّه؟» صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١٣/ ٢٦٥ (كتاب الاعتصام، باب ما يكره من كثرة السؤال ومن تكلف ما لا يعنيه...) ولا شك أن التساؤل ضرب من التفكر المنهي عنه في الرواية أعلاها.

الأحاديث عندنا حق يرويها الثقاة بعضهم عن بعض إلا أنا إذا سئلنا عن تفسيرها، قلنا: ما أدركنا أحدًا يفسّر منها شيئًا، ونحن لا نفسّر منها شيئًا نصدق بها ونسكت[١]، وقد سُئل الإمام مالك والأوزاعي وسفيان الثوري - رحمهم اللَّه - عن الأحاديث التي فيها ذكر الرؤية؟ فقالوا: أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيف[٢]. والتفكر في آلاء اللَّه بدل التفكر في ذات اللَّه مَهْيَعٌ يكسب العقل ما به يستنبط عظمة هذا الإله في صنعته وحكمته وما يليق به من صفات الكمال والجلال، فيعرفه المتفكر حق معرفته[٣] قال ابن حجر - رحمه اللَّه -: «وغاية علم العالم أن يقطع بوجود فاعل لهذه المصنوعات منزه عن التشبيه، مقدس عن النظير، متصف بصفات الكمال. ثم متى ثبت النقل عنه بشيء من أوصافه وأسمائه قبلناه واعتقدناه وسكتنا عما عداه كما هو طريق السلف، وما عداه لا يأمن صاحبه من الزلل. وقد قطع بعض الأئمة بأن الصحابة لم يخوضوا في الجوهر والعرض وما يتعلق بذلك من مباحث المتكلمين، فمن رغب عن طريقتهم فكفاه ضلالًا»[٤]، فجاء منهج هذه القرون جليًا واضحًا لا كما يُقالُ: طريقتهم أسلم، وطريقة الخلف أحكم، فإن هذا القول فيه غمز للسلف بحيث يفهم أن طريقتهم مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه في ذلك! والحق أنهم في غاية المعرفة بما يليق باللَّه - تَعَالَى - وفي غاية التعظيم له والخضوع لأمره والتسليم لمراده[٥]؛ فأثبتوا للَّه من الصفات ما أثبته لنفسه من غير تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل[٦]. وهو ما نطقت به الآية الكلية حيث اشتملت على ثلاثة أركان:

الأول: الإيمان بالاسم أو الصفة، ويتم الإقرار والاعتراف بأنه للَّه - عَزَّ وَجَلَّ .

(١) انظر أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/ ٥٢٥، ٥٢٦.

(٢) أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/ ٥٢٥، ٥٢٦.

(٣) بتصرف عن دقائق التفسير ١/ ٣٥.

(٤) فتح الباري ١٣/ ٣٥٢.

(٥) نفسه ١٣/ ٣٥٢.

(٦) انظر الفتاوى ٣/ ٣.

الثاني : الإيمان بما يدل عليه هذا الاسم من معنىً، أي بالدلالة الوضعية اللغوية[١]؛ إذ العلم بالكيفية مما استأثر اللَّه به، «فتأويل ما أخبر اللَّه - تَعَالَى - به عن نفسه المقدسة المتصفة بما لها من حقائق الأسماء والصفات هو حقيقة لنفسه المقدسة المتصفة بما لها من حقائق الصفات، وتأويل ما أخبر به - تَعَالَى - من الوعد والوعيد، هو نفس ما يكون من الوعد والوعيد؛ ولهذا ما يجيء في الحديث نعمل بمحكمه ونؤمن بمتشابهه؛ لأن ما أخبر اللَّه به عن نفسه وعن اليوم الآخر، فيه ألفاظ متشابهة يشبه معانيها ما نعمله في الدنيا لفظًا ومعنىً، ولكن ليس هو مثله ولا حقيقته، فأسماء اللَّه - تَعَالَى - وصفاته أولى وإن كان بينهما وبين أسماء العباد وصفاتهم تشابه أن لا يكون لأجلها الخالق مثل المخلوق، ولا حقيقته كحقيقته[٢].

الثالث : الإيمان بما يتعلق به من آثار، سواء كانت هذه الآثار آثار كونية تتعلق بالموجودات، أو وجدانية قلبية تتعلق بالقلب من تعظيم الرب وتقديره بما يدعو إلى القيام بشتى العبوديات، كالخوف والرجاء والمحبة والتوكل ونحوها[٣]. «فلكل اسم من أسمائه - عَزَّ وَجَلَّ - أثر من الآثار في الخلق والأمر لابدَّ من ترتبه عليه كترتب المرزوق والرزق على الرازق[٤]، وتترتب أسباب المرحوم والرحمة على الراحم، ونظائر ذلك في

---

(١) انظر ضوابط المعرفة، ص: ٢٤.

(٢) الفتاوى، ٣/ ٥٧.

(٣) القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف ١/ ٨١،٨٢.

(٤) الأنفع للمسلم أن يتفكر في تعلقات الصفات الإلهية بالمخلوقات من إحياء وإماتة ورزق ورعاية، إلى غيرذلك من معاني صفات اللَّه - عز وجل -، فإذا قال اللَّه - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ الذاريات، الآية: ٥٨، فينبغي أن يتفكر في خلق اللَّه لهذا الرزق الموضوع بين يديه في كل أوقات طعامه، أين زرع، ومن زرعه، ومن حمله إليه، وكيف خرج من بذرة هامدة إلى أن غدا غذاء نافعًا؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي يجب أن تطرح، وليعلم من خلالها علم اليقين أن اللَّه هو الرزاق ذو القوة المتين، فهذا هو الطريق الصواب إلى التفكر، فمن خلاله يعظم الرب - سبحانه وتعالى - في الأنفس، فتزداد إيمانًا ويقينًا.

جميع الأسماء «فلو لم يكن في عباده من يخطئ ويذنب؛ ليتوب عليه ويغفر له ويعفو عنه، لم يظهر أثر أسمائه: الغفور، والعفو، والحليم، والتواب وما جرى مجراها[١]».

ومن ها هنا تكون هذه القاعدة الكلية جامعة لشتات ما تفرق في قواعد كثيرة من أصول هذا الباب، حيث حوت الأصول الإيمانية التي ينبغي على المسلم الحق أن يدركها ويفهمها إلى أن تؤثر في مجريات محيطه، فقد عالجت جانبًا مهمًا من جوانب وجوده، وذلك حين يرتقي الإيمان إلى أعلا الدرجات، فيغدو سلوكًا بعد أن كان عملًا قلبيًا.

فمن التصور العقدي للأسماء والصفات، إلى التأثير الوجداني الذي تفجره العقيدة من داخل الإنسان، إلى علاقة هذا التصور بالتأثير في الوجود الخارجي، فترتبط العقيدة بالواقع والسلوك. فالمدار - إذًا - على معرفة الأسماء والصفات حق المعرفة وتعهدها لأجل تنميتها وذلك بالتبصر في الشواهد، قال - تعالَى -: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾[محمد، الآية: ١٧] وقال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾[مريم، الآية: ٧٦]، وقال - تعالَى -: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الرعد، الآية: ٣]، وغياب حس المشاهدة المتبصرة مذموم في كتاب الله - تعالَى - قال الله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[يوسف الآية: ١٠٥] فالمرور في هذه الآية مكنى به عن التحقق والمشاهدة، وتغييبه لدى القوم بالإعراض وضرب الصفح عن الحق[٢]. قال الطبري - رحمه الله -: «لا يعتبرون بها، ولا يفكرون فيما دلَّت عليه من توحيد ربها، وأن الألوهية لا تُبتغى إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء فدبرها»[٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة، ١/ ٢٨٧.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٣/٦٣.

(٣) جامع البيان ٨/ ٧٦.

على أن الآية الكلية حين نطقت بالتعريف بالله - عَزَّ وَجَلَّ -، ودعت إلى الإيمان بالأسماء والصفات؛ رسمت منهجًا لذلك، خلاصته: الإجمال في النفي، والتفصيل في الإثبات وهو محصل ما بُعِثَ به الأنبياء والرسل، قال ابن تيمية - رحمه الله -: « والله - سبحانه - بعث رسله بإثبات مفصل ونفي مجمل، فأثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل، ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل كما قال - تَعَالَى -: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم، الآية:٦٥]، قال أهل اللغة: « هل تعلم له نظيرًا يستحق مثل اسمه »(١) وقال - تَعَالَى -: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾، وقال - تعَالَى -: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة، الآية: ٢٢]، وقال - تَعَالَى -: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[البقرة، الآية: ١٦٥]، وقال - تعَالَى -: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾[الأنعام، الآيتان: ١٠٠، ١٠١] وقال - تعَالَى -: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان، الآيتان ١، ٢] وقال - تعَالَى -: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ إلى قوله - تعَالَى - ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات، الآيات: ١٤٩-١٨٢] فسبح - سبحانه - نفسه عما يصفه المفترون المشركون، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من الإفك والشرك، وحمد نفسه؛ إذ هو - سبحانه - المستحق للحمد بما له من الأسماء والصفات وبديع المخلوقات.

---

(١) لسان العرب، مادة « سمى » ١٤/ ٤٠٣.

وأما الإثبات المفصل، فإنه ذكر من أسمائه ما أنزله في محكم آياته؛ كقوله - تعالى -: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة، الآية:٢٥٥]، وقوله - تعالى -: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾﴾، وقوله - تعالى -: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [التحريم، الآية:٢]، وقوله - تعالى -: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الروم، الآية:٥٣]، وقوله - تعالى -: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[غافر، الآية: ٥٦]، وقوله - تعالى -: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[إبراهيم، الآية: ٥]، وقوله - تعالى -: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يونس، الآية: ١٠٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾[البروج، الآية: ١٤]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد، الآية:٣] إلى أمثال هذه الآيات في أسماء الرب وصفاته، فإن ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل، وإثبات وحدانيته بنفي التمثيل ما هدى الله به عباده إلى سواء السبيل، فهذه طريقة الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -[1]، وما سيقت هذه النصوص لمجرد تقرير الكمال المطلق له - سبحانه - فحسب؛ بل ذكرت لهذا الغرض ولبيان أنه المستحق للعبادة دون سواه، فأفاد الأصلين الذين يتم بهما التوحيد وهما: إثبات صفات الكمال ردًّا على أهل التعطيل، وبيان أنه المستحق للعبادة لا إله إلا هو ردًّا على المشركين.

* * *

---

(١) انظر: الفتاوى ٣/ ٤-٧ و٦/٣٧.

المبحث الرابع :

توحيد الربوبية

أ- مفهوم الربوبية : هي مصدر يقال في اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ -، والرب في الأصل: التربية وهو إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حد التمام، يقال ربه ورباه وربيه[١] ويطلق الرب في اللغة ويراد به المالك والسيد والمدبر والمربي والقيم والمنعم، ومن اللغويين من جعله على ثلاثة أقسام: يكون للمالك، وللسيد المطاع، والمصلح[٢]. كما أطلق - أيضًا - على السيد الذي يسوس مسوده ويربيه ويدبره[٣]، ولا يقال الرب مطلقًا إلا للَّه - تَعَالَى - المتكلف بمصلحة الموجودات قال - تَعَالَى -: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[سبأ، الآية: ١٥] وقال: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾[آل عمران، في الآية: ٨٠]، ولم يكن من حق الرب أن يُجمع؛ إذ كان إطلاقه لا يتناول إلا اللَّه - تَعَالَى - لكن أُتي بلفظ الجمع فيه على حسب اعتقاداتهم لا على ما عليه ذات الشيء في نفسه[٤].

أما بالإضافة، فإنه يقال للَّه ولغيره نحُو: رب العالمين، ورب الدار، ومنه قوله - تَعَالَى -: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾[يوسف، الآية: ٢٣].

والحق أن هذه المعاني جميعًا تصدق على اسم الرب، فهو المربي للخلائق، والمدبر لشئونها، وسائس أمورها، ومبلغها كمالها، وسيدها، والقيم على مصالحها، والمنعم

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ١٨٨ حرف الراء.

(٢) لسان العرب ١/٤٠٠، مادة: «ربب».

(٣) تفسير المنار ١/٥٠.

(٤) انظر بصائر ذوي التمييز ٣/ ٢٩، ٣٠ بصيرة في الرب، وانظر معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ١٨٩ حرف الراء.

بشتى النعم عليها، والمالك لأزمّة أمورها، وهو الذي ينبغي أن يطاع في أوامره، وهو المصلح لكل شأن من شئون معاشها ومعادها. ومن ثَمَّ قال بعض أهل العلم: «هذا الاسم هو الأحق بالاستعانة والمسألة، ولهذا يقال في القرآن: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾[نوح، الآية: ٢٨]، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[الأعراف، الآية: ٢٣]، ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾[القصص، الآية: ١٦]، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة، الآية: ٢٨٦]، فهو اسم قد تضمن خلق العبد ومبتداه كما تضمن أنه - عَزَّ وَجَلَّ - هو الذي يربيه ويتولاه[1].

ولما كانت التربية هي إحدى الخصائص البارزة في الربوبية؛ فإن هذا المعنى يلاحظ من وجهين:

١- تربية خلقية، وذلك بما يكون به نحو الخلق وكمال أبدانهم وقواهم النفسية والعقلية.

٢- تربية تعليمية، وتتم بما يوحيه اللَّه من شرائعه إلى المصطفين من عباده من أجل تسييج الفطرة والإبقاء على أصلها متى اهتدى الإنسان بهذا الوحي؛ إذ لا هداية إلا بما شرعه رب الناس، فليس لغيره أن يشرِّع؛ لأن الخلق خلقه، وما أوجدهم إلا ليرعاهم ويصلحهم ويربيهم، فهو وحده الذي له الربوبية المطلقة.

وهذا النوع من التوحيد - توحيد الربوبية - لم ينكره المشركون ولم يجعلوا للَّه فيه شريكًا، وهذه حكاية القرآن عنهم في ذلك، قال - تَعَالَى -: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[الزخرف، الآية: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾[الزخرف، الآية: ٩]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ

(١) دقائق التفسير ١/ ١٧٦، ١٧٧ بتصرف يسير.

ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس، الآية:٣١]، ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[المؤمنون، الآيتان: ٨٤،٨٥]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[المؤمنون، الآيتان: ٨٦،٨٧]، ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[المؤمنون، الآيتان ٨٨،٨٩]، فكل مشرك مقر بأن اللَّه خالقه وخالق السماوات والأرضين ومن فيهن ورازق المخلوقات.

ولهذا ساغ احتجاج الرسل - عليهم السلام - بقولهم: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل، الآية:١٧]، وقولهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النحل، الآية:٢٠]، ومن ها هنا يتبين أن عمل الرسل هو تقرير هذا النوع من التوحيد، ثم الدعوة إلى توحيد الألوهية - وقد يسمونه توحيد العبادة - بحيث يفرد الحق - سبحانه - بالعبادة دون سواه، وهذا هو الذي جعلوا للَّه فيه شركاء، بل إن لفظ «الشريك» يشي بكون هؤلاء مُقرِّين باللَّه - تَعَالَى -، وبهذا علم أن عبدة هذه الأوثان والأصنام والجن والملائكة والمسيح لم يتخذوا ذلك معبودًا لهم لأجل أنهم أشركوهم في خلق شيء، بل اتخذوهم آلهة وعبدوهم، فهم كانوا يعلمون أن ذلك للَّه وحده ولم يكفهم لحصول إسلامهم؛ إذ لابد لهم أن يأتوا بلازمه الذي هو توحيد الألوهية، ولذلك حكى القرآن عنهم قوله - تَعَالَى -: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف، الآية:١٠٦] قال مجاهد - رحمه اللَّه - في هذه الآية: «إيمانهم باللَّه: قولهم: إن اللَّه خلقنا ويرزقنا ويميتنا»[١]، وزاد الطبري: فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره[٢]، فتبيَّن أن الكفار يعرفون اللَّه ويعرفون ربوبيته وملكه وقهره وكانوا مع ذلك يعبدونه عبادة إشراك، ويدّعون أنهم على ملة إبراهيم وهم عن صراطه

---

(١) تفسير مجاهد ١/ ٣٢٢.

(٢) جامع البيان ٨/ ٧٨.

ناكبون، فقد بين القرآن ذلك فقال - تعالى -: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾[آل عمران، الآية: ٦٧]، وقد جاء إبراهيم بالتوحيد وأعلنه إعلانًا لم يترك للشرك مسلكًا إلى نفوس الغافلين وأعلن العبودية لله - تعالى - بقوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾[الأنعام، الآية: ٨٠]، وأخلص القول والعمل لله، فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾[الأنعام، الآية: ٨١]، وكسر الأصنام بيده ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ [الأنبياء:٥٨]، وتصدى للاحتجاج للوحدانية وصفات الله، فقال للنمرود: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة، الآية:٢٥٨]؛ وذلك كله لييأس المشركون من كونهم على ملة إبراهيم على حد زعمهم!

* * *

المبحث الخامس :

توحيد الأسماء والصفات

من خلال ما تقرّر في مبحث الربوبية، علم أنها تكون منه - تَعَالَى - لعباده؛ ولذلك لا يزال - عَزَّ وَجَلَّ - يبرز كمالاته من خلال أسمائه وصفاته، التي تعتبر الأصول الكبرى لإثبات هذه الكمالات.

١- أما أسماؤه - عَزَّ وَجَلَّ - فقد وسمها بأنها حسنى، فقال - عز من قائل -: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف، الآية: ١٨٠]، والحسنى هو المتصف بالحسن الكامل في ذاته، وما وصفت بالحسنى إلا لأنها دالة على ثبوت صفات كمال حقيقي، أما بعضها لأن معانيها لم تثبت إلا للّه نحو الحي، وأما البعض الآخر فلأن معانيها مطلقًا لا يحسن الاتصاف بها إلا في جانب اللّه؛ نحو المتكبر والجبار؛ لأن معاني هذه الصفات وأشباهها كانت نقصًا في المخلوق؛ من حيث إن المتسم بها لم يكن مستحقًّا لها لعجزه أو لحاجته، بخلاف الإله؛ لأنه الغني المطلق[١]، وقد حَضَّ الشرع على إحصائها ووعد بالثواب عليه لما دلت عليه من المحامد له - سبحانه -، عن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول ﷺ: «إن للّه تِسْعَةً وتسعينَ اسما مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة»[٢]، قال ابن القيم - رحمه اللّه -: «وإحصاؤها

---

(١) التحرير والتنوير ٩/ ١٨٧.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١٣/ ٣٧٧. والإحصاء - كما ذكره الأصيلي - العمل بها لا عَدّها وحفظها؛ لأن ذلك قد يقع للكافر والمنافق كما في حديث الخوارج يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم، وقال ابن بطال: الإحصاء يقع بالقول والعمل، فالذي بالقول فيحصل بجمعها وحفظها والسؤال بها، وأما الإحصاء الفعلي فإن للّه أسماء يختص بها كالأحد والمتعال والقدير ونحوها، فيجب الإقرار بها والخضوع عندها، وله أسماء يستحب الاقتداء في معانيها كالرحيم والكريم والعفو ونحوها فيستحب للعبد أن يتحلى بمعانيها ليؤدي حق العمل بها فتح الباري ١٣/٣٧٨.

والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم »[١]، وليست أسماء اللّه منحصرة في التسعة والتسعين الواردة في الحديث؛ لأنه ليس فيه ما يقتضي الحصر؛ وإنما وقع التخصيص لهذه الأسماء؛ لأنها أشهرها وأبينها[٢]، ويدل على هذا التأويل حديث ابن مسعود - رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ -: « أسألك بكل اسم هو لك سَّميتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك » فهو دال على أن للّه أسماء لم ينزلها في كتابه حجبها عن خلقه[٣].

ومن العلماء من عَدَّ للّه أسماء أخرى زادت على التسعة والتسعين، كابن برجان الإشبيلي - رحمه اللّه - تَعَالَى - في كتابه: « أسماء اللّه الحسنى »، فقد عَدَّ اثنين وثلاثين ومائة كلها مستخرجة من القرآن والأحاديث المقبولة، وذكر القرطبي - رحمه اللّه - أن له كتابًا سماه: « الأسنى في شرح الأسماء الحسنى » ذكر فيه من الأسماء ما ينيف على مائتي اسم[٤]. والصواب أن كل ما أخبر اللّه به وأخبر به رسوله من الأسماء فهو حق، وأن لا يسمّ اللّه - تَعَالَى - إلا بذلك الاسم الذي أطلقته الشريعة، وأن يكون مدحًا خالصًا لا شبهة فيه (وإن كانت صفات سلب محض فإنها لا تدخل في أوصافه - تَعَالَى - إلا أن تكون متضمنة لثبوت، كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والألوهية، والسلام المتضمن براءته من كل نقص يضاد كماله)[٥]، ومن هذا النوع قوله ﷺ: « اللّه وتر يحب الوتر »[٦] (والوتر: الفرد، ومعناه في وصف اللّه أنه

(١) بدائع الفوائد ١/١٦٣.
(٢) انظر الأسماء والصفات، ص: ١٧.
(٣) كتاب الحدائق، ١/ ٣٨، ٣٩، وانظر الحديث في مسند أحمد ١/ ٣٩٣، قال الهيثمي رواه أحمد وأبويعلى والبزار والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح، غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٦.
(٤) انظر التحرير والتنوير ٩/ ١٨٨.
(٥) بدائع الفوائد، ص١٣٣.
(٦) انظر سنن ابن ماجه ١/ ٣٧٠ (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الوتر).

الواحد الذي لا شريك له ولا نظير)[1]، فالمعتبر إذن في هذا الباب إطلاق الاسم أو الصفة التي أخبر بها الكتاب أو أخبرت بها السنة النبوية الصحيحة.

وإذا كان الإحصاء - كما تقدم - قوليًا وفعليًا، فإن هذا الأخير لا يتم إلا بعد الإحاطة بمعانيها ومدلولاتها، ولا مسلك إلى ذلك إلا بالبحث عن مراميها ومقاصدها ومتعلقات كل اسم وآثاره - وهي أشرف المرامي -؛ إذ في معرفتها كمال العلم باللّه - عَزَّ وَجَلَّ - الموجب له كمال الحب والخوف والرجاء، فإن من نظر في أسماء اللّه نظر تدبر - وكذا في صفاته -؛ بان له من تعلقها وارتباطها بخلقه وأمره ما يزيده إيمانًا وتثبيتًا ويقينا. وحسبك أن تتأمل ارتباط الخلق بهذه الأسماء الثلاثة وهي: اللّه والرب والرحمن، وكيف نشأ عنها الخلق والأمر والثواب والعقاب وكيف جمعت الخلق وفرقتهم.

فاسم الرب له الجمع الجامع لجميع المخلوقات، فهو رب كل شيء وخالقه والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السماوات والأرض عبد له في قبضته وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الألوهية فألهَّه السعداء، وأقروا له طوعًا بأنه اللّه لا إله إلا هو، وها هنا افترق الناس وصاروا فريقين: فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير، فالألوهية هي التي فرقتهم بعد أن كانوا مجتمعين تحت الربوبية، فالدين والشرع والأمر والنهي من صفة الألوهية، والخلق والإيجاد والتدبير والفعل من صفة الربوبية، والجزاء بالثواب والعقاب من صفة الملك وهو ملك يوم الدين، فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم بربوبيته، وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله، وكل هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.

وأما الرحمة فهي التعلق، والسبب الواصل بينه وبين عباده بها، أرسل إليهم رسله، وأنزل كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم،

---

(١) تفسير الخازن ٢/ ٣١٩.

وبينّهم سبب الرحمة(١).

٢- وأما صفاته - تَعَالَى - فإن معرفتها أصل عظيم، ورمز كبير لكماله وعلامة وجوده - عَزَّ وَجَلَّ -، «إذ ما لا صفة له لا تحقيق له في العيان ولا وجود له إلا في الأذهان»(٢)، وكتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - وسنة رسوله ﷺ قد جاء بالوصف للرب - جل شأنه - وذلك بنوعين من المعاني:

الأول: صفات ذاتية، «وتضبط بأنها الصفات التي لا تنفك عن الرب - عَزَّ وَجَلَّ - بحال من الأحوال»(٣)، وذلك كقوله - تَعَالَى -: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة، الآية: ٦٤]، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص، الآية: ٨٨]، وقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[طه، الآية: ٣٩]، فكل هذا من صفات الذات يستحيل وجوده عاريا عنها، ويستحيل وجودها على وجه النسبة إليه إذا فرض انفصالها عنه.

الثاني: صفات فعلية حيث يصف - تَعَالَى - ذاته العلية بأفعاله على وجوه متعددة من الإطلاق والتقييد والتعدية واللزوم، وهي مما يخضع حوله لإرادة الفاعل ومشيئته، فعلم أنه ما نسبها لنفسه إلا ليوصف بها وأنها تابعة لمشيئته وإرادته كما قال - تَعَالَى -: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾[البقرة، الآية: ٢٩]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾[البقرة، الآية: ٢١٠]، فوجب أن تنسب إليه نسبة الفعل لفاعله؛ ولذلك جرى التعبير عن هذا النوع من صفات رب العالمين بالأفعال الاختيارية؛ لتعلقها في الوجود والحصول بتعلق المشيئة والإرادة بها.

وما يهمنا من هذا التقسيم، هو الوقوف على ما تقتضيه من آثار اقتضاء ظاهرا، هذه الآثار التي تعتبر «نتيجة تعلق فعل الصفة بمفعوله، فهو بمنزلة الحال النحوية في دلالتها

---

(١) التفسير القيم، ص: ٣٤، ٣٥.
(٢) القواعد الكلية للأسماء والصفات ١/ ٨٨.
(٣) القواعد الكلية للأسماء والصفات ١/ ٧٨.

على هيئة المفعول »[١]، « فالأسماء الحسنى والصفات العلا مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين، فلكل صفة عبودية خاصة، هي من موجباتها ومقتضياتها؛ أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها، وهذا مطرَّد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فعلم العبد بتفرد الرب - تَعَالَى - بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة، يثمر له عبودية التوكل عليه باطنًا ولوازم التوكل وثمراته ظاهرًا وعلمه بسمعه وبصره وعلمه، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه يعلم السرَّ وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي اللّه، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه اللّه ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطنًا ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح، ومعرفته بغناء وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته، توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه، وكذلك معرفته بجلال اللّه وعظمته وعزه، تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى، يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها ارتباط الخلق بها، فخلقه - سبحانه - وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضاها؛ لأنه لا يتزين من عباده بطاعتهم ولا تشينه معصيتهم[٢]، فظهور آثار الصفات لابد منه، إذ هو من مقتضى الكمال المقدس والملك التام؛ لذلك كان من الواجب توحيده - سبحانه وتعالى - في أسمائه وصفاته.

* * *

(١) القواعد الكلية للأسماء والصفات ١/ ٩٦.

(٢) مفتاح دار السعادة ٢/ ٩٠.

المبحث السادس :

توحيد الألوهية

ليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية - وهو كما أسلفنا اعتقاد أن اللَّه وحده خالق هذا الكون -، فلا يظن أن من اعتقد ذلك فقد أثبت غاية التوحيد ومنتهاه، فإن المكلف لو أقر بما يستحقه الرب من الصفات، ونزهه عن كل ما تنزَّه عنه، وأقرَّ بأنه وحده خالق كل شيء، لم يكن موحدًا؛ حتى يشهد ألا إله إلا اللَّه، ويأتي بهذه الشهادة على وجهها فيقر بوحدانية اللَّه المستلزمة للعبادة له وحده لا شريك له.

ولذلك كان هذا هَمَّ الرسل، فكل واحد منهم أول ما يقرع به أسماع قومه هو قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[الأعراف، في الآيات: ٥٩، ٧٣، ٨٥، وهود، في الآية: ٥٠، ٦١، ٨٤]، ويتقرّر هذا كله بقوله - تَعالَى -: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[النحل، الآية: ٣٦]، فهذا هو النداء الذي كان يُنَادى به المشركون من قبل الأنبياء والرسل وجملة « في كل أمة »، أفادت أن ما من رسول إلا وطلب من قومه توحيد العبادة؛ ليعلم أن هذا النوع من التوحيد هو رأس مهمة الرسل وأساس ما ينبني عليه المعتقد، وهو ما أفادته كلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو، ومن ثم لم يقل: لا خالق ولا رازق ولا رب إلا اللَّه؛ لأن هذه التراكيب لا تفيد ما أفاده اسم الجلالة الذي يعني المألوه أي المعبود، وقد تفطن المشركون لهذا بما أوتوه من ملكة لسانية فتعجبوا معبّرين بقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾[ص، الآية:٥]؛ لأنهم كانوا يعرفون في لغتهم معنى الألوهية ومن ثم معنى الإله « وكانوا يعرفون أن الألوهية نفي الحاكمية العليا، وكانوا

يعرفون أن مؤدى هذا النوع من القول والنطق به، هو بداية نزع السلطان عن كل أحد إلا اللّٰه الواحد، ولذلك استقبلوا هذه العبارة ذلك الاستقبال العنيف »(١).

أ- مفهوم الألوهية والإله: الألوهية هي العبادة - كما قدمناه بين يدي المبحث - مأخوذة من الإلهة والألهانية(٢). والإله هو اللّٰه - عَزَّ وَجَلَّ -، وكل ما اتخذ من دونه معبودا إله عند متخذه والجمع آلهة، وتطلق على الأصنام وما سميت بذلك؛ إلا لاعتقادهم أن العبادة تحق لها(٣)، واللّٰه - عَزَّ وَجَلَّ - ينص على أن العبادة له دون سواه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[الزخرف، الآية: ٤٨]، فأفادت الآية نفي الشريك مطلقًا في الإلهية، وقُصِدَ بذكر السماء والأرض، الإحاطة بعوالم التدبير، والخلق؛ لأن المشركين جعلوا للّٰه شركاء في الأرض وهم أصنامهم المنصوبة، وجعلوا له شركاء في السماء وهم الملائكة - إذ جعلوهم بنات اللّٰه - فكانت الآية إبطالًا للفريقين مما زعمت إلهيتهم(٤)، ونظير هذه الآية قوله - تَعَالَى -: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام، الآية: ٤]، وللذين جعلوا أهواءهم آلهة، ذكرهم بقوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان، الآية:٤٣]، حيث عبدوا الأصنام، وكانت شهوتهم وهواهم(٥). وها أنت ترى أن الأهواء المتبعة أطلق عليها اسم الإله، وفي الحديث عن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عن النبي ﷺ: « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش.. الحديث »(٦)، وقال - تَعَالَى - على لسان إبراهيم: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٠٥.
(٢) لسان ا لعرب ١٣/٤٦٧، مادة « أله » والنهاية في غريب الحديث ١/ ٦٢ .
(٣) ١٣ لسان العرب، ١٣/ ٤٦٧، مادة، « أله ».
(٤) التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٦٧.
(٥) التحرير والتنوير ١٩/ ٣٥.
(٦) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٦/ ٨١ (كتاب الجهاد باب الحراسة في الغزو في سبيل اللّٰه) والخميصة: ثوب خز أو صوف معلم. النهاية في غريب الحديث، ٢/ ٨٠،٨١.

إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام، الآية: ٧٤]، فتضمن ما حكي من كلام إبراهيم - عليه السلام - جعله الصور المنحوتة آلهة، وهي ظاهرة الانحطاط عن صفة الإلهية، كما تضمن إنكار تعدد الآلهة.

وإذا كان هذا النوع من التوحيد هو المطلوب من العباد، كان اسم «الله» هو الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء والصفات، فهو الغاية لجميعها؛ ولهذا ترد الأسماء الأخرى والصفات غالبا مقرونة به، فيقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة، الآية: ٢١٨]، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة، الآية: ٢٨٢]، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة، الآية: ٢٢٢]، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة، الآية: ٢٤٠]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الحشر الآيات ٢٢-٢٤]، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له.

إذ إنه الاسم العَلَم المتضمن جميع معاني الأسماء والصفات، ومن ثَمَّ قال بعض العلماء - رحمهم الله -: «الله أعرف المعارف»، ومرادهم أنه دال بالعلمية على الذات المقدسة الموصوفة بالصفات العلية، ومما يدل على ذلك وصفه على وجه الخصوص تارة وأخرى على وجه العموم، كقوله - تعَالَى -: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾[الحشر، الآية: ٢٤]، وقوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[البقرة، الآية: ٢٥٥]، وقوله - تعَالَى -: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الأعراف، الآية: ١٨٠]، فوصف ذاته العلية في هذه الجمل القرآنية بأنه الخالق البارئ المصور الأحد الحي القيوم، وفي الأخيرة أضاف الأسماء الحسنى إليه بلفظ العام(١).

---

(١) انظر مجموعة الرسائل المفيدة عن أعلام السنة المشهورة، ص: ٢٥ بتصرف يسير.

ووجه دلالته عليها، دلَّ على الإلهية المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له مع نفي أضدادها عنه، وصفاته الإلهية، هي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال والعيوب والنقائص، فعلم أن اسمه «اللَّه» مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته وجميع الصفات الأخرى؛ إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فعَّال لما يريد ولا حكيم في أفعاله، فصفات الجلال والجمال أخص باسم اللَّه[١].

وهذا التوحيد الذي هو توحيد الألوهية أول الدين وآخره، فإن المتأمل في هذا، يجد أنه أول ما دعا إليه الرسول ﷺ هو شهادة ألا إله إلا اللَّه، قال - عليه الصلاة والسلام -: «أُمِرتُ أن أقاتلَ الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه». وقال - عليه الصلاة والسلام - لمعاذ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه».

كما أن الأمر ملحوظ فيه أنه ختم بهذه الجملة، فعن عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا اللَّه دخل الجنة»[٢]، وعن معاذ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا اللَّه دخل الجنة».

وفي المسند: «إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حين الموت إلا وجد روحه لها روحًا»، وهي الكلمة التي عرضها على عمه عند الموت.

فهو - إذًا - أول واجب على المكلف وآخر واجب. وقد أفصح القرآن في هذا النوع كل الإفصاح وأبدى فيه وأعاد، وضرب لذلك الأمثال؛ بحيث أن كل سورة من

---

(١) انظر التفسير القيم، ص: ٣١،٣٢، ومدارج السالكين ١/ ٣٢.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٤١ (كتاب الإيمان، باب من لقي اللَّه بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار).

سور القرآن اشتملت على هذا النوع من التوحيد الذي هو توحيد الألوهية «وليس التعلق بهذا الاسم إلا لأنه مبني على إخلاص التأله، وهو أشد المحبة للّه وحده، وذلك يستلزم إخلاص العبادة، وتوحيد العبادة لذلك، وتوحيد الإرادة؛ لأنه مبني على إرادة وجه اللّه بالأعمال، وتوحيد القصد؛ لأنه مبني على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة للّه وحده، وتوحيد العمل؛ لأنه مبني على إخلاص العمل للّه وحده»[١]، ومن هنا تقرّر أن رأس العبادات وأساس الطاعات توحيد اللّه - سبحانه وتعالى -، التي أفادته كلمته التي إليها كانت دعوة رسله الكرام وهي قول: **«لا إله إلا اللّه»**.

* * *

(١) تيسير العزيز الحميد، ص:٣٨ وانظر الدين الخالص ١/ ٥٦.

المبحث السابع :

ما يمكن أن يتفرع عن الكلية

قوله - تَعَالَى -: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾[1] [الحديد، الآية: ٣].

فقـه القـاعـدة :

لقد اشتملت هذه الجملة من القرآن على أربعة أخبار هي صفات للَّه- تَعَالَى -[2]، وأولها صفة الأولية، ويرادف هذا الوصف في اصطلاح المتكلمين صفة القدم[3]. وهو يستلزم صفة الغنى المطلق، وهي عدم الاحتياج إلى المخصص الذي يخصصه بالوجود

---

(١) قال البيهقي - رحمه اللَّه -: «الأول: هو الذي لا ابتداء لوجوده والآخر: هو الذي لا انتهاء لوجوده، وهما صفتان يستحقهما بذاته، والظاهر هو الظاهر بحججه الباهرة وبراهينه النيرة وشواهد أعلامه الدال على ثبوت ربوبيته وصحة وحدانيته، وقد يكون الظهور بمعنى العلو والرفعة، وقد يكون بمعنى الغلبة، والباطن: هو الذي لا يستولي عليه توهم الكيفية ... » الاعتقاد، ص: ١٨، ١٩.
وأولى من هذا ما جاء عن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - عن النبي - ﷺ - أنه كان يقول إذا آوى إلى فراشه: «اللَّهم رب السماوات والأرض، ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن العظيم؛ أعوذ بك ن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دون شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر» سنن ابن ماجه ٢/ ١٢٧٥ (كتاب الدعاء، باب ما يدعو به إذا آوى إلى فراشه) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، انظر سنن الترمذي ٥/ ١٣٨ أبواب الدعوات باب ١٩.

(٢) لقد كان الحادي لاختيار هذه الجملة القرآنية باعتبارها قاعدة تتفرع عما سبق هو ما لاحظته في هذه الصفات من خصيصة الموسوعية لمعاني باقي الصفات الآخرى، فهي كالوعاء لها باللزوم والاقتضاء، كما سنراه حين الحديث عن فقهها.

(٣) انظر التحرير والتنوير ٢٧/ ٣٦٠.

بدلًا عن العدم؛ إذ الأول يعني الموجود لذاته دون سبق عدم، وعدم الاحتياج إلى محل يقوم به قيام العرض بالجوهر.

كما أنه يستلزم انفراده- تَعَالَى- بصفة الوجود؛ لأنه لو كان غير اللَّه واجبًا وجوده لما كان اللَّه موصوفًا بالأولية، فالموجودات غير اللَّه ممكنة، والممكن لا يتصف بالأولية المطلقة؛ فلذلك تثبت له الوحدانية.

ثم إن هذه الأولية في الوجود تقتضي أن تثبت للَّه جميع صفات الكمال.

وأما الصفة الثانية، فهي صفة الآخرية التي اقتضتها الأولية؛ إذ حين تقرّر كونه الأول - وهو متعلق بوجود الموجودات - اقتضى أن يكون وصفه «الآخر» متعلقًا بانتقاض ذلك الوجود، أي هو الآخر بعد جميع الموجودات في السماوات والأرض وهذا هو معنى قوله - تَعَالَى -: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص، الآية: ٨٨]، فكل موجود هالك إلا إياه[١]، فدلت الآخرية على استمرار وجوده - تَعَالَى -، وليس فيها إشعار بأنه زائل ينتابه العدم؛ إذ لا يُشْعِرُ وصف الآخر بالزوال لا مطابقة ولا التزامًا[٢]، وهذه هي صفة البقاء في اصطلاح المتكلمين فكل معنى للآخِر إلا وفيه معنى الباقي[٣] ولا يحسبن المطلع على هذا المبحث أن مصطلح البقاء لم يستعمل في القرآن الكريم؛ إذ إن الحق - سبحانه - قد تكلم عن نفسه، فقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[الرحمن، الآيتان: ٢٦، ٢٧]، فذكر في الآية الأولى بالفناء، ثم عقب عليه بما ينبئ عن صفة البقاء لذاته - تَعَالَى -، وكذلك قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[طه، الآية: ٧٣]، فحكى مقولة السحرة التائبين الذين آثروا الباقي؛ الذي هو اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - على الفاني؛ الذي هو فرعون.

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٠/ ١٩٧.

(٢) نفسه ٢٧/ ٣٦١.

(٣) نفسه.

وأما الظاهر فإنما عني به - والله أعلم - ظهور أدلة صفاته الذاتية لأهل النظر والاستدلال والتدبر في آيات الكون، فيكون هذا الوصف جامعًا لصفته النفسية وهي الوجود؛ إذ إن أدلة وجوده بينة واضحة، ولصفاته الأخرى مما دل عليها فعله من قدرة، وعلم وحياة، وإرادة، وصفات الأفعال من الخلق والرزق والإحياء والإماتة، كما علم في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ - أو ما دل عليها - تنزيهه عن النقص كصفة الوحدانية والغنى المطلق، وهذا المعنى هو الذي يناسبه المقابلة بالباطن الذي يعني أنه محجوب عن إدراك الحواس الظاهرة قال - تَعَالَى -: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام، الآية: ١٠٣].

وفائدة إجراء الوصفين المتضادين على اسم الله - تَعَالَى - في هذه الآية القاعدة؛ للتنبيه على عظم شأنه - سبحانه - ليتدبر العالمون مواقعها، ونظير ذلك من دلالة الآثار على المؤثر، فإن دلائل تصرفه - سبحانه - بينة للمتبصر، وإن كانت كيفيات تصرفه محجوبة عن الحس(١).

* قوله - تَعَالَى -: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام، الآية: ١٠٣].

فقه القاعدة :

الإدراك معناه اللحاق والوصول إلى الشيء، والتدارك التلاصق، وفي التنزيل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾(٢) [الأعراف، ٣٨]، ويقال تبعه وأتبعه حتى أدركه، قال - تَعَالَى -: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء، الآية: ٦١]، ويقال: أدركه الطرف والموت، ومنه قوله - تَعَالَى -: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ [يونس، الآية: ٩٠]، في كل ذلك معنى اللحاق بعد اتباع حسي أو معنوي.

---

(١) التحرير والتنوير بتصرف يسير ٢٧/ ٣٥٩ وما بعدها.

(٢) وانظر لسان العرب، ١٠/ ٤١٩، مادة "درك".

كما يقال فيما بعد أو دق وخفي، لا يدركه الطرف، فإن اجتهاد النظر لإدراك ما لطف ودق إعمال له، كإعماله في محاولة إبصار البعيد.

ومن هنا فسّر الجمهور الإدراك في الآية برؤية الإحاطة التي يعرف بها كنهه - عَزَّ وَجَلَّ - فتكون الآية بمعنى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه، الآية: ١١٠] فنفي إحاطة العلم لا يستلزم نفي أصل العلم، وكذلك نفي إدراك البصر للشيء لا يستلزم نفي رؤيته إياه مطلقًا، وهذا أقوى ما جمع به أهل السنة بين الآية والأحاديث الصحيحة الناطقة برؤية البشر لربهم في الآخرة من جهة اللغة[١].

فالإدراك المعبّر به في الآية غير الرؤية؛ لأن الشيء قد يرى الشيء ولا يدركه، وقد يدركه ولا يراه، فبين اللفظين عموم وخصوص أو اشتراك لفظ[٢]، «فإن كان الشيء قد يرى الشيء ولا يدركه؛ فكان معلومًا بذلك أن قوله - تَعَالَى -: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ من معنى لا تراه الأبصار بمعزل؛ ولأن معنى ذلك: لا تحيط به الأبصار، لأن الإحاطة به غير جائزة»[٣]، فليس - إذًا - كل من رأى شيئًا يقال: إنه أدركه، كما لا يقال: أحاط به، وقد سئل ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عن ذلك، فقال: ألستَ ترى السماء؟ قال السائل: بلى! فقال: أكلها ترى؟ قال: لا. ومن ثم علم أن الرؤية قد تقع ولكن بلا إدراك، والإدراك هناك إدراك البصر، فيكون معنى الآية: لا تحيط به الأبصار - لأنه أعظم من أن تقع الإحاطة به فلا تطيقه الأبصار، فعموم النكرة في سياق النفي يدل على انتفاء أن يدركه شيء من أبصار المبصرين[٤]، ثم عطف - تَعَالَى - ذلك قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، «وهي صفة أخرى، أو هو تنزيل

---

(١) انظر تفسير المنار ٧/ ٦٥١.
(٢) انظر دقائق التفسير ٣/ ١٨٦.
(٣) جامع البيان ٨/ ٣٠٠.
(٤) انظر جامع البيان ٨/ ٣٠٠ وانظر التحرير والتنوير ٧/ ٤١٥.

للاحتراس؛ دفعًا لتوهم: أنَّ من لا تدركه الأبصار لا يعلم أحوال من لا يدركونه »[١]، واللطيف من اللطف وهو الرفق في المعاملة والعمل[٢]، قال ابن الأثير في تفسير اللطيف: « هو الذي اجتمع له الرفق في الفعل، والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدَّرها له من خلقه »[٣] فأما العلم فمن قوله - تَعَالَى -: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى، الآية: ١٩]، « فهو العليم بالغوامض والدقائق من المعاني والحقائق، وقد يقال - أيضًا -: رفيق بهم يوصل إليهم أرزاقهم بمنتهى العناية »[٤]، وأما اللطيف في الفعل فمن مثله قوله - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾[يوسف، الآية: ١٠٠]، فسر بلطف التدبير والعناية[٥]، وقد أفادت هذه القاعدة القرآنية العقدية عظمته - عَزَّ وَجَلَّ - التي تعالت أن يحيط بها شيء من أبصار المخلوقين، قال صاحب التحرير والتنوير « وفيها تعريض بانتفاء الإلهية عن الأصنام التي هي أجسام محدودة محصورة متميزة، فكونها مدركة بالأبصار من سمات المحدثات لا يليق بالإلهية، ولو كانت آلهة - كما يزعمون - لكانت متحجبة عن الأبصار »[٦]، فبذكر هذه الآية يكون المولى - عَزَّ وَجَلَّ - قد امتدح نفسه، ومعلوم أن كون الشيء لا يرى ليس صفة مدح؛ لأن النفي المحض لا يكون مدحًا إن لم يتضمن أمرًا ثبوتيًا، فعلم أن مجرد نفي الرؤية لا مدح فيه، وإذا كان المنفي هو الإدراك، فهو - سبحانه - لا يحاط به رؤية كما لا يحاط به علمًا، ونحن في هذا المقام يكفينا أن نقول: إن الآية أصل في تنزيه اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - عن الرؤية البصرية.

---

(١) التحرير والتنوير ٧/ ٤١٦.
(٢) انظر تفسير المنار ٧/ ٦٥٤.
(٣) النهاية في غريب الحديث ٤/ ٢٥١.
(٤) تفسير المنار ٧/ ٦٥٤.
(٥) تفسير المنار ٧/ ٦٥٥.
(٦) التحرير والتنوير ٧/ ٤١٤.

ولا تحسبن أن في الآية دلالة على انتفاء أن يكون الله يرى في الآخرة - كما تمسك به نفاة الرؤية -؛ لأن للأمور الآخرة أصولًا لا تجري على ما تعارفناه في الدنيا، والأدلة على إثبات الرؤية في الآخرة كثيرة من الكتاب والسنة، وجمهور أهل السنة مثبت لها، على أنه تخالف الرؤية المتعارفة.

عن مالك- رحمه الله-: «لو لم يرَ المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعيِّر الكفار بالحجاب في قوله- تَعَالَى-: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾[المطففين، الآية: ١٥]، ففهم منه أن المؤمنين ليسوا محجوبين عنه، وهو كذلك، وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس، الآية: ٢٦] والحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى الله الكريم[١]؛ ولأن أبصار المؤمنين في الآخرة باقية، فلا استحالة أن يُرى الباقي بالباقي، بخلاف حالة الدنيا فإن أبصارهم فيها فانية، فلا يُرى الباقي بالفاني»[٢].

* * *

(١) انظر التحرير والتنوير ٧/ ٤١٥، وأضواء البيان ٢/ ٢٠٦.

(٢) فتح الباري ٨/ ١٣٠٣.

المبحث الثامن :

تطبيقات على بعض الأسماء والصفات

أ - تطبيقات على بعض الأسماء :

ويحسن قبل الشروع في التطبيق الإشارة إلى أصلين متعلقين بأسماء اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - من حيث الاستعمال القرآني.

١- فتارة ترد الأسماء الحسنى تابعة لغيرها، وفي هذا الحال، تستعمل استعمال الصفات كمجيئها بعد لفظ الجلالة: « اللَّه »، واسم: « الرحمن »، وهذا هو الغالب، مما يدل دلالة بينة على أن جانب الوصفية متأصل فيها. ولذا لم يتخلف عن هذا إلا اسم: « اللَّه »، ولعل ذلك « لغلبة جانب العلمية عليه حيث استعمل استعمال الأعلام، فكان علمًا على الذات »[1].

٢- وتارة تستعمل متبوعة فيكون غيرها وصفًا لها وتابعًا، وهذا النوع ينحصر في اسم: « اللَّه »، واسم: « الرحمن ».

وعلى ضوء ذلك فاسم اللَّه: « الحكيم » - مثلًا - لم يستعمل إلا استعمال الأوصاف، فلم يرد قط إلا وهو تابع لغيره مما يدل على أن معنى الوصفية فيه متمكن.

فدلَّ بوضعه العربي على ذات اللَّه المقدسة وعلى صفته المحكمة، وهذه الدلالة عليهما معا تسمى دلالة مطابقة، لدلالة الحكيم على معناه وهو الذات والصفة ودلالته على الصفة التي اشتقت منها وهي الحكمة وحدها أو الذات وحدها.

---

(١) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد ٢/ ٣٦ وما بعدها.

وهي واضحة في استعماله تابعًا لغيره، كما في قوله - تَعَالَى -: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[آل عمران، الآية: ١٢٦]، وكما دل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة، فإنه يدل عليه دلالتين أخريين، بالتضمن واللزوم، فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة، ويدل على الصفة الأخرى باللزوم، وبذلك دلَّ: « الحكيم » على اللَّه وصفاته بالمطابقة والتضمن واللزوم، وهكذا الأمر في جميع أسمائه - تَعَالَى -، فهي مشتملة بذلك على أنواع الكمالات تابعة لأنواع الدلالة اللغوية[1]. فهي أسماء ونعوت، ولا تنافي فيها بين العلمية والوصفية.

وبتطبيق هذا الأصل على أجزائه وأفراده يتبين المراد ويتضح المعنى المطلوب:

* اسم: « **القدوس** »، ومعنى القدوس الطاهر من العيوب، المنزه عن الأولاد والأنداد[2]، فهذا المعنى يدل بلفظه ومعناه على مجرد التنزه، غير أن المتبصر في مقاصد التعبير بهذا الاسم، يمكن أن يستنبط بطريق اللزوم أن القدوس المنزه عن العيوب والنقائص، لابد له من الاتصاف بضدها، فالصمم عيب، فلابد أن يكون سميعا، والجهل نقص، فيلزم أن يكون عالمًا، والخرس عيب، فلابد من وصفه بالكلام، وهكذا يظهر بهذا الموجز أن اسم اللَّه « القدوس » قد استعمل على طريقتين:

١- التنزه الخالص من العيوب والنقائص.

٢- الاتصاف بالأوصاف الكمالية.

قال ابن القيم - رحمه اللَّه -: « وأما صفات السلب المحض، فلا تدخل في أوصافه - تَعَالَى- إلا أن تكون متضمنة لثبوت؛ كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والألوهية،

(١) انظر مدارج السالكين ١/ ٣٠، وانظر بدائع الفوائد ١/ ١٣٤.
(٢) الاعتقاد، ص: ١٥.

والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص يضاد كماله، وكذلك الإخبار عنه بالسلوب كقوله - تَعَالَى -: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[البقرة، الآية: ٢٥٥]، فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته، وكذلك قوله - تَعَالَى -: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق، الآية:٣٨]، متضمن لكمال قدرته، وقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾[1][يونس، الآية: ٦١]، متضمن لإحاطة علمه.

وما قيل في الغني الحميد، يقال في العفو القدير، فإن في العفو وفي صفته ما يدل على رحمته بعباده، وإكرامه لهم، وإحسانه إليهم بالتجاوز عن السيئات، وفي القدير ما يدل على إحاطته وقهره لجميع الموجودات، لا يخرج شيء منها، ولا ينفذ عن قدرته.

ففي الجمع - إذًا - بين الكمالين، ينتج كمال ثالث، ولا شك أنه أعظم دلالة من الكمال المفرد؛ لأنه يدل على كمال في تحصيله جزءا كمال، ومن ثم قال ابن القيم - رحمه اللّه -: « فتأمله فإنه من أشرف المعارف »[2].

* **الأسماء المزدوجة**: ونعني بها تلك الأسماء الحسنى التي تجيء مقترنة بعضها ببعض اقتران لزوم بمثابة حروف الكلمة، من ذلك أسماء: المعز، والمذل، والنافع، الضار؛ إذ لا يظهر معنى المعز في حق اللّه إلا باجتماعه مع المذل؛ لأن الإعزاز المطلق يدخل فيه - مثلًا - إعزاز الكافر، وهذا مما لا يحبه اللّه ويرضاه، وفي المذل إذلال المؤمن وهو مثل سابقه، فإن قُيِّد معنى المعز بالمذل، صار المعنى: معز المؤمنين ومذل الكافرين. فإعزازه له محل وإذلاله له محل، فلا يعز في كل وقت ولا كل شخص، ولكن يعز من يشاء ومتى شاء، ويذل من يشاء ومتى شاء.

ولا يشك عاقل في دلالتهما على غير الكمال في انفرادهما ودون اجتماعهما، قال ابن القيم: « فلا يطلق عليه بمفرده بل مقرونًا بمقابله؛ لأن الكمال في اقتران كل اسم بما

(١) انظر بدائع الفوائد ١/ ١٣٣، ١٣٤.
(٢) بدائع الفوائد ١/ ١٣٣.

يقابله.. كما أنه لا يثني عليه بمفرده، كأن يثني عليه بالمنع وحده أو الإضرار وحده، فإنه لا يسوغ؛ لأجل ذلك كانت هذه الأسماء في مجرد الاسم الواحد الذي يمتنع فصل حروفه عن بعض»[١].

ب تطبيقات على بعض الصفات :

ولا بأس من الإشارة في هذا المطلب - أيضًا - إلى أصلين هما:

* اسم : «**المجيد**» ، والمجيد معناه: الجليل، الرفيع القدر المحسن الجزيل البر[٢]، وهو من الأسماء الموسوعية المتضمنة سعة المعنى، حيث يدل على جملة أوصاف عديدة، فالمجيد اسم والصفة من المجد، والمجيد من اتصف بعدة صفات كمالية، ولا يبين معناه إلا بذلك، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، ومن ذلك قول العرب: «في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار»[٣]. فمن تدبر القرآن - وهو العربي المعجز - ألفاه يستعمل هذا المعنى لما دل عليه في اللغة من الكثرة والزيادة من ذلك قوله - تَعَالَى -: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ⑮﴾[البروج، الآية: ١٥]، فوصف ذاته بصفة المجد الدالة على عظمته وسعته وشرفه وعلوه وقوله ﷺ في آخر الصلاة على النبي ﷺ: «إنك حميد مجيد»[٤]؛ لأن المقام مقام الدعاء الذي تطلب فيه الزيادة وسعة العطاء وكثرته، ومن أجل ذلك ذيل هذا المطلوب باسم يناسب المطلوب منه استجداء لكثرة العطاء وزيادته،

---

(١) انظر المصدر السابق ١/ ١٣٩ بتصرف يسير.

(٢) الاعتقاد، ص: ١٧.

(٣) أساس البلاغة، ص: ٥٨٢. وقال ابن الأثير - رحمه الله -: «وفعيل أبلغ من فاعل، فإنه يجمع معنى الجليل والوهاب والكريم» النهاية في غريب الحديث ٤/ ٢٩٨ «باب الميم والجيم».

(٤) انظر الحديث في صحيح البخاري بشرح فتح الباري عن أبي حميد الساعدي - رضي الله عنه - ٤٠٧/٦ (كتاب الأنبياء، باب ١٠).

فهو سؤال له وتوسل إليه - سبحانه - بمجده، وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعا عند المسئول.

* **أسماء : الغني ، الحميد، والعفو القدير، ونحوها.**

قد ترد بعض الأسماء مقترنة، فيجتمع الاسمان ويدلان بذلك الاقتران على زيادة كمال(١)، من ذلك الغني الحميد، والعفو القدير، والحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة، فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماعهما كمال آخر، فله ثناء من غناه وثناء من حمده وثناء من اجتماعهما(٢).

* إن مرجع معاني الصفات الذاتية والفعلية إلى اسمي الحي والقيوم، فترجع للحي صفات الذات وللقيوم صفات الفعل، وهذان الاسمان من أعظم أسماء اللَّه الحسنى حتى قيل: إنهما الاسم الأعظم. فعن أسماء بنت يزيد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: اسم اللَّه الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ وفاتحة آل عمران: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(٣) [آل عمران، الآية:١،٢]. فإنهما يتضمنان صفات الكمال أكمل تضمن وأصدقه، فدل القيوم على معنى الأزلية والأبدية، واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال، ويدل على بقائها ودوامها وانتقاء النقص والعدم عنها أزلًا وأبدًا، ولهذا كان قوله تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أعظم آية في القرآن؛ كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ (٤).

---

(١) والتعبير « بزيادة كمال » لا تعني أن هذا الكمال بالمفهوم يحتاج إلى زيادة، وإنما المراد منه: زيادة وضوح وتجل لهذا الكمال بالنسبة للخلق.

(٢) وانظر بدائع الفوائد، لابن القيم - رحمه اللَّه.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود ٤/ ٣٦٤ (باب الدعاء).

(٤) انظر صحيح مسلم ٢/ ١٩٩ (كتاب المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي).

فعلى هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليهما يرجع معانيها فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، فلا يتخلف عنها صفة منها، وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال أتم انتظام[1].

إن صفات الأفعال كلها متعلقة وصادرة عن صفات ثلاث :

١- القدرة الكاملة .

٢- المشيئة النافذة .

٣- الحكمة البالغة .

وذلك بطريق اللزوم، فمن لا قدرة له ليس بفاعل، ومن لا مشيئة له فليس بمختار، ومن لا حكمة له من وراء فعله فغير منزه عن العبث[2].

ولهذا فهو - سبحانه - يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله ويأمره ويحبه ويبغضه ويثيب عليهِ ويعاقب، ولا يصل إلى تصور هذا إلا من غاص في أعماق أفعاله للوقوف على كماله، واشتِكنَاهِ عظمته؛ لأن هذه الصفات مقتضية لآثارها.

فأوصاف العظمة والكبرياء والمجد والجلال - مثلًا - تملأ قلوب العباد هيبة للّه وتعظيمًا له وتقديسًا.

وأوصاف العز والجبروت تملأها ذلًّا وانكسارًا وخضوعًا بين يدي الرب - جل شأنه -.

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٩٠-٩٢.

(٢) انظر القواعد الكلية للأسماء والصفات ٩٣،٩٢/١ بتصرف يسير.

وأوصاف الرحمة والبر والجود والكرم تملأها أملًا واستبشارًا وطمعًا في فضله وإحسانه وجوده وامتنانه.

وها هي ذي آثار الرحمة قد بدت في بعث رسله، وإنزال كتبه إنقاذًا للعباد من الضلال.

وكونه - تَعَالَى - ذا حياة وعلم وإرادة وقدرة وسمع يستلزم ظهور ما يدل على ذلك، وقل مثل هذا في باقي صفاته - عَزَّ وَجَلَّ -.

* * *

الفصل الثاني :

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾

المبحث الأول : القرآن كتاب هدى وإعجاز

المبحث الثاني : القرآن أصل الأصول

المبحث الثالث : القرآن والكتب السماوية

المبحث الرابع : القرآن والسنة النبوية

المبحث الخامس : من مقاصد القرآن الكريم

المبحث السادس: خصائص القرآن الكريم

بين يدي الكلية :

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسير قوله تَعَالَى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾: «أي اللوح المحفوظ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث. وقيل: أي في القرآن، أي ما تركنا شيئًا من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن؛ إما دلالة مُبيَّنة مشروحة وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول ﷺ أو من الإجماع أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب».

ثم قال: «فصرف خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره إما تفصيلًا أو تأصيلًا»[1].

وبهذا بان شمول القرآن لقضايا الناس واتساعه لكل ما ينفعهم إجمالًا وتفصيلًا، فلزم منه أنه هادم ومنج، وأن الهداية والنجاة معقودة على اتباعه والتزامه تصديقًا وتحكيمًا.

كما لزم من هذه الآية الكلية، إثبات كمال الشريعة وتمام نعمته، فلم يمت رسول الله ﷺ إلا ودين الله قد كمل وحجته قد قامت، كما قال عز من قائل -: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة، الآية:٣].

قال الشاطبي - رحمه الله -: «فكل من زعم أنه بقي في الدين شيء لم يكمل فقد كَذَّبَ بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[2]، فمن التمس الهدي في غير دين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٤٢٠.
(٢) الاعتصام ٢/ ٣٠٤، ٣٠٥.

اللَّه، فقد رد على اللَّه أمره وخبره، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران، الآية:٨٥].

وبناء عليه فسنشرف على الكلية المذكورة من خلال مجموعة من المباحث المتناولة لمضامين تبرز قيمتها ومحتوياتها.

* * *

المبحث الأول :

القرآن كتاب هدى وإعجاز

المطلب الأول :

حاجة الإنسان إلى الوحي

حين أراد اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - بإرادته الكونية الأزلية فأوجد هذا المخلوق الذي هو الإنسان، قذف فيه قابلية التلقي مستعدًّا للعلم والانتفاع بما خلق اللَّه، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة، الآية:٣٠] ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق، الآيتان: ٤،٥]، وذلك ترشيحًا له للخلافة في الأرض لعمارتها، وليكون ذلك مظهرًا من مظاهر الرحمة بالمكلفين.

وليخلق اللَّه فيه روح المكافحة خلقه مستعدًّا - أيضًا - للتأثر بداعية الخير وداعية الشر « فأودع فيه - بحكمته الباهرة - قوتين: قوة ملكية تتشعب من فيض الروح المخصوصة بالإنسان.. وقوة بهيمية تتشعب من النفس الحيوانية المشترك فيها كل حيوان.. ثم جعل بين القوتين تزاحمًا وتجاذبًا، فهذه تجذب إلى علو وتلك إلى سفل، فإذا برزت البهيمية وغلبت آثارها كمنت الملكية، وكذلك العكس، وللباريء - جلَّ شأنه - عناية بكل نظام »(١)، حيث بيَّن - عَزَّ وَجَلَّ - عاقبة التأثر بكل منهما، وبذلك كان الإنسان في حاجة إلى الوحي الإلهي يقيه من التبدد بين الجهتين ويحفظه من دواعي الشر والفساد.

---

(١) حجة اللَّه البالغة ١/ ٧١.

وعلى هذا المبدأ أرسل - سبحانه - الرسل، وأنزل الكتب تذكيرًا بما يسعد الإنسان وتنفيرًا مما يشقيه، كل ذلك رحمة به فهو الرؤوف الرحيم.

وإذا اقتضت حكمته بعث الرسل إلى خلقه على سبيل تفهيم شريعته وتعريفهم إياها حتى تكون لهم سببًا لخروجهم من الظلمات إلى النور، فقد بيَّن أن من أسلم وجهه إليه وانقاد لشريعته وانضم في سلك متبعيها، تأكد في الملأ الأعلى أنه من المرضيين، كما تأكد اللعن على المخالف للشريعة المناوئ لها قال تَعَالَى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان، الآية:٣]، وهذه البشارة والنذارة، إنما هي من طبيعة الرسالة التي نيطت بالمبعوثين من الأنبياء والمرسلين، « ومن ها هنا نعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضى الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال ليس إلا هديهم، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم توزن الأقوال والأعمال والأخلاق، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدي من الضلال »[1].

فالوحي - إذًا - ما جاء إلا لتستبين السبيل فتبرز للأفق البشري دائرة الطيب متميزة عن دائرة الخبيث، وبذلك يمكن للنفس الإنسانية أن تصفو من كدر السوء وفاسد الأعمال، وتتوفر لها أسباب بناء المجتمع الأخوي القوي الأمين.

* * *

(١) زاد المعاد ٢٨/١.

المطلب الثاني :

بعض مظاهر الهدى في القرآن الكريم

يقول اللّه - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء، الآية:٩] فالقرآن الكريم يهدي للتي هي أسدُّ وأعدل وأصوب، وهي آية أجمل اللّه فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة، كما أن فيها إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم؛ لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم، ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلكًا إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضًا أو تحذيرًا بحيث لا يعدم المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه، وبتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة، كانت الطريقة التي يهدي إلى سلوكها أقوم من الطرائق الأخرى، فجاءت معاني الهداية في هذه الآية - كما أسلفنا - ثم فصلت في مواقع كثيرة من كتاب اللّه؛ لأن الهداية مطمح من مطامح هذا الكتاب، فلا غرو - إذًا - أن يشيد به منزله - سبحانه - وذلك قصد تبيان وزنه وقيمته حتى يعظم قدره عند عباده.

وقبل أن نورد بعض مظاهر الهداية فيه - من خلاله - فإنه يجمل بنا أن نعرج على ذكر بعض فضائله؛ لتكون حاديًا إلى الإنصات لفحواه والإطلاع على هداه.

لقد أخبر - سبحانه - أنه أنزل كتابه ليدبروا آياته بعقولهم ويتذكروا ما قال بألبابهم، فقال - تَعَالَى -: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص، الآية:٢٩]، فوسمه بالبركة ليعلموا بذلك أنه يدلهم على النجاة، وينالون باتباعه الزلفى والكرامات، وفي قوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ إخبار بأنه أنزله

للتذكر والتفكر فيه، وخص بالتفكر والتذكر أهل العقول أولي الألباب ثم أخبرهم أن اتباع ما فيه، سلوك للصراط المستقيم والنور المبين والعصمة لمن تمسك به من كل هلكة وشفاء لما في الصدور، قال - تعالى -: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾[المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦]، فضمن اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - لمتبعه الهدى لطريق السلامة والسلوك للصراط المستقيم، ووصف المتبعين له كيف قلوبهم وما ورثهم من خشيته، فقال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر، الآية:٢٣]، فأخبرهم أنه لا حديث يشبهه في حسنه، وأخبر أنه متشابه غير مختلف فيه، ثم أخبر أن فيه التكرار عن معاني ما قال إن تنحت قلوبهم عند تلاوة ما في سوره عن فهم معانيه تكرر في سورة أخرى ففهموه، فقال: ﴿مَّثَانِيَ﴾[1]، وفي إجارته من الضلالة في الدنيا، والسعادة في الآخرة، والنجاة من الشقاء، قال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه، الآية:١٢٣]، وقد سماه اللَّه - تعَالَى - برهانًا ونورًا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝١٧٤﴾ [النساء، الآية: ١٧٤]، وسماه بصائر وهدى ورحمة، فقال - تعَالَى -: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠﴾[الجاثية، الآية: ٢٠]، وسماه موعظة وبيانًا، فقال - تعَالَى -: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾[آل عمران، الآية: ١٣٨]، وسماه حقًّا، فقال - تعَالَى -: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾[فاطر، الآية: ٣١]، وقال - تعَالَى -: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾[الزمر، الآية: ٢]، وسماه فرقانًا وشفاءً لما في الصدور، وأخبر أنه أحسن القصص وأنه حكمة بالغة، وبين أنه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ

(١) فهم القرآن ومعانيه: ص٢٧٥-٢٧٧.

خَلْفِهِۦ﴾[فصلت، الآية: ٤٢]، وشهدت الجن أنه: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن، الآية:٢]، فآمنت به واتبعت هداه، ونال شرف الحفظ من قبل الله، على خلاف الكتب السالفة التي تولى حفظها أهلها من الذين هادوا والربانيين والأحبار، حيث قال - سبحانه وتعالى -: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾، ثم قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾[المائدة، الآية: ٤٤]، فبين - تعالَى - كيف ناط بهم الحفظ، ثم بين كيف خصَّ القرآن بتوليه - سبحانه - حفظه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[الحجر، الآية: ٩]، وقال لنبيه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[المزمل، الآية: ٥] قال الفراء - رحمه الله -: «ثقيلًا ليس بالخفيف ولا السفساف؛ لأنه كلام ربنا - تبارك وتعالى -»[1]، وحسبنا أنه حوى من المعارف والعلوم ما لا يفي العقل بالإحاطة به، فكم غاصت فيه أفهام العلماء من فقهاء ومتكلمين وبلغاء ولغويين وحكماء، فشابه الشيء الثقيل في أنه لا يقوى أحد على الاستقلال بمعانيه[2].

وفي الحض على تعظيم قدره وعقله وفهمه، يقول - تعالَى -: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾[الحشر، الآية: ٢١] فأخبر - تعالَى - عن عظيم قدر القرآن وضرب الجبل مثلًا لقلوب المستمعين له؛ ليعقلوا فيتدبروا آياته ويتفكروا في عجائبه، وضَرْبُ هذا المثل دال على أن من لم يفهم عنه ما أنزل في كتابه، أن قلبه أقسى من الحجر الأصم، وأن ما فيه تتصدع الجبال لو فهمته خشية للمتكلم به[3]، وأشار إليه - سبحانه - بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾[الأنعام، الآية: ١٥٣]، فجعله الأصل الكلي الجامع لجميع الهدى، وهو اتباع طريق الإسلام والتحرز

---

(١) معاني القرآن ٣/ ١٩٧.

(٢) التحرير والتنوير ٢٩/ ٢٦١، ٢٦٢.

(٣) فهم القرآن ومعانيه، ص: ٢٨٢، ٢٨٣.

من الخروج عنه إلى سبيل الضلال[1]، وهو القائل - سبحانه -: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[آل عمران، الآية: ٨٥]، فكل من اتبع تشريعًا غير التشريع الذي جاء به محمد بن عبد اللَّه، فاتباعه لذلك التشريع المخالف كفر بواح مخرج عن الملة؛ لأن الدين إذا لم يكن هذا الإسلام فما هو إلا رسوم وتقاليد يتخذها القوم رابطة للجنسية وآلة للعصبية ووسيلة للمنافع الدنيوية، وذلك مما يزيد القلوب فسادا والأرواح إظلامًا، فلا يزيد الناس في الدنيا إلا عدوانًا وفي الآخرة إلا خسرانًا[2].

١- ومن الهدى الذي جاء به القرآن - وله حق السابقة في ذكره على غيره - توحيد اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - حيث بين القرآن فيه معالم السبيل إليه، فتجلى في تبيانه للعقيدة توحيده - جل وعلا - في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وعبادته.

ومن يطالع كتاب اللَّه ويستقرىء مواطن التوحيد، يقف على هذا التقسيم: فمن توحيد الربوبية قوله - تَعَالَى -: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف، الآية:٨٧]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس، الآية:٣١]، وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء أما توحيده - سبحانه - في أسمائه وصفاته؛ فينبني على أصلين:

أ- تنزيهه عن مشابهة المخلوقين، قال - تَعَالَى -: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى، الآية:١١].

ب- الإيمان بما وصف به نفسه أو وصف به رسوله ﷺ، كما قال بعد قوله -

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ١٥٦.

(٢) تفسير المنار ٣/ ٣٥٨.

عزَّ وجلَّ -: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى، الآية:١١] بصد قطع الطمع في إدراك كيفية الاتصاف.

ومن توحيده في عباداته قوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[محمد، الآية: ١٩]، وضابط هذا النوع من التوحيد، هو تحقيق معنى **لا إله إلا الله**، وهي مشتملة على نفي وإثبات، فمعنى النفي: خلع جميع أنواع المعبودات غير اللَّه كائنة ما كانت، ومعنى الإثبات: إفراده - جلا وعلا - بجميع أنواع الطاعات بإخلاص على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله - عليهم الصلاة والسلام -. وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد ومن مثلها قوله - تعالَى -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء، الآية:٢٥]، وقوله - تعالَى -: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء، الآية:١٠٨]، «وهي آية ورد فيها الوصف جامعًا لأصل الدعوة الإسلامية في ذاتها الواجب على كل متبع لها وهو الإيمان بوحدانيته - تعالَى - وإبطال إلهية ما سواه، وصيغت الجملة في صيغة حصر الوحي إليه في مضمونها؛ لأن مضمونها هو أصل الشريعة الأعظم، وكل ما تشتمل عليه الشريعة متفرع عنها»[1]، فها أنت ترى أن الجمل التي تناولت التوحيد جاءت بهدى أعدل وأقوم في ربوبيته وأسمائه وصفاته، وكذا في توحيد عبادته.

٢- ومن هذا الهدى الأقوم الذي أرشدنا إليه الكتاب، بيانه لآصرة العقيدة وأنها أوثق وآكد وأجدى من سواها من الأواصر والروابط الأخرى، قال اللَّه - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾[هود، الآيتان: ٤٥-٤٦]، فكان

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧/ ١٧٠، وانظر الفصل الأول من هذا البحث.

هذا النداء من النبي نوح - عليه السلام - نداء دعاء، وذلك حين تحركت بداخله غريزة الأبوة المستلزمة للشفقة والعطف على الابن فألجأته ليستنجز ربه وعده ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود، الآيتان:٤٥،٤٦]، وهنا تنجلى قيمة العقيدة التي تعلو فوق كل القيم والعلائق، وبحضورها تنبت كل الوشائج. فهداه ربه - سبحانه - إلى التي هي أقوم، فكشف له عن حقيقة لم تكن له في الحسبان، وهي أن المعايير آيلة إلى الدين والعقيدة تعرض عليهما دون سواهما، وأن العبرة بهما لا بغيرهما من الأنساب ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ إنها الحقيقة الكبيرة في هذا الدين، حقيقة العروة الوثقى التي ترجع إليها الخيوط جميعًا، عروة العقيدة التي تربط بين الفرد والفرد ما لا يربطه النسب والقرابة[(١)]، وكان حال محمد ﷺ حين قال لعمه أبي طالب: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» كان حاله كحال نوح - عليهما الصلاة والسلام - فأنزل اللّٰه - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾[(٢)] [التوبة، الآية:١١٣]، حيث أرشده ربه إلى إظهار البراءة من الكفار والمنافقين من جميع الوجوه أحيائهم وأمواتهم، وإن كانوا في غاية القرب منه.

وبذلك يتمحض الولاء كله للّٰه، وعلى أساس هذا الولاء تقوم كل رابطة وكل وشيجة فيكون اللّٰه - تَعَالَى - قد هدى المؤمنين بحسم كل شبهة، وذلك بالاعتصام به من كل ضلالة، وحسبهم بعد ذلك نصرة اللّٰه وولاؤه لهم.

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٨٠.

(٢) أسباب النزول للواحدي، ص: ١٧٧، وانظر التفسير الكبير ٨/ ٢١٤.

وقد يغترُّ من يسمع استغفار إبراهيم لأبيه المحكي في القرآن الكريم، وذلك في نحو قوله - تَعَالَى -: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء، الآية:٨٦]، وكذلك قوله - تَعَالَى -: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة، الآية:١١٤]؛ إذ إن استغفار إبراهيم لأبيه قد يثير تعارضًا بين السابق واللاحق؛ لذلك تصدّى القرآن للجواب عنه ولتعليم من اغتر بهذه الحكاية، فعقبه بقوله - تَعَالَى -: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة، الآية:١١٤].

فهذان نموذجان في تبيان الطريق الأقوم الذي يستوجب السير عليه، وحسبنا مواقف الأنبياء إزاء أقاربهم، فهم الأسوة والمثل.

فالرابطة - إذًا - التي يجب المناداة بها دون غيرها، إنما هي الرابطة الإسلامية حيث يصير المجتمع - المجتمع الإسلامي - كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، ومن ها هنا يكثر في القرآن إطلاق النفس وإرادة الأخوة تشبيهًا على أن رابطة الإسلام تجعل أخ المسلم كنفسه، قال - تَعَالَى -: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[النور، الآية: ١٢]؛ لأنه - تَعَالَى - جعل المؤمنين إخوة، فقاتل أخيه كقاتل نفسه، ولامزه كلامز نفسه، وكذلك تفعل العرب فيكني المتكلم عن نفسه بأخيه؛ لأن أخا الرجل عندها كنفسه[جامع البيان: ٢/ ١٨٣].

٣- ومما هدى إليه القرآن - ويعتبر من مقاصده العالية - حفظ النفس من الفناء، قال اللَّه - تَعَالَى - ناهيًا قربان النفس بسوء إلا بحق -: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الأنعام، الآية: ١٥١]، والحق: هو الأمر الذي حق؛ أي ثبت أنه غير باطل في حكم الشريعة، وعند أهل العقول السليمة البريئة من هوى أوشهوة خاصة، فيكون الأمر الذي اتفقت العقول على قبوله هو ما اتفقت عليه الشرائع »[1].

(١) التحرير والتنوير: ٨/ ١٦١.

وقد فصَّل اللَّه هذا في القرآن والسنة، وهدى إلى كيفية إتيانه ومباشرته، ومن ذلك قتل المحارب والقصاص، وهما مما نَصَّ عليه في القرآن، وقتل المرتد بعد استتابته، وقتل الزاني المحصن، وقتل الممتنع من أداء الصلاة بعد إنظاره حتى يخرج وقتها، وهي مما نصَّتْ عليها السنة النبوية.

* كما أن القرآن الكريم أبرز قيمة الأنفس من خلال كون قتلها يعتبر جرمًا فظيعًا كفظاعة قتل الناس جميعهم، فقال - تَعَالَى -: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾[المائدة، الآية:٢٤]، وفي هذا التشبيه إيحاء إلى أن قاتل النفس بغير حق متابع من قبل الأمة بأسرها، مأخوذ أينما ثقف، وكل فرد من الأفراد مخاطب على حسب قدرته من ولاة الأمور إلى عامة الناس، والمقصود تهويل القتل[1]. كل ذلك كالتوطئة لمشروعية القصاص المصرح به في قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾[المائدة، الآية: ٤٥]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾[البقرة، الآية: ١٧٨]، ثم عقبه سبحانه ببيان ثمرة هذا القصاص فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة، الآية:١٧٩] فأرشدنا إلى أن شرع القصاص يفضي إلى الحياة في حق من يريد أن يكون قاتلًا؛ لأن أعظم شيء من اختلال الأحوال اختلال حفظ نفوس الأمة، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس، لأن آذى ما تتوقاه الأنفس من الحوادث هو الموت، فلو علم القاتل أنه يسلم من الموت، لأقدم على القتل استخفافًا بالعقوبة، ولو تُرِك الأمر للثأر، لأسرف الناس في القتل، فكان في مشروعية القصاص حياة عظيمة للجانبين.

٤- ومن الهدى الذي دعا إليه القرآن، ما أولاه لمؤسسة الأسرة باعتبارها اللبنة الأولى في البناء الإسلامي للمجتمع؛ حيث وجدناه يصيغ قواعد تشريعية

---

(١) التحرير والتنوير، ٦/ ١٧٨.

جامعة تؤلف دستورًا كاملًا وشاملًا ودقيقًا لنظام هذه المؤسسة الإنسانية، مما يبرز الاهتمام البالغ الذي يعقده المنهج الإسلامي للحياة الإنسانية على هذه المؤسسة الخطيرة، وكيف نظر إلى وظائفها والغاية منها وإحاطتها بسياج من العناية بعيدًا عن كل المدمّرات التي تودي بها نحو المهالك، ومن ثَمَّ التبدد والزوال.

ومن هذه القواعد الكلية قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[النساء، الآية: ٣٤]، «وهوأصل تشريعي كلي تتفرع عنه الأحكام التي في الآيات بعده فهو كالمقدمة لها»[١]، هذه الكلية التشريعية التي قصدت «توضيح الاختصاصات التنظيمية فيها لمنع الاحتكاك بين شقيها بردهما جميعًا إلى حكم اللَّه لا حكم الهوى، والانفعالات الشخصية، فيحدد أن القوامة للرجل، ويذكر من أسباب هذه القوامة تفضيل اللَّه للرجل بمقومات القوامة وما تتطلبه من خصائص ودربة، وتكليف الرجل الإنفاق على الأسرة، وبناء على إعطاء هذه القوامة للرجل يحدِّد؛ كذلك اختصاصات القوامة في صيانة الأسرة من التفسخ وحمايتها من النزوات العارضة وطريقة علاج هذه النزوات حين تُعْرَضُ في حدود مرسومة، وأخيرًا يبين الإجرات الخارجية التي تُتَّخَذُ عندما تفشل الإجراءات الداخلية ويلوح شبح الخطر على الأسرة»[٢]، ومقابل هذه القواعد الممنوحة للرجل، جعل اللَّه للمرأة وظائف لا تقل مسئولية وعظم شأن عن وظيفة القوامة المخولة للرجل - بحيث تؤدى بدون إعداد عضوي ونفسي وعقلي عميق - فقد زوّدت بخصائص ومؤهلات فطرية وكسبية لتولي هذا الدور الخطير المتمثل في الإشراف المباشر على ثمرة الأسرة وكسبها على مستوى التنشئة في ضوء المنهج الإسلامي السليم.

ولو رحنا نستكشف أسرار هذا التوزيع الرباني ومقاصده لوظيفتي الرجل والمرأة؛ لأشرفنا على أنه السبيل الأقوم والطريق الأعدل الذي هدى إليه الكتاب.

---

(١) التحرير والتنوير ٤/ ٢٧.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/ ٦٤٩، ٦٥٠.

٥- ومما هدى إليه القرآن حفظ الأموال فقال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[البقرة، الآية: ١٨٨]، وهو خطاب عام يشمل المكلفين جميعهم. وهذا الباطل المنهي عنه يدخل فيه «كل ما لم يكن في مقابلة شيء حقيقي يعتد به مع رضاء من يؤخذ منه، وكذا إنفاقه في وجه حقيقي نافع»[1]؛ إذ الشرع يتوخى المصالح والمنافع لعامة المكلفين، ويقصد إليها؛ لذلك أورد هذا الخطاب بما يشعر بوحدة المجتمع وحاجته الضرورية إلى التكافل، وذلك حين عبّر بقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم﴾، والمراد: لا يأكل بعضكهم مال بعض «حتى ينبه على أن احترام مال غيرك وحفظه، هو عين الاحترام والحفظ لمالك؛ لأن استحلال التعدي وأخذ المال بغير حق، يعرّض كل مال للضياع والذهاب ففي هذه الإضافة البليغة، تعليل للنهي؛ كأنه قال: لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل؛ لأن ذلك جناية على نفس الآكل: قل ابن عاشور - رحمه الله -: وهذا الأكل مراتب:

المرتبة الأولى: ما علمه جميع السامعين مما هو صريح في كونه باطلًا؛ كالغصب، والسرقة، والحيلة.

المرتبة الثانية: ما ألحقه الشرع بالباطل فبين أنه من الباطل، وقد كان خفيًا، وهذا مثل الربا فإنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾[البقرة، الآية: ٢٧٥]، ومثل رشوة الحكام، ومثل بيع الثمرة قبل بدو صلاحها.

المرتبة الثالثة: ما استنبطه العلماء من ذلك مما يتحقق فيه وصف الباطل بالنظر، وهذا مجال للاجتهاد في تحقيق معنى الباطل، والعلماء فيه بين موسّع ومضيّق[2].

---

(١) تفسير المنار ٢/ ١٩٥.

(٢) التحرير والتنوير، ٢/ ١٨٩، ١٩٠.

ولما كانت للأموال هذه الحرمة، وأن من سعى إليها بطريق الباطل عَدَّ من الساعين إلى الإخلال بنظام المجتمع ؛ إذ لا نظام بغير المال ؛ لما كان الأمر كذلك - هدانا الحق - سبحانه - إلى وجوه كثيرة لصيانة المال، ومن بين هذه الأوجه: الوجه الزجري الردعي المتمثل في القطع؛ « وذلك لأن هذه اليد الخبيثة الخائنة التي خلقها اللّٰه لتبطش وتكتسب في كل ما يرضيه - سبحانه - من امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والمشاركة في البناء للمجتمع الإنساني، فمدت أصابعها إلى مال الغير لتأخذه بغير حق، واستعملت قوة البطش المودعة فيها في الخيانة والغدر، وأخذ أموال الناس على هذا الوجه القبيح، عاقبها خالقها بالقطع والإزالة؛ كالعضو الفاسد الذي يجرُّ الداء لسائر البدن، فإنه يزال بالكلية إبقاءً على البدن وتطهيرًا له من المرض »[١]؛ لذلك اعتبر حد القطع فاصلًا بين الحلال والحرام وما سمي حدًّا إلا لأجل ذلك[٢].

٦- ومما هدى إليه القرآن حفظه للأنساب فقد دعا - سبحانه وتعالى - إلى النكاح الحلال قائلًا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[الروم، الآية: ٢١]، فما خلقت هذه الأزواج إلا لتلبية الحاجة الفطرية النفسية والجسدية المعبر عنها بالسكن، لتستقر الحياة فتثمر التآلف والتمازج؛ وذلك قصد إنشاء حياة جديدة تتمثل في جيلٍ جديد.

ولما كان في غير هذه السبيل إضاعة للأنساب بحيث لا يعرف للنسب مرجع يأوي إليه كالسِّفاح، وجدنا القرآن يقطع دابر هذا الأخير بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[الإسراء، الآية: ٣٢]؛ لأن في إتيانه إضاعة للأنساب وتعريض النسل للإهمال، وهو خلل عظيم في المجتمع، ولأن فيه إفساد النساء على أزواجهن، والأبكار على أوليائهن؛ ولأن فيه تعريض المرأة إلى الإهمال بإعراض الناس عن

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤٢٨، ٤٢٩.

(٢) انظر فتح الباري ١٢/ ٥٨.

تزوجها، ولما ينشأ عن الغيرة من الهرج والتقاتل، فكان جديرًا بتغليظ التحريم قصرًا وتوسلًا[١]، وتوعد المقترفين لهذه الفاحشة بالجزاء الدنيوي، فقال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾[النور، الآية: ٢]، ومن قبل هذا، جعل معالم وقائية كتحريم النظر إلى المرأة الأجنبية وغض البصر - كل واحد منهما عن الآخر -، قال - تَعَالَى -: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[النور: الآية ٣٠،٣١]، وتحريم الخلوة، ووجوب الحجاب على المرأة، وتحريم التبرج، وهي كلها معالم في طريق المكلف تنبئه بمغبة التلبس بضدها؛ إذ هي وسائل للفاحشة الكبرى، التي هي: الزنا.

وعند فساد العلائق الزوجية ولحوقها إلى المفارقة، أوجب على الزوجة العدة - وكذا المفارقة بالموت - لئلا تختلط المياه في الرحم حفاظًا على سلامة الأنساب، قال - تَعَالَى -: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾[البقرة، الآية: ٢٢٨]، وقال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ [البقرة، الآية:٢٣٤]، كل ذلك لأجل سلامة النسب ودرء الاختلاط الذي هو من طبائع البهيمية والإنسانية منه براء[٢].

* * *

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٩٠،٩١.

(٢) وقد أتينا على ذكر هذه النماذج لهدى القرآن قاصدين بذلك أن نعرض بعض ما يتعلق بالكليات الخمس التي توخاها القرآن وحفظها من جهة الوجود والعدم.

المطلب الثالث :

بعض مظاهر الإعجاز في القرآن

لا ريب أن الإعجاز يعتبر من الأوصاف الذاتية للقرآن، والآية الكبرى على صدق النبي ﷺ والشاهد على أنه كلام اللَّه - تَعَالَى -.

ومنصرف القول في هذا المبحث هو الإعجاز التشريعي، باعتبار أن القرآن هو المصدر الأول والأخير المنشيء للأحكام والتصور والاعتقاد، إلى جانبه السنة النبوية الصحيحة المبينة لمحكم آياته بيانًا ملزمًا.

ولئن كان القرآن معجزًا في مبناه ومعناه على حد سواء، فإن العناية قصرت عن مجال المعنى وأخص بالذكر الجانب التشريعي، وغدا الحديث عن الإعجاز البياني سائدًا حتى طفحت به كتب القدامى والمحدثين، وهذه حقيقة أفصحت عنها ألسن العلماء.

قال أبو زهرة - رحمه اللَّه - بعد أن عدد أوجهًا من أوجه الإعجاز: « هذه بعض وجوه الإعجاز، ولكن هناك وجه له يذكره العلماء إلا بالإشارة، وهو شريعة القرآن التي اشتمل عليها »(١)، وبمثل ما نطق به أبو زهرة قاله ابن عاشور - رحمه اللَّه - ضمن معاقد الإعجاز التي اعتبرها مِلاكه -، حيث قال: « ما أودع من المعاني الحكمية والإرشادات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن، وفي عصور بعده متفاوتة..ثم قال: وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا »(٢)، وأضاف - رحمه اللَّه - مبرزًا محط الأنظار في سبب ذكر

---

(١) أصول الفقه، ص:٨٥.

(٢) التحرير والتنوير ١/١٠٤.

هذا الوجه والحاجة إلى الاهتمام به، فقال: «والقرآن معجز من هذه الجهة للبشر قاطبة إعجازًا مستمرًا على تعاقب السنين؛ لأنه قد يدرك إعجازه العقلاء من غير الأمة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية والحكمية والعلمية والأخلاقية، وهو دليل تفصيلي لأهل تلك المعاني، وإجمالي لمن تبلغه شهادتهم[1].

ولله دره حين تنبه إلى تلك النكتة الفاصلة بين كون القرآن معجزًا على مستوى البيان وكونه معجزًا على مستوى التشريع؛ ذلك لأن الأول ينتفي بانتفاء أهله الراسخين في اللغة، حيث تفتر هِمَّةُ من بعدهم وتقصر إدراكاتهم؛ من جراء ما يصاب به اللسان من سقم في الذوق، فتخبو جذوة هذا الوجه من الإعجاز، في حين نرى أن الإعجاز التشريعي باقٍ ما بقيت السماء والأرض، يشمل كل المجالات التشريعية والتقنينية لكل البشر في كل عصر وكل مصر، فهو إعجاز كلي شامل دائم، على خلاف الإعجاز البياني الذي تكتنفه البعضية على مستوى الزمان والمكان والأشخاص.

لذلك فشريعة القرآن هي أقوى وجوه الإعجاز، وهي دالة على إعجازه إلى يوم القيامة وهي قائمة إلى اليوم حجة على العربي والعجمي، لا يفترق في قبولها من يعرف لسان القرآن ومن يجهله.

وممن تنبّه إلى هذا الوجه من العلماء القدامى، الإمام القرطبي - رحمه الله - حيث أشار ضمن كلامه عن أوجه الإعجاز، قائلًا: «ومنها - أي من أوجه الإعجاز - ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام الأنام في الحلال والحرام وفي سائر الأحكام»[2]. وهو بهذا يشير إلى الشريعة وما اشتملت عليه من أحكام منظمة للأسرة، بل لكل التعامل الإنساني على الإطلاق.

---

(١) التحرير والتنوير: ١/ ١٠٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/٥٤.

وممن أشادوا بهذا الوجه من الإعجاز من القدامى - أيضًا -، أبو سليمان الخطابي، حيث يقول - رحمه الله -: « وإنما صار معجزًا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف متضمنًا أصحَّ المعاني: من توحيد الله وتنزيهه في صفاته، ودعائه إلى طاعته وبيان لمنهاج عبادته من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن المنكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعًا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه، مودعًا أخبار القرون الماضية، وما أنزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم، جامعًا في ذلك بين الحجة والمحتج له والدليل والمدلول عليه.. ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها في تنظيم وتنسيق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم[١]، فانظر، وتأمل كيف انتظم كلامه من طرفين وواسطة، حيث أشار في الطرفين إلى الإعجاز البياني، أما الواسطة فقد أتى فيها على تبيان مكونات القرآن الثلاثة - بل مقاصده العالية - التي تمثلت في: العقيدة، والشريعة، والأخلاق.

ويبقى كلام هؤلاء العلماء الأفذاذ مجرد إشارات؛ إلا أنها في الواقع مؤشرات داعية إلى الوقوف عن كثب من هذا الوجه من الإعجاز موقف الباحث المنقب المفصل للأمور؛ حتى ينال الإعجاز التشريعي بهذه الجهود منزلة لدى العلماء ويغدو محّط رحالهم، وحتى يتبينَّ لكل ذي لب أن هذا الكتاب يَفْضُلُ سابقيه من الكتب السماوية، بَلْهُ القوانين الوضعية، والعاقل الذي ينطلق من منطلق التحاكم إلى العقل الذي لا تستبد به الأهواء، والباحث المتجرد عن الأحقاد، والطالب الناشد للحقيقة - إذا لم تكن أعمته العصبية - يظهر له بكل وضوح أن التشريع الرباني في الحياة الإنسانية مهمٌّ وخطير وضروري، كما تظهر له بواعثه الفطرية في النفس الإنسانية

---

(١) بيان إعجاز القرآن نقلا عن الإتقان: ٤/ ١٣.

وأثره البارز في حياة الفرد والمجتمع، وأن الإنسان لا يقدر على تأدية مهمته في الحياة واستكمال إنسانيته وتلبية دوافعه وغرائزه وتحقيق السعادة والتنعم بالتوازن والاستقرار، إلا بهذا التشريع الإلهي.

ومن الأدلة على ثبوت هذا الوجه من الإعجاز ما ورد في القرآن نفسه حيث يقول الله - تعالى -: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾[القصص، الآيتان: ٤٨، ٤٩]، فالآية تتحدث عن انبهار المشركين أمام الآيات القرآنية التي جاءهم بها الرسول ﷺ فلم يجدوا بين أيديهم سوى المعاذير التي لُقِّنُوهَا من قبل أحبار يهود، فقالوا: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾؛ لذلك أجابهم القرآن بما لا قبل لهم به، وهو التحدي المشتمل على نوع من الإعجاز التشريعي، «والآية فيها دليل على أن مما اشتمل عليه من العلم والحقائق هو من طرق إعجازه»(١)، فيكون - بهذه الآية - قد قصد إلى الإعجاز التشريعي الذي أومأ إليه في قوله: ﴿هُوَ أَهْدَىٰ﴾؛ (لأن الهداية تشمل كل ما تضمنه القرآن من أحكام وتشريعات وحكم علمية وعملية)، وبذلك يتبين أن التحدي القرآني للمشركين لم يكن قاصرًا على الجانب البلاغي فحسب، وإنما تعدّاه إلى التحدي بالإتيان بمثله على مستوى مضامينه كذلك.

وقبل أن نستعرض نماذج من هذا الإعجاز التشريعي، لا بأس أن نقدم بين يديها المواصفات التي تطبع هذا التشريع ليصير منهج حياة صالحًا للإنسانية قاطبة.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/ ١٣٩.

والتفكير المنطقي هو السبيل الذي يوقفنا على وصف جامع عام لهذا التشريع، هذا الوصف هو موافقة هذا التشريع للفطرة الإنسانية قال - تَعَالَى -: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم، الآية:٣٠]، فما لم يكن تلاؤم وتناسق بين هذا التشريع وبين الفطرة الإنسانية، عادت هذه الأخيرة إلى الإغراق في ضنك العيش وعدم الاستقرار.

ومهما أوتي العلماء من ملكات فكرية وقدرات علمية، فإنهم عاجزون عن سبر أغوار هذه الفطرة، ومن ثم كشف النقاب عن حقيقتها حتى يصلوا إلى تفصيل خصائصها - ودون ذلك خرط القتاد - لما يطبع هذه الدراسات الإنسانية من قصور وعجز.

غير أنه بإمكاننا أن نجلي بعض الملامح العامة التي لا تنفصل عن هذه الفطرة، والتي منها ذلك الترابط الإنساني والتمازج بين الروح والجسد إلى التأثر والتأثير بين هذين العنصرين.

من هنا كانت صفة الشمولية بارزة في التشريع الحاكم للحياة الإنسانية بحيث يتناول جميع عناصر الحياة الإنسانية روحًا وجسدًا وعقلًا في كل العلاقات مع نفس الفرد ومع غيره.

ومن ملامحها - أيضًا - ما أُودِعَ في ذات الإنسان من قابلية السمو تارة والانحطاط أخرى. وحتى لا تعصف الجهتان بكيان الإنسان، كان في حاجة إلى تشريع ينشيء التوازن والوسطية وهما من مواصفات هذا التشريع(١).

---

(١) انظر حاجة الإنسان إلى الوحي في مقدمة هذه الكلية.

ومن ملامحها - أيضًا - أن الإنسان وجد بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا، قال - تَعَالَى -: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورا﴾ [الإنسان، الآية:١]، وقال - تَعَالَى -: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾[مريم، الآية: ٦٧]، ثم بعد أن أوجد هذا الإنسان اقتضت حكمته - تَعَالَى - وإرادته أن يلقي في روعه الحاجة إلى عناية ورعاية تصحبه في جميع مراحل حياته إلى حين رحيله عن الدنيا، قال - تَعَالَى -: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون، الآيات: ١٢-١٦]، فما سطر في هذه الآيات من حقائق لو تأملها الإنسان - ثُمَّ فكّر وقدّر - لأثمرت لديه الصلة القوية بربه، هذه الصلة التي ينبغي أن تتسم بالأبدية لتستمر الحياة الإنسانية بالمفهوم الصحيح، وهو المشار إليه في قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ﴾[الأعراف، الآية: ١٧٢]، فإذا تجلّت حقيقة العبودية في الإنسان وقبالتها ربوبيته سبحانه، دلف الإنسان إلى الطمأنينة واليقين، وذلك هو الإيمان بالواحد الأحد الذي يُصدر أحكامه فيوجه بها عباده، وذلك هو التشريع الرّباني، وتلك هي الخصيصة الثالثة لهذا التشريع، وهي كونه رّبانيًا في أوامره، وأحكامه الاعتقادية والعملية التي يوجب الإسلام تطبيقها لتحقيق القصد الإصلاحي في المجتمع.

فالتشريع في جوهره - إذًا - عملية ضبط وتنظيم لنشاط الإنسان بجميع أشكاله وعلاقاته مع الخالق والمخلوق، وهذه العملية لا يقدر على القيام بها إلا من تحصّل له أمران: العلم المطلق، والعدل المطلق.

والأمر الأول يقتضي المعرفة الشاملة بسبب الوجود وأحوال الإنسان، وما يضره وما ينفعه وما يؤثِّر فيه، وأبعاد النفس الإنسانية وحدود طاقة الإنسان.

والأمر الثاني يقتضي الارتفاع على الميل والهوى ودوافعهما، وهذا يقتضي الاستغناء الكامل عن جميع المخلوقات وعدم الحاجة إليها على أي شكل من الأشكال.

ولا شك أن الذي يتحقق فيه الأمران هو اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - رب العالمين قال - تَعَالَى -: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾[ق، الآية: ١٦]، وقال - تعَالَى -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ﴾ [المجادلة، الآية:٧]، وقال - تَعَالَى-: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾ [المؤمنون، الآية: ٧١]، وقال - تعَالَى -: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾ [يوسف، الآية:٤٠]، وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾[الأنعام، الآية: ٥٨]، فهو حقيق أن يشرع للإنسان وينظم له حياته؛ فكما صلحت المخلوقات كلها بأمره فلا سبيل لصلاح الحياة الإنسانية إلا بتشريعه وتنظيمه ومنهاجيته[1].

وبهذا البيان يفهم جيدًا قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾[البقرة، الآية: ٣٨]، وقال - تعَالَى -: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ

(١) القرآن شريعة المجتمع مقال للدكتور/ عارف خليل أبوعيد بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية السنة الأولى نوفمبر ١٩٨٤، الصفحة ٢٥.

لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[طه، الآيات:١٢٣،١٢٤]، «فالأمان من الضلال والشقاء لا يثمرهما إلا السير على الهدى، ولو كان صاحب الضلال غارقًا في المتاع، فهو في شقاء، ما لم يتبرأ من الضلال، ولا يضل الإنسان عن هدى اللّه إلا وتخبط في القلق والحيرة والاندفاع من طرف إلى طرف لا يتوازن في خطاه، والشقاء قرين التخبط، والحياة المقطوعة الصلة باللّه ضنك مهما يكن فيها من سعة، إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بمنهج اللّه والاطمئنان إلى شريعته»[1].

بعد هذه الإطلالة السريعة على بعض مواصفات التشريع وهي الشمولية والوسطية والربانية؛ أعود لبسط بعض النماذج للإعجاز التشريعي في القرآن.

* * *

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٥٥.

المطلب الرابع :

نماذج من الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم

إن مما يطالع الدارس لكتاب الله، ذلك الخطاب الموجه للناس كافة على سبيل المساواة، ومن هذه الخطابات التي تتمثل فيها هذه المساواة قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات، الآية: ١٣]، فبعد أن كشف عن حكمة هذا الجعل وهي أن يتعارف الناس فيما بينهم، أتبعه بقوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾[١]؛ حتى يتوصل بهذا الحكم إلى إرادة اكتساب الفضائل، والمزايا التي ترفع بعض الناس على بعض؛ «فليس للون والجنس، واللغة والوطن، وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله».

ومن معنى هذه الآية ما خطب به رسول الله ﷺ في حجة الوداع؛ إذ قال: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى»، ومن نمط نظم الآية - أيضًا - ما رواه الترمذي عند تفسيرها وهو قول النبي ﷺ: «إن الله أذهب عنكم عَبِيَّة الجاهلية وفخرها لا بالآباء، الناس: مؤمن تقي، أو فاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب»[٢]، «وهكذا تسقط جميع الفوارق وتسقط جميع القيم ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، وإلى هذا الميزان يرجع اختلاف البشر... وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، المجتمع

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٤٨.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٦٤، ٦٥ (أبواب التفسير، سورة الحجرات).

الإنساني العالمي الذي تحاول البشرية في خيالها المحلّق أن تحقق لونا من ألوانه فتخفق؛ لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم»[١].

ومن مظاهر هذه المساواة التي أخفقت القوانين البشرية أن تحققها، تلك التسوية بين الناس في الأحكام على مستوى التطبيق، فلا يعفى شريف من عقاب، كما لا يعفى الحاكم مما يطالب به المحكوم فهو كسائر الناس في الواجبات والحقوق، ليس له حق فوق حقوقهم، وليست ذاته مقدسة.

لقد جاء هذا الرسول الأمي بشريعة إلى قوم لم يكن فيهم قانون منظم، فلا نظام للأسرة ولا نظام للتعامل، وإنما السائد هو نظام العشائر المبني على الموروث الجاهلي من تقاليد وعادات، فجاءت الشريعة بما لم يعهده هؤلاء، جاءت بقوانين منظمة للفرد، وللمجتمع وللدولة.

ويعزُّ علينا كثيرًا أن نمضي في ركاب أولئك الذين قارنوا بين الشريعة الربانية والنظم الإنسانية؛ إذ لا مجال للمقارنة بين ما هو رباني، وما هو إنساني، فهو على حد قول القائل:

ألم ترَ أنّ السيفَ ينقص قدره إذا قيل: هذا السيف أمضى من العصا

ألا إن بضدها تتميز الأشياء، حيث تتجلّى - بتلك الموازنة - ما للشريعة من قيمة تشريعية خالدة تتناغم ونفسية الإنسان، وفي الوقت ذاته، تضع بين أيدينا حقائق في التقنين لم يعهدها نظام لا من قبل ولا من بعد.

«وإذا كان النظام الروماني قد ساد فترة من الزمان ليست باليسيرة - وذلك نتيجة لنحو ثلاثة عشر قرنًا من التجارب - منتفعًا ببعض النظم التي سبقته كنظم أثينا، ونظم

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٤٤ - ٣٣٤٨.

جمهورية أفلاطون، وكتاب السياسة لأرسطو وغيره»[١]، فإنه مع عرض الصور (التشريعية) في هذا النظام ومقارنتها بما سطر في شرع الله، يتبين ما لهذا الأخير من رسوخ قدم في الإعجاز التشريعي، وإليك صورًا من التشريع الإسلامي وما يقابلها من النظام الروماني.

١- من ذلك ما أعطته الشريعة الإسلامية من حرية كاملة لكل من بلغ سن الرشد ذكرًا أو أنثى، وفي القانون الروماني وجدنا ولاية الأب تستمر على ولده ولو كان ذكرًا ما دام الأب حيًّا، والولد كالرقيق في يد أبيه إلا أن يمنحه الأب الحرية أو الولاية، فهي منحة من الأب وليست حقًّا للابن[٢].

٢- ومنها أن المرأة أعطيت حقوقها كاملة من قبل الشريعة الإسلامية حتى غدت شقيقة الرجل في الأخذ والعطاء، قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب، الآية:٣٥]، فالإشارة إلى الصنفين في هذه الشريعة سواء ليعلم أن الشريعة لا تختص بالرجل، إلا ما نص على تخصيصه بأحد الصنفين - ولعل بهذه الآية وأمثالها تقرر أصل التسوية[٣]؛ حيث تُذْكَرُ المرأة بجانب الرجل، وتعطى مكانها إلى جانبه فيما هما فيه سواء من العلاقة بالله ومن تكاليف هذا الدين في التطهر والعبادة والسلوك في الحياة. ومن مخايل هذه التصرفات أن ملكيتها في المال مفصولة عن ملكية الزوج، لها مطلق التصرف، وفي القانون الروماني كانت المرأة تحت

---

(١) أصول الفقه لأبي زهرة، ص: ٨٨.

(٢) أصول الفقه لأبي زهرة، ص: ٨٦ الهامش.

(٣) التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٠.

الوصاية الدائمة لا يمكنها أن تتصرف في مالها إلا بإجازة الوصي[1].

٣- ومنها أن الشريعة الإسلامية كرمتها بالصداق، حيث يأمر القرآن بإتيان النساء صدقاتهن، قال - تعالى -: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[النساء، الآية: ٤]، فتقرر المهر وصار شرعًا. أما في النظام الروماني فإن الزوجة هي الكفيلة بدفعه للزوج.

٤- ومنها أن الشريعة الإسلامية حرمت التبني، قال - تعالى -: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الأحزاب، الآية: ٥]، في حين أن القانون الروماني أقره بلا ريب.

٥- ومنها أن الشريعة الإسلامية عاملت المدين بأرفق معاملة إذا عجز عن سداد دينه - إن كان دينه في غير سرف - فإن بيت المال يتولى السداد عنه، قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾[التوبة، الآية: ٦٠]، كما ندب الدائن إلى إمهال المدين بقدر ما أعسر إلى حين اليسر، قال - تعالى -: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٠]، فالمعسر لا يُطارَد من صاحب الدَّيْن أو من المحاكم، إنما ينظر حتى يوسر، ثم إن المجتمع المسلم لا يترك هذا المعسر وعليه دين، فالله يدعو صاحب الدَّيْن أن يتصدق بدينه إن تطوع بهذا الخير.

* أما مصير الدائن في نظام الرومان فهو الاسترقاق، حيث يسترقُّه الدائن عند عجزه عن السداد.

---

(١) تاريخ الفقه الإسلامي ونظرية ملكية العقود، ص: ٢٦٦.

٦- وعاملت الشريعة الإسلامية الرقيق بأحسن معاملة، فضيّقت روافده كما وسّعت نطاق القضاء عليه بالمرة، وحسبنا أن تحدث الإسلام عن هذا النظام بصفته نظامًا استثنائيًا، فلم ينص عليه القرآن إلا في مقام الحث على قطع دابره، وتصفيته بالعتق في شتى ألوانه وصوره، وبحسب هذه الشريعة الغراء تكريمًا للإنسان: أن القرآن والحديث النبوي لم يصرحا قط بإباحة الرق[1].

٧- وفي نظام الميراث، نجد الشريعة الغراء قد أعطت لكل ذي حق حقه، قال - تعالى -: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء، الآية:١١]، وقال - تعالى -: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ﴾ [النساء، الآية:١٧٦]، وبذلك تكون قد تولت نظام الميراث حيث جعلته يعم الأسرة كلها مع التشديد في تنفيذه، ولو قورن هذا النظام بالنظام الروماني بالتفصيل لرأيتَ فرقًا شاسعًا كما بين العدل والظلم.

* أما النظم الغربية المعاصرة فلا تزال في كل تشريعاتها تبرهن على الفشل الذريع الذي تمنى به في جميع مرافقها الحياتية، وما قانون الربا عنا ببعيد، بل أمة مثل أمريكا التي تُعْتَبَر « الأسوة » لأمم الغرب، قد حاولت يومًا ما أن تحرم الخمر إلا أنها أخفقت في مسيرتها الإصلاحية، وعادت لتغرق أهلها في براميل أم الخبائث، كان ذلك في سنة ١٩٢٠م، حين أدخلت الدولة تعديلًا على الدستور ينصُّ على تحريم معاقرة الخمر، وبيعها، وشرائها، وصنعها، وتصديرها، أو استيرادها!

لقد كانت هذه التجربة من أكبر التجارب لإصلاح الخلق بقوة القانون وسلطة الحكم، فقبيل دخول هذا التعديل على الدستور، سبقته دعاية عريضة كانت بمثابة إرهاصات لهذا التحريم؛ هدفها توعية الأمة الأمريكية وترغيبها عن أم الخبائث،

---

(١) أصول الفقه لأبي زهرة، ص: ٨٧.

فأنفقت الدولة الشيء الكثير زمنيًا وفكريًا واقتصاديًا، كل ذلك من أجل تلقين الأمة «المتحضرة» مفاسد الخمر واستمرت المعركة إلى سنة ١٩٣٣م، حين قدم روزفلت إلى دفة الحكم، حيث انتصر الخمر على الأمر، وألغي التعديل الثامن عشر من مسودة الدستور الأمريكي الذي ينص على التحريم. لم يكن هذا الإخفاق راجعًا إلى أن مضار الخمر قد أضحت منافع، أو أن اكتشافًا علميًا باركها وزكاها - بل الحق أن العلم واكتشافاته - لا يزالان يبرهنان بشواهد قوية على أنها بحق أم الخبائث، تمت إليها بلحمة النسب القريب جميع الكبائر من: الزنا، والبغاء، واللواطة، والسرقة، والقمار، والقتل، وتشويه الأخلاق كلها.

لكن الذي دفع الحكومة الأمريكية إلى العودة لعقر الخمر من جديد، هو مجرد كون السواد الأعظم من الأمريكيين لم يرضوا مفارقتها، وأن المحرِّمين لها بالأمس، هم الذين حنَّوا إليها اليوم، فنادوا بتحليلها، فتبدلت الأمة غير الأمة، وعادت وهي - بزعمها - أرقى الأمم مدنية وأقواها سياسة، وأغزرها علمًا وأرجحها عقلًا، وأميلها إلى الحقيقة والواقع، عادت لا تطيق الصبر عن الخمر.

هذه تجربة القانون الوضعي الأرضي لمحاولة الإصلاح، ولنرجع إلى قانون السماء لنرى كيف حَرَّمَ الخمر على أمية؛ العلم والحكمة فيها شيء شبه معدوم، والتمدن والحضارة أمر لا يعرفه فيها أحد، ونظام الحكم فيها في حالة بدائية لم يمضِ على قيامه إلا بضع سنين عددًا، أما أهاليها فعشاق للخمر، متهالكون عليها متفانون فيها، في لغتهم ما نيّف على المائتين من أسمائها.

وإن استزدت من الأدلة على شغفهم بها، فاسأل شعرهم، ينبئك أن الخمر لحمته وسداه، مما يخيل للقارئ أنهم رضعوها مع لبان أمهاتهم.

هذه هي حالة المجتمع العربي مع الخمر، فيأتي الإسلام فيخطر ببال بعض الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أن يسألوا رسول الله ﷺ عن الخمرمقرونة بالميسر: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾[1] [البقرة، الآية: ٢١٩]، فينزل الجواب من السماء: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[البقرة، الآية: ٢١٩]، هذا بعد أن أقر إباحة شربها حقبة من الزمان، وحسبك في هذا الامتنال بذلك في قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[النحل، الآية: ٦٧]، «على تفسير من فسّر السكر بالخمر، وهو الأظهر»[2]. أقول: فلما أنزل الله قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ سمعها الناس فلم يجدوا فيها لا أمرًا ولا نهيًا، وإنما هو خبر بيّن الله - تَعَالَى - به حقيقة الخمر والميسر: فيهما منافع كما أن فيهما مضار، إلا أن الضرر أعظم. على أن يكون من تأثير هذا الإعلام أن يتركها قوم للإثم الكبير، ويقولون: لا حاجة لنا في شربها ولا في شيء فيه إثم كبير، ثم أعيد السؤال عن الخمر؛ إذ كان بعض الناس يصلون وهم سكارى فيهذون، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[النساء، الآية: ٤٣]، فحرم السكر في أوقات الصلاة، فتركها قوم بالمرة قائين: لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة، وقال آخرون: نشربها ونجلس في بيوتنا، فكانوا يشربونها في غير وقت الصلاة، ويتركونها في أوقات الصلاة!

وظلت مضرة الخمر باقية؛ لذلك تطلعت النفوس إلى حكم حاسم، فأنزل الله - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ

---

(١) والآية نزلت في عمر بن الخطاب، ومعاذ بن جبل - رضي الله عنهما - ونفر من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله! أفتنا في الخمر، فإنها مذهبة للعقل متلفة للمال فنزلت. انظر أسباب النزول للنيسابوري.

(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٣٣٩، وانظر تفسير سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ [المائدة، الآيتان: ٩٠، ٩١]، قال عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حين سماع هذه الآيات - انتهينا يا ربنا، قال أنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: حرمت ولم يكن للعرب يومئذ عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر، قال: فأخرجنا الحُباب إلى الطريق فصببنا ما فيها، فمنا من كسر حُبهً، ومنا من غسله بالماء والطين، ولقد غودرت أزقة المدينة بعد ذلك حينًا، كلما مطرت استبان فيها لون الخمر، وفاحت ريحها.

فكان كل من شربها منهم بعد ذلك ضربوه بالنعال وبالجريد والعصي، ثم جلدوه أربعين، ثم جعلوا حد الشرب بعد ذلك ثمانين، فكان من نتيجة ذلك أن هجرت العرب شرب الخمر هجرًا، ثم حينما بلغ الإسلام أقطار الأرض، زهدت الأمم فيها ونفر عنها خلق كثير، حتى صرنا اليوم نرى ملايين من الأفراد يجتنبون الخمر بدون زاجر من قانون التحريم أو مانع من شرع التعزير، ومن يحصي الشاربين في هذه الأمة الإسلامية سيجدها أزهد أمة في الخمر.

فماذا بعد الحق إلا الضلال!

إن العقل والمنطق يقوم حكمهما الفيصل النهائي على التجارب والشواهد وحدها، وشهادة التجربة عندهما مما لا شك فيه ولا ريب، فدونك والتجربتين؛ لترى الفرق والبون الشاسعين، ثم تستخلص من ذلك ما قدر الله لك من العبرة.

وإذا تدبرنا أسباب الفرق بين التجربتين، عنت لنا أمور هي كالأصول الكلية الثابتة ليس في الخمر وتحريمها فحسب، بل في جميع مسائل القانون والأخلاق.

أولها: هو ذلك البون القائم بين القوانين الإلهية والقوانين الإنسانية، فالقوانين الإنسانية - وهي تقعّد وتؤصّل - يطغى عليها الاجتهاد المجرد البعيد كل البعد عن معين الوحي، فهي محض آراء، وشأن الآراء أن تكون دائمًا قابلة للتطور، أضف إليها ما يعتور الإنسان من تغيرات تجد نفسها مضطرة للتغير، ومن ثم لا يتحقق للأخلاق مقياس ثابت.

بخلاف الأصول الكلية للقانون الإلهي الذي خلق الإنسان وعلم ما توسوس به نفسه، فهي أصول ربانية وكليات إلهية لا دخل لرأي الإنسان فيها إلا الاستنباط؛ مراعاة لأحوال وظروف حياته المتغيرة، هذا التشريع الرباني الذي يضع بين أيدينا قوانين خلقية ثابتة لا تتزعزع ولا تتبدل، ولا يمكن أن يصبح حرام الأمس حلالًا اليوم، ثم يعود حرامًا غدًا، وإنما الحرام في الإسلام حرام إلى الأبد.

ثانيها: أن القوانين الوضعية مهما أوتي أصحابها من رجاحة عقل، ووفرة علم وغزارة فهم، لا يمكنها أن تتخلص من براثن الهوى والتشهي، ما لم تكن مطيعة للقانون الرباني ومتمتعة بقوة الإيمان، فلابد أن يكون عليها إذا من سلطان الأصول النفسية ما لا تطيق معه الصبر عما تألفه وتميل إليه، وإن تبينت لها مضار الشيء أجلى من شمس النهار.

أما القانون الإلهي فإنه قبل أن يطالب الإنسان بإطاعة قوانين الشرع، فإنه يدعو إلى الإيمان برب هذه القوانين، ومتى آمن أصبح كل ما يأمر أمرًا واجبًا لازمًا، بل برهانًا ساطعًا على مدى انقياده واستسلامه لأوامر هذا الإله الآمر، من هنا يتضح ويثبت أن بعث الحاسة الخلقية في الإنسان وتنشئة الضمير المحاسب فيه، ثم تزويد هذا الضمير من القوة بما يتغلب به على النفس الأمارة، كل ذلك ليس في طوق العقل، ولا المنطق بل هو مما لا يحققه إلا الإيمان وحده[1].

هذه بعض مخايل الإعجاز التشريعي في القرآن شاهدة على تميز كتاب اللَّه عن سواه من النظم والقوانين التي سادت الكون قديمًا وحديثًا، **ولو علم الإنسان مدى السعادة المجتناة من هذه الشريعة لما ضل في عماه!**

* * *

(١) بتصرف عن كتاب: نحن والحضارة الغربية؛ الفصل الرابع؛ ص٧٤،٧٥.

المبحث الثاني :

القرآن أصل الأصول

إن المنطلق السليم لأي تصور فكري أو اعتقادي لابد وأن يكون منشأه كتاب اللَّه؛ إذ هو الهدى والبيان، قال - تَعَالَى -: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل، الآية: ٨٩]، قال - تَعَالَى -: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام، الآية: ٣٨]، وهو تعبير جامع؛ كما أثبته المفسرون، ومن بينهم الإمام الرازي - رحمه اللَّه - الذي استظهر أن المراد بالكتاب في الآية، هو القرآن الكريم محتجًا بأن الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد، انصرف إلى المعهود السابق، والمعهود السابق عند المسلمين هو القرآن، فوجب أن يكون المراد من الكتاب في الآية: القرآن الكريم[١].

ومعنى الآية: « أن اللَّه - تَعَالَى - ما فرط في الكتاب بعض شيء يحتاجه المكلف »[٢].

« فإنه قد دَوَّنَ فيه ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلًا ومجملًا »[٣].

وقال أبو السعود - رحمه اللَّه -: « أي ما تركنا في القرآن شيئًا من الأشياء المهمة التي من جملتها بيان أنه - تَعَالَى - مراع لمصالح جميع مخلوقاته »[٤].

وقال صاحب المنار - رحمه اللَّه تَعَالَى -: « أي ما تركنا في الكتاب من ضروب الهداية التي نرسل الرسل لأجلها، إلا وقد بيناه فيه وهي أصول الدين وقواعده

(١) التفسير الكبير ١٢/ ٢٢٦.
(٢) نفسه ١٢/ ٢٢٨.
(٣) محاسن التأويل ٦/ ٥١٥.
(٤) نقلا عن محاسن التأويل ٦/ ٥١٥، ٥١٦.

وأحكامه وحكمها والإرشاد إلى استعمال القوى البدنية والعقلية في الاستفادة من تسخير اللَّه كل شيء للإنسان ومراعاة سننه - تَعَالَى - في خلقه التي يتم بها الكمال المدني والعقلي، فالقرآن قد بين ذلك كله بالنص والفحوى »[١].

وهذا التعبير الشمولي المستفاد من كلام صاحب المنار هو المقصود من العنوان (القرآن أصل الأصول)؛ إذ إن هذا الكتاب هو منهج الحياة لا محيد عنه، وكل فكر يشاقُّه فهو فكر باطل زائل سرعان ما يئول إلى فناء. وحينما نقول: إن القرآن منهج حياة، فإنما نرمي بذلك إلى الحياة العلمية والعملية على حد سواء؛ إذ هو الذي أرشدنا إلى أصول كل منهما (إما بالنص أو الفحوى) علمًا بأنه هيأ لنا المناهج والوسائل للوصول إلى هذه الفحوى، فقد يسّره اللَّه للذكر، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[القمر، الآية: ١٧]، فعلى أي وجه فرض إعجازه، فذلك غير مانع من الوصول إلى فهمه وتعقل معانيه، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[ص، الآية: ٢٩]، فهذا يستلزم إمكان الوصول إلى التدبر والتفهم. وحينما قال - تَعَالَى -: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أفاد العموم من خلال قوله: ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ على « أنه عموم عرفي في دائرة ما لمثله تجيء الأديان والشرائع من إصلاح النفوس وإكمال الأخلاق وتقويم المجتمع المدني وتبيين الحقوق »[٢].

لذلك فلا نعدم تشريعًا من خلاله متى رغبنا فيه؛ لأن أصول التشريع مبثوثة فيه، وفي هذا الشأن يقول الشاطبي - رحمه اللَّه -: « القرآن فيه بيان كل شيء، فالعالم به على التحقيق عالم بجملة الشريعة ولا يعوزه منه شيء..، ومضى يدل على كلامه من

(١) تفسير المنار ٧/ ٣٩٥.
(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٥٣.

الكتاب والسنة إلى أن قال: ومن الأدلة عليه، التجربة، وهو أنه لا أحد من العلماء لجأ إلى القرآن في مسألة إلا وجد فيه أصلا، قال ابن حزم الظاهري: كل أبواب الفقه ليس منها باب إلا وله أصل في الكتاب والسنة نعلمه والحمد للَّه، حاشا القراض، فما وجدنا له أصلًا فيهما البتة... ويستدرك عليه الشاطبي؛ فيقول: وأنت تعلم أن القراض نوع من أنواع الإجارة في القرآن ثابت »[١]، وقال الإمام علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وهو يتحدث عن القرآن: « ذلك القرآن فاستنطقوه؛ ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه، ألا إن فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي، ودواء دائكم ونظم ما بينكم »[٢] وقال - أيضًا -: « واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى، ونقصان في عمى »[٣]، وقد ورد عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - أنه كان يقول: « لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب اللَّه ». « ولهذا قال أبو عبد اللَّه الرازي في آخر عمره في كتابه: « أقسام الذات »: لقد تأملتُ الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيتُ أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[طه، الآية: ٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[فاطر، الآية: ١٠]، واقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾[الشورى، الآية: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾[طه، الآية: ١١٠]، ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي »[٤].

---

(١) الموافقات ٣/ ٣٣٣-٣٣٥.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة الثامنة والخمسون بعد المائة ٢/ ٥٥.

(٣) نفسه ٢/ ٩١.

(٤) الفتاوى ٩/ ٢٢٥.

قال الشاطبي: «وعلى هذا لابد في كل مسألة يراد تحصيلها على أكمل وجه أن يلتفت إلى أصلها في القرآن»[١].

أفلا يكون القرآن - بعد هذا - أصلًا للأصول، ويتقرر أنه كلية الشريعة وعمدة الملة، ويكون من الضروري لمن رام الإطلاع على كليات الشريعة، وطمع في إدراك مقاصدها واللحاق بأهلها أن يتخذه سميره وأنيسه، ويجعله جليسه على مر الأيام والليالي نظرًا وعملًا لا اقتصارًا على أحدهما؛ حتى ينال بغيته ويدرك طلبته؟!

وفي ضوء ما تقرّر نعلم أن القرآن هو أصل الشريعة، وإليه ترجع دلالة الأدلة، وهو منبع الأصول، منه تستمد حجيتها، بل القرآن نفسه له أصول كلية منه تخرج وإليه تعود، هذه الأصول التي تمثلت في مجال المعاش والمعاد تحكم السير فيهما، وهي مبثوثة في تلك الآيات الأمهات، ومن ذلك قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل، الآية: ٩٠]، فعن قتادة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: «ليس من خُلقٍ حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر اللَّه به في هذه الآية، وما من خلق كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى اللَّه عنه وقدح فيه في هذه الآية»[٢]. فتأمل هذه المأمورات وهذه المنهيات «فالعدل: شهادة ألا إله إلا اللَّه، والإحسان: القيام بالفرائض، وإيتاء ذي القربى: صلة ذي القرابة، والفحشاء: الزنا، والمنكر: ما لا يعرف في شريعة ولا سنة، والبغي: الاستطالة». إنها فعلًا مجامع الفضائل، ومجامع الرذائل دعت إليها الآية في أخصر عبارة؛ لذلك نعتها عبد اللَّه بن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بأنها أجمع آية في القرآن جمعت بين الخير والشر»[٣]،

---

(١) الموافقات ٣/ ٢٢١.

(٢) التحرير والتنوير، ١٤/ ٢٦٠.

(٣) التفسير الكبير ١٠/ ١٠٢، ١٠٣.

روى ابن الأثير في كتابه: «أسد الغابة»: أن أبا ثعلب نقل عن عكرمة عن علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أنه قال: «تلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآية على بني شيبان وفيهم المثنى بن حارثة، ومفروق بن عمرو، وهانئ ابن قبيصة، والنعمان بن شريك، فالتفت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر، فقال: بأبي أنت ما وراء هؤلاء عون من قومهم، هؤلاء غرر الناس، فقال مفروق بن عمرو - وقد غلبهم لسانًا وجمالًا -: والله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه، وقال المثنى نحو معناه، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ...﴾ الآية، فقال مفروق: دعوت والله يا قرشيّ إلى مكارم الأخلاق وإلى محاسن الأفعال، وقد أُفِكَ قوم كذبوك وظاهروا عليك»[١].

ومن هذه الأصول - أيضًا - قوله - تَعَالَى -: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[الأعراف، الآية: ١٩٩]، «فهي بيان لأصول الفضائل الأدبية وأساس التشريع حيث يأمر الله - تَعَالَى - فيها بثلاثة أشياء هي أصول كلية للقواعد الشرعية، والآداب النفسية، والأحكام العملية، وهي: العفو، وهو: الشيء السهل الذي لا كلفة فيه، والأمر بالمعروف، وهو: اسم جامع لكل ما عرف بطاعة الله، والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، والأمر به في هذه السورة المكية التي نزلت في أصول الدين وكليات التشريع، تثبت لنا أن العرف والمعروف أحد هذه الأركان للآداب الدينية والتشريع الإسلامي، وهو مبني على اعتبار عادات الأمة الحسنة، وما تتواطأ عليه من الأمور النافعة في مصالحها، حتى إن كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - قد قيد طاعة رسوله ﷺ بالمعروف في عقد مبايعته ﷺ للنساء... ومن المعلوم أن عقد المبايعة أعظم العقود في الأمم والدول، فتقييد طاعة الرسول ﷺ فيه بالمعروف دليل على أن الالتزام

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ٤/ ٤٧٤، ٤٧٥.

بالمعروف من أعظم أركان هذا الدين وشرعه[(١)]، والإعراض عن الجاهلين - وهو الأصل الثالث - وهم السفهاء بترك معاشرتهم وعدم مماراتهم، ولا علاج أقوى من الإعراض عنهم »[(٢)]، فما أخل أكثر المفسرين بالنسبة لهذه الآية، هو كونهم لم يوفوها حقها على المستوى التشريعي، وإن كانوا قد أكثروا الحديث في ما دلَّت عليه من الآداب وها هو القاضي ابن العربي - رحمه اللَّه - في كتابه: « الأحكام » يشير إلى أن الآية، « وإن كانت من ثلاث كلمات قد تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات حتى لم يبق فيها حسنة إلا أوعتها، ولا فضيلة إلا شرحتها، ولا أكرومة إلا افتتحتها، وأخذت الكلمات الثلاثة أقسام الإسلام الثلاثة، فقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ تتولي بالبيان جانب اللين ونفي الحرج في الأخذ والإعطاء والتكليف، وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ تتناول جميع المأمورات والمنهيات، وأنها ما عرف حكمه، واستقر في الشريعة موضعه، واتفقت القلوب علىعلمه، وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ تتناول جانب الصفح بالصبر الذي يتأتى للعبد كلّ مراد في نفسه وغيره »[(٣)].

فدل بهذا التحليل أن الآية مهمة وذات بال في مجال التشريع إلى جانب ما أوعته في مجال الآداب، وهو كثير في القرآن، حيث نجد العديد من الآيات من هذا النوع لا تتضمن أحكامًا تفصيلية مباشرة، ولكنها تتضمن قواعد للسلوك وقواعد للحياة

---

(١) لقد دعا القرآن الكريم إلى المعروف عند إرادة التلبس بشأن من شؤون الحياة العامة بين الأفراد، حيث ألفيناه يندب إلى الوصية بالمعروف ويستحضره في شؤون الأسرة خصوصًا بين الزوج والزوجة، فالصداق، والعشرة، والطلاق، والتراضي بينهما، والتصالح، والنفقة، والمتعة كل ذلك بالمعروف. وفي الولاية على الأيتام نجده يخطاب القيمين على شؤونهم فيحل لهم أخذ الأجرة، ويقيده بالمعروف، ويبن أن من وظيفة النبي كونه يأمر بالمعروف، وحفز الأمة إليه باعتباره أحد دعائم السياسة الشرعية. كل ذلك لتبيان خطورة المعروف وحاجة الأمة إليه. انظر - على سبيل المثال - سورة البقرة، الآيات: ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٩-٢٣٤، ٢٣٨، ٢٣٩.

(٢) تفسير المنار ٩/ ٥٣٢.

(٣) أحكام القرآن ٢/ ٨٢٦.

وقواعد للتعامل تعتبر أصولًا، وعلى المكلف أن يعود إليها؛ باعتبارها الضوابط التي ينبغي أن يخضع إليها سلوكه ويزنه بها، اقرأ إن شئت قوله - تَعَالَى - في الجزاء: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾[الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨]، وفي العهود والمواثيق قوله - تَعَالَى -: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[الإسراء، الآية: ٣٤]، وفي الشورى قوله - تَعَالَى -: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى، الآية: ٣٨]، وفي المقصد الأسنى من إيجاد الثقلين قوله - تَعَالَى -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[الذاريات، ٥٦]، وفي التنظيم الاقتصادي قوله - تَعَالَى -: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾[الحشر، الآية: ٧]، وفي مجال العلم والتعلم قوله - تَعَالَى -: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء، الآية:٧]، وفي مجال توثيق عرى الوحدة قوله - تَعَالَى -: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات، الآية: ١٠]، وفي احترام الإرادة الإنسانية ومشاعرها: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة، الآية: ٢٥٦]، وغيرها من الكليات الجامعة التي تعتبر أصولًا في المعاش والمعاد.

* * *

المطلب الأول:

السُّنَّةُ مُؤَصَّلةٌ من قِبَلِ القرآن

وحين أورد القرآن الانصياع التام والتسليم المطلق لأوامر الرسول ﷺ، والوقوف عند المنهيات - وذلك في مواطن كثيرة وبصيغ متفاوتة وتعبيرات يطبعها العموم - فإنما أراد بذلك - والله أعلم - أن يؤصل للسنة النبوية بقاعدة جامعة تعتبر الأم لمثيلاتها من الآيات التي تئول إليها؛ لتبيان قيمة هذه السنة إزاء هذا التشريع.

ومن هذه الآيات قوله - عزَّ وَجلَّ -: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر، الآية: ٧]، وإليك بعض ما قيل في شأنها من قِبَلِ المفسرين، ومنهم صاحب الظلال - رحمه الله -، حيث يقول: «لو أنها جاءت بمناسبة الفيء وتوزيعه، إلا أنها تتجاوز هذا الحادث إلى آماد كثيرة في أسس النظام الاجتماعي»[١]، وقال ابن عاشور - رحمه الله -: «هي آية جامعة للأمر باتباع ما يصدر من النبي ﷺ من قول وفعل فيندرج فيها جميع أدلة السنة»[٢]، وقال الصاوي - رحمه الله -: «والآية محمولة على العموم في جميع أوامره ونواهيه؛ لأنه لا يأمر إلا بالإصلاح، ولا ينهى إلا عن فساد فنتج من هذه الآية: أن كل ما أمر به النبي ﷺ أمر من الله، وأن كل ما نهى عنه النبي ﷺ نهي من الله، فقد جمعت أمور الدين كما هو معلوم»[٣]، وهو العموم المحكي عند كثير من المفسرين[٤]، فالقرآن دال - من هذا الوجه - على

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٤.
(٢) التحرير والتنوير ٢٨/٨٧.
(٣) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ٤/٣٩٢.
(٤) انظر التفسير الكبير ٢٩/ ٢٨٧، ومحاسن التاويل ١٦/ ٩٩.

وجوب العمل بالسنة، وهي مُؤَصَّلَةٌ من قبله، وكل عمل بما جاءت به، عمل بالقرآن، وهو فقه كبار الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - كعبد اللَّه بن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، الذي قال: لعن اللَّه الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق اللَّه، قال: فبلغ ذلك امرأة من بني أسد، يقال لها أم يعقوب، فقالت: يا أبا عبد الرحمن! بلغني أنك لعنتَ كيت وكيت، فقال: ومالي لا ألعن من لعنه رسول اللَّه ﷺ ومن هو في كتاب اللَّه؟ قالت: إني لأقرأ ما بين اللوحين فما أجده! قال: إن كنت قارئة لقد وجدتيه، أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر، الآية:٧] قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه رسول اللَّه ﷺ.

- وعن عبد الرحمن بن يزيد أنه رأى مُحْرِمًا عليه ثياب، فنهى المحرم، فقال: ائتني بآية من كتاب اللَّه تنزع ثيابي، فقرأ عليه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(١) ورأى عبد اللَّه بن عباس طاوسًا يصلي ركعتين بعد العصر، فقال ابن عباس: اتركهما فقال: إنما نهى عنهما أن يتخذا سنة، فقال ابن عباس: قد نهى رسول اللَّه ﷺ بعد صلاة العصر، فلا أدري أتعذب عليهما أم تؤجر؛ لأن اللَّه - تَعَالَى - قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(٢)[الأحزاب، الآية: ٣٦]، وقال الشافعي - رحمه اللَّه -: «سلوني ما شئتم أخبركم عنه من كتاب اللَّه، فقيل له: ما تقول في المحرم يقتل الزنبور؟ فقال: بسم اللَّه الرحمن الرحيم: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(٣)، ولذلك «فما قال به النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن أو فيه أصله، قرب أو بعد، فهمه من فهم، أو عمه من عمه. وكذا كل ما حكم أو قضى به»(٤) «وعن عبد اللَّه بن

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٢٣٠، ٢٣١.
(٢) انظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص: ٢٨٦/٢٨٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٧-١٨.
(٤) أضواء البيان ٣/ ٣٣٧-٣٣٨.

مسعود، قال: « من أراد علم الأولين والآخرين فليثوّر القرآن »، وتثويره: قراءته ومناقشة العلماء في تفسيره ومعانيه[١].

فهذه نوازل تعتبر من صميم التطبيقات لهذه الكلية الجامعة المتمثلة في قوله - تَعَالَى -: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، وقد برزت - كما لاحظنا - خصيصة من خصائصها وهي الشمولية؛ إذ لا يعسر أن تغدو حاضرة في نوازل شتى غير هذه التي مرت معنا . **فتبين من هذا أن القرآن يؤصل للسنة النبوية .**

* * *

(١) كنز العمال ١/ ٥٤٨، وانظر اللسان ٤/١١٠، مادة « ثور ».

المطلب الثاني :

الإجماعُ مُؤَصَّلٌ من قِبَلِ القرآن

لقد انتزع أصل الإجماع من القرآن، وذلك من مثل قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء، الآية:١١٥]، وهي مما شاع الاستدلال به عند كثير من علماء أصول الفقه، ومنهم الإمام الشافعي - رحمه اللّه -، قال ابن كثير «والذي عوّل عليه الشافعي في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته، هذه الآية الكريمة بعد التروي والفكر الطويل، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها»[(١)]، وتقرير الاستدلال أن اتباع غير سبيل المؤمنين حرام، فوجب أن يكون اتباع سبيل المؤمنين واجبًا؛ لأنه توعد على مخالفته، وقد ناقش الإمام الغزالي - رحمه اللّه - الاستدلال بهذه الآية، واعتبر كل الأدلة التي سيقت لإثبات الإجماع ظواهر نصوص، فقال: هذه كلها ظواهر نصوص لا تنص على الفرض بل لا تدل - أيضًا - دلالة الظواهر.. ثم قال: وأقواها قوله - تعَالَى -: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾، فإن هذا يوجب اتباع سبيل المؤمنين[(٢)].

ومما توسل به العلماء - أيضًا - لإثبات الإجماع، قوله - تعَالَى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[النساء، الآية: ٥٩]، وأولو الأمر يعني ذويه، وهم أصحاب الأمر والمتولون له، أهل الشأن وما يُهتم به من أحوال وشئون الناس، إليهم يرجع تدبيرهم، فهم المعتمد في ذلك، فيصير الأمر من خصائصهم، ولما

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٥٥.

(٢) المستصفى ١/ ١٧٥.

أمر الله بطاعة أولي الأمر، علمنا أن أولي الأمر في نظر الشريعة طائفة معينة، وهم قدوة الأمة وأمناؤها، وأن تلك الصفة تثبت لهم بطرق شرعية - إذ أمور الإسلام لا تخرج عن الدائرة الشرعية -، وطريق ثبوت هذه الصفة: إما الولاية المسندة إليهم من الخليفة ونحوه، وإما صفات الكمال التي تجعلهم محل اقتداء الأمة وهي الإسلام والعلم والعدالة فأهل العلم والعدول من أولي الأمر بذاتهم قال الإمام مالك - رحمه الله -: أولو الأمر أهل القرآن والعلم»[١]، ولئن كان بعض المفسرين قد ذهبوا إلى أن أولي الأمر هم: الأمراء - كما سنراه -[٢] فإن هذا الأمر بالطاعة لأولي الأمر، وإن سلمنا أنهم الأمراء، فإن طاعتهم لا تتم إلا إذا أمروا بمقتضى الشرع، فتكون طاعتهم تبعًا لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف، وفيه ما يشعر بأن الأمير لا يكون أميرًا إلا إذا كان عارفًا بفقه الدين وشرعه؛ حتى يتسنى له قيادة الناس في ضوء الشرع، وحتى ترجع الطاعة في النهاية من حيث بدأت وهي طاعة الله ورسوله، قال ابن القيم - رحمه الله - في معنى الآية: «أمر - سبحانه - في هذه الآية بطاعته وطاعة الرسول ﷺ وأعاد الفعل: ﴿وَأَطِيعُوا﴾ إعلامًا بأن طاعة الرسول تجب استقلالًا؛ بل حذف الفعل وجعل طاعتهم ضمن طاعة الرسول إيذانًا بأنهم يطاعون تبعًا لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بخلاف ما جاء به الرسول ﷺ فلا سمع له ولا طاعة»[٣]، فدل قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ أن إجماع الأمة حجة، والدليل هو الأمر بطاعته على سبيل الجزم[٤]، وقد اعتبرت من قبل بعض المفسرين أنها جامعة لأكثر علم أصول الفقه، وهم يعنون بذلك اشتمالها على تقرير الأصول الأربعة، وهي: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس[٥]، وقد جعلها الظاهرية أُمًّا للأصول الثلاثة عندهم، وهي:

---

(١) التحرير والتنوير ٥/ ٩٧-٩٨.

(٢) وذلك عند الحديث عن كلمة الطاعة.

(٣) إعلام الموقعين ١/ ٤٨، ٤٩.

(٤) التفسير الكبير ١٠/ ١٤٨.

(٥) نفسه ٥/ ١٤٨.

القرآن، والسنة، والإجماع، قال ابن حزم - رحمه الله -: «وهي آية جامعة لجميع الشرائع وقد حوت الأصول الثلاثة التي أُلزِمْنا بطاعتها، وهي قوله - تَعَالَى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ فهذا أصل، وهو: القرآن، ثم قال - تَعَالَى -: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فهذا ثان، وهو: الخبر عن رسول الله ﷺ، ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾، فهذا ثالث، وهو: الإجماع المنقول إلى رسول الله ﷺ»[1].

ومن الآيات الدالة على أن للإجماع أصلًا في القرآن، قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة، الآية:١٤٣]، فأخبر - تَعَالَى - عن عدالة الأمة وخيريتها، فلو أقدموا على محظور لما اتصفوا بالخيرية، وإذا ثبت ذلك، وجب كون قولهم حجة[2]، ولو كان فيما اتفقوا عليه باطل، لانثلمت عدالتهم[3]، وهو ما يعني أن الآية اقتضت العدالة الكاملة لاجتماع الأمة، فلو كان إجماعهم على أمر باطل لجاءت عدالتهم ناقصة، وذلك لا يناسب الثناء عليهم بما في هذه الآية.

* * *

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١/ ٩٧.

(٢) التفسير الكبير ٤/ ١٠٩.

(٣) تفسير البيضاوي: ١/ ١٩٥.

المطلب الثالث :

القياسُ مؤصَّلٌ مِنْ قِبَلِ القرآن

لقد ساق القرآن أمثلة عديدة للقياس ينبه بها المكلفين على أن حكم الشيء حكم نظيره، وحسبنا أنه حوى بضعة وأربعين مثلًا تناول فيها تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم.

ومدار الاستدلال هو الجمع بين المتماثلات، والتفريق بين المختلفات، وكل هذا الميزان الذي أنزله اللَّه مع كتابه، وجعله قرينه ووزيره، فقال - تَعَالَى -: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾[الشورى، الآية: ١٧]، وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[الحديد، الآية: ٢٥]، والقياس الصحيح هو الميزان، والفاسد ما يضاده؛ كقياس الذين قاسوا البيع على الربا، وقياس الذين قاسوا البيع على الربا، وقياس الذين قاسوا الميتة على المذكى؛ ولهذا تجد في كلام السلف ذمّ القياس، وأنه ليس من الدين، وتجد في كلامهم استعماله والاستدلال به وهذا حق[١]، ومما هو داخل في التفريق بين المختلفات. قوله - تَعَالَى -: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم الآيتان:٣٥،٣٦] فأخبر أن هذا حكم باطل في الفِطَر والعقول، لا يليق نسبته إليه - سبحانه -، والاستفهام أفاد إنكار جعل الفريقين متشابهين متماثلين في الجزاء، ونفي التساوي وارد في معنى التضاد، ومن هذا قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾[السجدة، الآية، ١٨]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[ص، الآية: ٢٨]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ

---

(١) إعلام الموقعين ١/ ١٣٢، ١٣٣.

ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[الجاثية، الآية:٢١]، ويمضي القرآن في هذا السياق؛ يذكر العقل وينبه الفطرة بما أودع فيها من إعطاء النظير حكم نظيره، وعدم التسوية بين الشيء ومخالفه في الحكم.

ومن هنا قال العلماء: «العمل بالقياس فطرة فطر اللّه عليها الناس؛ ولهذا فهمت الأمة من قوله – تعَالَى –: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ جميع وجوه الانتفاع من اللبس والركوب والمسكن وغيرها. وفهمت من قوله – تعَالَى –: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ إرادة النهي عن جميع أنواع الأذى بالقول والفعل وإن لم ترد نصوص أخرى بالنهي عن عموم الأذى»[1] في القرآن، والكتب السماوية.

* * *

(١) إعلام الموقعين ١/ ٢١٨.

المبحث الثالث :

القرآن والكتب السماوية

المطلب الأول :

مهيمن عليها ومصدق لها

إن كتابًا مثل القرآن الكريم الذي وُصِفَ بالهدى والبيان والحق والتبيان، الذي استوعب كل حاجات المكلف من أمر الدين على أكمل الوجوه وأتمها؛ لجدير أن يعلو على سائر الكتب السالفة، وأن يتشرف بالرقابة عليها، وحسم مادة التصديق بما جاء فيها، وتلك هي الهيمنة المعتبر بها في قوله - تَعَالَى -: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة، الآية: ٤٨]، قال الرازي - رحمه الله -: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة، الآية:٤٨]، قال الرازي- رحمه الله-: «إنما كان القرآن مهيمنًا على الكتب؛ لأنه الكتاب الذي لا يصير منسوخًا البتة؛ ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف ؛ على ما قال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر، الآية: ٩]، وإذا كان كذلك، كانت شهادة القرآن على التوراة والإنجيل حقًّا وصدقًا[(١)]، فهو الصورة الأخيرة للكتب، وهو المرجع النهائي في كل شأن من شؤون الناس، «فكل اختلاف يجب أن يرد إلى هذا الكتاب؛ ليفصل فيه سواء كان هذا الاختلاف في التصور الاعتقادي بين أصحاب الديانات السماوية، أو في الشريعة التي جاء هذا الكتاب بصورتها الأخيرة»[(٢)].

---

(١) التفسير الكبير ١٢/ ١٢.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠٢.

وفي القرآن شواهد كثيرة لعرض الكتب الكبرى الماضية؛ كالتوراة والإنجيل مقرونة به لإبراز حقيقة الهيمنة التي تعني - كما أسلفنا -: الرقابة والشهادة والحفظ والأمانة»(١)، ولذكر ما لها - أيضًا - من مزية على لسانه.

ومن هذه الشواهد قوله - تَعَالَى -: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾[المائدة، الآية: ٤٤]، فأخبر القرآن عن التوراة - كما أنزله الله - أنها من كتب الله التي جاءت لهداية البشر، حيث وصفها بالهدى والنور، بما حوته من عقيدة وعبادات وشعائر.

ومضى في نفس السياق يتحدث عن الإنجيل، فقال: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة، الآية:٤٦]، فأخبر عن حال من أحوال عيسى - عليه السلام - وهو كونه: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ والذي بين يديه هي التوراة، حيث أمره باعثه - سبحانه - بإحياء أحكامها والسير في هديها، وكأنما هذه الكتب حلقات يشد بعضها بعضًا لتؤلف سلسلة متكاملة مشتملة على مناهج للحياة الإنسانية على صعيد واحد وإن تخللتها - من فترة إلى أخرى - بعض التعديلات التي تمليها الظروف والأحوال والملابسات، قال الله - تَعَالَى - في حق عيسى: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾[المائدة، الآية: ٤٦]، ثم قال - تَعَالَى - بعدها: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[المائدة، الآية: ٤٨]، أي من الكتب السالفة.

على أن الأصول الثوابت لا يعتورها تغيير ولا تبديل، إقرأ إن شئت قوله - تَعَالَى -: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ

(١) التفسير الكبير ١٢/ ١٢.

خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾[الأعلى، الآيات: ١٤-١٩]، إنه تقرير لقواسم مشتركة، تقرير يرد في كل حكم كانت مصلحته كلية بحيث لا تتخلف ولا تختلف باختلاف الأمم والأزمان، فتمثلت العقيدة في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ قال: من شهد ألا إله إلا اللَّه، وخلع الأنداد وشهد أني رسول اللَّه، فيكون أصل التزكية التوحيد[1]، ثم أعقبه بالحث على عبادته وذلك في قوله: «فصلى»، فهي إشارة إلى تكميل الجوارح وتزيينها بطاعة اللَّه وعبادته، ثم يكشف الحق - سبحانه - عن حال من أحوال النفس الإنسانية، وهي حب الدنيا وحظوظها ومنافعها، وهي مدركات القرآن لا يحيط أحد بها علمًا: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾، وهذه أمور لا يجوز أن تختلف باختلاف الشرائع؛ لذلك ختمها بالإشارة إلى قدم هذه الدعوة، وعراقة منبتها، وامتداد جذورها في شعاب الزمن، وتوحد أصولها من وراء المكان والزمان، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾[2][سبح (الأعلى)، الآيتان: ١٨، ١٩]. عن أبي ذر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: «قلت يا رسول اللَّه، هل أنزل عليك شيء مما كان في صحف إبراهيم وموسى؟ قال: نعم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾[3]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾[الشعراء، الآية: ١٩٦]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[الشورى، الآية: ١٣].

ومن ثم لبث القرآن يقرر تصديقه لهذه الكتب وما حوته من شرائع وشعائر وذلك في آيات كثيرة منها قوله - عَزَّ وَجَلَّ - حين تعرض للحديث عن القرآن -: ﴿مَا كَانَ

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٨٨.
(٢) انظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٩٤.
(٣) التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٩١.

حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يوسف، الآية:١١١]، وما الذي بين يديه سوى تلك الكتب السالفة حيث بينها وفصلها وقال - تعالى -: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران، الآية:٣]، وقال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء، الآية:٤٧]، وقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر، الآية:٣١]، «فالقرآن مصدق لأنبياء هذه الكتب ومصدق للكتب، ذاكر لنورها، عارض لهداها، شاهد على ما حوته من أصول الدين، وما جاءت به من شرائع، ثم إن ما جاء به القرآن من الأحكام المخالفة للأحكام المذكورة فيها من فروع الشريعة، فذلك من أجل اختلاف المصالح، أو من أجل التيسير على هذه الأمة»[١].

* * *

(١) التحرير والتنوير ٧/ ٣٧١.

المطلب الثاني :

كاشف للتحريفات التي لحقتها

إذا تبين مما سبق أن القرآن الكريم، نزل مصدقًا لما بين يديه من الكتب والأنبياء، شاهدًا على أن موسى - عليه السلام - ومن اتبعه على حق، وأن أهل الكتاب مدوا أيديهم إلى معاني وألفاظ الكتابين بالتحريف، قال - تعالى -: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة، الآية:٧٥]، وقال - تعالى -: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة، الآية:٧٩]، وقال - تعالى -: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة، الآية:٨٥]، وقال - تعالى -: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة، الآية:٨٩]، وقال - تعالى -: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة، الآية:٩١]، وأمر رسوله محمدًا ﷺ أن يقول لهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة، الآية:٦٨]، وإن من أهل الكتاب الذين أسلموا من يشهد بذلك، قال - تعالى -: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران، الآية:١٩٩]، ولا يقولنَّ قائل: إن القرآن يمدح أهل

هذه الكتب أحيانًا ويذمهم أخرى؛ لأن هذا قد بدا بطلانه واضحًا، حيث إن المدح لا يتناول سوى الطائفة المتبعة لموسى وعيسى - عليهما السلام - على الدين القويم الذي لم تطله يد التحريف[١].

وهذه صور من التحريفات يحكيها القرآن وهي تشمل تحريفات قولية وعملية مرفقة بالردود الإلهية تكشف منكرها وزورها وتدحض باطل قائليها ومعتنقيها.

١- من تحريفات يهود القولية:

أ- قولهم: إن الله فقير. قال - تَعَالَى -: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران، الآية:١٨١]. وفي الآية تهديد بما يؤذن بأن هذا القول جراءة على الله؛ لذلك أتبعه بقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ وتسجيل هذه الفرية، كناية عن وعيد منه - تَعَالَى - وقد قرنه بقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، «فهذا قولهم في الله وهذه معاملتهم لرسل الله، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء؛ لذلك قال: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، حيث يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتحقيرًا وتصغيرًا»[٢].

ب- وأما مقالتهم المحكية في قوله- تَعَالَى-: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؛ فقد أجاب عنها الرب - سبحانه - بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[المائدة، الآية: ٦٤]، حيث ذموا بها ذمًّا تناول السب والدعاء عليهم، ثم أعقبه بنقض لهذه المقالة اشتملت على إثبات سعة فضله - عَزَّ وَجَلَّ - وإنعامه.

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١/ ٣٥٠. بتصرف.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٣٤.

ح- **قولهم: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم السابع**، قال الله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾[ق، الآية: ٣٨]، وهو جواب أكذب الله به اليهود أهل الفرى على الله؛ وذلك أنهم قالوا: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استراح يوم السابع، وذلك عندهم يوم السبت، وهم يسمُّونه: يوم الراحة[١].

د- **ادعاؤهم بنوّة عُزير لله** : وذلك عند حكاية هذه المقالة الشنيعة في قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[التوبة، الآية: ٣٠]، وبهذه المقالة يكونون قد أعظموا على الله الفرية؛ وبلغوا في الكفر غايته؛ لذلك شنع عليهم الله - عَزَّ وَجَلَّ - بقوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ فهو قول لا يعدو الوجود اللساني، وليس له ما يحققه في الواقع، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[الكهف، الآية: ٥]، وتلك سبيل السابقين من أهل الشرك يضاهئونهم في أقوالهم، قاتلهم الله[٢].

٢- من تحريفات اليهود العملية :

أ- **تبديل شريعة الرجم**: قال - تعالى -: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾[المائدة، الآية:٤١]، والآية أشارت إلى ما ساقه الواحدي في أسباب النزول، والطبري في تفسيره ما محصله: أن اليهود اختلفوا في حد الزاني - حين زنى فيهم رجل بامرأة من أهل خيبر أو أهل فدك - بين

(١) محاسن التأويل ١٥/ ٥٠، وأسباب النزول للواحدي، ص: ٢٦٦، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين ٤/ ٢٥٠.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ١٦٧، ١٦٨.

أن يرجم وبين أن يجلد ويحمم[١]، اختلافًا ألجأهم إلى أن أرسلوا إلى يهود المدينة أن يحكموا رسول اللَّه في شأن ذلك، وقالوا: إن حكم بالتحميم قبلنا الحكم، وإن حكم بالرجم فلا تقبلوه، وأن رسول اللَّه ﷺ، قال لأحبارهم بالمدينة: ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن؟ قالوا: يحمم ويجلد ويطاف به، وأن النبي ﷺ علم كذبهم وأعلمهم بأن حكم التوراة هو الرجم على من أحصن، فأنكروا، فأمر بالتوراة أن تنشر - وكانوا يلفونها على عود على شكل اسطواني - وجعل بعضهم يقرؤها ويضع يده على آية الرجم، فقال له رسول اللَّه ﷺ: ارفع يدك فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم، فقال رسول اللَّه ﷺ: لأكوننّ أول من أحيي حكم التوراة، فأنزل اللَّه - تعَالَى -: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ - إلى قوله -: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يقولون: ائتوا محمدًا فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوا به، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا[٢].

ب - اعتداؤهم على ما حرم اللَّه عليهم: وذلك في مثل ما جاء في قوله - تَعَالَى -: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف، الآية:١٦٣]. إنه الوحي الإلهي الناطق بالكشف عن حقائق لا يدركها إلا علماء أهل الكتاب، ولئن كان هذا الصنيع المروي في هذا السياق صنيع الأسلاف، إلا أن السؤال ملتفت به إلى أخلافهم، إلى من بحضرة الرسول ﷺ إعلامًا لهم - أولًا - بقديم كفرهم، وبيان أن هذا الكفر أمر موروث متعاقب فيهم يفرز تلك التجاوزات المحكية عنهم - والتي من جملتها هذا - بأساليب ملتوية وحيل خسيسة وتحذيرًا لهم - ثانيًا - لئلا يتمادوا في تكذيبهم فيحل

---

(١) أي يلطخ وجهه بالسواد تمثيلا به.

(٢) أسباب النزول للواحدي، ص: ١٣٠، جامع البيان ٤/ ٢٣٢، تفسير البيضاوي ٢/ ١٥٠.

عليهم ما حل على أسلافهم، وسياق هذه الآية هو بسط لقوله - تَعَالَى -: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة، الآية: ٦٥].

وفي مثل قوله - تَعَالَى -: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ [الأنعام، الآية:١٤٦]، يروي البخاري - رحمه اللَّه - في صحيحه عن جابر بن عبد اللَّه - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أن رسول اللَّه ﷺ دعا على اليهود في هذا الشأن وذلك بقوله - عليه الصلاة والسلام -: « قاتل اللَّه اليهود، لما حرّم اللَّه عليهم شحومها جملوها ثم باعوها فأكلوها »، وفي رواية: « فأكلوا ثمنها »[(١)]، فتسبب عن هذا - كما ذكر - دعاء رسول اللَّه ﷺ بالقتل وذلك، بما اخترعوا من الحيلة حتى غدوا منتصبين لمحاربة اللَّه، ومن حارب اللَّه حُورب، ومن قاتله قُتِلَ.

ت - تعطيلهم لضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: قال - تَعَالَى - مخبرًا عنهم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة، الآيتان: ٧٨،٧٩]، بحيث كان يفعل بعضهم المنكر، ويسكت عليه البعض، وهي من الخصال التي استمرت فيهم، وأخرت بدعوات الأنبياء فيهم؛ لذلك اعتبروا عاصين للَّه فاستحقوا اللعن، وكيف لا وقد بقي فيهم ذلك حتى جاء محمد ﷺ فاعتدوا عليه بالتكذيب، والمنافقة، ومحاولة الفتك، والكيد، وكل وسائلهم، وأعمالهم الدنيئة قصد كسر دعوته، إلا أن ذلك انقلب عليهم حسرة وغُلِبُوا، ثم أجلوا خارج الجزيرة كما هو معلوم.

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري (كتاب التفسير باب، وعلى الذين هادوا حرمنا.. الآية ٨/ ٢٩٥ وكتاب البيوع، باب لا يذاب شحم الميتة ٤/ ٤١٤).

٣- من تحريفات النصارى القولية:

مما عرف لدى النصارى في معتقدهم غلوهم في عيسى - عليه السلام -؛ لذلك وجدنا من الآيات القرآنية الكثيرة في هذا المجال، يقول الله - تعالى -: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾[المائدة، الآية: ٧٧].

وقال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾[النساء، الآية: ١٧١]، «فخاطب الله النصارى بهذا؛ لأنهم اعتمدوا على ما يقوله كبراؤهم الذين وضعوا لهم النواميس والقوانين، ويسوغون لأكابرهم الذين صاروا عندهم كبراء في الدين أن يصنعوا لهم شريعة وينسخوا بعض ما كانوا عليه قبل ذلك، لا يردون ما يتنازعون فيه من دينهم إلى الله ورسله - بحيث لا يمكنون أحدًا من الخروج عن كتب الله المنزلة كالتوراة والإنجيل، وعن اتباع ما جاء به المسيح ومن قبله الأنبياء - عليهم السلام -»[١]، وكان من إفرازات هذا الغلو:

أ- القول بالتثليث: وهو ما حكاه القرآن عنهم في قوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ... هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة، الآيات: ٧٣-٧٦]، حيث وبخ أهل التثليث على أنهم يعبدون ما لا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا، وذلك بعد أن شهد عليهم بالكفر وهددهم بالمقاتلة. على أنه حين توعدهم بالوعيد، أعقبه بالترغيب في الهداية وذلك

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢/ ٨٦.

بقوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾، وحينما قص اللّٰه قصة المسيح، قال - تَعَالَى -: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾[مريم، الآية: ٣٤-٣٥].

ب- زعمهم قتل المسيح : قال - تَعَالَى -: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، ثم عقب - سبحانه - بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [النساء، الآية:١٥٧]، وهذا هو الذي يجب اعتقاده وهو أن المسيح لم يقتل ولم يصلب؛ ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾: ونجاه من طالبيه فأعقب كل ما ذكروه بالإبطال.

٤- من تحريفات النصارى العملية :

أ- ابتداعهم الرهبانية : قال - تَعَالَى -: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد، الآية:٢٦]، فهذه الرهبانية التي التزموها وألزموا بها أنفسهم، لم تكن من شرع اللّٰه؛ لذلك عبّر بقوله: ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي أحدثوها، فإن الابتداع الإتيان بالبدعة، والبدع: هو ما لم يكن معروفًا؛ أي أحدثوها بعد رسولهم، فتكون البدعة من قبيل ما أحدث بعد صاحب الشريعة[١]؛ ولذلك أتبعه بقوله: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد:٢٧] فلم تكن من قبيل شرع اللّٰه وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم، والمكتوب عليهم إنما هو رضوان اللّٰه عليهم ورغم هذا الالتزام فإنهم لم يوفوا به وهو ذم لهم من جهتين، من جهة الابتداع في دين اللّٰه، ما لم يأمر به، ومن جهة التفريط فيما التزموا به مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى اللّٰه[٢].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٤٢٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣١٥.

ب - **تعظيمهم للصليب**، واستحلالهم لحم الخنزير، وامتناعهم من الختان، وتركهم طهارة الحدث والخبث فلا يوجبون غسل جنابة، ولا يوجبون اجتناب شيء من الخبائث في صلاتهم، كلها شرائع أحدثوها وابتدعوها بعد المسيح - عليه السلام -، ودان بها أئمتهم وجمهورهم ولعنوا من خالفهم فيها حتى صار المتمسك بدين المسيح المحض مغلوبًا مقموعًا قبل أن يبعث الله محمدًا ﷺ وأكثر ما هم عليه من الشرائع والدين لا يوجد منصوصًا عن المسيح - عليه السلام[١].

* * *

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١/ ١٢٣.

المطلب الثالث :

من تحريفاتهم المشتركة

ومما أحبط القرآن من عقائد أهل الكتاب التي تعتبر قواسم مشتركة:

أ- ادعاؤهم أنهم أبناء الله: فأخبر القرآن بقوله - تَعَالَى -: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة، الآية:١٨]، فهذا مقال مشترك بينهم يكشف عن غباوتهم في الكفر؛ لأنهم يقولون ما لا يليق بعظمة الله - تَعَالَى -، ثم هو مناقض لمقالاتهم الأخرى، وقد علَّم الحق - سبحانه - رسوله أن يبطل قولهم بنقيضين: أولهما من الشريعة وهو قوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، فلو كانوا أبناء الله لما عذبهم بذنوبهم، وكتب اليهود تطفح بهذا فهم القائلون: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة، الآية:٨٠]، أما النصارى - وإن لم يوجد في إنجيلهم ما ذكر للعذاب -، إلا أن عقيدتهم تشير إليه، حيث قالوا: إن بني آدم كلهم استحقوا العذاب الأخروي بخطيئة أبيهم آدم فجاء عيسى ابن مريم مخلصًا وشافعًا وعرض نفسه للصلب؛ ليكفِّر عن البشر خطيئتهم الموروثة، ثم أُخِذَتْ النتيجة من البرهان، ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ ينالكم ما ينال سائر البشر.

ب- اعتقادهم أن الجنة حكر عليهم: وهو ما أخبر به قوله - تَعَالَى -: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ [البقرة، الآية:١١١]، وهي عقيدتهم إلى اليوم، فبيّن - تَعَالَى - أن هذا القول لا حجة له في كتبهم المنزلة، فقال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، وهذا القول - وإن كان ينطق بأمنية واحدة - إلا أنه يتضمن أماني متعددة هي لوازم لها؛ كنجاتهم من العذاب، ووقوع أعدائهم فيه وحرمانهم من النعيم، ثم أعقبه بمطالبتهم بأن يأتوا ببرهان على هذا الادعاء - وهي قاعدة عظيمة

انفرد بها القرآن الكريم، وتتمثل في أنه لا يقبل من أحد قول لا دليل عليه، ولا يحكم لأحدٍ بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيّدها - فعلَّم القرآن أهله أن يطالبوا الناس بالحجة؛ لأنه أقامهم على سواء المحجة، قال - تَعَالَى -: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف، الآية:١٠٨]، أي على الحجة الواضحة، وبذلك تصير مقالتهم محض ادعاء وأماني، قال - تَعَالَى -: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾[النساء، الآية: ١٢٣]، فنفى أماني المسلمين كما نفى أماني أهل الكتاب؛ لذلك بيّن - سبحانه - طريق نيل السعادة وذلك في قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة، الآية:١١٢].

بهذا المنهج وجدنا القرآن العظيم يمضي في تتبع آثار الكتب السالفة فيصدق منها ما هو أهل للتصديق ويباركه ويدعو إليه. كما أنه يدحض ما هو من قبيل المزاعم - التي حشيت بها من قبل اليهود والنصارى - دحضًا مشفوعًا بالحجة مطبوعًا بالجدال الحسن.

ولست هنا بحاصر ما قام به اليهود ولا النصارى من تحريف وإنما كان ما مَرَّ على سبيل المثال.

* * *

المطلب الرابع :

ناسخ لأحكامها

لو رجعنا إلى أعظم سورة في القرآن على مستوى الشمول - حيث سميت بسورة الفسطاط لإحاطتها بأحكام كثيرة - نستعرض أطرافها المترامية، لَلَاح للمتأمل - من خلال لائحة موضوعاتها - أنها مقسمة إلى قسمين: قسم أثبت سمو هذا الدين على سابقيه من الأديان في هديه وفي أصول تطهيره النفوس، وقسم جلى شرائعه لأتباعه قصد الإصلاح، فبعد أن قضى حق الحديث على القسم الأول، انتقل إلى قسم التشريعات إجمالًا وتفصيلًا، فتحدث عن القصاص والوصية والصيام والاعتكاف والحج والصلاة والجهاد ونظام الأسرة والمعاملات المالية والإنفاق في سبيل اللّٰه، واليتامى والمواريث، والبيوع والمسكرات، والقمار والديون، والربا، والإشهاد، والرهن، والنكاح، وأحكام النساء، والأيمان، مع تخللّه من حين لآخر من القضايا التابعة ساقها في معرض الاستطراد في مناسبات متفرقة القصد منها تجديد نشاط السامع، من تمجيد اللّٰه وحديث عن سماحة الإسلام وضرب للأمثال وعلم وحكمة ومعاني الإيمان والإسلام.

ثم ذيل ذلك كله بما أشعر بحب اللّٰه - عَزَّ وَجَلَّ - لعباده ورحمته بهم، حيث بدت خصيصة من خصائص هذا التشريع واضحة متميزة عن تشريعات الكتب السالفة، وذلك عند قوله - تَعَالَى -: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1] [البقرة، الآية:٢٨٦]، قال ابن العربي - رحمه اللّٰه -: « هذا أصل عظيم في الدين وركن من

---

(١) ولنا عودة إلى كلية: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ باعتبارها إحدى الكليات المؤسسة لهذا البحث.

أركان شريعة المسلمين شرفنا الله - سبحانه - على الأمم بها فلم يحملنا إصرًا ولا كلفنا في مشقة أمرًا، وقد كان مَنْ سلف مِنْ بني إسرائيل إذا أصاب البول ثوب أحدهم قرضه بالمقراض فخفف الله - تَعَالَى - ذلك إلى وظائف على الأمم حملوها ورفعها الله - تَعَالَى - عن هذه الأمة، وقد قال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»(١)، وفي الدعاء الذي لقننا إياه - سبحانه - عند قوله - تَعَالَى -: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، ما ينبيء عن رفع شريعة كانت متسمة بالشدة في تكاليفها؛ إذ الإصر: الثقل والشدة، قال المفسرون: إن الله - تَعَالَى - فرض عليهم خمسين صلاة وأمرهم بأداء ربع أموالهم في الزكاة، و كانوا إذا نسوا شيئًا عجلت لهم العقوبة في الدنيا، وكانوا إذا أتوا بخطيئة حرم عليهم من الطعام بعض ما كان حلالًا لهم، قال الله - تَعَالَى -: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء، الآية:١٦٠]، وقال - تَعَالَى -: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء، الآية:٦٦]، وقد حرم على المسافرين من قوم طالوت الشرب من النهر، وكان عذابهم معجلًا في الدنيا كما قال - تَعَالَى -: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء، الآية:٤٧]، وكانوا يمسخون قردة وخنازير، قال القفال: ومن نظر في السفر الخامس من التوراة التي تدعيها هؤلاء اليهود، وقف على ما أخذه عليهم من غلظ العهود والمواثيق ورأى الأعاجيب الكثيرة، فالمؤمنون سألوا ربهم أن يصونهم عن أمثال التغليظات، وهو بفضله ورحمته قد أزال ذلك عنهم»(٢)، وقال - تَعَالَى - في صفة الرسول ﷺ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف، الآية:١٥٧]، إشارة إلى أنه جاء بالتيسير والسماحة كما ورد في الحديث عن أبي أمامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثتُ

(١) أحكام القرآن ١/ ٢٦٤.

(٢) انظر التفسير الكبير ٧/ ١٥٨.

بالحنيفية السمحة »[١]، قال القاسمي - رحمه اللَّه -: « والإصر والأغلال استعارة لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة، منها عيد كل سبت لا يعمل فيه أدنى عمل، وكذلك سبت المزارع؛ ففي كل سنة سابعة سبت للأرض لا يزرع فيها ولا يقطف الكرم بل تترك الأرض عطلًا وغلات الكروم مأكلًا لفقراء شعبهم ووحوش البرية، ومنها أن من ضرب أمه أو أباه أو شتمهما أو تمرد عليهما يقتل حدًّا، ومن تزوج فتاة ثم ادعى أنه لم يجد لها عذرة ثم تبين كذبه جميعًا يقتلان، ومن اضطجع مع امرأة طامث يقطعان من شعبهم، ومن طلق امرأته ثم تزوجت آخر وطلقها أو مات عنها، فلا يجوز لزوجها الأول أن يراجعها وغير ذلك من الآصار »[٢]، ومنها: « أن اللَّه - تَعَالَى - لم يأذن لهم بالجهاد، وحتى ما أذن لهم فيه كانوا إذا غنموا شيئًا لم يحل لهم أن يأكلوه، فتجيء النار فتحرقه، فدل هذا على أن من مضى لم تحل لهم الغنائم أصلًا »[٣].

هذه نبذة يسيرة من الأحكام التي كانت على بني إسرائيل لم يشرعها لنا - سبحانه - بفضله وكرمه وجوده، فدل بذلك على أن هذه الشريعة سيدة الشرائع بلا منازع، فهي نعمة كبيرة على الأمة توجب تعظيم مشرعها وتعزيز وتوقير المبعوث بها - صلوات اللَّه وسلامه عليه -!

* * *

(١) مسند أحمد ٥/ ٢٦٦.
(٢) محاسن التأويل ٧/ ٢٧٨.
(٣) فتح الباري ١/ ٤٣٨.

المبحث الرابع:

القرآن والسنة النبوية

المطلب الأول

محفوظة بحفظه

إذا كان هذا الكتاب قد تكفل اللّٰه - عَزَّ وَجَلَّ - بحفظه بنص منه - تَعَالَى - حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر، الآية:٩]، فإن هذا الحفظ فيه من التنويه بشأن الكتاب ما فيه إغاظة للمشركين بأن أمر هذا الدين سيتم بلا ريب، وهو من التحدي بكون القرآن منزلًا من عند اللّٰه؛ إذ لو كان من البشر لحصل فيه اختلاف كثير، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء، الآية:٨٢]، وآية الحفظ هذه - أيضًا - دالة على حفظ السنة المبيِّنَة للقرآن بدلالة التضمن، فإن حفظ المبيَّن يستلزم حفظ المبين، بل إن البيان النبوي من تمام حفظ الكتاب تصديقًا لوعده - سبحانه -، القائل: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة، الآية:١٩]؛ وذلك لأن الحفظ يشمل المباني والمعاني على حد سواء، أما المباني فقد سيجت بسياج الحفظ لئلا يعتورها التبديل، وأما المعاني حيث حُفَّتْ بالرعاية الربانية لئلا تُشوَّه بتأويل أو غيره؛ لذلك أمكن القول؛ بأن السنة اعتُبِرَتْ من الوسائل التي حفظت لنا كتاب اللّٰه في مبناه ومعناه، فجدير أن تُحفظ بدورها من عبث العابثين.

وهذه المسيرة العلمية الإسلامية شاهدة عبر التاريخ على ما بذله رجال صدقوا اللّٰه فقيضهم لها من أجل الذب عن حياضها جيلًا بعد جيل، لم تخر قواهم ولم تفتر عزائمهم إلى عصرنا هذا، وهو ما أخبر به الصادق الأمين حين قال - عليه الصلاة

والسلام -: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[١].

* * *

(١) الحديث ذكره ابن القيم في: مفتاح دار السعادة، وقواه لتعدد طرقه ١/ ١٦٢-١٦٤.

المطلب الثاني:

مبينة له

وهو ما صرح به كتاب اللَّه، قال - تَعَالَى -: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل، الآية:٤٤]، حيث أسند البيان إلى النبي ﷺ باعتباره أنه المبلغ للناس ما يحويه هذا الكتاب من شرائع ببليغ نظمه ووفرة معانيه، وما هذه «اللام» في قوله - تَعَالَى -: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ إلا لتعليل بعض الحكم الحافة لا يزال الكتاب، فهي كثيرة منها هذا البيان الذي نيط به ﷺ[١]، قال الإمام الأوزاعي - رحمه اللَّه -: إن الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب، قال ابن عبد البر - رحمه اللَّه - يريد أنها تقضي عليه وتبين المراد منه. وقال أحمد بن حنبل - رحمه اللَّه -: إن السنة تفسر الكتاب وتبينه[٢]، وتبرز هذه الحاجة حين نعلم أن القرآن حوى الأصول العامة للتشريع دون تفصيل ولا تفريع، فالتعريف بالمصالح والمفاسد وما يؤدي إليهما، وبيان أن المصالح لا تعدو الضروريات ومكملاتها، والحاجيات وتوابعها والتحسينيات وما يكملها؛ كل ذلك أتى به الكتاب أصولًا ثم أتت بها السنة تفريعًا وبيانًا، فكما تأصلت الضروريات في الكتاب - مثلًا - تفصلت في السنة، فإن حفظ الدين حاصله في ثلاثة أشياء وهي: الدعاء إليه بالترغيب والترهيب، وجهاد من عانده أو رام إفساده، وتلافي النقصان الطاريء في أصله، وأصل هذه في الكتاب، وبيانها في السنة على الكمال[٣]، وهكذا في باقي الضروريات أصولها في القرآن، والسنة بينتها، وما يقال في الضروريات يقال في الحاجيات والتحسينيات، وبذلك تبدو وظيفة السنة وهي

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٦٤.
(٢) الموافقات، ٣/ ٣٠٨.
(٣) الموافقات ٤/ ٤٠٩.

البيان. وفي الجملة فقد جاءت السنة موافقة لما في الكتاب؛ تفسر مبهمة وتفصل مجمله، وتقيد مطلقه وتخصص عامه، وتشرح أحكامه وأهدافه، فكانت في الواقع تطبيقًا عمليًا لما جاء به القرآن، تطبيقًا يتخذ مظاهر مختلفة؛ فحينًا يكون عملًا صادرًا عن الرسول ﷺ ، وحينًا آخر يكون قولًا يقوله في مناسبة، وحينًا يكون تصرفًا أو قولًا من أصحابه فيرى العمل أو يسمع القول، ثم يُقرّ هذا وذاك فلا يقابله باعتراض ولا نكران، فيكون منه تقريرًا. ومن أوجه هذا البيان ما أُجْمِلَ من عبادات وأحكام، فقد فُرِضَتْ الصلاة على المؤمنين من غير أن تَبينَّ أوقاتها، وأركانها وعدد ركعاتها، فَبينَّ الرسول الكريم هذا بصلاته وتعليمه كيفية الصلاة، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[1]، وَفُرِضَ الحج من غير تبيان لمناسكه فبينَّها ﷺ ، وقال: «خذوا عني مناسككم»[2]، وَفُرِضَتْ الزكاة دونَ بيان ما تجب فيه من أموال وعروض وزروع على التفصيل كما لم يُبَينَّ النصاب، فَبَينَّت السنة ذلك كله.

فكل أصل تقرر في الكتاب إلا وقد فسرته السنة، وفرعت عنه، في قوله - تَعَالَى -: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء، الآية:٢٩]، فقد تفرع عن هذا الأصل منع بيع الثمار قبل بدو صلاحها حيث حرم رسول اللَّه ﷺ هذا النوع من البيوع ما لم يبد صلاح الثمر ويتمكن المشتري من التثبت من تمام تكونها، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «أرأيت إذا منع اللَّه الثمرة بم يأخذ أحدكم مال أخيه؟»[3].

* * *

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٢/ ١١١ (كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة..).

(٢) مسند أحمد ٣/ ٣١٨، ٣٦٦.

(٣) فتح الباري ٥/ ٢٩٨-٣٠٢ (كتاب البيوع، باب بيع الثمار قبل بدو صلاحها).

المطلب الثالث:

لا استنباط منه إلا بإشراك السنة

فمحاولة الاستغناء عن السنة - إذًا - مخالفة لصريح القرآن؛ إذ هو الآمر بالرجوع إلى السنة والحث على طاعة الرسول ﷺ فيما أمر ونهى؛ بل إن اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - اعتبر طاعة الرسول من طاعته - سبحانه -، فقال - تَعَالَى -: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء، الآية:٧٩]، وقال - سبحانه -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح، الآية:١٠]، قال الشافعي - رحمه اللَّه -: «فأعلمهم أن بيعتهم رسوله بيعته، وكذلك أعلمهم أن طاعتهم رسوله طاعته»[1]، وحذر من التولي عن هذه الطاعة، فقال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة، الآية:٩٢].

فإذا كانت السنة - على كثرتها وكثرة مسائلها - إنما هي بيان للكتاب -؛ كما مَرَّ - فإنه لا ينبغي في الاستنباط من القرآن الاقتصار عليه دون اللجوء إلى بيانه المتمثل فيها، قال الشاطبي - رحمه اللَّه -: «لأنه إذا كان القرآن كليًّا وفيه أمور كلية، فلا محيص عن النظر في بيانه»[2].

* * *

---

(١) الرسالة، ص: ٨٢.

(٢) الموافقات ٣/ ٣٠٣.

المبحث الخامس :

من مقاصد القرآن الكريم

المطلب الأول :

إقامة الدين وحفظه

إن كتاب الله - تعالى - هو الخطاب التكليفي للإنسان، وهو آخر كتاب أنزله الله هداية للناس أجمعين: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم، الآية:١]، و﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾[الأنعام، الآية: ١٥٥]، ونَصَّ الحق على أنه منهج حياة، فقال - تعالى -: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء، الآية:٩].

وإن نظرة فاحصة في القرآن الكريم لترينا أن مقاصده تدور حول نواحٍ ثلاث: ناحية العقيدة، وناحية التشريع، وناحية السلوك.

قال الغزالي - رحمه الله - في حصر مقاصد القرآن ونفائسه - « انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع: ثلاثة منها هي السوابق والأصول المهمة، وثلاثة هي الروادف والتوابع المغنية المتمة.. ثم قال: أما الثلاثة المهمة فهي: تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه، وتعريف الحال عند الوصول إليه »[1] وكأني به يريد بهذه الناحية الأخيرة: الإشارة إلى الجزاء[2].

---

(١) جواهر القرآن، ص: ٢٣.

(٢) وهي قاعدة جليلة سنفرد لها فصلًا خاصًا - إن شاء الله -.

ويقول البقاعي - رحمه اللَّه -: «المقصود من إرسال وإنزال الكتب نصب الشرائع، والمقصود من نصب الشرائع جمع الخلق على الحق، والمقصود من جمعهم على الحق، تعريفهم بالملك وبما يرضيه وهو مقصود القرآن الذي انتظمته الفاتحة بالقصد الأول»(١).

١- فالقصد الأعظم لإنزال الكتاب: معرفة اللَّه، حق المعرفة؛ لأن المعرفة الحقة تورث الطاعة الحقة، والطاعة الحقة تحيل المكلف إلى عبد خالص للَّه، والعبودية الخالصة هي التي تقيم منهج اللَّه وتحقق الخلافة المرادة للَّه، وبدون معرفة اللَّه حق معرفتة وتقديره حق قدره، يقع الخلل في إقامة شرعه فيتولد عن هذا الخلل ظلم في حق الذات الإلهية فتصرف العبودية لسواه، وهو الظلم العظيم: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان، الآية:١٣] كما ينجم عن هذا الخلل ظلم الناس بحيث يغيب شرع اللَّه المطلوب إقامته بين الناس، فتحل محله الأهواء فيقع التهارج والتمارج نتيجة غياب الحاكمية الربانية، ولا يزال القرآن يمدنا بنماذج صارخة نستشف منها قيمة العقيدة، فها هو يخاطب المشركين بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج، الآية:٧٢]، ثم أعقب هذا النداء بحكاية مأتى الخلل الذي نجم عنه هذا الخطاب الجسيم في حق الذات الإلهية، فقال- تَعَالَى-: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج، الآية:٧٤]، «فما عظموه حق تعظيمه؛ إذ لو فعلوا ما أشركوا معه الضعفاء العجز، وهو الغالب القوي العزيز، فكيف يشاركه الضعيف الذليل؟»(٢)، فلو اعتقدوا تنزيه الحق عن مشاكلة المحدثين

(١) نظم الدرر ١/ ٢٠، ٢١.

(٢) التحرير والتنوير ١٧/ ٣٤٢.

حتى يصير ذلك كالعيان لاطمأنت قلوبهم بأن ليس كمثله شيء.

فإصلاح الاعتقاد إذا هو أعظم سبب لإصلاح الخلق؛ يزيل عن النفس الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله- تعالى-: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾[هود، الآية: ١٠١]، وهذا التتبيب ليس من فعل الآلهة؛ ولكنه من آثار الاعتقاد بهذه الآلهة[1].

٢- ثم يليه القصد الثاني وهو التعريف بالصراط المستقيم؛ لأن المكلف خُلِقَ لعبادة الله، ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات، الآية:٥٦]، «وعمدة هذا الصراط المستقيم أمران: الملازمة والمخالفة»[2]، وهذا هو التكليف الذي كلّف الله به العباد على ألسنة الرسل، وهو لا يريد منهم إلا صلاحهم العاجل والآجل، وحصول الكمال النفساني بذلك الصلاح، فلا جرم أن الله أراد من الشرائع كمالهم الإنساني وضبط نظامهم الاجتماعي في مختلف الأعصار والأمصار، وتلك حكمة إنشائهم بحيث ينتظم أمرهم بوقوفهم عند حدود التكاليف التشريعية من الأوامر والنواهي، ولقد جمع القرآن هذه الأحكام التشريعية جمعًا كليًا في الغالب[*]، فقوله: ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل، الآية:٨٩]، وقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾، المراد بهما إكمال الكليات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس، قال الشاطبي- رحمه الله-: «لأنه على اختصاره جامع والشريعة تمت بتمامه، ولا يكون جامعًا لتمام الدين إلا والمجموع فيه

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٠ والتتبيب: النقص والخسارة: لسان العرب، مادة «تبب».

(٢) جواهر القرآن، ص: ٢٨.

* قوله في الغالب: يريد أن القرآن قد حوى من الأحكام ما هو جزئي إلا أن الغالب عليه أن يشتمل على الكليات.

أمور كلية »[١].

٣- أما المقصد الثالث، والذي يتمثل في تهذيب الأخلاق، وتشذيب السلوك، وكل ما هو داع إلى الأخذ بمحاسن العادات، وتجنب الأحوال المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات، فهو مجموع كله في قسم مكارم الأخلاق، حيث وجدنا القرآن يحضُّ على مكارم الأخلاق ومحاسنها في العادات والمعاملات، كل ذلك موجود في كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ لذلك حين سُئلَتْ عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا- عن خُلُقهِ ﷺ، قالت: كان خُلُقهُ القرآن »؛ لأن القرآن يشتمل على جميع مكارم الأخلاق؛ ولأن اللَّه- تَعالَى- قال لنبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾، فدل مجموع الآية وحديث عائشة هذا أن المتصف بما في القرآن على خلق عظيم، ومن هذه المكارم الأخلاقية، والسجايا القرآنية قوله- تَعالَى-: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [البقرة، الآية:٢٣٧]، فانظر ما في هذه الآية من الحضّ على مكارم الأخلاق من الأمر بالمعروف والنهي عن نسيان الفضل، وقال- تَعالَى-: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾ [المائدة، الآية:٣]، وقال- تَعالَى-: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة، الآية:٨]، فانظر ما في هذه الآيات من مكارم الأخلاق والأمر، بأن تُعامِل من عصى اللَّه فيك بأن تطيعه فيه، وقال- تَعالَى-: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ﴾ [النساء، الآية:٣٦]، وقال- تَعالَى-: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف، الآية:٣١]، وقال:

---

(١) الموافقات ٣/٣٠٣.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام، الآية:١٥١]، وقال- تعالى-: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص، الآية:٥٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ما يدعو إليه القرآن من مكارم الأخلاق ومحاسن العادات.

* * *

المطلب الثاني :

جلب المصالح ودرء المفاسد

هذه هي الأصول الثلاثة العامة المؤسَّسَة لدعوة القرآن وأمره الخلق بالسير على وفقها؛ جلبًا للمصالح ودرءًا للمفاسد في المعاش والمعاد؛ لذلك ألفيناها تمثل الإطار العام لكل الشرائع والملل، موسومة بالاطراد والثبات، مقصودة للشارع، قال الشاطبي- رحمه اللَّه- عن مكوناتها المتجلية في الضروريات والحاجيات والتحسينيات: «ولما كان الشارع قاصدًا بها أن تكون مصالح على الإطلاق، كان لابد أن يكون وضعها أبديًّا وكليًّا وعامًّا في جميع أنواع التكليف والمكلفين، وجميع الأحوال»[١].

وقد نظر القرآن الكريم إلى مكونات هذه الأصول فأتى بها على حسب حاجة الخلق؛ بحيث روعي فيها ما هو ضروري مما هو دون ذلك، وما تقسيم المقاصديين لها إلى: ضروريات، وحاجيات، وتحسينيات؛ إلا نتيجة لاستقراء مواردها في القرآن الكريم، فعن الضروريات يقول الغزالي- رحمه اللَّه-: «وقد علم بالضرورة كونها مقصودة للشرع لا بدليل واحد وأصل معين، بل بأدلة خارجة عن الحصر»[٢]، وقال عنها الشاطبي: «وعلم هذه الضروريات صار مقطوعًا به، ولم يثبت ذلك بدليل معين بل عُلِمَتْ ملاءمتها للشريعة بمجموع أدلة لا تنحصر في باب واحد... ثم مضى يمثل لضرورة حفظ النفس، فقال: فنحن إذا نظرنا في حفظ النفس- مثلًا- نجد النهي عن قتلها قال- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام، الآية:١٥١]، وجعل قتلها سببًا في القصاص، قال- تَعَالَى-: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ

(١) الموافقات ١/ ٣٥٠.

(٢) المستصفى ١/ ٣١١.

ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة، الآية:٤٥]، ومتواعدًا قاتلها عمدًا، قال- تعالَى-: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء، الآية:٩٣]، ومقرونًا بالشرك، قال- تعالَى-: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام، الآية:١٥١]، ووجوب سد الرمق على الخائف على نفسه ولو بأكل الميتة، قال- تعَالَى-: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة، الآية:٣]، فعلمنا تحريم القتل علم اليقين، وإذا انتظم الأصل الكلي، صار جاريًا مجرى دليل عام، فاندرجت تحته جميع الجزئيات التي يتحقق فيها ذلك العموم»[١].

هكذا يتبين كيف أن العلماء استقروا مواطن هذه الأصول في القرآن فألفوها مثبتة بأدلة تفوق الحصر.

والمصالح الضرورية هي التي لابد منها لقيام الحياة الدينية والدنيوية، بحيث إذا فُقِدَتْ لم تجر مصالح الدنيا على استقامة؛ بل على فساد وتهارج وخلل نظام وفوت حياة، فتغدو أحوال الأمة شبيهة بأحوال الأنعام، بحيث لا تكون على الحالة المرضية للشارع[٢].

وتنحصر هذه الضروريات في: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال. ومن علماء الأصول مَنْ تنبه إلى أن هذه الضروريات هي المشار إليها بقوله- تعَالَى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة، الآية:١٢]؛ إذ لا خصوصية للنساء المؤمنات، فقد كان ﷺ يأخذ البيعة على الرجال

(١) الموافقات.

(٢) الموافقات ١/٣٢٤، ومقاصد الشريعة لابن عاشور، ص: ٧٤.

بمثل ما نزل في المؤمنات»[١]، والذي يتملى مواطن حفظ هذه الضروريات يرى أن القرآن قد عمل على حفظها من جهتين:

أ- من جهة الوجود وذلك لما يقيم أركانها ويثبت قواعدها.

ب- من جهة العدم وذلك بما يدرأ عنها الاختلال الواقع فيها[٢].

فأصول العبادات راجعة إلى حفظ الدين من جانب الوجود، كالإيمان والنطق بالشهادتين، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وما أشبه ذلك.

والعادات راجعة إلى حفظ النفس والعقل من جانب الوجود- أيضًا- كتناول المأكولات والمشروبات، والملبوسات والمسكونات، وما أشبه ذلك.

والمعاملات راجعة إلى حفظ النسل والمال من جانب الوجود وإلى حفظ النفس والعقل- أيضًا- لكن بواسطة العادات.

والجنايات- ويجمعها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- ترجع إلى حفظ الجميع من جانب العدم[٣].

كل ذلك قامت عليه الأدلة الصريحة من الكتاب ومن السنة الشريفة، أما الإيمان- الذي هو أصل الدين- ففي مثل قول الله- تعالى-: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة، الآية:١، ٢]، وقوله- تعالى-: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن، الآية:٨]، وقوله- تعالى-: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ [التغابن، الآية:١١]، وقوله- تعالى-: ﴿قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الأنعام، الآية:١٩]، وقوله- تعالى-: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ [الرعد، الآية:٣٠].

---

(١) مقاصد الشريعة لابن عاشور، ص: ٨٠.

(٢) الموافقات ١/٣٢٤، ٣٢٥.

(٣) الموافقات ١/٣٢٥.

وأما الصلاة والزكاة فأدلتها القرآنية فوق أن تحصى، ومنها قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة، الآية:٣]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩﴾ [فاطر، الآية:٢٩].

وأما الصيام ففي مثل قوله- تَعَالَى-: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٨٣ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة، الآية:١٨٣،١٨٤].

وأما الحج ففي مثل قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ [الحج، الآية:٢٧،٢٨].

هذا على الجملة، أما التفصيل والبيان، فتلك وظيفة السنة النبوية حيث عمدت إلى الأركان الخمسة ففصّلتها وبينتها.

وأما حفظ النفس فهي من دعوات القرآن الضرورية؛ إذ بدون هذه الأنفس تنتفي عبادة الله، وهي من المقاصد العظمى- كما أسلفنا- فلو عدم المكلف لعدم من يتدين؛ لذلك فالقرآن الكريم لا يزال يبرز المقومات المحافظة عليها، كما أنه يبين الإجراءات التي تقيها من الزوال، وتعصمها من الفناء، ويُمهّدُ ذلك كله بالدعوة إلى أسباب إيجادها، ومنها التزاوج والتناكح، قال- تَعَالَى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء، الآية:١]، وقال- تَعَالَى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف، الآية:١٨٩]، وفي الامتنان بالمطاعم والمشارب والملابس والمساكن المعبَّر عنها في القرآن: بالطيبات والزينة؛ ما يدل على حفظ النفس، قال- تَعَالَى-: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[البقرة في الآية: ٦٠]، وقال- تَعَالَى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة، الآية:١٦٨]، وقال- تَعَالَى-:

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل، الآية:٨١]، وقال- تَعَالَى-: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ [النحل، الآية:٨٠].

وأما حفظ العقل؛ ففي مثل قوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة، الآية:٩١].

وأما حفظ النسل؛ ففي مثل قوله- تَعَالَى-: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النور، الآية:٢].

وأما المال؛ ففي مثل قوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة، الآية:١٨٨].

وحفظ هذه الكليات أمر وارد بالسنة لآحاد الأمة، ولعمومها بالأولى فحفظ الدين- مثلًا- معناه حفظ دين كل أحد من المسلمين؛ لئلا يدخل عليه ما يفسد اعتقاده أو عمله، وبالنسبة لعموم الأمة دفع كل ما من شأنه أن ينقض عُرَى الدين وأصوله القطعية، ويدخل في هذا حماية حوزة الإسلام بإبقاء الإسلام، قال- تَعَالَى-: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة، الآية:٢]، والآية تعتبر من الكليات القرآنية العظمى، القصد منها حفظ المصالح على مستوى الجماعة؛ إذ التعاون «من أركان الهداية الاجتماعية في القرآن؛ لأنه يوجب على الناس إيجابًا دينيًا أن يُعينَ بعضهم بعضًا على كل من أعمال التقوى التي يدفعون بها المفاسد والمضار عن أنفسهم»(١).

---

(١) تفسير المنار: ١٣١/٦.

ومن مثمرات هذا التعاون- الذي هو من الفرائض- الاعتصام بحبل الله الذي أرشد إليه القرآن الكريم بقوله- تَعَالَى-: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران، الآية:١٠٣]، «وهي أصل عظيم من أصول الأخلاق الإسلامية، ترشد إلى تكوين الجماعة لإصلاح الأمة وحفظ نظامها»[١]؛ ولتحقيق التعاون لابد من التئام جميع أعضاء المجتمع بحيث لا يتخلف عن هذا التعاون أحد البتة، ولا يشذُّ صوت مهما يكن وذلك ما صرَّحت الآية ببيانه، حيث يقول الحق- تَعَالَى-: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾، فلفظة: ﴿جَمِيعًا﴾ تؤكد شمولية الاعتصام بحبل الله، وفي: «حبل الله» ما ينبيء بأن دعوة القرآن إلى الاعتصام لا تتم إلا إذا كان المعتصم، به هو الحق المبين، الذي تنماع قُدَّامه كل الأهواء والضلالات والأباطيل، فيأتي الاعتصام متماسكًا ملتئمًا لا يكون عرضة للفشل والهزال الذي لا يثمره إلا التفرق والتنازع، قال الله- تَعَالَى-: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال، الآية: ٤٦]. فالتنازع أمر مرتكز في الفطرة، كما أن من شأنه أن ينشأ عن اختلاف في الرأي؛ لذلك بسط القرآن فيه ببيان سيء آثاره، وحذر من مغبته التي هي انحطاط القوة ونفاد الأمر وذهاب السلطان.

والنهي عن الشيء يقتضي الأمر بتحصيل ضده، ويحصل هذا الضد بتحصيل أسبابه، ومن الأسباب، التفاهم والتشاور ومراجعة الأفراد بعضهم لبعض حتى يصدروا عن رأي واحد.

لذلك اعتُبِرَ مبدأ الشورى من الدعامات الأساسية لتثبيت نظام الأمة، فهو «من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام»[٢]، قال الله- تَعَالَى- آمرًا نبيه لإنشاء هذا البدأ في أمته-: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران، الآية:١٥٩]، والمراد

---

(١) التحرير والتنوير: ٤/٣٠، وانظر: ١/٤٠.

(٢) المحرر الوجيز: ٣/٢٨٠.

بالأمر هنا، أمر الأمة الدنيوي الذي يقوم به الحكام عادة، لا أمر الدين المحض الذي مداره على الوحي دون الرأي؛ إذ لو كانت المسائل الدينية كالعقائد والعبادات والحلال والحرام مما يقرر بالمشاورة لكان الدين من وضع البشر، وإنما هو وضع إلهي ليس لأحد فيه رأي لا في عهد النبي ﷺ ولا بعده[١].

بهذا النص الجازم يؤسس الإسلام هذا المبدأ الضخم، وهو نصٌّ قاطع لا يدع للأمة شك في أن الشورى مبدأ أساس، أما الشكل والوسائل المحققة له فهي أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابساتها التي تتم بها حقيقة الشورى[٢]، وتلك من سمات الكلية الشرعية.

والشورى من دلائل الاستجابة لله، قال اللَّه- تَعَالَى- مادحًا المؤمنين-: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى، الآية:٣٨]، والرسول ﷺ هو الأسوة والقدوة، فبمجرد ما تَلقَّى الأمر عن ربه- عَزَّ وَجَلَّ-، سارع لتنفيذه، فقد وجدناه- صلوات اللَّه وسلامه عليه- يستشير صحابته يوم أُحُدٍ، فيقول: «أشيروا عليَّ أيها الناس»[٣]، وقال في قصة الإفك: «أشيروا عليَّ معشر المسلمين في قوم أنبوا أهلي ورموهم... فاستشار عليًا وأسامة في فراق عائشة»[٤]. ولئن كان أهل التأويل قد اختلفوا في مقصد أمر اللَّه لنبيه ﷺ بالمشاورة مع ما أمده به من التوفيق وأعانه به من التأييد، فمن قائل: إنه أمره بالمشاورة في الحرب ليستقر له الرأي الصحيح فيه فيعمل به، ومن قائل: إن ذلك كان تأليفًا لهم وتطييبًا لنفوسهم، ومنهم من رأى أن ذلك كان من أجل أن يستنَّ به المسلمون فيسيروا على منهاجه»[٥]، لئن كان هذا الاختلاف،

---

(١) انظر تفسير المنار: ١٩٩/٤.
(٢) في ظلال القرآن: ٥٠١/١.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٣/٢.
(٤) محاسن التأويل: ٢٧٩/٤.
(٥) محاسن التأويل: ٢٧٦/٤.

فإنه لا يضير في شيء إذا قلنا: إن اللَّه- تَعَالَى- وهو أعلم- أوجب الشورى توضيحًا لهذه المقاصد النبيلة كلها، حتى إن بعض المفسرين يرون أن ثمرة الآية وجوب التمسك بمكارم الأخلاق، خصوصًا لمن يدعو إلى اللَّه ويأمر بالمعروف[١].

وقد أثمرت التربية النبوية فأوجدت رجالًا لا يستأثرون برأي ولا يجدون عن قاعدة الشورى بديلًا، فهذا عمر بن الخطاب- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يجعل الخلافة، وهي- أعظم النوازل- شورى بين المسلمين، ولقد كان القراء أصحاب مشورته كهولًا أو شبابًا، وكان وقَّافا عند كتاب اللَّه[٢].

وعلى كل حال فالشورى واجبة بنصوص القرآن، والمقصود من وجوبها أن تستعمل الأمة حقها في التعاون على تدبير شئونها، ومراقبة سير سياستها. وبذلك يتم تحقيق الأمر الوارد في قوله- تَعَالَى-: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهو مما يثمر الوحدة والاتفاق والبعد عن الاختلاف والشقاق، وهي من أعظم المصالح التي يجب اجتلابها شرعًا ودرء ما من شأنه أن يشوّش عليها، ويحول دون البلوغ إليها.

* * *

---

(١) محاسن التأويل: ٤/٢٧٩.

(٢) انظر الطبقات الكبرى: ٣/٦١، وانظر سير أعلام النبلاء: ١/١١٨.

المطلب الثالث:

رفع الحرج

إذا كان القصد من التكليف أن يثمر البعد عن الهوى والتشهي، ويدخل المكلف في دائرة العبدية الاختيارية بعد العبدية الاضطرارية،- ومن المعلوم أن ذلك لا يتم إلا بالطاعة المتجلية في إتيان المأمورات والوقوف عند المنهيات؛ إذ إن هذه الشريعة تمتاز بكونها شريعة عملية تسعى إلى تحصيل مقاصدها، بالقول والعمل على مستوى الفرد والجماعة إذا كان القصد من التكليف كذلك، فقد وجدنا من التكاليف ما فيه مشقة، على أن من هذه المشاق ما هو مختص بذات الفعل، فبمجرد ما يمارس الفعل من قبل المكلف، تحصل المشقة ولو بالمرة الواحدة فتكون المشقة حينئذٍ ناشئة من أمر جزئي.

ومنها ما ليس مختصًا بذات الفعل، وإنما تبرز المشقة بعد المداومة على الفعل، فتكون المشقة ناشئة من أمر كلي.

أما النوع الأول، فموضعه الرخص المشهورة في اصطلاح الفقهاء، كالصوم في المرض والسفر، وما أشبه ذلك.

والثاني: يوجد في النوافل إذا تحمّل المكلّف منها فوق ما يطيق[1].

والله- سبحانه- لا يخفى عليه ما في هذه التكاليف من المشاق- سواء ما كان منها مختصًا لذاته أو ما كان كليًا- فهو عالم بلزوم المشقة لهذه الأفعال من غير انفكاك، كما أنه- تَعَالَى- محيط بضعف الإنسان المكلف وقلة حيلته، قال- تَعَالَى-: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء، الآية:٢٨]، فإذا علم هذا، تعين أن تكون هذه

(١) الموافقات: ٢/٤٢٦.

المشاق المكلف بها من قبيل المشاق المعتادة المقدور عليها، وأن المقصد من إحداقها بالأفعال تربية النفس، وقهرها، وكبح جماحها؛ لئلا تجنح إلى ما لا يحل، ولإرسالها بمقدار الاعتدال إلى ما يحل؛ «إذ مخالفة الهوى والشهوة هي من المقاصد المعتبرة شرعًا»[١]. ورغم أن هذه المشاق مقدورة للمكلف، من قبيل المعتاد، فإن الشارع الحكيم زين تكاليف الشرع بزينة رفع الحرج والمشقة، وحسبك بهذا مظهرًا من مظاهر رفع الحرج ابتداءً، فالمكلف قادر على إتيان الفعل المكلف به- وإن كان محفوفًا بالمشقة- إلا أن رحمة اللّه تتداركه وترفع عنه ذلك الحرج رغم كونه مقدورًا له، تزيينًا لهذه الشريعة وتحبيبًا لها في النفوس؛ حتى يُقْبِلَ المكلّف على العمل دون كلل أو ملل، ومن ثم الانقطاع.

ورفع الحرج من سنة الأنبياء جميعهم، قال ابن كثير- رحمه اللّه-: (عند تفسير قوله- تَعَالَى-: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾[الأحزاب، الآية: ٣٨]، أي حكم اللّه في الأنبياء من قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج)[٢]، ومن أهل التأويل من اعتبر قوله- تَعَالَى-: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة، الآية: ٢٨٦]، دليلًا على عدم وقوع التكليف بما فوق الطاقة في شرائع اللّه جميعها لعموم لفظ: ﴿نَفْسًا﴾، التي وردت في سياق النفي؛ لأن اللّه- تَعَالَى- ما شرع التكليف إلا للعمل واستقامة أحوال الخلق، فلا يكلفهم ما لا يطيقون فعله[٣]، فالسماحة واليسر- إذًا- من أوصاف هذه الشريعة وهي محمودة فيما يظن الناس التشديد فيه، ومعنى كونها محمودة أنها لا تفضي إلى ضُرٍّ أو فساد، وفي الحديث الصحيح عن عبد اللّه بن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أحب الدين إلى اللّه الحنيفية

---

(١) الموافقات: ٢/٤٥٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/٤٩٢.

(٣) التحرير والتنوير ٣/١٣٥.

السمحة »[١]، فقد أثبت الحديث أن السماحة هي وصف الإسلام وهو ثابت في القرآن، فقد قال الله- عزَّ وَجلَّ-: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[البقرة، الآية: ١٨٥]، وقال- تَعالَى-: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾[المائدة، الآية: ١٨٦]، وقال- تَعالَى-: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة، الآية:٢٨٦]، والأدلَّة فوق أن تحصى فقد بلغت مبلغ القطع.

والحكمة من جعل هذه الشريعة سمحة هي: «أن اللَّه جعل هذه الشريعة دين الفطرة، وأمور الفطرة راجعة إلى الجبلَّة؛ فهي كائنة في النفوس، سهل عليها قبولها، ومن الفطرة النفور من الشدة والإعنات، قال- تَعالَى-: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾[النساء، الآية: ٢٨]، وقد أراد اللَّه- تَعالَى- أن تكون شريعة الإسلام شريعة عامة ودائمة فاقتضى ذلك أن يكون تنفيذها بين الأمة سهلًا، ولا يكون ذلك إلا إذا انتفى عنها الإعنات، فكانت بسماحتها أشد ملائمة للنفوس؛ لأن فيها إراحة النفوس في حالي خويصتها ومجتمعها، وقد ظهر للسماحة أثر عظيم في انتشار الشريعة وطول دوامها، فعلم أن اليسر من الفطرة؛ لأن في فطرة الناس حب الرفق »[٢].

ومحل رفع الحرج كائن في الحاجيات، قال الشاطبي- رحمه اللَّه- : ودوران الحاجيات على التوسعة والتيسير ورفع الحرج والرفق.

فبالنسبة إلى الدين يظهر في مواضع شرعية الرخص في الطهارة، كالتيمم، ورفع حكم النجاسة فيما إذا عسر إزالتها، وفي الصلاة بالقصر، ورفع القضاء في الإغماء

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري (كتاب الإيمان، باب الدين يسر، وقول النبي ﷺ : «أحب الدين إلى اللَّه الحنيفية السمحة » ١/٩٣).

(٢) مقاصد الشريعة للطاهر بن عاشور، ص: ٦١، ٦٢.

والجمع، والصلاة قاعدًا وعلى جنب، وفي الصوم بالفطر في السفر والمرض، وكذلك سائر العبادات.

وبالنسبة إلى النفس- أيضًا- يظهر في مواضع منها مواضع الرخص كالميتة للمضطر، وشرعية المواساة بالزكاة وغيرها، وإباحة الصيد وإن لم يتأت فيه من إراقة الدم ما يتأتى بالذكاة الأصلية.

وفي التناسل، من العقد على البضع من غير تسمية الصداق، وإجازة بعض الجهالات فيه بناء على ترك المشاحة كما في البيوع، وإباحة الطلاق وجعله ثلاثًا، والخلع وأشباه ذلك.

وبالنسبة إلى المال- أيضًا- في الترخيص في الغرر اليسير، والجهالة التي لا انفكاك عنها في الغالب، ورخصة السلم والعرايا، والقرض والشفعة والقراض والمساقاة وغيرها.

وبالنسبة إلى العقل في رفع الحرج عن المكره وعن المضطر- على قول من قال به في الخوف- على النفس عند الجوع والعطش والمرض وما أشبه ذلك .. ثم قال: كل ذلك داخل تحت قاعدة رفع الحرج[١]، ومن يطالع آيات رفع الحرج يلحظ كيف أن القرآن سلك في رفعه مسلكين:

الأول: ورود آيات على هيئة بشارة تنبيء بمقدم شريعة من سماتها التخفيف والتيسير، من ذلك قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾[الأعلى، الآية: ٨]، فتكون هذه الآية قد بشرت رسول اللّٰه ﷺ وأمته بشرع سمح سهل مستقيم عدل، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر[٢].

---

(١) الموافقات ٤/٤١١-٤١٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٥٠٠.

الثاني: ورود آيات فيها التنصيص على رفع الحرج، إما بالكلية، وإما بالتخفيف منه، فمن الأول قوله- تعالى-: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [التوبة، الآية:٩١]، فالآية بيان للأعذار التي لا حرج على من قعد معها على القتال بشرط النصح لله ولرسوله، ومن الثاني قوله- تعالى-: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ﴾[النساء، الآية: ١٠١]، قال الصحابي الجليل يعلى بن أمية- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حين سمع هذه الآية: قلت لعمر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: إنما قال- تعالى-: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾، وقد أمن الناس، فقال: عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألتُ رسول الله- ﷺ-، فقال: «صدقة تصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته». ولا شك أن محمل هذا الخبر أن النبي ﷺ أقرَّ عمر فهمه تخصيص هذه الآية بالقصر لأجل الخوف، فكان القصر لأجل الخوف رخصة لدفع المشقة[١]، وقد عبَّر بالصدقة وهو لا يريد إلا دفع المشقة[٢].

* * *

(١) التحرير التنوير ١٨٤/٥.

(٢) هذه مجرد إطالة سريعة على هذا المقصد القرآني الذي هو رفع الحرج، ولنا عودة إلى هذه الكلية باعتبارها من الكليات المؤسسة لهذا البحث.

المطلب الرابع :

إسعاد المكلف في الدارين

أية سعادة يبتغيها المكلف من هذه الحياة، إذا هو تشتت فكره، وضل وولى ظهره لمنهج الله فلم يدر أي الطرق يسلك.

وفي القرآن الداعي إلى الصراط، والهادي إلى المنهج القويم الذي يورث السعادة في الدنيا والآخرة.

إن القرآن من أول وهلة يقول للإنسان: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ﴾[البقرة، الآية: ١٢٠]، لذلك علمه كيف يسأل ربه أن يأخذ بيده نحو هذا الهدى، وذلك بقوله- تَعَالَى-: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾[الفاتحة، الآية: ٦]، «فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير والسلامة من كل شر، ولا تكون الطريق صراطًا حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين، وتعيينه طريقًا للمقصود، ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة، فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه؛ لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين، وكلما أعوج طال وبَعُدَ، واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود، ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته، وإضافته إلى المنعم عليهم يستلزم تعينه صراطًا»[(١)].

لذلك قال الله- عَزَّ وَجَلَّ- مخاطبًا آدم وحواء-: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ﴾[طه، في الآية: ١٢٣]، ثم قال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[طه، الآية ١٢٣]، إنه إنباء من الله- تَعَالَى- بأنهم سيستقبلون في هذه الدنيا سيرة غير التي كانوا عليها في الجنة؛ لأنهم أودعوا في عالم خليط خيره

(١) التفسير القيم، ص: ١٠.

بشره، وحقائقه بأوهامه، بعد أن كانوا في علم الحقائق المحضة والخير الخالص، وفي هذا إنباء بطور طرأ على أصل الإنسان في جبلته كان معدًّا له من أصل تركيبه، لذلك أوصاه باتباع الهدى المتمثل في الوحي الإلهي المنشيء للمنهج الصواب، المنهج الحق الذي متى اتبعه المكلف وتمسك به، لا يعتريه ضلال في هذه الدنيا كما ينتفي عنه الشقاء الذي هو ضد السعادة.

ومن ثم علم أن الهدى مستلزم لسعادة الدنيا وسعادة الآخرة، ففي الدنيا أمر يشهد به الحس والوجود، وفي الآخرة غيب لا يعلم إلا بالإيمان، ولقد جمعهما اللَّه- تَعَالَى- في كثير من الآيات ومن مثل ذلك قوله- تَعَالَى-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل، الآية:٩٧]، فقد نصَّت الآية على السعادة الدنيوية نصًا أفاده قوله- تَعَالَى-: ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، كما نصَّت على السعادة الأخروية المستفادة من قوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

فما هذه الحياة الطيبة التي ينادي بها القرآن؟

لقد غلط السواد الأعظم من البشر في مسمى الحياة الطيبة، فرأوا منها التنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح، ولذة المال والتفنن في أنواع الشهوات، ولا ريب أن هذه لذة ومتعة؛ لكنها لذة وجدنا فيها البهيمة شريكًا؛ بل قد نجد حظ البهيمة أوفر من حظ هؤلاء، فمن لم تكن لديه إلا هاته التي تشاركه فيها البهائم، فذلك ممن يُنادى عليه من مكان بعيد؛ إذ لا يزال سقيمًا لم يُشفَ بهدى اللَّه الذي أرسل به نبيه ﷺ.

إن هذه الألوان من المتع والصنوف من الشهوات قد جربت من ذي قبل فلم تحقق السعادة المنشودة، وليست عنا ببعيد تلك المجتمعات التي ارتفع فيها مستوى المعيشة، وتيسرت لأفرادها مطالب الحياة المادية وكمالياتها، ومع ذلك ظلت في تعاسة ونكد تشكو وتحس بالضيق والانقباض، وتبحث عن طريق تلتمس في نهايته السعادة!

فعنصر المادة مهما تلون واختلفت مظاهره لن يحقق السعادة المنشودة، ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[التوبة، الآية: ٥٥]، إنها آية تحكي تعاسة هؤلاء رغم مظاهر الحياة المادية فقد سبق القول أنهم في شقوة لا يهنأ لهم بال ولا تطمئن لهم نفوس.

ويوم أن خرج قارون على قومه في زينته، قال ضعفاء اليقين الذين ألهتهم زخارف الحياة الدنيا عمّا يكون في مطاويها من سوء العواقب: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[القصص، الآية: ٧٩]، حيث رأوا زينة الدنيا وتلهفوا عليها، فعظم في عيونهم ما عليه قارون، وما دروا أن هذا الذي حسبوه بختًا وسعادة سينقلب يومًا نقمة ووبالًا، وأنى لهم ذلك وهم لم يؤتوا سعة من العلم؛ لأن مثل هذه الفطنة ليست إلا عند ذوي العقول المستقيمة: العلماء؛ لذلك توعد الذين لا يعلمون بقوله- تَعَالَى-: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر، الآية:٣].

ومن قصور النظر والإجحاف أن نستبعد بالكلية الجانب المادي من مكان تحقيق السعادة، كيف وقد قال ﷺ: «من سعادة بن آدم المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح»[1] «بيد أنه ليس المكان الأفسح، والمدار فيه على الكيف لا على الكم، فبحسب الإنسان أن يَسْلَمَ من المنغصات المادية التي يضيق بها الصدر من مثل أضداد المذكورات في الحديث معززة بالأمن والعافية وتيسير القوت في غير حرج ولا مشقة، وما أصدق الحديث النبوي: «من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[2].

(١) رواه أحمد في مسنده ٦٨/١.
(٢) سنن الترمذي (أبواب الزهد، باب ما جاء في زهادة الدنيا ٤/٥).

إن الحياة الطيبة في منظور القرآن تكمن في سكينة القلب واطمئنانه، قال- تَعَالَى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [الفتح، الآية:٤]، ولا سكينة إلا بإجراءات ربانية تتمثل في عنايته سبحانه بإصلاح النفس، وإذهاب خواطر الوسنان، وإلهامها الحق المبين، ورسوخها في اليقين، وذلك هو الاطمئنان الذي قصده بقوله- تَعَالَى-: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[الرعد، الآية: ٢٨]، وصيغة المضارع في قوله: ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ توحي بتجدد هذا الاطمئنان وديمومته[١]. مما يدل على أن الأمر في حاجة إلى اجتهاد وأخذٍ بالأسباب التي لا تنفك عن السعادة الحقيقية واشتباكها بها، قال الدهلوي- رحمه اللَّه-: «والسعادة الحقيقية لا تُقْتَنَصُ إلا بالعبادة، ولذلك كانت المصلحة الكلية تنادي أفراد الإنسان من كوة الصورة النوعية، وتأمرها أمرًا مؤكدًا أن تجعل إصلاح الصفات بقدر الضرورة، وأن تجعل غاية همتها ومطمح بصرها تهذيب النفس وتحليتها بهيئات تجعلها شبيهة بما فوقها من الملأ الأعلى، جاعلة البهيمية مذعنة للملكية مطيعة لها»[٢]. وقال العز بن عبد السلام- رحمه اللَّه-: «ومن السعادة أن يختار المرء لنفسه المواظبة على أفضل الأعمال فأفضلها، بحيث لا يضيع بذلك ما هو أولى بالتقديم منه، والسعادة كلها في اتباع الشريعة في كل ما ورد وصدر، ونبذ الهوى فيما يخالفها»[٣]، فعلم أن هذا الاطمئنان في حاجة إلىمن يرعاه ويحضنه، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعبادات، فإذا اطمأن القلب صار مشهودًا له؛ لأنه متى اطمأن القلب صار حبه في أطيب حال في الدنيا بهذا الاطمئنان، وفي الآخرة بالنعيم الدائم وهو حسن المآب[٤].

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٣٨.
(٢) حجة اللَّه البالغة ١/١٥٥-١٥٦.
(٣) قواعد الأحكام ١/١٧.
(٤) التحرير والتنوير ١٣/١٣٨.

هذه هي السعادة الحقيقية كما يصورها القرآن، وما أنبتها إلا الإيمان، وما فجرها إلا هو، فهو الينبوع الأول لها؛ لأن في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على اللَّه، ووحشة لا يزيلها إلا الأنس باللَّه، وحزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفة اللَّه وصدق معاملته، وقلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وتلك هي بحق الفطرة البشرية التي لا تجد ترياقها إلا في الاهتداء إلى اللَّه، والركون إلى جواره، والالتجاء إلى كنفه.

وليس الأمر عفوًا حين نجد القرآن قد أولى اهتمامًا بالغًا بالتوحيد، فتحدث عنه في آيات عديدة فدعا إلى إفراد اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- بالعبادة ودعا إلى الاستعانة به، والتوكل عليه، والإنابة إليه، كل ذلك حتى يعلم علم اليقين أن له ربًّا هو الذي خلقه فسواه وكرمه، وفضله على كثير ممن خلق، وجعله في الأرض خليفة، وكفل له رزقه وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فاطمأن إلى ربه، ولاذ بجواره، واعتصم بحبله، فآوى بهذا الإيمان إلى ركن شديد، ولاذ بقرار مكين، واستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، وذلك هو الإيمان الجالب للسعادة، والنعيم المقيم المنبعث من كوة رحمة الرحيم، فُتِحَتْ على أهلها فعاشوا سعداء هنا وهناك، قال- تَعَالَى-: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود، الآية:١٠٨].

* * *

المبحث السادس :

خصائص القرآن الكريم

ما من كتابٍ من الكتب السماوية السالفة إلا وفي جوهره الإسلام، فهؤلاء الأنبياء والمرسلون والسابقون مطالبون بالاستسلام بما أوحاه الله إليهم جميعًا، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[الشورى، الآية: ١٣]، وذلك هو الإسلام، وهو إشارة تبرز صفة الشمولية، فمنذ اللحظة الأولى والقرآن يوجه خطابه إلى الناس كافة، وأداة الخطاب المبثوثة في مواضع مختلفة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ تملأ رحاب القرآن الكريم، وكان- عَزَّ وَجَلَّ- منذ اللحظة الأولى للدعوة إليه هو: «رب العالمين»، وهو: «رب الناس»، و«ملك الناس»، و«إله الناس»، و«رب المشارق والمغارب»، و«رب السماوات والأرض وما بينهما»، وكان الناس كلهم خلقه وعبيده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات، الآية:١٣]، والناظر في التشريعات السماوية البائدة- كشريعة موسى عليه السلام- يجدها قومية فهي لبني إسرائيل خاصة لم يفكروا يومًا في أن ينشروها في العالمين، ولنقرأ هذا في توراتهم وذلك حين تحدث الرب لموسى قائلًا له: «فإذا سمعوا لقولك تدخل أنت وشيوخ بني إسرائيل إلى ملك مصر، وتقول له: الرب إله العبرانيين التقانا»[(١)]، وكذلك قوله: «وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون: هكذا يقول الرب إله بني إسرائيل: أطلق شعبي ليعيدوا لي في البرية»[(٢)]، فهذه نصوص وردت في التوراة تدل على أن هذه الديانة ليست مطبوعة بطابع الشمولية، وإنما هي

---

(١) كتب العهد القديم والجديد، الإصحاح الثالث، ص: ٧٦.

(٢) نفسه، ص: ٧٨.

خاصة لبني إسرائيل، وما يقال في ألواح موسى- عليه السلام- يقال في إنجيل عيسى؛ إذ لم يجيء إلا مكملًا للتوراة.

فإذا كانت الكتب السماوية خاصة بأقوامها- أضف إلى هذا أنها لم تعد محل ثقة لما لحقها من التحريف- فإن الناس في حاجة إلى مصدر موثوق؛ ليكون بيانًا للعالمين، فيه استرجاع وتزكية وتوكيد على طبيعة العلاقة بين اللّه والإنسان، ليس ديانة قومية خاصة بقوم معينين ينسبون أنفسهم إلى اللّه- تَعَالَى- على أنهم أبناء اللّه وأحباؤه- بل الخلق كلهم عيال اللّه وعباده، في حاجة إلى مصدر يختلف تمام الاختلاف عن تعبيرات الكتب السابقة الضيقة، في حاجة إلى مصدر يكون من مقدور كل منتم إليه أن ينضم إلى الإسلام، ذي خصيصة العالمية، فهو الذي أعاد صياغة الأديان كلها تصديقًا وهيمنة، وقد كان ذلك هو القرآن الذي ثبت بنصه هذه القرون الطويلة، لم يطرأ عليه أدنى تغيير- وإن حاولت الأيدي الكارهة مَسَّه- ولم يحذف منه ولم يضف إليه، هذا الكتاب هو الذي تمثل فيه الدين الإسلامي الحنيف، وصفاته وخصائصه ومزاياه فوق أن تحصى، لا يحاط بها ولكن على كل أهل جيل وعصر أن يحاولوا، فلكل عصر من القرآن نصيب، وقد سئل أحد العلماء: أية آية تصلح أن تكون عنوانًا على القرآن كله- بحيث إن كتبت على ظهر المصحف كانت تعريفًا كاملًا به شاملًا لجميع المعاني الكلية التي يجدها المتصفح فيه كما تفرق الكتب الكبيرة بجمل قصيرة-؟ فكان جوابه الآية هي قوله- تَعَالَى-: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾[1] [إبراهيم، الآية:٥٢].

فلنحاول عرض بعض خصائص القرآن، كما عنت لنا طبقًا للزاوية المنظور منها، حيث نحاول مقاربة القرآن من زاوية معرفية تتعلق بشمولية أحكامه ويمكن إجمال هذه الخصائص فيما يأتي.

---

(١) ولعله ابن باديس – رحمه اللّه – في أحد مجالسه العلمية.

المطلب الأول :

ديمومة أحكامه وخلود تشريعه

فبعد أن جعله اللَّه ناسخًا لكل ما سواه من الكتب وأصبح بذلك الصيغة النهائية للتكليف، بين الحق- سبحانه- أن أي تشريع سواه مردود غير مقبول، قال اللَّه- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران، الآية:١٩]، وقال- سبحانه-: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران، الآية:٨٥]، فانتفى القبول عن كل دين سواه. كما نص على أن الدين قد طبع بطابع الكمال والتمام، فقال- تَعَالَى-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة، الآية:٣]، وكان بذلك الدين المرشح للخلود والدوام، هذا الخلود الذي يرجع إلى أمور عدة؛ أذكر منها:

أ- عدله المطلق، والخلق يعلم ما يحققه العدل المطلق وليس في مقدور أي كان؛ لأن اللَّه- تَعَالَى- هو المالك؛ لأن يَعْدِلُ بين الجميع، ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى، الآية:١٥]، ومن الشواهد التطبيقية لمبدأ العدالة أن رسول اللَّه ﷺ قال لأسامة بن زيد عِندما استشفع لديه في المرأة المخزومية- وكانت من بيت جاه وشرف-: «أتشفع في حدٍّ من حدود اللَّه؟ إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم اللَّه لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها»[1]، وهو تطبيق صادق لقوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري (كتاب الديات، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان) ١٢/٨٧.

وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾ [النساء، الآية:١٣٥]، ومما يتميز به عدل الله كونه مبرأ من قانون عشاق الهوى والتشهي، ومحترفي الظلم ومحبي الغلو والإفراط، سواء كان واضع هذا القانون فردًا أو أقوامًا!

ب - قانونه المتناسق؛ إذ إن صانع الكون وصانع الإنسان محال أن يجعل بينهما نشاجزا فقد نسق بين الإنسان وما حوله من عناصر الكون المسخر له، فوسمت الشريعة التي تنظم حياته بسمة الكونية، وجعل الله له من تشريعاتها وسائل يتعامل بها ليس مع نفسه فحسب، ولا مع بني جنسه فحسب، ولكن مع الأحياء والأشياء في هذا الكون العريض.

ت - منهجه المحرر من سلطان الاستعباد، ففي كل منهج غير المنهج الإلهي الرباني، نجد الناس يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، وهذا المنهج وحده هو القادر على إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

ث - منهجه القائم على العلم المطلق، قال الله- تعَالَى-: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾[ق، الآية: ١٦]، وقال- تعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾[آل عمران، الآية: ١٢٠]، فالله- عَزَّ وَجَلَّ- عالم بالإنسان، عالم بمحيطه، مدرك لطبيعة النواميس التي تحكمه، ومن ثم فمحال أن يقع صدام بين الأحكام التشريعية المنصوص عليها وبين حاجة الإنسان، مما يثمر التوازن والاعتدال، وهو أمر هيهات هيهات أن يتم للمقننين من بني البشر.

ج - منهجه الداعي إلى المؤاخاة بين الناس إلى الحد الذي تتلاشى فيه الفوارق العنصرية والطبقية فيغدو المجتمع كالفرد الواحد مدفوعًا بهدف واحد، هو السعادة الكلية يحظى بها الجميع تحت شعار: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات، الآية:١٠].

المطلب الثاني :

شمولية أحكامه وواقعيتها

كيف لا يمكن أن يكون هذا الكتاب- الذي يحمل هذه السمات- كتابًا شاملًا لحاجات الإنسان، مجردًا عن حدود الزمان والمكان، نزل ليرسم الطريق الصحيح للبشرية ويعالج مشكلاتها وقضاياها الموسومة هي الأخرى بالخلود والبقاء، « فالقرآن إذًا خالد والقضايا الإنسانية خالدة- وإنْ تغيرت في بعض فروعها- من الولاء والبراء والسقوط والنهوض والهزيمة.. ولنقرأ في مطلع سورة البقرة لنرى كيف تحدث القرآن عن الإيمان والكفر والنفاق فجعل من الناس طوائف ثلاثا إزاء القرآن، إنه واقع لا يرتفع ولن يرتفع في حياة البشرية كلها؛ لأن هذا الكتاب سيبقى عارضًا لعقيدته، فمن الناس المؤمن، ومنهم الكافر الجاحد، ومنهم المنافق. وليست القضية مرتبطة بجيل معين، ولا حقبة معينة، ولكن القضية حقيقية واقعية حاضرة عبر الأعصار والأمصار[1]، وإذا كان هذا الكتاب خالدًا، فيعني أنه قادر على أن يجيب على كل حادثة؛ ومثل هذا يلاحظ في التشريع، لقد جاءت الشريعة مقررة لمبدأ الشورى وذلك في قوله- تَعَالَى-: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: الآية:١٥٩]، وفي قوله- تَعَالَى-: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى، الآية:٣٨]، وما يظهر من النصين هو أنهما عامان مرنان إلى أبعد حدود المرونة بحيث لا يمكن أن يحتاج الأمر إلى تبديلهما في المستقبل واللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- حين قال- أيضًا- في مجال احترام العهود والمواثيق: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء، الآية:٣٤]، وقال- تَعَالَى-: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل، الآية:٩١]. أوجب- سبحانه- في هاتين

(١) كيف نتعامل مع القرآن، ص: ٧٨.

الآيتين احترام العهود وعدم نكثها مع أهلها الذين استقاموا عليها ولم يغدروا بذمتها، وهناك نماذج كثيرة لذلك، منها ما رواه ابن إسحاق فيما جرى عليه أمر قوم من المستضعفين بعد صلح الحديبية، حيث قَدُمَ منهم على رسول اللَّه ﷺ أبو بصير: عتبة بن أسيد- وكان ممن حَبِسَ بمكة- فطلبته قريش، فقال- ﷺ-: يا أبا بصير! إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن اللَّه جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، فانطلق إلى قومك »[١]، ومن هذه الصور - أيضًا - ما كان بين معاوية ابن أبي سفيان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وبين الروم من عهد إلى مدة معينة، وعندما قرب انقضاؤه رغب معاوية في الدنو منهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فأرشده عمرو بن عنبسة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بقوله: اللَّه أكبر يا معاوية! وفاء لا غدر، لقد سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها، أوينبذ إليهم عهدهم على سواء »[٢].

ومن المبادئ العظيمة التي جاء من أجلها الإسلام ودعا إليها القرآن قوله- تَعَالَى-: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ [البقرة، الآية: ٢٥٥]، فهو مبدأ تجلى فيه تكريم اللَّه للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه، وهي من خصائص التحرر الإنساني، فالإسلام لم يواجه الإنسان بالقمع والتعذيب والإكراه حتى يعتنقه، بل سمح لهذا المخلوق المكرم- من قبل اللَّه- بأن يكون له الأمر بمحض اختيار، ومن الشواهد لهذا، العهد الذي قطعه عمر بن الخطاب- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- على نفسه مع أهل إيلياء، وفيه: « هذا ما أعطى عبد اللَّه عمر- أمير المؤمنين- أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣٢٣/٢.
(٢) نيل الأوطار ٥٤/٨.

لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من صلبانهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم »[١]، بمثل هذا كانت تبدو مباديء الإسلام واضحة في حياة المسلمين، فلم تكن شعارات جوفاء لا روح لها، كما أنها لم تكن في عداد المثاليات بعيدة عن حيز التطبيق.

وبمثل هذا قامت الدولة الإسلامية، ووجد المجتمع الإسلامي في العهد الأول عهد النبوة، واستمر زمنا ليس بالقصير، مما يدل على قابلية قوانين وقواعد الإسلام للتطبيق مجردًا عن الزمان والمكان والأشخاص،ولقد صدق قول: « توماس كارليل » في وصفه للمجتمع الذي حمل مشعل الهداية للبشرية قرونًا طويلة، حيث يقول: « ما كاد الإسلام يظهر حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات النصرانية، ولقد أخرج اللّٰه العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور وأحيى به فيها أمة خاملة لا يسمع لها صوت ولا تحس فيها حركة منذ بدء العالم، فأرسل اللّٰه لهم نبيًا يكلمه من لدنه ورسالة من قبله، فإذا الخمول شهرة، والضعف قوة، وعقد شعاع الإسلام الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب، وما هو إلا وقت قصير في الأندلس بعد هذا الحادث حتى صار لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الأندلس، وأشرقت دولة الإسلام حقبًا عديدة، ودهورًا مديدة، بنور الفضل، والنبل، والمروءة والبأس، ورونق الحق، والهدى، على نصف المعمورة »[٢].

فهذه الشريعة التي هي محتوى القرآن الكريم، إنما جيء بها لتكون الشرعة والمنهاج الخاتم للبشرية جميعا، وأنْ تقيم منهج الحياة في سائر شعبها وهي قضية لا يختلف فيها اثنان من المسلمين.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٣٧/٥ وما بعدها.

(٢) الإسلام، ص: ٢٢.

إن في هذا القرآن آيات عديدة تأمر جميع الأنبياء- بلا استثناء- أن يحكموا بما أنزل الله وإلا فسيكون الانتساب إلى الدين مجرد دعوى عرية عن أدلتها الشاهدة على ذلك، قال- تعالى-: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[المائدة، الآية: ٤٤]، وقال- تعالى-: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة، الآية: ٤٥]، وقال- تعالى-: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[المائدة، الآية: ٤٧]، ووجه الخطاب لنبيه ﷺ قائلًا له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة، الآية: ٤٨]، وقال في موضع آخر: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[المائدة، الآية: ٤٢]، فلا بد من تحكيم هذا الكتاب ووجود القيمين على تحكيمه، فتقام الحدود، والعقوبات، والمعاملات، والدعوة إلى الجهاد وكل ما يتعلق بتنظيمات الحياة الفردية والجماعية، ولا يتصور تطبيق ذلك بدون سلطة تنفيذية تسهر على تنفيذ هذه الأحكام، ويتم هذا بتنصيب إمام وإلى هذا يشير ابن خلدون- رحمه الله- حيث يقول: «ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة، وهم الأنبياء ومن قام في مقامهم وهم الخلفاء.. ثم يقول: فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة، وهي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها- عند الشارع- إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا»[١]؛ لذلك وجدنا أهل السنة وجميع الشيعة وجميع المرجئة وجميع الخوارج متفقين على وجوب الإمامة، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيهم أحكام الله- تعالى- ويسوسهم بأحكام الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، وفي

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص: ١٦٥، ١٦٦.

هذا يقول ابن حزم الظاهري- رحمه اللّٰه-: «وقد علمنا بضرورة العقل وبديهته أن قيام الناس بماأوجب اللّٰه عليهم من الأحكام في الأموال والجنايات، والدماء، والنكاح، والطلاق وسائر الأحكام كلها، ومنع الظالم وإنصاف المظلوم لايمكن أن يكون إلا بإسناد الأمر إلى إمام فاضل عالم، حسن السياسة، قوي علىالتنفيذ»[١].

* * *

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٤٩/٤، ١٥٠.

المطلب الثالث:

كليات أحكامه وتجريدتها

فأحكام القرآن تجري على الكلية، فهي ليست موقوفة على أفراد بأعيانهم أو على حال أو على زمان بعينه؛ إذ إن المجتمع الذي نزل فيه القرآن ما هو إلا مجتمع بشري أحواله صورة مما يعتري البشرية على امتداد الزمن إلى غاية الفناء، فهي كالنموذج لأطوار البشرية كلها فالحكم في أي صورة من هذه الصور، هو حكم بطبيعته ممتد؛ لأنه ليس خاصا بهذه الصورة وحدها، وإنما هو متجدد مع كل صورة مشابهة إلى أن تقوم الساعة.

كما أن هذه الأحكام ليست مفصلة تفصيلًا يستوعب الشروط والأركان والموانع لأوامر القرآن ونواهيه، وبناء على هذا، فإن هذه الأحكام القرآنية وردت كلية، قال الشاطبي- رحمه اللّٰه-: «تعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلي لا جزئي وحيث جاء جزئيا فمأخذه على الكلية، إما بالاعتبار أو بالمعنى الأصل إلا ما خصه الدليل مثل خصائص النبي ﷺ»(١).

من أجل هذا كان القرآن في حاجة إلى السنة فإنها- على كثرتها وكثرة مسائلها- إنما هي من أجل تبيانه؛ حتى تعلم التفاصيل والشروط والموانع وأركان الماهيات الشرعية وهذه الحاجة هي- في الحقيقة- من ملامح الكلية القرآنية(٢).

ولقد أبرز القرآن نفسه هذا الملمح، حيث أوكل البيان إلى السنة قال- تَعَالَى-: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل، الآية:٤٤]، واللام- على

---

(١) الموافقات ٣/٣٣٠، ٣٣١.

(٢) هامش ٣ من الموافقات ٣/٣٣١. للشيخ عبداللّٰه دراز - رحمه اللّٰه.

هذا الوجه - في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ لذكر علة من العلل الكثيرة الحافة بالقرآن، منها أن يبينه النبي ﷺ فتحصل فوائد العلم والبيان(١). فهذا الذكر- إذًا- مفتقر إلى بيان، والمفتقر إلى بيان، مجمل، فأولى بالمُبَيِّن أن يتولى وظيفة التفصيل والتجزيء.

وحسبنا في هذا المقام نموذج واحد شاهد على كلية القرآن هو قوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل، الآية:٩٠]، وهي جمل سيقت بعد قوله- تَعَالَى-: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل، الآية:٨٩]، فسرَّت هذا التبيان لكل شيء تفسيرًا إجماليًا اشتمل على بيان أصول الهدى في التشريع الإسلامي العائدة إلى الأمر والنهي؛ لذلك اعتبرها العلماء جامعة لأصول التشريع(٢)، وهي مقالة الصحابة كعبد الله بن مسعود- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وبعض التابعين كقتادة- رحمه الله تَعَالَى.

على أن هذه الأصول الواردة في بعض هذه الآية من القرآن لم تكن مفصلة؛ إذ العدل كلمة جامعة للحقوق العائدة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتية والغيرية، حيث إن المسلم مأمور بالعدل مع ذاته قال- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[النحل، الآية: ١٩٥]، ومأمور بالعدل في المعاملة التي تشمل المعاملة مع خالقه- وذلك بالاعتراف له بذاته وصفاته وأداء حقوقه-، والمعاملة مع المخلوق من أصول المعاشرة العائلية والمخالطة الاجتماعية في الأقوال والأفعال، ومن ها هنا تتفرع شعب نظام المعاملات الاجتماعية من آداب وحقوق وشهادات ومعاملة مع الأمم... ومرجع تفاصيل العدل الأدلة الشرعية.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٦٤.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/٢٥٤.

أما الإحسان الذي هو المعاملة بالحسنى إلى من هو أهلها، وأعلاه هو ما كان في جنب الله، وهو ما فسره النبي ﷺ بقوله: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١]، وهو مطلوب في جميع الأقوال والأفعال وإليه أشار الحديث: «إن الله كتب الإحسان في كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»[٢]، وإليه ترجع فروع آداب المعاشرة كلها في العائلة والصحبة والعفو عن الحقوق الواجبة وما ذِكْر: ﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلا مظهرًا من مظاهر الإحسان.

وأما الفحشاء، الذي هو: اسم جامع لكل قولٍ أو عملٍ تستفظعه النفوس ذات الطبع السليم والفطرة النقية، سواء كان ذلك اعتقادًا باطلًا أو عملًا مفسدًا للنفس أو المال، أو العرض.

وأما المنكر، «فهو كل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه»[٣]، «ويشمل جميع ما يفضي إلى الإخلال بالحاجي وما يعطل التحسيني»[٤]، وأما البغي فهو: اسم جامع- أيضًا- «للتعدي والاستطالة على الناس، وقيل: الظلم والفساد»[٥]، ويكون في المعاملة، إما بدون مقابلة فيكون محضًا، وإما بمجاوزة الحد، فيكون له نظير وذلك كالإفراط في المؤاخذة[٦].

والقصد من عرض هذا النموذج إنما هو للنظر في هذه الألفاظ التي هي العدل والإحسان والفحشاء والمنكر والبغي، حيث أجريت على العموم، أما ماهيتها ومحالها

---

(١) صحيح مسلم ٣٠/١ (كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله).
(٢) نفسه ٧٢/٦ (كتاب الصيد، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفر).
(٣) لسان العرب، مادة: «بغا» ٧٨/١٤.
(٤) التحرير والتنوير ٢٥٧/١٤.
(٥) لسان العرب، مادة: «بغا» ٧٨/١٤.
(٦) التحرير والتنوير ٢٥٧/١٤.

ولمن تكون، وكيف تكون؟ إنما مرد هذا كله إلى السنة، ألم تر كيف بين رسول الله ﷺ الإحسان ما هو؟ وكيف جعل المقام الأول منه للَّه؟ ثم كيف بيّن أن محاله الأقوال، والأفعال بإطلاق؟

وعليه فإن وصف الكلية، لازم للقرآن، لازم لأحكامه، وأن مرد التفصيل والبيان إلى السنة المشرّفة.

* * *

المطلب الرابع :

أنه المصدر للعلم والمعرفة على الدوام

والعلم المراد إنما هو المعتبر شرعًا، ولئن كانت الآية التي نصّت على أن القرآن أنزل تبيانًا لكل شيء، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل، الآية:٨٩]، فإن هذا العموم إنما هو من قبيل العموم العرفي «في دائرة ما لمثله تجيء الأديان والشرائع من إصلاح النفوس وإكمال الأخلاق وتقويم المجتمع وتبيين الحقوق وما تتوقف عليه الدعوة من الاستدلال على الوحدانية، وصدق الرسول ﷺ وما يأتي من خلال ذلك من الحقائق العلمية والدقائق الكونية، ووصف أحوال الأمم وأسباب فلاحها وخسارها والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ، وما يتخلل ذلك من قوانينهم وحضاراتهم وصنائعهم»[١].

فالقرآن رسم المسارات العامة للحياة، وبين السنن التي تحكمها، وجاء بقيم ضابطة للمسيرة البشرية، وكشف عن دور الإنسان في التعامل معه، هذا الدور هو إدراك مقاصده ولا مجال إلى هذا إلا بالعلم والمعرفة، علمًا بأن القرآن لم يحجر على العقل، بل دعا إلى إعماله، وذلك في دعواته إلى قراءة كتاب الكون المرئي وتأمل أسراره وسننه، قال- تعالى-: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾، ثم قال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾[ق، الآيات: ٦-١١]، وقال- تعالى-

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٣/١٤.

في موضع آخر: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾[الغاشية، الآيات: ١٧-٢٠]، وحثَّ الفرد على التأمل داخل نفسه: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات، الآية:٢١]، ثم خارج نفسه، ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات، الآية:٢٢]، كل ذلك للوصول إلى الفهم الدقيق والإدراك التام لهذا الكون.

ولذلك وجدنا من السلف من استوعب هذا النوع من الآيات فأوصى بالنظر في القرآن كل من كانت بغيته إدراك العلم، فعن عبد الله بن مسعود- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: «من أراد العلم فعليه بالقرآن؛ فإن فيه خبر الأولين والآخرين»(١)، كما وجدنا القرآن يُرغِّب بشتى ألوان الترغيب للإقبال على العلم الشرعي المستنبط من الكتاب، ومن مثل ذلك قوله- عَزَّ وَجلَّ-: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل، الآية:٤٣، والأنبياء، الآية:٧]، حيث نوه بنخبة العلماء العارفين الذين اعتبرهم مرجع السائلين، فبهم يهتدون إلى الصواب والحق المبين، وكذلك قوله- تَعَالَى- عَزَّ وَجلَّ-: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر، الآية: ٩]، وهي مدح للعلم ورفعة قدره، وذم للجاهل ونقصه، على أن الممدوح إنما هو العالم العامل وليس العالم الخامل، وفي قوله- تَعَالَى-: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ﴾ ما يشعر بذلك(٢)، وكذلك قوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾[المجادلة، الآية: ١١]، وخصَّ بهذه الرفعة المؤمن العالم، وهي رفعة تدل على الفضل، وتشمل الرفعة المعنوية في الحياة الدنيا بعلو المنزلة وحسن الصيت، والحسية في الآخرة بعلو المنزلة في الجنة(٣). كما أنه جعل أهل العلم هم الشهداء لله- تَعَالَى- بالتوحيد مع الملائكة، قال- تَعَالَى-: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ

---

(١) الموافقات ٣/٣٣٥.

(٢) محاسن التأويل ١٤/١٩٩.

(٣) فتح الباري ١/١٤١.

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[آل عمران: ١٨]، وأهل العلم هم المؤهلون لخشية اللَّه وتقواه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر، الآية:٢٨]، وقال اللَّه- تَعَالَى- لنبيه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه، الآية:١١٤]، حيث أمره- تَعَالَى- باستفاضة العلم والاستزادة منه، قال بعض أهل التأويل: «ما أمر اللَّه رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم»[١] وهذه النصوص كلها واضحة الدلالة في فضل العلم الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر دينه في عبادته ومعاملته ومدار ذلك على تفسير كتاب اللَّه واستيعاب مضامينه وخبر مقاصده؛ لأنه هو منتهى العلوم ومحط رحال الفهوم، وما العلوم الأخرى سوى خادمة له ومطية إلى مراميه وأغراضه، فحُقَّ بذلك أن يكون المصدر الأساس للعلم والعرفان، «فهو حاوٍ لكل شيء، والعالم به على التحقيق عالم بجملة الشريعة ولا يعوزه منها شيء»[٢]. وهو أعظم كتاب ينشيء العقلية العلمية التي تنبذ الخرافة، وتتمرد على التقليد الأعمى للأجداد أو الآباء والكبراء أو للعلوم، وترفض الظنون والأهواء في مقام البحث عن الحقائق، وترد أية دعوى عارية عن البراهين القاطعة والحجج الدامغة من مشاهدات حسية، أو منطق عقلي رصين، أو نقل عن يقين، ومن المظاهر الشاهدة على هذه المرجعية المطلقة:

١- أنه موسوم بالكمال:

قال- تَعَالَى-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة، الآية:٣]، بحيث صار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنة كافيًا في هدي الأمة في عبادتها ومعاملتها وسياستها في سائر عصورها بحسب ما تدعو إليه حاجتها... فعن ابن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: لو أن المسلمين أضاعوا كل أثارة من علم- والعياذ باللَّه- ولم يبق بينهم إلا القرآن لاستطاعوا الوصول به إلى

---

(١) محاسن التأويل ١٩٧/١١.
(٢) الموافقات ٣٣٣/٣.

ما يحتاجونه في أمور دينهم وإقامته؛ لأن كلياته وأوامره المفصلة ظاهرة الدلالة ومجملاته تبعث المسلمين على تعرف بيانها من استقراء أعمال الرسول ﷺ وسلف الأمة المتلقين عنه؛ ولذلك لما اختلف الأصحاب في شأن كتابة النبي ﷺ كتابًا في مرضه، قال عمر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: حسبنا كتاب الله، فلو أن أحدًا قصر نفسه علىعلم القرآن فوجد ﴿أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة، الاية:١١٠]، ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام، الآية:١٤١]، و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة، الآية:١٨٣]، ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة، الآية:١٩٦]؛ لتطلب بيان ذلك مما تقرر من عمل سلف الأمة، وأيضًا فإن في القرآن تعليم طرق الاستدلال الشرعية؛ كقوله- تَعَالَى-: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُۥ﴾(١) [النساء، الآية:٨٣].

٢- أنه الهادي إلى السبيل الأقوم:

قال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء، الآية: ٩]، فدلت الآية على أن القرآن هاد إلى الاعتقاد الأصوب والعمل الأصح، ولازم هذا، أن يؤتي ثماره وهو النفع الكبير والربح العظيم متى رجع إليه ملتمس العلم الصحيح، كما أنه يوجب الضرر متى نكب عنه، واهتدى بغير هداه، والتمس العلم فيما سواه، فهو حاوٍ لنظام كامل في معاملة الخلق والخالق، ولو لم يكن كذلك لما صح إطلاق هذا المعنى عليه.

٣- أنه المرجع عند الاختلاف:

قال- تَعَالَى-: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[النحل، الآية: ٦٤]، فالقرآن جاء مبينًا للمشركين ضلالاتهم بيانًا، لا يترك للباطل مسلكًا إلى النفوس، مفصحًا عن الهدى إفصاحًا، لا يترك للحيرة مجالاً في العقول،

(١) وانظر التحرير والتنوير ١٠٣/٦-١٠٤.

ولقد أفصحت الآية عن الأهم من غاية القرآن وفائدته التي من أجلها أُنزِلَ مما يجعل من المخاطب به أن يتلقاها بتدبر وتمعن وتفهم حتى تنجلى عنه الجهالة، وتنكشف له سبيل الهدى والمعارف الحقة[١]، ومما يعزز هذه الآية قوله- تَعَالَى-: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء، الآية:٥٩]، قال أهل التأويل: والرد إلى الله الردُّ إلى كتابه، والرد إلى الرسول إذا كان حيًّا؛ فلما قبضه الله، فالرد إلى سنته- ﷺ-.

وقد روي عن مجاهد وميمون بن مهران: أن التنازع مراد به تنازع أهل العلم[٢]، وما أحسن ما حدثنا به رسول الهدى- صلوات الله وسلامه عليه- في هذا المجال- مجال الاختلاف- واعتبار الكتاب المخرج والمنفذ لهذه الاختلافات التي ستعصف بالأمة، روى الترمذي والدارمي عن الحارث الأعور، قال: مررتُ في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فأخبرته، فقال: أو قد فعلوها؟ قلتُ نعم قال: أما إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنها ستكون فتنة» قلتُ: وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فن غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته؛ حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ [الجن، الآية:١]، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم[٣]»، فقد جاء الحديث جامعًا لخصائص القرآن العامة كما رأينا بأخصر عبارة، وأوفر معان.

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٦/١٤.

(٢) جامع البيان ١٥١/٥.

(٣) سنن الترمذي (أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن) ٣٤٥/٤ وانظر سنن الدارمي (كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن) ٤٣٥/٢، ٤٣٦.

٤- أن التجربة قضت بذلك :

إذ ما من مسألة إلا والقرآن يجيب عنها السائلين من العلماء! قال الشاطبي - رحمه اللَّه -: «وأقرب الطوائف من أعواز المسائل النازلة أهل الظاهر الذين ينكرون القياس، لم يثبت عنهم أنهم عجزوا عن الدليل في مسألة من المسائل، وقال ابن حزم الظاهري: كل أبواب الفقه ليس منها باب إلا وله أصل في الكتاب والسنة نعلمه والحمد للَّه حاشا القراض، فما وجدنا له أصلًا فيها البتة إلى آخر ما قال... ثم قال الشاطبي: وأنت تعلم أن القراض نوع من أنواع الإجارة، وأصل الإجارة في القرآن ثابت وبيّن ذلك إقراره - عليه الصلاة والسلام - وعمل الصحابة - رضوان اللَّه عليهم»[1].

* * *

(١) الموافقات ٣/٣٣٥.

الباب الثاني :

كليات في مقاصد الشرع

الفصل الأول : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

الفصل الثاني : ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

الفصل الثالث : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

بين يدي الباب :

بعد أن وقفنا في الباب الأول على القسم النظري من قضايا الدين، والذي تمثل في العقيدة التي اعتبرت الخطوة الأساس لبنائه؛ نلاحظ في هذا الباب الدخول في مجال التطبيق والمراس، وذلك بالدخول تحت أوامر اللَّه ونواهيه؛ لتحقيق العبودية المقصودة للشارع، والمنصوص عليها في مثل قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]، وتلك هي الكلية الأولى التي اعتبرت من المقاصد الأولى للقرآن الكريم، فهي المثمرة للنظام الكافل للسعادة في المعاش والمعاد، متى أُتي بالأوامر الشرعية علىوجهها.

ولما كانت وجهة القرآن الكريم الإرشاد نحو تزكية النفوس وإصلاحها وهدايتها- ومدار هذا كله على قطبين اثنين هما التحلي بالصالحات والتخلي عن المفسدات- فإن الحق- سبحانه- نصَّ في كتابه على هذا بوصية جامعة، وذلك في قوله: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢]، فكانت الآية ممثلة للكلية الثانية التي ستعرض إجواء الدخول في العبدية.

وحتى يقام الدين على الوجه الذي سينجم فيه والفطرة الإنسانية، فقد زيّنه مُنزّله بزينة رفع الحرج في أثناء التلبس بتكاليفه رحمة بالمكلفين، وتحبيبًا لهذا الدين في نفوسهم، وضمانًا لديمومته وخلوده، وكان مما عبّر به- سبحانه وتعالى- في هذا الشأن قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، وهي أجمع آية في بابها، فتمَّ بذلك ثلاث كليات، كل مقاصد الشرع آيلة إليها، وداخلة في إطارها.

وسنحاول تناول كل واحدة منها في فصلٍ مستقل، على أن نبقي الصياغة القرآنية التي رأينا فيها الموسوعية والشمولية.

وهكذا سنتناول هذا الباب في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

الفصل الثاني : ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢].

الفصل الثالث : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

* * *

الفصل الأول :

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

[الذاريات:٥٦]

المبحث الأول : تحرير محالّ ورود الكلية في القرآن الكريم

المبحث الثاني : فقهها

المبحث الثالث : قيمتها

المبحث الرابع : مقوماتها

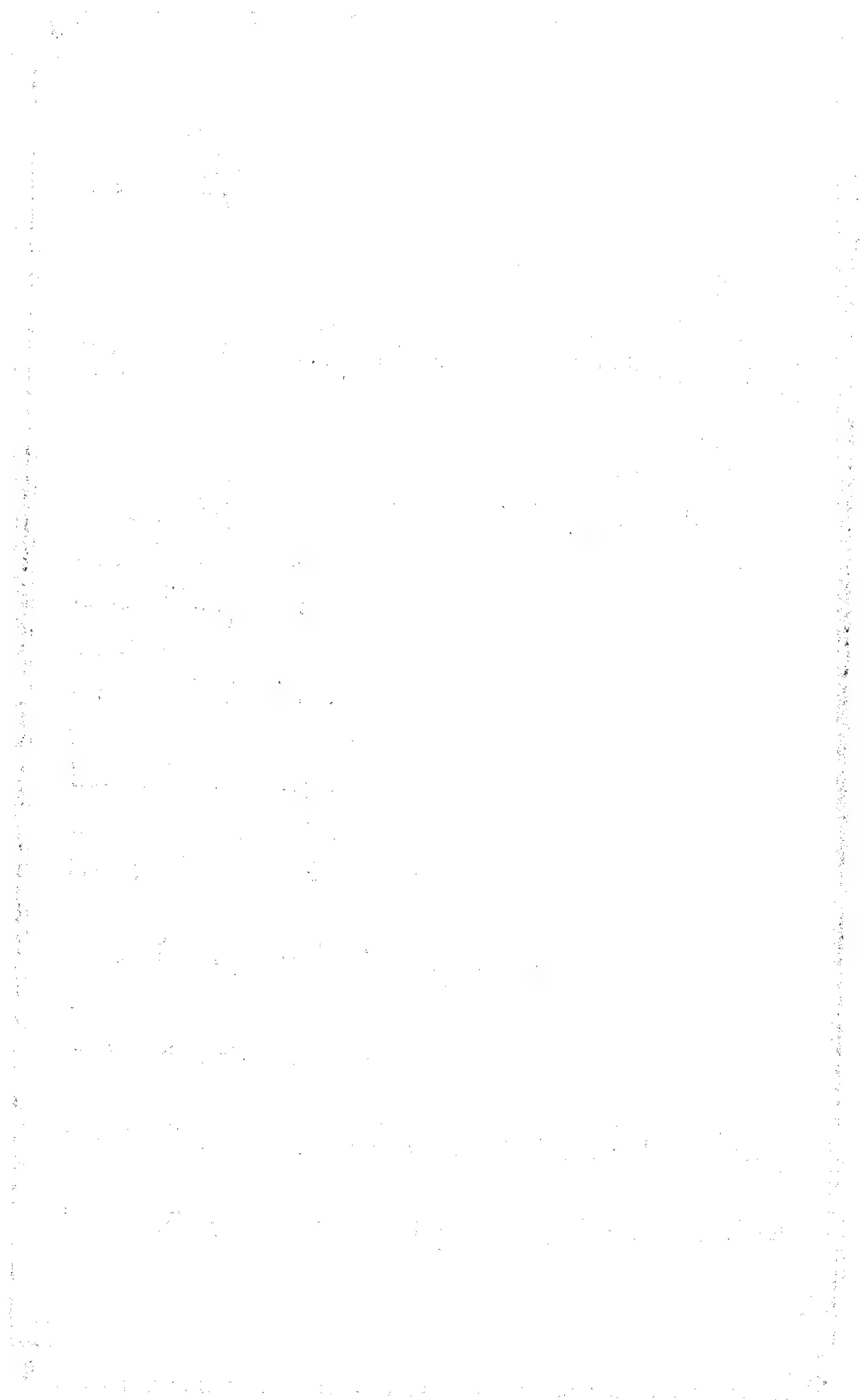
المبحث الخامس : بعض مظاهرها

المبحث السادس : المثل الأعلى في العبادة

المبحث السابع : من ثمراتها

المبحث الثامن : دواعي الاستكبار عن عبادة اللّٰه وعاقبة المستكبرين

المبحث التاسع : ما يمكن أن يتفرع عن الكلية القرآنية من القواعد



المبحث الأول :

تحرير محال ورودها

لقد أرشد القرآن الكريم إلى العبادة ودعا إليها بأساليب مختلفة، فمرّة بالتنصيص عليها - وهو الغالب -، ومرّة بالدلالة فقط.

كما أن العبادة ترد تارة مضافة إلى اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - على سبيل الحفز والتنويه والمفاصلة[١] ، وتارة تضاف إلى معبودات غير اللَّه وذلك على سبيل التعيير والاستهزاء والتحذير. وإليك مظان النوعين معًا.

* * *

(١) ونعني بالمفاصلة المتاركة والبراء: من المشركين ومعبوداتهم.

المطلب الأول:

بعض مظان ورودها نصًّا

١- مضافة إلى الله- عزَّ وَجلَّ:

* قوله- تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة، الآية:٢١].

* قوله- تعالى-: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: الآية:٨٣].

* قوله- تعالى-: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة، الآية:١٣٣].

* قوله- تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ [آل عمران، الآية:٥١].

* قوله- تعالى-: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران، الآية:٦٤].

* قوله- تعالى-: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾ [آل عمران، الآية:٧٩].

* قوله- تعالى-: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء، الآية:٣٦].

* قوله- تعالى-: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء، الآية:١٧٢].

* قوله- تعالى-: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ﴾ [المائدة، الآية:٧٢].

* قوله- تعالى-: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأنعام، الآية:٥٦].

* قوله- تعالى-: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام، الآية:١٠٢].

* قوله- تعالى-: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ [الأعراف، الآية:٧٠].

* قوله- تعالى-: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ﴾ [الأعراف، الآية:٥٩].

* قوله- تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف، الآية:٢٠٦].

* قوله- تعالى-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ﴾ [التوبة، الآية:٣١].

* قوله- تعالى-: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ﴾ [يونس، الآية:١٠٤].

* قوله- تعالى-: قوله- تعالى-: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس، الآية:٣].

* قوله- تعالى-: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [هود، الآية:٢].

* قوله- تعالى-: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾ [يوسف، الآية:٤٠].

* قوله- تعالى-: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ [هود، الآية:٨٧].

* قوله- تعالى-: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ﴾ [هود، الآية:١٠٩].

* قوله- تعالى-: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم، الآية:١٠].

* قوله- تعالى-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل، الآية:٣٥].

* قوله- تعالى-: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ [النحل، الآية:٧٣].

* قوله- تعالى-: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف، الآية:١٦].

* قوله- تعالى-: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم، الآية:٨٢].

* قوله- تعالى-: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الحج، الآية:٧١].

* قوله- تعالى-: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الفرقان، الآية:١٧].

* قوله- تعالى-: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت، الآية:١٧].

* قوله- تعالَى-: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات، الآية:٩٥-٩٦].

* قوله- تعالَى-: ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٢﴾ [الصافات، الآية:٢٢].

* قوله- تعالَى-: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف، الآية:٢٠].

* قوله- تعالَى-: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر، الآية:٣].

* قوله- تعالَى-: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ [الرعد، الآية:٣٦].

* قوله- تعالَى-: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر، الآية:٩٩].

* قوله- تعالَى-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل، الآية:٣٦].

* قوله- تعالَى-: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل، الآية:١١٤].

* قوله- تعالَى-: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء، الآية:٢٣].

* قوله- تعالَى-: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف، الآية:١٠٦].

* قوله- تعالَى-: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ﴾ [مريم، الآية:٦٥].

* قوله- تعالى-: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه، الآية:١٤].

* قوله- تعالى-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء، الآية:٢٥].

* قوله- تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [الحج، الآية:٧٧].

٢- مضافة إلى سواه من المعبودات :

* قوله- تعالى-: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ [المائدة، الآية:٦٠].

* قوله- تعالى-: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ [يونس، الآية:١٨].

* قوله- تعالى-: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ [يوسف، الآية:٤٠].

* قوله- تعالى-: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ [هود، الآية:٦٢].

* قوله - تعالى-: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ [سبأ، الآية:٤٣].

* * *

المطلب الثاني :

بعض مظان ورودها دلالة

* قوله- تعالى-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] [غافر، الآية:٦٠].

* قوله- تعالى-: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف، الآية:١٤٨].

* قوله- تعالى-: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان، الآية:٤٣].

* قوله- تعالى-: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية، الآية:٢٣].

* قوله- تعالى-: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة، الآية:٣١].

* قوله- تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام، الآية:٧٤].

* قوله- تعالى-: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة، الآية:١٦٥].

---

(١) في الحديث: الدعاء مخ العبادة وانظر سنن الترمذي: ١٢٥/٥ (باب ما جاء في فضل الدعاء)، قال فيه الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

المبحث الثاني :

فقهها

المطلب الثالث :

مفهوم العبادة في اللغة والاصطلاح:

أ- **في اللغة** : الطاعة والخضوع، ومنه طريق مُعبَّد: إذا كان مذللًا لكثرة الوطء، قال- تعالَى-: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: نطيع الطاعة التي يخضع معها، وقال- تعالَى-: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة، الآية:٦٠].

وتأويل عبد الطاغوت، أي أطاعه- يعني الشيطان- فيما سوَّل له[١] .

ويقال: فلان عبد بَيِّن العبودة والعبودية والعبدية أي خاضع متذلل[٢] . والعبادة أبلغ من العبودية؛ لأنها غاية في التذلل لا يستحقها إلا من له غاية الأفضال، وهو اللَّه- تعالَى- ولذلك قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾[٣] [الإسراء، الآية:١٧].

ب- **في الاصطلاح**: أما في الاصطلاح، فقد وجدنا العلماء يختلفون في مفهومها وتعريفها، اختلافًا لو تأملناه ألفيناه اختلاف تنوّع لا اختلاف تضاد، فتكون هذه التعريفات مكملة بعضها لبعض، وأحسب أن الإلمام ببعضٍ منها يهدينا إلى التصوّر الصحيح لمفهوم العبادة، وإليك بعضًا من هذه الأقوال.

---

(١) انظر لسان العرب: ٢٧١/٣، مادة «عبد».

(٢) لسان العرب: ٢٧١/٣ مادة «عبد».

(٣) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٣٣٠.

قال ابن تيمية- رحمه الله-: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة»[١] ، وقال ابن القيم- رحمه الله-: «أصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يُحَبُّ لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه كمحبة من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبه، وإذا كانت المحبة له حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تحقق باتباع أمره واجتناب نهيه»[٢] ، وقال في مقام آخر: «العبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع»[٣] ، وعرفها الألوسي- رحمه الله- فقال: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، كالتوحيد فإنه عبادة في نفسه، والصلاة والزكاة والحج وصيام رمضان، والوضوء، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والدعاء، والذكر، والقراءة وإخلاص الدين، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه وغير ذلك مما رضيه وأحبه، فأمر به وتعبد الناس به[٤] .

ويرى محمد صديق حسن خان أن للعبادة أربع قواعد وهي «التحقيق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، وقيام ذلك بالقلب واللسان والجوارح»[٥] .

ومما سبق من النقول يتضح لنا جليًا معنى العبادة الحقة التي أمرنا بها تعبدًا لله- عَزَّ وَجَلَّ-، ويمكن تلخيص هذا المعنى فيما يأتي:

---

(١) العبودية، ص: ٤.
(٢) مدارج السالكين: ٩٩/١.
(٣) مدارج السالكين: ٩٩/١.
(٤) غاية الأماني: ٢٥٦/١.
(٥) الدين الخالص: ٣٤١/١.

العبادة الحقة: تعني المحبة مع تمام الخضوع والتذلل لله، والانقياد لأوامره، ومحبة ما يحب، وبغض ما يكره، واتباع الرسول ﷺ فيما أمر ونهى وسن وشرع من غير زيادة أو نقصان.

وإلا فما قيمة محبة وخضوع لا يثمران طاعة واتباعًا وقبولًا والتزامًا؛ إذ وظيفة العبد الحقيقية هي طاعته لسيده وامتثال أوامره، وكلما زاد «ولم يقف به الأمر إلى حد أن يسلم نفسه لسيده طاعة وتذللًا، بل كان مع ذلك يعتقد بعلائه ويعترف بعلو شأنه، وكان قلبه مفعمًا بعواطف الشكر والامتنان على نعمه وأياديه، مبالغًا في تمجيده وتعظيمه، متفننًا في إبداء الشكر على آلائه وأداء شعائره، ارتقى به كل ذلك إلى أن يكون خاضعًا ليس برأسه فحسب، وإنما بقلبه- أيضًا»[١] .

ومن هنا عنى ابن تيمية- رحمه الله- في بيان حقيقة العبودية بذكر الضوابط التي تقف بالعبد عند حده ولا تشرد به عن سواء الصراط، حيث يقول- تحت عنوان- «محبة الله»: «وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياءه، ويعادي أعداءه، هذا هو الذي استكمل الإيمان»[٢] .

فكأنه يشرح مضامين سورة: «الكافرون»، التي تسمى- أيضًا- سورة العبادة[٣] ، والتي مفادها إعلان المفاصلة التامة بين رسول الله ﷺ والمشركين في العبادة «وتيئيسهم من أن يوافقهم في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في الحال والاستقبال»[٤] .

---

(١) الدين الخالص: ٣٤١/١.
(٢) العبادة في الإسلام، ص: ٢٩ بتصرف.
(٣) انظر التحرير والتنوير: ٥٧٩/٣٠.
(٤) انظر التحرير والتنوير: ٥٨٠/٣٠.

والحق أنه لا يرجى من المكلف البلوغ بالعبودية إلى هذا المقام السامي إلا بعد معرفته لربه وخالقه معرفة تليق بجلال الله وعظمته؛ «إذ العبادة موجب ألوهيته وأثرها ومقتضاها وارتباطها كارتباط متعلق الصفات بالصفات وكارتباط المعلوم بالعلم والمقدور بالقدرة والإحسان بالرحمة والعطاء بالجود، فمن قام بمعرفة الأسماء والصفات استقامت له العبادة وعلم أنها هي القصد الذي خُلِقَتْ له العباد وأُرْسِلَتْ من أجله الرسل»[(١)] ، ولما كان التعبد المقصود من بعثة الأنبياء- عليهم السلام-، أوتوا معه أدلة التوحيد ليقع التوجه إلى المعبود بحق؛ ولذلك قال- تَعَالَى-: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد، الآية:١٩]، ومثل سائر المواضع التي نصَّ فيها على كلمة التوحيد لا بد أن أعقب بطلب التعبد لله وحده أو جُعِلَ مقدمة لها، وهو واضح أن التعبد لله هو المقصود من العلم[(٢)] .

وما الإجلال والتعظيم اللذان حَلَّا بقلوب أوليائه وأصفيائه من عباده المكرمين- إلى حد أن كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه- ما ذلك إلا ثمرة معرفته حق العرفان، والاطلاع على حقيقة معاني الألوهية والربوبية والأسماء والصفات.

ومن ها هنا أمكن القول: إن هذه الكلية المقاصدية إنما هي امتداد للعقدية فبينهما لحمة اتصال بل إن هذه من لوازم تلك اللوازم السلوكية والأخلاقية التي من شأن العبد أن يفجرها من داخله متى فقه الكلية العقدية، وإلا فستنفصم هذه الأخيرة عن مجالها الواقعي مما يؤدي إلى عرضها بعيدًا عن آثارها العملية ومقتضياتها السلوكية.

وما الممارسات السلبية المشاهدة من تهاون في فعل الواجبات والإقبال دون توقير لجنب الله- على المحرمات، ما ذلك إلا نتيجة لما حدث من انفصام الظاهر عن الباطن؛ إذ لم تستول العقيدة على القلوب ولم يتربع الإيمان على عرش النفوس[(٣)] .

---

(١) الدين الخالص: ٣٣٨/١ بتصرف.

(٢) الموافقات: ٣١/١ بتصرف.

(٣) الكثير ممن ينتمون للإسلام من يجاهر بالمعاصي و المحرمات ويتفاخر بانتهاك حدود الله، كترك =

قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[(١)] ، فمتى صادف الخلل القلوب الخالية من معرفة الله وحبه وخشيته والإنابة إليه إلا تمكن واستفحل ونضحت القلوب بأضداد ما ذكر.

ج- **المفهوم القرآني للعبودية** : ويظهر من سياقات القرآن العديدة، أن العبودية ترد تارة منسوبة إلى الله- تَعَالَى- نسبة عموم، وتارة منسوبة إليه نسبة خصوص:

- فمن العموم، قوله- تَعَالَى-: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾[(٢)] [آل عمران، الآية:١٨٢]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم، الآية:٩٣]، فشملت المؤمنين والكفار، وإدخال الكفار في العبدية؛ لكونهم اعترفوا بالصانع، وخضعوا له، قال- تَعَالَى-: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف، الاية:١٠٦]، وفي قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ ما يدل على الذلة والخضوع، ومعلوم أن هؤلاء لا يأتون يوم القيامة إلا كذلك؛ لأن استكبارهم عن عبادة الله لم يكن إلا في الدنيا[(٣)] .

وأما الخصوص ففي مثل قوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء، الآية:٦٥]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان، الآية:٦٣]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى

= الصلاة، وشرب الخمر، وتعاطي المخدرات، والإفطار في نهار رمضان، وفئة أخرى منهم من لا يعجبها ذكر ما حرمه الله وأحل، وتغضب لذلك وتثير الأرض نقعًا وتتمالأ مع أعداء الله لإسكات الأصوات وتهدد بقطع الأقوات ومصادرة الحريات على كل من تجرّا على إغضابها ومخالفة أهوائها ثم تغدو آخر الأسبوع لتشهد صلاة الجمع فلا حول ولا قوة إلا بالله. . .

(١) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٢٦/١. (كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه) ومطلع الحديث قوله -عليه الصلاة و السلام- فيما رواه عنه النعمان بن بشير -رضي الله عنه- أنه قال: «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ... الحديث».

(٢) ومما يلاحظ على لفظ: «العبيد» أنه لم يرد إلا في معرض الحديث عن العبودية التي أريد بها العموم.

(٣) انظر الفتاوى: ٤٤/١ بتصرف.

﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧﴾ [ص، الآية:٤٥-٤٧]، «فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته»[١]، فظهر من العموم والخصوص أن العبادة إما قسرية اضطرارية تكليفية وهي العامة التي يدخل فيها الحزبان معًا، وبرز هذا النوع في «افتقار المخلوقات- ومنها الثقلان- إليه- تَعَالَى- وحاجتها كلها إليه، وأنه لا وجود لها ولا لشيء من صفاتها وأفعالها إلا به، فهذا أول درجات الافتقار وهو افتقارها إلى ربوبيته له، وبهذا الاعتبار كانت مملوكة لها»[٢]. وإما اختيارية تشريفية ولا تنال إلا أهل مرضاته، وهو النوع الذي من أجله وضعت الشريعة؛ لأن القرآن يقصد إلى صياغة الإنسان الرباني، ومن أرشق العبارات في هذا المقام ما تحدث به الشاطبي- رحمه اللَّه- حين قال: «المقصد الشرعي من وضع الشريعة، إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدًا للَّه اختيارًا كما هو عبد للَّه اضطرارًا»[٣]، فمتى صار العبد خالصًا لسيده، سلمًا له وارتقى قمة العبدية، خضع للَّه خضوع طواعية واختيار لا قسر واضطرار، فتغدو العبدية حينئذ بعد أن كانت في نطاق التكليف، تغدو في مقام التشريف ويحظى صاحبها بالزلفى عند سيده.

ولقد دلَّت الآيةِ الكلية على أقصى غاية التذكير[٤]. هو أن القصد من خلق الجن والإنس ليس إلا للعبادة فخلقهم مغيًا بهذا حتى يكونوا عبادًا له خلصًا متذللين خاضعين لأمره وسلطانه.

---

(١) مدارج السالكين: ١/١٠٥.

(٢) الفتاوى: ١/٤٥.

(٣) الموافقات: ١/٤٦٠.

(٤) والقصد من التعبير بلفظ التذكير، «هو أنه لما ذكر -تعالى- قوله: «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» الذاريات، الآية: ٥٥ أعقبه بقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات، الآية:٥٦]، فناسب القول بأن أقصى غاية التذكير هي هذه الجملة التي أبانت عن القصد من إيجاد الثقلين».

ومن هنا لزم حمل الآية على الخصوص رغم ورود اللفظ عامًّا، وأن المراد بالفريقين بعضهما، وهم أهل السعادة، وذلك لأن اللام في قوله- تَعَالَى-: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ ليست لام الصيرورة- كما يسمّيها النحاة- بحيث يلزم منها ألا يتخلف أحد من المخلوقين عن عبادته العبادة الاختيارية- فكيف وقد حصل- فاللام- إذًا- إنما هي لام علة، وهذه العلة هي المرادة المطلوبة المقصودة من الفعل[١] ، ومن ثم وجدنا من المفسرين من يتأول الآية بتقدير كلام، حيث قال: « ما خلقتُ أهل السعادة من الفريقين إلا ليوحدوني »[٢] .

والمدار على ذلك هو التوفيق والخذلان، فمن وفق عمل لما خلق له، ومن خذل خالف وعصى، قال ابن تيمية- رحمه اللَّه- في أثناء حديثه عن الآية-: « هذه الإرادة الشرعية، وهذه قد يقع مرادها، وقد لا يقع[٣] . فهو العمل الذي خُلِقَ العباد له وهو الذي به يحصل كمالهم وصلاحهم، فمن لم تحصل منه هذه الغاية، كان عادمًا لما يحب ويرضى وعادما لكماله وصلاحه المستلزم فساده وعذابه »[٤] .

ومعنى الآية: أن اللَّه- تَعَالَى- أخبر أنه ما خلق الإنس والجن إلا لعبادته، فهذه هي الحكمة من خلقهم، وعبادته هي طاعته بفعل المأمور وترك المحظور، وذلك هو حقيقة

---

(١) انظر دقائق التفسير: ٥٢٧/٤ بتصرف يسير.

(٢) معاني القرآن: ٨٩/٣.

(٣) لقد سبق هذا الكلام تفصيل في الإرادة حيث عمد إليها فجعلها نوعين:

١- إرادة مستلزمة لوقوع المراد وهي التي يقال فيها: ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن، ومثل لها بآيات منها قوله -عز وجل-: « فمن يرد اللَّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا » الأنعام، الآية: ١٢٦ .

٢- وإرادة دينية شرعية وهي لا تستلزم وقوع المراد إلا إذا تعلقت بها الأولى كما هو مشاهد في الأعمال الصالحة، فهي مرادة للَّه شرعا كما أنه مرادة له كونًا، وقدرًا، انظر دقائق التفسير ٤/ ٥٢٨ .

(٤) انظر دقائق التفسير: ٥٢٩/٤.

الإسلام الذي يعني الاستسلام المتضمن غاية الانقياد في غاية الذل قال ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: «ماخلقت الجن والإنس إلا لعبادتنا والتذلل لأمرنا»[١] ، وقال مجاهد: «إلا لآمرهم وأنهاهم»[٢] ، وهو ما دل عليه قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة، الآية: ٣٦] ، والحصر الوارد في الآية أريد به قصر علة خلق الله الإنس والجن على إرادته أن يعبدوه وحده، فإن فيه ردًا للإشراك»[٣].

* * *

---

(١) جامع البيان: ١٢/٢٦.

(٢) تفسير مجاهد: ٦٢١/٢.

(٣) انظر التحرير والتنوير: ٢٦/٢٧.

المبحث الثالث :

قيمتها

المطلب الأول :

أنها المقصد الأعظم من إيجاد الثقلين :

ودعوى أن هذه الكلية أعظم مقاصد القرآن الكريم من وضع الشريعة لا يتنافى وما سنقرره عند الحديث عن كلية جلب المصالح ودرء المفاسد؛ لأن هذه الأخيرة تعتبر النظام الكافل للسعادة في المعاش والمعاد متى أتي بأوامر الشريعة ونواهيها على وجهها، وكأن الكلية المقاصدية إجراء ووسيلة نودي بها من قبل الشارع للدخول تحت هذا النظام والانقياد له بعيدًا عن الهوى والتشهي.

* ومن الأدلة على ذلك صريح القرآن، الدال على أن العباد خلقوا للتعبد لله والدخول تحت أمره ونهيه؛ كقوله- تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذاريات، الآيتان:٥٦-٥٧]، وقوله- تعالى-: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ﴾ [طه، الآية:١٣٢]، وقوله- تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة، الآية:٢١]، ثم شرح هذه العبادة في تفاصيل السورة، كقوله- تعالى-: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة، الآية:١٧٧]، وهكذا إلى تمام ما ذكر في السورة؛ من الأحكام، وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ [النساء، الآية:٣٦]، إلى غير

ذلك من الآيات الآمرة بالعبادة على الإطلاق وبتفاصيلها على العموم، فذلك كله راجع إلى الله في جميع الأحوال والانقياد إلى أحكامه على كل حال، وهو معنى التعبد لله.

* ومن الأدلة- أيضًا- ذم مخالفة هذا القصد، من النهي أولًا عن مخالفة أمر الله، وذم من أعرض عن الله وإيعادهم بالعذاب العاجل من العقوبات الخاصة بكل صنف من أصناف المخالفات، والعذاب الآجل في الدار الآخرة، وأصل ذلك اتباع الهوى والانقياد إلى طاعة الأغراض العاجلة والشهوات الزائلة، فقد جعل الله اتباع الهوى مضادًا للحق، وعدَّه قسيما له؛ كما في قوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص، الآية:٢٦]، وقوله- تعالَى-: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾، وقال في قسيمه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات، الآيات:٣٧-٤١]، فقد حصر الأمر في شيئين: الوحي، وهو الشريعة، والهوى، فلا ثالث لهما، وإذا كان كذلك فهما متضادان، وحين تعين الحق في الوحي توجه للهوى ضده، فاتباع الهوى مضاد للحق، قال- تعالَى-: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية، الآية:٢٣]، فكل موضوع ذكر الله- تعالَى- فيه الهوى فإنما جاء في معرض الذم له ولمتبعيه، وهذا واضح في أن قصد الشارع الخروج عن اتباع الهوى والدخول تحت التعبد للمولى.

* ومن الأدلة كذلك، ما عُلِمَ بالتجارب والعادات من أن المصالح الدينية والدنيوية لا تُحصَّلُ مع الاسترسال في اتباع الهوى لما يلزم في ذلك من التهارج والتقاتل والهلاك الذي هو مضاد لتلك المصالح؛ ولذلك اتفق الناس على ذم من اتبع شهواته وسار حيث سارت به؛ حتى إنَّ من تقدم ممن لا شريعة له أو كان له شريعة درست كانوا

يقتضون المصالح الدنيوية بكف كل من اتبع هواه في النظر العقلي...، فهذا الأمر قد توارد النقل والعقل على صحته في الجملة.

* فباتباع الهوى إذًا، ينخرم النظام، قال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون، الآية:٧١]؛ ولذلك وضعت الشريعة، حيث تكفلت بحفظ مصالح المكلفين لا المصالح التي قد يُقْصَدُ بها الحظوظ النفسية والأهواء وإنما المصالح التي تعود عليهم بحسب ما أمر به الشارع؛ ولذلك ألفينا هذه التكاليف الشرعية ثقيلة على النفوس؛ لأن القصد منها إخراج المكلف عن دواعي الهوى - كما تقدم- »[١] .

* * *

(١) الموافقات: ٢/٤٦٧-٤٧٣ بتصرف.

المطلب الثاني :

العبادة حق اللّه

وهو الأصل المنتظم فيما ورد من نص شرعي؛ كما ورد على لسان الصحابي الجليل معاذ بن جبل- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حين قال: بينما أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل... فقال: يا معاذ بن جبل، فقلت: لبيك رسول اللّه وسعديك، قال: هل تدري ما حق اللّه على عباده: قلتُ: اللّه ورسوله أعلم، قال: حق اللّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا... الحديث[١] ، وهذا الحق المنصوص عليه في الحديث هو فعل الطاعات واجتناب المعاصي دون إشراك به سبحانه-؛ إذ هو تمام التوحيد وكماله- وليس بمستنكر أن يكون للّه على عباده أن يعبدوه حق العبادة وحده، بل المستنكر أن يخلق هو فيعبد غيره ويرزق هو فيشكر سواه، أو أن يزعم العباد لأنفسهم الاستقلال عن اللّه فيجحدوا عبوديتهم له بغير حق فإن « من أعظم أنواع البر أن يعتقد الإنسان بمجامع قلبه- بحيث لا يحتمل نقيض هذا الاعتقاد عنده- أن العبادة حق اللّه- تَعَالَى- على عباده، وأنهم مطالبون بالعبادة من اللّه- تَعَالَى- بمنزلة سائر ما يطلبه ذوو الحقوق من حقوقهم... فمن لم يعتقد ذلك اعتقادًا جازمًا، واحتمل عنده أن يكون سدى مهملًا لا يطالب بالعبادة، ولا يؤاخذ من جهة رب مريد مختار، كان دهريًا لا تقع عبادته وإن باشرها بجوارحه..[٢] .

فاللّه الذي شهدت بربوبيته الفطر السليمة وأقرت بوجوده وكماله ووحدانيته العقول النيرة، جدير أن يكون له حق العبادة والاستعانة به والابتهال إليه والوقوف ببابه

---

(١) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١١/٣٣٧ (كتاب الرقاق، باب من جاهد نفسه في طاعة اللّه).

(٢) حجة اللّه البالغة: ١/٢٠٠.

موقف الضراعة، والانقياد والتسليم وكل هذا حق لربوبيته وألوهيته، حق الخالق على الخلق، وحق الكريم على المكرم وإلا عُدَّ العباد ناكرين لجميله متى توانوا في طاعة سيدهم الذي غمرهم بنعمه وأسبل عليهم نعمه ظاهرة وباطنة من يوم أن كانوا كالذر إلى أن صاروا خلقًا سويًا، واقرأ قوله- تَعَالَى-: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم، الآيات:٣٢-٣٤]، وصيغة المبالغة في: ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ اقتضتها كثرة النعم المعبّرعنها بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾؛ إذ بمقدار كثرة النعم يزداد كفر الكافر بها إعراضًا عن عبادة المنعم، فحُقَّ بذلك أن ينعت بالصفتين المذكورتين، فهو - سبحانه - المستحق إذًا للعبادة وحده دون سواه؛ لأن هذا الدون مربوب له؛ ولهذا قال الراغب - رحمه اللَّه- فيما نقلناه في أول كلامنا عن الكلية: «العبادة غاية في التذلل لا يستحقها إلا من له غاية الأفضال وهو اللَّه - تَعَالَى- »[١] ؛ «لأن أقل القليل من العبادة يعظم عن أن يستحقه إلا من كان له أعلى جنس من النعمة، وهو اللَّه فلذلك لا يستحق العبادة إلا هو، ومن ثَمَّ عُلِمَ أن العبادة مطلوبة في الدين طلب الغايات والمقاصد، لا طلب الأدوات والوسائل، فهي المقام الأول امتثالًا لأمره ووفاء بحقه سبحانه، فهي مطلوبة لذاتها مقدمة على أي شأن من شئون هذه الحياة»[٢] .

* * *

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٣٣٠.

(٢) العبادة في الإسلام، ص: ١٠٩، بتصرف.

المطلب الثالث:

العبادة تشكل قطب رحى الدعوة

حيث إن دعوة الأنبياء جميعهم لم تخرج عن نطاق الدعوة إلى عبادة اللّٰه الواحد الأحد، فتلك كانت سنتهم في أقوامهم ودينهم في مجتمعاتهم، قال- تَعَالَى-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل، الآية:٣٦]، وقيل لرسول اللّٰه ﷺ من قبل ربه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء، الآية:٢٥]، فتمثل في الآيتين روح الوحي ووظيفة المرسلين ومهمتهم، وهي عبادة اللّٰه- تَعَالَى- عبادة خالصة. كما أن فيها إظهارًا لعناية اللّٰه- تَعَالَى- بإزالة عقيدة الشرك من النفوس وقطع دابره إصلاحًا للعقول بأن يزال منها أفظع خطل وأسخف رأي[1] ، فانظر كيف نزلت الشرائع الإلهية كاشفة عن هذا القصد بعبارة يفهمها البشر بما أودع في فطرهم وجبلتهم من ميل إلى بارئهم- جل مجده وتعالى جده-، وهذه هي السبيل التي دعا إليها ﷺ حين أبلغه ربه أن يقول: ﴿هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف، الآية:١٠٨]، إنها سبيل اللّٰه الموصلة إلى المطلوب وهو الفوز الخالد، قال ابن جرير- رحمه اللّٰه-: «يقول اللّٰه- تَعَالَى- لنبيه ﷺ قل يا محمد: هذه الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد اللّٰه وإخلاص العبادة له سبيلي..»[2] وفي مقام آخر نجد القرآن ينعت عبادة الإله الواحد بالصراط المستقيم، قال اللّٰه- تَعَالَى- على لسان عيسى- عليه السلام-: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ

---

(١) التحرير والتنوير: ٤٩/١٧.

(٢) انظر جامع البيان: ٨٠/١٣.

هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران، الآيتان: ٥٠-٥١]، وقال على لسان محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم، الآية:٣٦]، وما ذكر الربوبية في الآيتين إلا لتتفرع عليها العبودية المرادة له- تَعَالَى-، وذاك هو السبيل القويم والصراط المستقيم الذي لا يضل سالكه ولا يتحير.

وحسبك سورة البقرة التي ما إن نوهت بالقرآن وبفائق صدقه وهديه، حتى خلصت إلى تصنيف الناس تجاه تلقيهم هذا الهُدى وانتفاعهم به إلى أصناف ثلاثة، ثم لفتهم تحت نداء جامع وهو قوله- تَعَالَى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة، الآية:٢١]، وهي موعظة جامعة تمثلت في دعوته لعبادة ربهم وخالقهم إرشادًا لهم ورحمة بهم؛ لأنه- تَعَالَى- لا يرضى لعباده الكفر، كما أن في ثنايا الأمر في العبادة تعليمًا لهم بكيفية هذه العبادة فهم مطالبون بإتيان العبادة الموسومة بالخشوع وإخلاص الأدب والإحسان كأنهم يرونه في أثناء الممارسات العبادية، وهذه الأخيرة لا يستحضرها إلا إشعار النفوس بمعنى الربوبية.

وهكذا يأمر اللَّه- تَعَالَى- عباده أجمعين بأن يعبدوه وحده مخلصين له الدين؛ لأن هذه العبادة ستؤهلهم للسعادة الحقيقية والوسيلة هي ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ إذ بها يصل العبد إلى البغية المتمثلة في مرضاة اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- والدخول في رحمته، قال- تَعَالَى-: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات، الآية:١٠]، وقال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام، الآية:١٥٥]، وقال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف:٦٣] فغاية الغايات هي الدخول في رحمته- تَعَالَى.

* * *

المطلب الرابع :

العبادة شاملة لكل مجالات الحياة

إذا كان السر في وجود الثقلين- كما أسلفنا- مُغيًّا بالعبادة، فإنه لمن قصور النظر أن نعتقد أن العبادة مجموعة من الشعائر لا تتعداها.

والحق أن العبادة واسعة الأفق شاملة لمجالات شتى من الحياة، ولو راجعنا النظر في مفهوم العبادة عند ابن تيمية، والألوسي- رحمهما اللَّه-، لتجلّت لنا رحابة هذا الأفق حيث وَسِعَتْ الأركان والفرائض والنوافل، كما وَسِعَتْ المعاملات والوفاء بحقوق العباد والفضائل الإنسانية جميعها، «كما شملت ما يسمى بـ«الأخلاق الربانية» من حب اللَّه ورسوله وخشية اللَّه والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا لقضائه والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه»[١] وأخيرًا شملت العبادة الفريضتين الكبيرتين اللتين هما سياج ذلك كله وملاكه، وهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين..»[٢] .

فانظر إلى العبادة كيف وسعت كل مجالات الحياة، لا كما يعتقده بعض قاصري النظر من كونها لا تخرج عن نطاق الشعائر، وهو المفهوم السائد لدى بعض المسلمين سواء أقالوه بلسان المقال أو بلسان الحال، ولا أدلَّ على هذا من أننا نجد بعض الممارسين للشعائر العبادية لا يتورع أن يكذب أو يرابي أو يغش أويظلم وذلك عقيب انتهائه من أداء هذه الشعيرة أو تلك، وهكذا تنحرف الغايات وتنشأ اللوثات وتفسد النيات نتيجة غياب التصور السليم للعبادة مما يؤدي إلى قطيعة وانفصام في حياة العبد،

(١) العبادة في الإسلام، ص: ٥١.
(٢) العبودية، ص: ٤٣ وما بعدها.

بين المسجد وخارجه ورمضان وما بعده، وموسم الحج وما يتلوه من شهور العام، فبعد أن كنا نأمل أن تكون هذه الأزمنة والأمكنة بمثابة محطات لشحن القلوب وتعبئتها بالإيمان والعقيدة الراسخة؛ إذ بالعبد يفصم بين عراها ويحيل العبادة إلى مجرد عبث وتسكع لا يرى عليه أثر العبدية لا في خُلق ولا دين، وهو مما لا يرضاه اللَّه- تَعَالَى-؛ إذ إن أوقات هذه الشعائر إنما هي أزمنة معدودة ومحدودة فأين نذهب بما تبقى من أزمنة العام هل تنفق في غير عبادة اللَّه؟

قال الشيخ محمد الغزالي- رحمه اللَّه-: «إن الإسلام ليس أفعالًا تُعَدُّ على الأصابع دون زيادة أو نقص، كلا إنه صلاحية الإنسان للمسير في الحياة وهو يؤدي رسالة محدودة»[١] .

فالعبادة تسع الحياة كلها وتنتظم أمورها قاطبة من أدب الأكل والشرب وقضاء الحاجة إلى بناء الدولة وسياسة الحكم، وسياسة المال، وشئون المعاملات والعقوبات وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب»[٢] ، وهذا هو الموافق لما تعطيه الآية الكلية من معنى واسع وعميق، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات، الآية:٥٦]، فالواجب على كل مسلم أن يعلم أنه ما خُلِقَ إلا لهذه العبادة على هذه الكيفية الشمولية: في الشعائر التعبدية وفي المعاملات أو المباحات، كل ذلك يجب أن يمارسه العبد وشعور العبادة للَّه- عَزَّ وَجَلَّ- يصاحبه والتقرب إليه- تَعَالَى- يحذوه والاستعانة على ذلك مطلبه ورغبته.

* * *

---

(١) هذا ديننا، ص: ٨٤ (نقلاً عن كتاب العبادة في الإسلام، ص: ٦٤).

(٢) العبادة في الإسلام، ص: ٥١ بتصرف يسير.

المبحث الرابع :

مقوماتها

المطلب الأول :

الاتباع

ونعني به التأسي برسول الله ﷺ في الاعتقاد والأقوال والأفعال والتروك باعتباره المبعوث من الله- عَزَّ وَجَلَّ- بشريعة لا يمكن التعبد إلا بها.

ولمنزلة الاتباع تجليات شتى تَبْرُزُ في كونه أساس قبول العمل العبادي، وبذلك تنتفي العبادة بالآراء والأهواء، قال ﷺ: « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد »[١] .

وقال الحسن البصري- رحمه الله-: « ولا يصلح القول إلا بعمل ولا يصلح قول وعمل إلا بنية، ولا يصلح قول وعمل ونية إلا بالسنة »[٢] .

ومن تجلياته كونه دليلًا وبرهانًا على صدق إيمان العبد، وشهادته أن محمدًا رسول الله، فهو مظهر مهم لتحقيق أحد أصلي الإسلام، قال ابن تيمية- رحمه الله-: « وبالجملة فمعنا أصلان عظيمان أحدهما: ألا نعبد إلا الله، والثاني ألا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بعبادة مبتدعة، وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة ألّا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله »[٣] ويقول تلميذه ابن القيم- رحمه الله تَعَالَى- في شأن هذا

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٣٥٥/٤ (كتاب البيوع، باب النجش ومن قال لا يجوز ذلك البيع).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٧/١.

(٣) الفتاوى: ٣٣٣/١.

المقام - أيضًا -: «فلا يكون العبد متحققًا بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلا بأصلين عظيمين: أحدهما متابعة الرسول ﷺ، والثاني: الإخلاص للمعبود»[١].

بل إنَّ لبوس محبة اللَّه ورسوله هو الاتباع ويدل على ذلك قوله- تَعَالَى-: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران، الآية:٣١]، قال ابن عاشور- رحمه اللَّه-: «ومن آثار المحبة تطلب القرب من المحبوب والاتصال به واجتناب فراقه، ومن آثارها محبة ما يسره ويرضيه واجتناب ما يغضه، فتعليق لزوم اتباع الرسول على محبة اللَّه- تَعَالَى-؛ لأن الرسول ﷺ دعا إلى ما يأمر اللَّه به وإلى إفراد الوجهة إليه وذلك كمال المحبة»[٢] ؛ ولذلك أوجب اللَّه على عباده محبة رسوله ﷺ وتقديم ذلك على محبة النفس والمال والولد والوالد والناس أجمعين كما جاء في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)[٣] ؛ لأن العبد متى تأمل النقل الحاصل له من جهة الرسول ﷺ الذي أخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان إما بالمباشرة وإما بالسبب، علم أنه سبب بقاء نفسه البقاء الأبدي في النعيم السرمدي، وعلم أن نفعه بذلك أعظم من جميع وجوه الانتفاعات فاستحق لذلك أن يكون حظه من محبته أوفر من غيره؛ لأن النفع الذي يثير المحبة حاصل منه أكثر من غيره ...»[٤] .

ويتحصّل مما سبق أن مَبْنَى الدين على الوحي والنقل الصحيح لا العقل، فما جاءنا من أمر ونهي، في كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ، وجب علينا قبوله والمبادرة إلى امتثاله فعلًا أو تركًا.

---

(١) مدارج السالكين: ١٠٤/١.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٢٨/٣.

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٥٨/١ (كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان).

(٤) فتح الباري: ٥٩/١-٦٠.

كما أنه يتعين على المسلم الناشد للعبادة الحقة أن يبحث عن الحكم الشرعي والتثبت فيه قبل إتيان العمل في جميع شئون حياته، فإن كل ما يحتاجه الناس في أمور دينهم ودنياهم من العبادات والمعاملات في السلم والحرب في السياسة والاقتصاد جاءت الشريعة ببيانه وإيضاحه، قال- تعالَى-: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل، الآية:٨٩]، وقال- عز من قائل-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة، الآية:٣]. وتطبيق ذلك هو حقيقة الاتباع والتأسي برسول الله ﷺ، وما سواه فهو مناقض للشرع وهو ما عبر عنه الشاطبي- رحمه اللّٰه- حين قال: «كل من ابتغى في تكاليف الشريعة غير ما شُرِعَتْ له فقد ناقض الشريعة، وكل من ناقضها، فعمله في المناقضة باطل فمن ابتغى في التكاليف ما لم تُشَّرع له فعمله باطل»[1] ، قال- تعالَى-: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء، الآية:١١٥]، قال عمر بن عبد العزيز- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: سنَّ رسول اللّٰه ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا الأخذ بها تصديق لكتاب اللّٰه، واستكمال لطاعة اللّٰه، وقوة على دين اللّٰه، من عمل بها مهتد ومن انتصر بها منصور، ومن خالفها اتبّع غير سبيل المؤمنين وولاه اللّٰه ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا، والأخذ في خلاف مآخذ الشارع من حيث القصد إلى تحصيل المصلحة أو درء المفسدة مشاقة ظاهرة[2] .

* ومن مظاهر التأسي والاتباع أن نجد المكلف يعظم النصوص الشرعية ويقدرها جليًا ويقدمها على سواها اعتقادًا منه أن ذلك هو الهدى والحق، وتلك هي سبيل السلف الصالح من الصحابة والتابعين- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-، عن ابن عمر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أن رسول اللّٰه ﷺ قال: «إذا استأذنت أحدكم أمرأته إلى المسجد فلا يمنعها»، فقال فلان بن عبد اللّٰه: إذن واللّٰه أمنعها فأقبل عليه ابن عمر فشتمه شتمة لم

(١) الموافقات: ٢/٦١٥.
(٢) الموافقات: ٢/٦١٦.

أره شتمها أحدًا قبله، ثم قال: أحدثك عن رسول اللَّه ﷺ وتقول: إذن واللَّه أمنعها[١].

وقد ذُكِرَ عن عبادة بن الصامت- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن النبي ﷺ نهى عن درهمين بدرهم، فقال فلان: ما أرى هذا بأسًا يدًا بيد، فقال عبادة: أقول: قال النبي ﷺ وتقول: لا أرى به بأسًا واللَّه لا يظلني وإياك سقف واحد أبدًا[٢].

* ومن مظاهره- أيضًا- الإشفاق على نفسه من أن يزيح عن الحق وهو من الجليات في سيرة السلف فهذا أبو بكر الصديق- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- كان يقول: «لستُ تاركًا شيئًا كان رسول اللَّه ﷺ يعمل به إلا عملت به، وإني لأخشى إن تركتُ شيئًا من أمره أن أزيغ».

* ومن مظاهره- أيضًا- الرضا بحكم الشرع مهما كان، فعن العباس بن عبد المطلب- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه سَمِعَ رسول اللَّه ﷺ يقول: «ذاق طعم الإيمان من رَضِيَ باللَّه ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا»، فَرِضَا العبد المكلف باللَّه ربًا وبمحمد نبيًا ورسولًا يُورِثُ لديه ضرب الصفح عن غير الهدى الذي جاء عن اللَّه والسلوك التي لم تثبت عن رسول اللَّه ﷺ، وكل هذا يجعله خاضعًا لحكم اللَّه ورسوله، راضيًا بقضائهما مطمئنة نفسه بذلك، قال- تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس، الآيتان: ٥٧-٥٨]، فإن الفضل هو الهداية الإلهية التي في القرآن، والرحمة هو التوفيق إلى اتباع الشريعة التي شملت الدنيا والآخرة»[٣].

---

(١) سنن الدارمي: ١/١١٧- ١١٨ (باب تعجيل عقوبة من بلغه عن النبي ﷺ حديث فلم يعظمه).

(٢) نفسه ١/١١٨ (باب تعجيل عقوبة من بلغه عن النبي ﷺ حديث فلم يعظمه).

(٣) التحرير والتنوير: ١١/٢٠٥ بتصرف يسير.

المطلب الثاني :

الإخــلاص

لا ريب أن من استحقاقاته - عَزَّ وَجَلَّ - أن يُفْرَدَ بالعبادة الخالصة فكل حظ يشوش على العبادة إلا وجب طرده ونفيه، فالعبادة لا تكون إلا له فوجب الإتيان بها على وجه لا تشوبها شائبة، قال- تَعَالَى-: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر، الآية:٣] قال ابن عاشور- رحمه اللّه-: « واللام في ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ لام الملك الذي هو بمعنى الاستحقاق أي لا يحق الدين الخالص أي الطاعة غير المشوبة إلا له، فأفادت الجملة أنه مستحقه وأنه مختص به، فلا يشوبه تشريك غيره في عبادته »[1] .

فالإخلاص - إذًا - هو: « تجريد قصد التقرب إلى اللّه عن جميع الشوائب »[2] ، فلا تتمحض العبادة إلا إذا كان الداعي إليها هو إرضاء اللّه- عَزَّ وَجَلَّ-، ومن رام في العبادة مدح الناس بحيث يكون ذلك القصد قبلته، كان عمله رياء وهو مما يؤثر على الإخلاص ويكدر صفوه، قال الإمام الغزالي- رحمه اللّه-: « وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها ... ثم قال: وإنما الإخلاص تخليص العمل عن الشوائب كلها - قليلها وكثيرها - حتى يتجرد فيه قصد التقرب، فلا يكون فيه باعث سواه، وهذا لا يتصور إلا من محب اللّه مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار ...»[3] .

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٣/٣١٧- ٣١٨.

(٢) إحياء علوم الدين: ٤/٣٧٩.

(٣) إحياء علوم الدين: ٤/٣٨٠.

ولا يزال القرآن يدعو الناس إلى العبادة المقرونة بالإخلاص وذلك في شخص النبي ﷺ قال- تعالى-: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر، الآية:٢]، وقال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر، الآية:١١]، وقال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤﴾ [الزمر، الآية:١٤]؛ لأنه إذا كان الدين مستحقًا للّه، خاصًا به، كان الأمر بالإخلاص له مصيبًا محزه، لأجل ذلك أعيد التصريح في هذه الآيات بأن يعبد اللّه وحده تأكيدًا وتقريرًا وإبرازًا لقيمة الإخلاص.

ولم يكتف القرآن بتمجيد المخلصين وإنما أمر- وبقوة- أن تكون القلوب بمنأى عن التأثير الدنيوي وأهوائها حتى تغدو قلوبًا هدفها هو اللّه، وفي الآية الكلية ما يومئ إلى هذا أي الخضوع الخالص، حيث يقول- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾.

ولما كان رسول اللّه ﷺ المربي الأول لهذه الأمة، كان من اهتماماته البالغة أن يبين معاني هذه النصوص؛ ليفرز البواعث النقية الطاهرة عن غيرها المشوبة المكدرة.

روى البخاري- رحمه اللّه- عن أبي موسى الأشعري- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللّه! الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل اللّه؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه»[(١)] ، وأكثر من هذا صراحة ذلك الإعلان الذي نقرؤه في حديث قدسي عن أبي هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: قال رسول اللّه : قال اللّه- تبارك وتعالى-: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه[(٢)] .

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٨/٦ (كتاب الجهاد باب من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا).

(٢) صحيح مسلم: ٢٢٣/٨ (كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير اللّه).

وهكذا نرى- تبعًا لهذه النصوص- أن جميع البواعث التي تنضاف إلى إرادة الطاعة تعرض قيمة العمل للخطر.

ولعل هذا الصفاء المطلق للباعث بالنسبة لما فُطِرَ عليه المكلف من الانجذاب نحو الحظوظ الأخرى ضرب من المستحيل، ولذلك «ذهب المحققون إلى أنه إذا كان الباعث الأول قصد التقرب إلى اللَّه لم يضره ما انضاف إليه»[1] وقالوا - أيضًا-: «إن النية الصحيحة لا تبطلها الخطرة التي لا تملك، وقد سئل مالك- رحمه اللَّه- عن الرجل يحب أن يلقى في طريق المسجد ويكره أن يلقى في طريق السوق، فقال: «إذا كان أول ذلك وأصله للَّه فلا بأس به إن شاء اللَّه- تَعَالَى- ... إنما هذا شيء يكون في القلب لا يملك وذلك من وسوسة الشيطان ليمنعه من العمل فمن وجد ذلك فلا يكسله عن التمادي على فعل الخير ولا يؤيسه من الأجر وليدفع الشيطان عنه ما استطاع ...»[2] ، وهو من فضل اللَّه- تَعَالَى- وكرمه ويسر شريعته على خلقه. ألا ترى إلى قوله- تَعَالَى- في شأن التجارة في الحج: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة، الآية:١٩٨]، إن ذلك ليس بمانع ولا قادح في صحة هذه العبادة إذا كان قصده بالعبادة وجه اللَّه، ولا يُعدُّ هذا تشريكًا في العبادة لأن اللَّه هو الذي أباح ذلك ورفع الحرج عن فاعله[3] .

* * *

---

(١) فتح الباري: ٢٩/٦ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير: ٣١٩/٢٣.

(٣) نفسه، ولنا عودة إلى هذا الموضوع وذلك عند الحديث عن القاعدة المتفرعة عن هذه الكلية، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والآية في الأنعام:١٦٢.

المطلب الثالث:

الاستمـــرارية

وتعني المداومة والمواظبة من غير انقطاع عن العمل حتى لتغدو العبادة ديدنا للعابد.

والحديث عن هذه الركيزة في القرآن الكريم يَرِدُ تارة بالتصريح ومنه قوله- تَعَالَى-: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج، الآية:٢٣]، تنويهًا ومدحًا لهؤلاء بعدم تركهم لشعيرة الصلاة، وقوله- تَعَالَى- على لسان عيسى- عليه السلام: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ [مريم، الآية:٣١،٣٢]، فإن في الآيتين ما يبرز استغراق عبادة الصلاة والزكاة وبر الوالدة وإيقاع هذه العبادات مدة حياته.

وأحيانًا ترد استعمالات أخرى تشعر بالدعوة إلى الاستمرارية والتنويه بها، ومن مثل ذلك عبارة: «الإقامة»، التي تعني الإدامة[١]؛ كقوله- تَعَالَى-: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة، الآية:٣]، وكذا عبارة: «الحفظ» التي تعني المواظبة على الأمر[٢]؛ كقوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة، الآية:٢٣٨]، قال الأزهري: «أي واظبوا على إقامتها في مواقيتها»[٣] فكلا الاستعمالين أفاد المداومة والمثابرة والمحارصة.

كما أن القرآن حين يوثر الفعل المضارع فإن ذلك يفيد تجدد ذلك الحفاظ وعدم التهاون فيه وهو مما تطالعنا به آيات كثيرة؛ كما هو مسطور في مطلع سورة البقرة عند حديثها عن المتقين، حيث أردفت هذه الصفة الإجمالية- صفة المتقين بصفات أخرى

(١) انظر لسان العرب: ٤٩٨/١٢ مادة «قوم».
(٢) انظر لسان العرب: ٤٤١/٧ مادة «حفظ».
(٣) لسان العرب: ٤٤١/٧ مادة «حفظ».

تفصيلية منها قوله- تَعَالَى-: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة، الآية:٣]، كل ذلك مقرون بفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار؛ إذ المضارع صالح للتعبير عن ممارسة الفعل في الآن والمستقبل[١].

ولا يزال القرآن حريصًا على الدعوة إلى إتيان الأعمال العبادية قاصدًا إليها على سبيل المداومة، قال اللَّه- تَعَالَى- لرسوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر، الآية:٩٩].

« فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لمَّا يسأله الملكان « من كان يعبد؟ وما يقول في رسول اللَّه ﷺ؟، ويلتمسان منه الجواب، وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، ويوم يدعو اللَّه الخلق كلهم إلى السجود فيسجد المؤمنون ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود »[٢] ولقد نصت أحاديث كثيرة على الاستمرار في العبادات وذمَّتْ الانقطاع قال ﷺ فيما روته الصديقة عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: « يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن اللَّه لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى اللَّه ما دام وإن قل »[٣]، فمعيار الأعمال ليس الكم وإنما الكيف الذي أريد به المداومة، قال النووي- رحمه اللَّه-: بدوام القليل تستمر الطاعة بالذكر، والمراقبة، والإخلاص، والإقبال على اللَّه بخلاف الكثير الشاق[٤] فالمداومة على العبادة وإن قلَّت أولى من إجهاد للنفس في كثرتها إذا انقطعت، فقليل دائم خير من كثير منقطع.

وما الإشفاق الذي أشفقه ﷺ على أصحابه إلا مخافة السآمة المورثة للانقطاع عن العمل، لأجل ذلك كان هذا الحديث بمثابة مَعْلَم من مَعَالم المنهج المثمر لدوام الأعمال ووسمها بالاضطراد، وهو من مقاصد الشريعة كما قرّرناه آنفًا.

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ١/٢٣٠-٢٣٢. (٢) مدارج السالكين: ١/١٠٤.
(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري. ١٠/٣١٤ (كتاب اللباس باب الجلوس على الحصير ونحوه).
(٤) فتح الباري: ١/١٠٣.

وحسبنا في ذلك رسول الله ﷺ، فإن لنا فيه الأسوة الحسنة، فعن عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- حين سُئلت: «هل كان النبي ﷺ يختص من الأيام شيئًا؟ قالت: لا، كان عمله ديمة ..»[(١)] .

ولعل السرّ في طلب إتيان الأعمال على سبيل الاستمرار ذلك الافتقار المتجسد في ضعف المخلوق وحاجته إلى خالقه، وهو أمر فطري، فُطِرَ عليه؛ إذ الإنسان يذنب دائمًا، فهو فقير مذنب وربه- تَعَالَى- غني غفار، فلولا رحمته ومغفرته- سبحانه- لما وجد الإنسان خيرًا أصلًا، ولولا مغفرته، لما وقى العبد شر ذنوبه، وهو محتاج دائمًا إلى حصول النعمة ودفع النقمة، ولا تحصل النعمة إلا برحمته، ولا يندفع الشر إلا بمغفرته[(٢)] ، كما أن من توابعه «توقيت الشرع وظائف العبادات من مفروضات ومسنونات ومستحبات في أوقات معلومة الأسباب ولغير أسباب، فإن في ذلك ما يكفي في حصول القطع بقصد الشارع إلى إدامة الأعمال»[(٣)] ، ولقد قيل في قوله- تَعَالَى- في الذين ترهبوا: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد، الآية:٢٧]، إنَّ عدم مراعاتهم لها هو تركها بعد الدخول فيها والاستمرار[(٤)] ، فإذا كانت الشريعة قد عرَّضت بمثل هؤلاء، فإنها قد عيَّرت المتهاونين عن إتيان العبادات بالكسل، قال- تَعَالَى-: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء، الآية:١٤٢]، ولا شك أن الكسل وقلّة الذكر مؤذنان بقلّة الاكتراث والزهد فيها، وهو تعيير للمنافق كما دلَّ عليه السياق، وكأن هذه الآية مؤشر للفصل بين عبادة المؤمنين وعبادة المنافقين.

* * *

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٣٣/٤ (كتاب الصوم، باب هل يخص شيئا من الأيام).

(٢) الفتاوي: ٤٢/١.

(٣) الموافقات: ٥٣٥/٢.

(٤) الموافقات: ٥٣٥/٢.

المبحث الخامس :

بعض مظاهرها

إن رحابة المفهوم للعبادة- كما رأيناه سالفًا- يثمر لدينا حقيقة تتجلى في كون العبادة تُهَيمِنُ على كل حركات وسكنات المكلف متى استحضرت النية، التي تُعْتَبر بوتقة تَعْرُجُ عبرها الأعمال لِتَصِلَ إلى القبول، فبصفائها تخلص العبادة للمعبود، وكم من العاديات غدت- بفضل النية- عبادات، وأحيلت إلى قربات؛ «لأن الإسلام يريد من المكلف أن يستقيم في أجهزته النفسية أولًا، فإذا توفرت صلاحيتها المنشودة بصدق اليقين، وسلامة الوجهة، فكل عمل تتعرض له في الحياة يتحول من تلقاء نفسه إلى طاعة الله ... والمسلم يعالج ما يعالج من شئون الدنيا، وكلما أضفى عليها قدرًا من طبيعة إيمانه وسناء وجهته، تحول ذلك العمل إلى عبادة»[1] .

وبناء على هذا أمكن القول: أنه لا طاقة لنا بإحصاء مظاهر العبادة متى علمنا أن العبادة هي تصرفات المكلف حتى يأتيه اليقين.

ويكفينا أن نُعرِّجَ على بعضها لندرك بعد ذلك أن للعبادة بعدًا لا يتناهى عند الشعائر الإسلامية الكبرى من صلاة وحج وزكاة وصيام وغيرها، بل يخرج من هذا المحيط المعلوم ليشمل صغار الأعمال وأتفهها- في حسباننا-، وكم من الأعمال ما تجد فيه النفس حظها ولا تجد فيه أدنى عنت أو مشقة كالأكل والشرب والنكاح، ورغم ذلك يحسب في العبادات متى صححت النية.

«فالإسلام- إذًا- قد فسَّح مجال العبادة ووسع دائرتها بحيث شملت أعمالًا كثيرة لم يكن يخطر ببال الناس أن يجعلها عبادة وقربة إلى الله، إن كل عمل

---

(١) العبادة في الإسلام، ص: ٦٥ بتصرف يسير.

اجتماعي نافع يعده الإسلام عبادة من أفضل العبادات ما دام قصد فاعله الخير لا تَصيُّدُ الثناء واكتساب السمعة الزائفة عند الناس، كل عمل يمسح به الإنسان دمعة محزون أو يخفف به كربة مكروب أو يُضمِّدَ به جراح منكوب أو يسدُّ به رمق محروم أو يشدُّ به أزر مظلوم أو يقيل به عثرة مغلوب أو يقضي به دين غارم مثقل أو يأخذ بيد فقير متعفف ذي عيال أو يهدي حائرًا أو يعلم جاهلًا أو يؤوي غريبًا أو يدفع شرًّا عن مخلوق أو أذى عن طريق أو يسوق نفعًا إلى ذي كبد رطب فهو عبادة وقربة إلى الله إذا صَحَّتْ فيه النية، أعمال كثيرة من هذا القبيل جعلها الإسلام من عبادة الرحمن وشعب الإيمان وموجبات المثوبة عند الله، فللعبد أن يضيف إلى ميزان عبادته أشياء عديدة لها ثقلها وقيمتها في تقرير الحق- تبارك وتعالى-، وإن تقالها العبد[١] .

ومن مثل هذه العبادات :

* الدعاء: فهو عبادة كما رواه النعمان بن بشير- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٢] [غافر، الآية: ٦٠]».

ولو تدبرنا حصيلة يوم العبد وليله، للاحظنا أن الدعاء قد هيمن على أزمنتهما، ولعل الشرع قصد بذلك إلى تحصين العبد تارة، وتذكيره بعبديته أخرى والإبقاء على الصلة بينه وبين خالقه ومن ثم وجدنا الدعاء مسنونًا عقيب الصلوات وفي الصباح والمساء وعند النوم والاستيقاظ، وعند ابتغاء قضاء الحاجة، وبعده وعند الطعام والشراب، وبعدهما وعند الدخول إلى البيت والخروج منه. وبالجملة فقد سن الدعاء عند كل شأن من شئون الحياة عظيمًا كان شأنه أو حقيرًا.

---

(١) العبادة في الإسلام، ص: ٥٦- ٥٧ بتصرف يسير.

(٢) انظر الحديث في مسند أحمد: ٤/٢٦٧، ٢٧٦.

وما هذه الصلة التي يثمرها الدعاء بين العبد والرب إلا عين العبادة... وكل من أعرض عن الدعاء فلم يدع ربه في سراء أو في ضراء فهو من الذين استكبروا عن عبادته- سبحانه-، قال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر، الآية:٦٠] «فأفاد ذيل الآية التحذير من إباية دعاء الله»[١] .

ولقد حضَّ- سبحانه- عباده للإقبال على هذا السبب الذي يصلهم به، فقال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِي وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة، الآية:١٨٦]، ولما لهذه الجملة من شأن وردت في مقام التبليغ، كما أن في ثناياها من البشارة ما يغري العباد ويحفزهم إلى الضراعة إلى الله من أجل نيل مرضاته والفوز بمكرماته.

وتأمل قوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران، الآية:١٩٠]، فمَنْ هؤلاء؟ إنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران، الآية:١٩١]، فتكون بعد ذلك الثمرة والنتيجة أنهم يتوجهون إلى الله بالدعاء وهو من أعلى وأجل صور العبادة- كما أسلفنا- وليس الأمر على إطلاقه وإنما يتم ذلك متى كانت القلوب عامرة بذكر الله والخوف والخشية منه والرغبة إليه، وكل ذلك للشعور بحاجة العبد إلى المغفرة والعفو، ولذلك أخبر عنهم بقوله- تَعَالَى-: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران، الآية:١٩١]، بعد أن تأمَّلوا في خلق الله وأعملوا فكرهم فيه- «والتفكر عبادة عظيمة، فقد روى ابن القاسم عن مالك- رحمهما الله تَعَالَى- أنه قيل لأم الدرداء، ما كان شأن أبي الدرداء، قالت: كان أكثر شأنه التفكر، قيل له: أترى التفكر عملًا من الأعمال؟ قال: نعم؛ هو اليقين»[٢] .

---

(١) التحرير والتنوير: ١٨٣/٢٤.

(٢) التحرير والتنوير: ١٩٦/٤-١٩٧.

ومن ثم فلا دعاء بالمفهوم الشرعي المعتبر إلا إذا تواطأ اللسان والقلب والفكر لإنتاج الدعاء الجامع بين الظاهر والباطن، فيكون الدعاء حينئذ محسوبًا في العبادات.

وكل من اتبع هواه وشهوته، وتوانى في طاعته، ثم مضى يسأله- عَزَّ وَجَلَّ- فأدعيته جوفاء نصيبها من العبد لسانه، وهو من قبيل من تحدث في شأنهم الحديث، فقد روى أبو هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي ﷺ أنه قال: «أيها الناس إن اللّه طيب لا يقبل إلا طيبًا وإن اللّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: الآية:٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة، الآية:١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له[(١)] .

* ومن المظاهر العامة- أيضًا-: إصلاح ذات البين: من ذلك ما أخبر به الرسول ﷺ عن الإصلاح بين المتخاصمين فيما رواه أبو الدرداء- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حيث يقول: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والقيام؟ قالوا بلى يا رسول اللّه، قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة»[(٢)] ، وقد فرّعه القرآن عن التقوى التي هي جماع الطاعات، فقال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال، الآية:١]، فكان أمرًا موجبًا لإصلاح ذات البين، وليس يسيرًا أن ينال الإصلاح أفضلية أسمى من الصيام والقيام إلا إذا كانت أبعاده خطيرة، وكيف لا وهو الجامع للشمل، اللام للشتات، المقوي للصف، العاصم من الفشل وذهاب القوة، ومن ثم اعتبر المصلح وهو يمارس الإصلاح عابدًا للّه متقربًا إليه، «وجعل ذلك من مقومات

---

(١) صحيح مسلم: ٣/٨٥-٨٦ (كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها).

(٢) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٧/٢٧٥ (كتاب الصلح، ذكر الأخبار عما يجب على المرء من لزوم إصلاح ذات البين بين المسلمين).

الإيمان الكامل »[١] .

* ومن مظاهرها إماطة الأذى عن الطريق، وهو ما تحدث به رسول اللَّه ﷺ فيما رواه أبو هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال- ﷺ-: « بينما رجل يمشي بطريق، وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر اللَّه له فغفر له »[٢] ، وعنه- أيضًا- عن النبي ﷺ: « يميط الأذى عن الطريق صدقة »[٣] ، وتجلي العبادة في مثل هذا التصرف؛ لأن الفاعل « تسبب إلى سلامة من يمر به من الأذى، فكأنه تصدق عليه بذلك فحصل له أجر الصدقة »[٤] ، ولا يخفى ما فيه من تحقيق الإيمان وذلك بحب الخير للآخر، ومن ها هنا احتُسِبَتْ إماطة الأذى من شُعَب الإيمان كما نَطَقَتْ بذلك الأحاديث.

* ومن مظاهرها- أيضًا- عيادة المريض وصلة الإخوان، ففي الترمذي عن أبي هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « من عاد مريضًا أو زار أخًا له في اللَّه، ناداه مناد أن طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلًا »[٥] ، فلم يبق نيل المنازل في الجنات والظفر بالمكرمات موقوفًا على إتيان الشعائر المشهورات، بل فاق ذلك ليشمل بذل الصلات لتوثيق عرى المحبات وإدخال المسرة على من حلَّتْ بهم النكبات.

* ومن مظاهرها - أيضًا - هذا الاسترزاق الذي يمارسه العبد، فهو عمل معدود في العبادات، ولقد وجدنا القرآن يخلع عليه تسمية جميلة توحي برضا اللَّه على الساعي

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٤٧/٩ بتصرف يسير.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١١٨/٥ (كتاب المظالم، باب ما أخذ الغصن وما يؤذي الناس في الطريق فرمى به).

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١١٤/٥ (كتاب المظالم، باب إماطة الأذى).

(٤) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١١٤/٥ (كتاب المظالم، باب إماطة الأذى).

(٥) سنن الترمذي: ٢٤٦/٣ (أبواب الصلة والبر، باب ما جاء في زيارة الإخوان)، وانظر سنن ابن ماجة ٤٦٤/١ (كتاب الجنائز، باب ما جاء في ثواب من عاد مريضًا).

فيسميه الحق الابتغاء من فضل الله، قال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة، الآية:١٠]، بل ونجد الضارب في الأرض لأجل الاكتساب قد رفعه الله مقامًا عليًا حيث يجعله هو والمجاهد سواء، قال- تَعَالَى-: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل، الآية:٢٠]، وذلك- والله أعلم- لما للفريقين من الإسهام في الصالح العام، فذاك في مجال الأشغال التي تدعو إليها ضرورة العيش من تجارة وصناعة وحراثة وغير ذلك، وهذا في حراسة الثغور والرباط بها وما يرجع إلى نشر دعوة الإسلام، وهما من شئون الأمة ولذلك سوّى بينهما فنوه بالمكتسب، وقد روي عن عبد الله بن مسعود- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قال: «أيما رجل جلب شيئًا إلى مدينة من مدائن المسلمين محتسبًا فباعه بسعر يومه، كان له عند الله منزلة الشهداء وقرأ: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1] [المزمل، الآية:٢٠]، على أن هذه المنقبة التي حيزت للمكتسب لا ينالها حتى يعصم عمله ذلك مما من شأنه أن يصيره دنيويًّا صرفًا، ومن هذه الشروط العامة.

* أن يكون العمل مشروعًا.

* أن يكون مقرونًا بنية صادقة تثمر القصد إلى نفع المجتمع وعمارة الأرض.

* أن يكون العمل متقنًا- وهو المكتوب في كل شيء- فعن شداد بن أوس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: إن الله كتب الإحسان على كل شيء. الحديث[2] .

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ٢٩/٢٨٥-٢٨٦ بتصرف.

(٢) صحيح مسلم ٦/٧٢ (كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح).

* ألا يزاحم ذلك العمل الواجبات الدينية الأخرى فيشغل صاحبها عنها أو يبطئه عن القيام بها[١] .

فمتى تحصن طلب المعاش بهذه الشروط، عُدَّ عبادة واعتبر عامله من العابدين.

وحسبي أن أكون قد أدرجتُ في هذه المظاهر العبادية أمثلة جَمَعَتْ بين أعمال القلوب والجوارح كما أنها حَوَتْ من المظاهر ما يعود على العبد نفسه وما يعود على محيطه.

* * *

(١) انظر العبادة في الإسلام، ص: ٦١- ٦٢، بتصرف.

المبحث السادس :

المثل الأعلى في العبادة

لقد أتى علينا حين رأينا فيه كيف أن هذا الكتاب يروم في دعوته إلى إخراج الإنسان النموذج، الإنسان الفذ، الإنسان السوي.

ومتى نبتت هذه العينة في أرضية المجتمعات، أثمرت التواصي بالحق المنطوق به في سورة العصر المحقق لديمومة الدين.

والإخراج على هذا النمط يستلزم بناء الإنسان بنيانا ربانيا يتجلى ذلك في خلقه وروحه وفكره، وكل هذه الأصول كائنة في تلك الزمرة المصطفاة من عباده المرسلين؛ إذ أُلْهِمُوا كيف يسلكون السبيل الموصلة إلى اللَّه؛ لذلك فهم أعلام وأئمة وهداة يقتدى بهم ويهتدي بهداهم.

وبحسب الناظر في آيات اللَّه المسطورة أن يستعرض منها ما يوقفه في مضامينها على مناقب هؤلاء وفضائلهم؛ وقوتهم في دين اللَّه، وعبادتهم التي لا تضاهى.

كل ذلك والحق- تَعَالَى- يخلع عليهم ألقابا خُصُّوا بها وبوأتهم مكانًا عليًا إعلامًا لعباده أنهم الأسوة.

* فينعتهم مرة بالمصطفين الأخيار فيقول- عَزَّ وَجلَّ-: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص، الآيات:٤٥-٤٨]، فتمعن في قوله: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾؛ لتقف على أنه «علة للأمر بذكرهم؛ لأن ذكرهم يكسب الذاكر

الاقتداء بهم في إخلاصهم ورجاء الفوز بما فازوا به من الاصطفاء والأفضلية في الخير»[١]، كما أن في «إسناد الإخلاص إلى الله- تَعَالَى- ما يدل على أن ذلك بجعل منه خاص به وعناية لَدُنِّية بحيث تنزع من النفس غلبة الهوى في كل حال وتصرف النفس إلى الخير المحض»[٢]، ومرة ينعتهم بكونهم عابدين لربهم ومن ذلك ما ورد في سورة: «الأنبياء» بعد أن أتى على ذكر طائفة منهم، فقال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء، الآيتان: ٧٣]، وأي جعل أشرف من جعلهم أئمة يقتدى بهم في الدين، فهي المنزلة التي لا يرقى إليها إلا من كان حظه من صفا النفس عظيمًا إلى درجة تصير الهداية محتومة عليه كما قال في الكشاف- عند التعرّض لتفسير هذه الآيات-: «فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله، فالهداية محتومة عليه مأمور بها من جهة الله ليس له أن يخلَّ بها ويتثاقل عنها»[٣]؛ ولذلك فهم سبّاقون في فعل الخيرات التي خصَّ منها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة تنويها بشأن هاتين العبادتين وتعظيمًا لوظيفتهما التي تزكي النفس ظاهرًا وباطنًا.

* ومما وُصِفُوا به- أيضًا- صفة الإحسان التي تدل على ارتقائهم في العبودية، قال- تَعَالَى- في حق نوح- عليه السلام-: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الصافات، الآيتان: ٧٩-٨٠]، وفي حق إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات، الآيتان: ١٠٩-١١٠]، وفي حق يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف، الآية:٢٢]، وفي حق موسى وهارون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ﴾ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات، الآيتان:١٢٠-١٢١]، وهكذا يُثْني- سبحانه- على أنبيائه بهذا الوصف الذي «هو الإيمان الخالص المفسر في قوله ﷺ: الإحسان أن تعبد الله كأنك

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٧٦/٢٣.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٧٦/٢٣.

(٣) الكشاف: ٥٧٨/٢- ٥٧٩.

تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[١] .

وعن رسول الله ﷺ الذي تحدث عن نفسه، فقال: « أما والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له »[٢] ، يتحدث القرآن- أيضًا- فيقول- تعالى-: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم، الآية:٤]، قال ابن عاشور- رحمه الله-: « واعلم أن جماع الخلق العظيم الذي هو أعلى الخلق الحسن، هو التدين ومعرفة الحقائق وحلم النفس والعدل والصبر على المتاعب والاعتراف للمحسن والتواضع والزهد والعفة والجود والحياء والشجاعة وحسن الصمت والتؤدة والوقار والرحمة وحسن المعاملة والمعاشرة.

وأما مظاهرها في رسول الله ﷺ ففي ذلك كله وفي سياسته أمته وفيما خُصَّ به من فصاحة كلامه وجوامع كَلِمه[٣] ، والآية تبين في رسول الله ﷺ تلك السجية المنعوتة بالعظمة التي أُرِيدَ منها- والله أعلم- أن تسير أمته على منهاجه وأن تروم التشبه به في عبادته؛ لأنه النموذج الأكمل.

وحسبنا أن نقف عنده لننظر عبديته على مستوى العقيدة والممارسة.

* أما على مستوى العقيدة، فلقد ترسم ﷺ خطى إخوته الأنبياء والرسل الذين أعلنوا عبديتهم وأنكروا ذواتهم فأفصحوا عن ذلك بلسان الحال والمقال، فهذا عيسى- عليه السلام- يعلن كذب من كفر من النصارى، وذلك في قوله- تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١١٦ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ

---

(١) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٥١٣/٨ (كتاب التفسير، باب إن الله عنده علم الساعة) وصحيح مسلم (كتاب الإيمان) وانظر التحرير والتنوير: ٢٧٧/٢٣.

(٢) انظر صحيح مسلم ١٣٧/٣ (كتاب الصيام، باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته).

(٣) التحرير والتنوير: ٦٤/٢٩- ٦٥.

أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة، الآية:١١٦،١١٧]، فتضمنت هذه الجمل تنزيه اللَّه- تَعَالَى- عن مضمون تلك المقالة، وكانت المبادرة بتنزيه اللَّه أهم من تبرئته نفسه من أن يرقى إلى مقام الإلهية، وتمَّ التنصيص على عبديته- عليه السلام- في قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء، الآية:١٧٢]، وفي قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ فجعل غايته العبدية لا الإلهية كما يدعيه النصارى. وعن داود يقول- تَعَالَى-: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص، الآية:١٧]، وعن أيوب قال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص، الآية:٤١]، وعن إبراهيم قال: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [ص، الآية:٢٥]، وعن سليمان قال: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص، الآية:٣٠].

وعن رسول اللَّه ﷺ يتحدث الكتاب فيصفه بالعبدية في مقامات شتى، قال- تَعَالَى-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف، الآية:١]، فذكره بالعبدية في مقام إنزال الكتاب عليه، وقال- تَعَالَى-: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن، الآية:١٩]، فذكره بالعبدية في مقام الدعوة، وفي مقام الإسراء- الذي أريد به التشريف والمواساة- قال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء، الآية:١].

بل قد ألفينا من النصوص الحديثية، ما دلَّ على أنه ﷺ كان يجتهد في تحقيق عبديته معربًا عن ذلك بلسانه، فعن ابن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- سمع عمر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يقول على المنبر: «سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد اللَّه ورسوله»[1] ، وذلك حتى لا تقع أمته فيما وقع فيه النصارى من قبل.

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٤٧٨/٦ (كتاب الأنبياء، باب قول اللَّه: واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من اهلها...).

* وأما على مستوى العبادة والممارسة للشعائر الشاهدة على العبدية والطاعة والخضوع فإن أول ما يطالعنا- قبل الشروع فيها- ذلك النداء الذي ناداه الرسول ﷺ في قومه- بإذن من ربه- قائلًا له: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]، إنها المفاصلة التامة والمتاركة المعلنة من قبله ﷺ الدالة على تيئيس أولئك من أن « يوافقهم في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في الحال والاستقبال »[١] ، وهذا الثبات على المبدإ إيذان في السير على الهدى وطاعة لقوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود، الآية:١١٢]، فكانت الثمرة أن رأينا النبي ﷺ نموذجًا في الاستقامة في المنشط والمكره وهي النصيحة التي أسداها للسائل حين سأله قائلًا: يا رسول اللّٰه! قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: قل آمنتُ باللّٰه ثم استقم[٢] .

لقد كان ﷺ الأول في كل أمر، في عبادته، في ذكره، في دعائه، ولم تكن هذه العبادة مجرد امتثال لأمر، بل كانت تنبعث من قلب محب لمعبوده، حتى إنه إذا اقترب وقت الصلاة تشوّق إليها وحنَّ، وما أن يحين وقتها حتى يقول لمؤذنه: « يا بلال أرحنا بالصلاة »[٣] ، إنها صلاة الحب لا مجرد صلاة الأمر؛ لذلك كان يجد فيها نفسه وقرة عينه، عن أنس- رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ- قال: قال ﷺ : « حُبِّبَ إليَّ من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة »[٤] .

---

(١) التحرير والتنوير: ٥٨٠/٣٠.
(٢) صحيح مسلم: ٤٧/١ (كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام).
(٣) مسند أحمد ٣٦٤/٥.
(٤) سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي وحاشية الإمام السندي ٦١/٧ (كتاب عشرة النساء، باب حب النساء)، وانظر مسند أحمد ١٢٨/٣و ١٩٩.

كان يصلي الصلوات الخمس في ميقاتها بخشوعها وركوعها وسجودها وإسباغ وضوئها، وما كان يكتفي بها، بل كانت له صلوات يصليها من الليل يقف ويطيل فيها الوقوف حتى تتورم قدماه، فعن حذيفة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: «صليتُ مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مسترسلًا، إذا مر بآية فيها تسبيح، سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوَّذَ، ثم ركع فجعل يقول سبحان ربي العظيم فكان ركوعه نحوا من قيامه، ثم قال: سمع اللَّه لمن حمده ربنا لك الحمد، ثم قام طويلًا قريبًا مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى فكان سجوده قريبًا من قيامه»[1] ، ولقد كان من أصحابه من هو أصغر منه سنًّا ثم لا يطيقون مثل هذه الصلوات حتى إن عبد اللَّه بن مسعود- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حدَّث مرة، فقال: «صليتُ مع النبي ﷺ ليلة، فلم يزل قائمًا حتىهممتُ بأمر سوء، قيل: ما هممتَ؟ قال: هممتُ أن أجلس وأدعه»[2] ، وحين سألته عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- مشفقة عليه من طول القيام- لم تصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدا شكورًا[3] ، هكذا كانت صلاته فرضًا ونفلًا أما صيامه، فكان إذا أقبل شهر الصيام، دارسه جبريل القرآن فكان أجود بالخير من الريح المرسلة.

أما إذا دخلت العشر الأواخر شد مئزره وأحيى ليله وأيقظ أهله.

واعتكف في المسجد معتزلًا- عزلة مؤقتة- شواغل الحياة تعبدًا للَّه- تَعَالَى-، وفي هذه العشر يحيى الليل كله ويوقظ أهله لأجل أن يشاركنه هذا المغنم، روت أم سلمة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أنه استيقظ ليلة فقال: سبحان اللَّه ماذا أنزل الليلة من الفتنة، ماذا

(١) صحيح مسلم ١٨٦/٢ (كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل).
(٢) صحيح مسلم ١٨٦/٢ (كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل).
(٣) متفق عليه.

أنزل من الخزائن، من يوقظ صواحب الحجرات؟ يا رُبَّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة[١] .

وفي غير رمضان كان النبي ﷺ يصوم حتى يقال: لا يفطر، ويفطر حتى يقال: لا يصوم، وأحيانًا يواصل الصيام، وينهى أصحابه عن الوصال رفقًا بهم فيقولون: إنك تواصل يا رسول الله، فيقول: «وأيكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني»[٢] .

هذه لمحة عن الرسول ﷺ عابدًا لربه، وإن في الحديث عن هذا الجانب الرباني من سيرته - جانب الذكر والشكر وحسن العبادة - الشيء الكثير وصدق الله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب، الآية:٢١].

* * *

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٠/٣ (كتاب التهجد، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب).

(٢) متفق عليه.

المبحث السابع :

من ثمرات العبادة

المطلب الأول :

التقــوى

لا ريب أن التقوى من أعظم مقاصد العبادة؛ إذ بها يقدر المكلف على حجب نفسه عن وقوعها في أتون المعاصي، كما أنها تعتبر الحافز للنفس على التحرر من الخلود إلى الأرض، والسمو في علياء أفعال البر بشتى الصور والمظاهر.

فمدار الأعمال على زاد التقوى، فمتى كان مردود العبادة من التقوى هزيلا، كان القصد الذي من أجله شُرِعَتْ هذه العبادة لم يتحقق، ومن ثم تكون العبادة وكأنها لم تمارس قط.

ولنتأمل قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت، الآية:٤٥]؛ فتعليل الأمر بإقامة الصلاة للإشارة إلى ما فيها من صلاح النفس، لأنها تيسر للمصلي ترك الفحشاء والمنكر لما فيها من أقوال وأفعال من شأنها أن تكون للمصلي كالواعظ المذكر باللَّه- تَعَالَى-: «ففيها من الأقوال تكبير للَّه وتحميده وتسبيحه والتوجه إليه بالدعاء والاستغفار وقراءة فاتحة الكتاب المشتملة على التحميد والثناء على اللَّه والاعتراف بالعبودية له وطلب الإعانة والهداية منه واجتناب ما يغضبه وما هو ضلال، وكلها تذكر للتعرض إلى مرضاة اللَّه

والإقلاع عن عصيانه، وما يفضي إلى غضبه، وكل ذلك مما يصدُّ عن الفحشاء والمنكر»[١] ، قال ابن عطية- رحمه الله- مبرزًا القيود التي تحيل الصلاة إلى تقوى-: «وذلك عندي بأن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات وتذكر الله، صلحت بذلك نفسه وخامرها ارتقاب الله فاطرد ذلك في أقواله وأعماله وانتهى عن الفحشاء والمنكر، ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حاله، فهذا معنى هذا الإخبار، لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون... ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل، فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان، فإن كان على طريقة معاصي تبعده من الله، تتركه صلاته يتمادى على بعده»[٢] ، فليس القصد- إذًا- من العبادة أشباحها وإنما روحها المتجسد في الإخبات والتذلل والخضوع بين يدي الله- عَزَّ وَجَلَّ-، وهي الحقيقة التي حدثنا بها رسول الهدى، حين قال- عليه الصلاة والسلام-: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[٣] ، «فالصوم وسيلة إلى الطاعات وزجر عن المعاصي»[٤] فليس المقصود من شرعية الصوم نفس الجوع والعطش، بل ما يتبعه من كسر الشهوات وتطويع النفس الأمارة بالسوء، وهو ما بينته الآية في قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة، الآية:١٨٣]، وقريب من هذا قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج، الآية:٣٧]، «فإراقة الدماء وتقطيع اللحوم ليسا مقصودين بالتعبد، ولكنهما وسيلة لنفع الناس بالهدايا الذي هومن مقاصد

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٠/٢٥٩.

(٢) المحرر الوجيز: ١٢/٢٢٥، ولعل تعبيره بلفظ الإجزاء وعدم الاعتداد بالخشوع، إنما هو من قبيل التجوز إذ إن صحة الصلاة تقتضي إشراك الخشوع بلا ريب.

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٤/١١٦ (كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم).

(٤) أنوار التنزيل: ١/٢١٥.

الشرع »[1] فمتى لم تنتج العبادة التقوى، ظلت في عداد العادات وهو ما تفسره سلوك بعض الأفراد. وما قيل في هذه العبادات المذكورات يقال في جميعها؛ إذ الأمر عام لا يقتصر على صلاة ولا صوم ولا نسك.

* * *

(١) التحرير والتنوير: ٢٦٧/١٧.

المطلب الثاني :

الحصانة الربانية من الشيطان الرجيم

لا يزال هَمُّ الشيطان الإيقاع بالمكلف في الفحشاء والمنكر، قال- تَعَالَى- ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة، الآية:١٦٩]، وقال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النور، الآية:٢١]، فبوسوسته بخواطر شَرِّية واتصاله بالنفس البشرية يقذف فيها السوء والفحشاء.

ومتى أرسل العبد المكلف نفسه في اتباع هذه الخواطر ولم يردعها فيصدها عما تريد أن تعبد من دون اللَّه، انقادت هذه النفس وصارت مركوب الشيطان ترى حسنا ما ليس بالحسن.

ورحمة بالعبد، أودع اللَّه فيه العقل المميز، والقدرة والإرادة، وكمل ذلك كله بالهدي الديني قال- تَعَالَى-: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن، الآية:١١]، يهد قلبه بالهدى الكامل؛ إذ هو هدى متلقى من الحق، فهو عصمة لمن اعتصم به، وهو عون على قهر النفس عن حظوظ الشيطان.

فلا وسيلة للحفظ إلا بالعبادة الخالصة، العبادة الخالية من كل حظ سوى حظه- تَعَالَى- فهي الجنة والوقاية من مكائد اللعين.

وحين أقسم على الإغواء والتزيين كما حكاه القرآن في قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، الآية:٨٢]، وقال- تَعَالَى-: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر، الآية:٣٩]، أردف ذلك بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص، الآية:٨٣]، وهم الذين شُرِّفوا بقوله- تَعَالَى-:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر، الآية:٤٢]، الذين كبحوا أنفسهم عن الشر، وأيقنوا أن الهدى في مخالفة سبيل الشيطان، فحملوها على اختيار هذا الهدى، وصرفوا إليه عزمهم القوي، ومن ثم لم يكن الشيطان ليتسلط عليهم؛ لأنهم غدوا مخلصين، مطهرين، مهيئين لفعل الخيرات، قال الإمام الغزالي- رحمه اللَّه-: «ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى، وجد الشيطان مجالًا فوسوس، ومهما انصرف إلى ذكر اللَّه- تَعَالَى-، ارتحل الشيطان، وضاق مجاله، وأقبل الملك وألهم. ومبدأ استيلائها- أي الشياطين- اتباع الشهوات والهوى، ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان، وهو الهوى والشهوات، وعمارته بذكر اللَّه- تَعَالَى- الذي هو مطرح أثر الملائكة.. فكل من اتبع الهوى، فهو عبد الهوى لا عبد اللَّه؛ ولذلك يسلط اللَّه عليه الشيطان ولا يمحو وسوسته من القلب إلا ذكر ما سوى ما يوسوس به»[1] .

* * *

(١) إحياء علوم الدين: ٣/٢٨.

المطلب الثالث :

الاستخلاف والتمكين والأمن

وهي من الوعد الذي وعد الله به عباده الصالحين.

والأساس في كفالة الله لهم ذلك، هو العبادة، ومن ثم تطالعنا كثير من الآيات التي تنطق بالموعود من رقي في هذه الحياة الدنيا وتمكين لهم فيها ما استقاموا على منهجه وتمحوروا حول الإسلام وعقيدته.

قال الله- تَعَالَى-: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور، الآية:٥٥].

وأحسب أن هذه الآية العظيمة تشكل نقطة التقاء بين سياسة الدنيا وحراسة الدين- وهو المفهوم الجامع للعبادة- وإن فعجب لأولئك المفسرين الذين ضيقوا مسالك الآية فأوقفوها على زمان بعينه وأشخاص بأعيانهم[(١)] ، والأمر أجلّ وأعظم، ولله دَرّ ابن عطية الذي عمم الآية في محرّره، حيث قال: «هذه الآية عامة لأمة محمد ﷺ»[(٢)] ؛ إذ إنها تحمل في ثناياها عناصر تشكيل أمة بارزة، أمة عليها لبوس الخيرية الموعودة مع بيان الترياق المؤثر من أجل هذا الإخراج؛ المتمثل في إخلاص العبادة لله وحده- إذ الوعد الذي وعد الله به، يجري في حال عبادتهم إياه- «العبادة

---

(١) انظر على سبيل المثال ما ذكره ابن العربي -رحمه الله- في كتابه: الأحكام ١٣٩٣/٣، وما نقل ابن عطية في المحرر الوجيز عن الضحاك ٣٢١/١١، وما نقله -أيضًا- صاحب التحرير والتنوير ٢٨٥/١٨.

(٢) المحرر الوجيز: ٣٢١/١١.

التي تستغرق الإنسان كله بخواطر نفسه، وخلجات قلبه، وأشواق روحه، وميول فطرته وحركات جسمه، ولفتات جوارحه وسلوكه مع ربه، في أهله والناس أجمعين.

يتوجه بهذا كله إلى اللّٰه... وذلك هو المتمثل في قوله- تَعَالَى- تعليلًا للاستخلاف والتمكين والأمن: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور، الآية:٥٥]، والشرك مداخل وألوان، والتوجه إلى غير اللّٰه بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك باللّٰه[١] .

هذا الجزاء الذي تجلى في مجموعة من العناصر المكونة لإخراج الأمة المرتقبة ومنها:

أ- الاستخلاف في الأرض: وحقيقة الاستخلاف «لا تعني مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم، إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء وتحقيق المنهج المرسوم للبشرية من قبل اللّٰه كي تسير عليه، وتصل عبره إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخليقة أكرمها اللّٰه ... فالاستخلاف- إذًا- قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارك الحيوان»[٢] .

ب- النصرة والتمكين: لأن بانتشار الإسلام- وهو الذي يلزم من الاستخلاف- يترسخ ويثبت، ولا يخشى عليه بعد ذلك، فيصير المهيمن على الأرض بما أودع فيه من أمر بالإصلاح وأمر بالعدل وأمر بالاستعلاء عن كل الشهوات.

فيعظم سواد متبعيه لموائمته للفطر، وحينها لن يجد الخارجون عنه إلا الاستسلام طوعًا أو كرهًا، فتغدوا كلمة اللّٰه هي العليا وكلمة من أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم السفلى.

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٥٢٨/٤، ٢٥٢٩.

(٢) في ظلال القرآن: ٢٥٢٩/٤ بتصرف يسير.

ج- **إحلال الأمن والطمأنينة في القلوب**: وهذا العنصر ثالث الثلاثة المؤسّسة لسعادة الأمم بلا ريب، ومتى تغيب لم تظفر إلا بنكد حياة واضطراب أحوال وإنذار بالزوال، لذلك كان الأمن وكأنه التاج المزين لهذا الظهور، ولا يزال- سبحانه- يَمْتَنُّ على عباده بهذه النعمة مبرزا أسباب منحها لعباده وأسباب إمساكها عنهم، فيقول- تَعَالَى-: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل، الآية:١١٢]، فكان صنيعهم ذلك المتجسد في الكفر بالنعم الناجم عنه الإفساد، هو سبب انقلاب حالهم من الدعة وهدوء البال والأمن على الأبدان والأنفس إلى الخوف وزوال الطمأنينة، ولو أنهم آمنوا واتقوا وعبدوا اللَّه- كما أمر- حق العبادة، لما حل بهم ما ذكر، ولكنهم نسوا حظًّا مما ذكروا به.

ونظير هذا، قوله- تَعَالَى-: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش، الآيتان:٣،٤]، حيث يوجه الحق- سبحانه- تَعَالَى- تعليل الأمر بتوحيدهم له بخصوص نعمة الأمن: من الجوع ومن الخوف فهما أمنان من الأهمية بمكان؛ إذ بهما قوام بقائهم واستقرارهم.

* * *

المبحث الثامن :

دواعي الاستكبار عن عبادة اللَّه وعاقبة ذلك:

المطلب الأول :

من دواعي الاستكبار

١- الجهـل :

وهو الذي حسر بصائرهم أن يدركوا دلائل الوحدانية التي هي بمرأى منهم ومسمع، فكان حظهم- لجهالتهم- أن تدلوا في حضيض عبادة الأصنام قال اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- حاكيًا جهل القوم إلى درجة أن أطمعهم في صرف النبي ﷺ عن عبادة اللَّه- قل لهم: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر، الآية: ٦٤]، فنعتهم بالجهل المطلق؛ لأنه صار لهم سجية وطبعًا، لا يفقهون شيئًا، فهم جاهلون بما أفادته الدلائل من الوحدانية التي لو علموها لما أشركوا، ولما دعوا النبي إلى اتباع شركهم.

* كما أن المقولة وردت على سبيل الإنكار؛ لذلك عَرَّض بهم لحسبانهم أن عبادة اللَّه وحده تحتمل المساومة(١) .

ويكشف القرآن عن مأتى هذا الخلل، فيقول- تَعَالَى-: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر، الآية:٦٧]، فأنى لهم أن يعبدوه حق عبادته ولما يقدروه حق قدره؟ وأنى لهم أن يوحدوه ويعظموه ولما يستشعروا جلاله وقوته؟

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ٥٦/٢٤.

فمأتى عماهم هو جهلهم بربهم إلى أن أشركوا به ذلك الإشراك المبتكر زيادة في التقرب إلى الله- على حد زعمهم- لأنهم هم القائلون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر، الآية:٣].

٢- اتباع الهوى :

وما اتباع الهوى وما تسوّله الأنفس دون طلب للحق وتفهم للدلائل ما ذلك إلا لون من ألوان الجهل إلى أن غدا الأمر من الموروثات، يتوارثه القوم خلفًا عن سلف، قال- تعالَى-: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة، الآية:٨٧]، « فعجيبًا من طغيان القوم وإبايتهم لدعوة الرسل، ومقابلتهم جميع الرسل في جميع الأزمان بمقابلة واحدة يتساوى فيها الخلف والسلف، مما دلَّ على استحكام الهوى في الأنفس، ومن ثم انحدارهم في الخلاعة والتصميم على الضلالة[1] . ومرد ذلك كله، منآهم عن العلم، قال- تعالَى-: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم، الآية:٢٩]، فعزا ذلك الاتباع إلى غياب المعرفة، فصار الأمر شناعة؛ إذ إنه شهوة مع جهالة[2] .

ويلاحق القرآن المتبعين لأهوائهم وما تمليه إرادتهم من ميل إلى الفساد، فيخبر عنهم أنهم أضلُّ الخلق، قال- تعالَى-: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص، الآية:٥٠] وهو الحق، فلا أحد أشد عماية وضلالًا من الذين ركبوا سبيل الهوى والشهوة ورغبوا عن سمت الحق حتى إن حالهم تناهى لأن ينقلب هذا الهوى المتبع إليها. قال- تعالَى-: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية، الآية:٢٣]، وهي حال تنبئ عن كونهم أُشْرِبُوا في قلوبهم الهوى بسبب جهلهم وكبريائهم.

(١) التحرير والتنوير: ٥٩٥/١ بتصرف.

(٢) انظر التحرير والتنوير: ٨٨/٢١.

٣- التقليد الأعمى :

ويستخلص من خلال ذلك الرفض العنيف والإباية القوية لقبول دعوات الرسل التي لم تجد سوى أجوبة فيها ما ينبئ عن ضياع صوت الدعوة في جنب ضلالة عقول ومكابرة نفوس هؤلاء، فعن هود وقومه يقول- تعالَى-: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ ﴿لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف، الآية: ٧٠]، وعن شعيب وجواب قومه له يقول: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ [هود، الآية:٨٧]، كما يخبرنا عن صالح وقومه فيقول: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [هود، الآيات: ٦١،٦٢]، ثم يحكي القرآن الكريم حال النبي ﷺ وقومه وذلك في مثل قوله- سبحانه-: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [سبأ، الآية:٤٣].

فالردود كلها مبتدرة بالإنكار، بل التوبيخ، وهي من الأغراض التي تَوَخّوهَا في محاوراتهم ومناوراتهم حتى يثبتوا للرسل إرادة صدهم عن دين الآباء والأجداد، وقصدهم من ذلك إثارة الحمية في بعضهم البعض؛ إذ جعلوا آباءهم أهل الرأي السديد فلا يرون إلا حقا، ولا يفعلون إلا صوابًا، فلا جرم أن يكون الصادون عن طريقهم يحاولون الباطل والكذب- في زعمهم-[١] ، قال ابن عاشور- رحمه الله- عند تفسير قوله- تعَالَى-: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أن فعل «كان» إشارة إلى أنهم عنوا أن تلك عبادة قديمة، وفي ذلك إلهاب لقلوب قومهم، وإيغار لصدورهم ليتألبوا على الرسول ﷺ ويزداد تمسكًا بدينهم[٢] .

(١) انظر التحرير والتنوير: ٢٢٦/٢٢.
(٢) انظر التحرير والتنوير: ٢٢٦/٢٢.

٤- الطبع على القلوب :

وهو المعبر عنه في القرآن بقوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الأعراف، الآية:١٤٦]؛ وذلك لأن الكِبْرَ صار جبلة أرداهم في الإعراض عن الآيات البينات، وكان هذا الإعراض منهم كأنه صرف تكويني في نفوسهم فَرِينَ على قلوبهم بذلك، قال الحسن- رحمه اللَّه-: «إن من الكفار من يبالغ في كفره وينتهي إلى حد إذا وصل إليه، مات قلبه»[١] ، وقال ابن جرير- رحمه اللَّه-: وقد عمَّ الخبر أنه سيصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحق، وهم الذين حقَّت عليهم كلمة اللَّه أنهم لا يؤمنون، فهم عن فهم جميع آياته والاعتبار بها مصروفون؛ لأنهم لو وُفِّقُوا لفهم ذلك، فهدوا إلى الاعتبار به، اتعظوا وأنابوا إلى الحق، وذلك غير كائن منهم؛ لأنه- جلَّ ثناؤه- قال: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ [الأعراف، الآية:١٤٦]، فلا تبديل لكلمات اللَّه[٢] ، «فهو حتم منه- تَعَالَى- على هذه الطائفة، وذلك بسبب كفرهم، وغفلتهم عن النظر في الآيات والوقوف عند الحجج»[٣] .

* * *

(١) التحرير والتنوير: ٢٢/٢٢٦.
(٢) جامع البيان: ٩/٦٠.
(٣) المحرر الوجيز: ٧/١٦٢.

المطلب الثاني :

عاقبة الذين استكبروا

فمتى جعل الإنسان نفسه كبيرة فوق ما هي عليه غرورًا وإعجابًا، وحملها بذلك على غمط حق الله وترفع من فعل هذا بنفسه، فالعذاب أحق به والنار أولى به؛ لأنه عدا قدره قال- تَعَالَى-: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء، الآية:١٧٢]، وقال- تَعَالَى-: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء، الآية:١٧٣]، وقال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف، الآية:٤٠]، وقال- تَعَالَى-: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف، الآية:٢٠].

والمتأمل لآيات الجزاء المعد لمن أعرض عن عبادته- تَعَالَى-، سيلاحظ أن من مكوناته الحشر المنبئ بالتخويف والبراءة منه وخذلانه والعذاب الأليم الدائم.

* * *

المبحث التاسع :

ما يمكن أن يتفرع عن الكلية

القاعدة الأولى : ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ ﴿شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: الآيتين، ١٦٤،١٦٥].

المطلب الأول :

بعض مظان ورودها في القرآن

* قوله- تعالى-: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة، الآية:٥].

* قوله- تعالى-: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ۝١٣٨﴾ [البقرة، الآية:١٣٨].

* قوله- تعالى-: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ۝١٣٩﴾ [البقرة، الآية:١٣٩].

* قوله- تعالى-: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝١٤٥ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٤٦﴾ [النساء، الآيتان: ١٤٥-١٤٦].

* قوله- تعالى-: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف، الآية:٢٩].

* قوله- تعالى-: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢)﴾ [يونس، الآية:٢٢].

* قوله- تعالى-: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر، الآية:٣٩-٤٠].

* قوله- تعالى-: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١)﴾ [القصص، الآية:٩١].

* قوله- تعالى-: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت، الآية:١٧].

* قوله- تعالى-: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [العنكبوت، الآية:٥٦].

* قوله- تعالى-: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم، الآية:٣٠].

* قوله- تعالى-: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الروم، الآية:٤٣].

* قوله- تعالى-: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان، الآية:٢٢].

* قوله- تعالى-: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس، الآيتان: ٦٠، ٦١].

* قوله- تعالى-: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ [الزمر، الآية: ٢، ٣].

* قوله- تعالى-: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر، الآية: ١١، ١٢].

* قوله- تعالى-: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ﴾ [الزمر، الآيتان: ١٤، ١٥].

* قوله- تعالى-: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر، الآية: ٦٦].

* قوله- تعالى-: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر، الآية: ١٤].

* قوله- تعالى-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة، الآية: ٥].

* * *

المطلب الثاني :

فقهها

والآية أمر من اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- أن يعلن ﷺ بأن مقصده في صلاته وطاعته من نسك وغيره، وتصرفه مدة حياته وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته، إنما هو اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- وإرادة وجهه، وطلب رضاه، وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة، ما يلزم المؤمنين التأسي به حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ-(١) .

* * *

(١) المحرر الوجيز: ١٩٢/٦.

المطلب الثالث :

قيمتها

فالمتأمل للآية القاعدة، يجدها مشتملة على عناصر مهمة، تبرز قيمتها التشريعية والعقدية على السواء.

ومن ذلك:

* تأسيسها لعنصر الإخلاص المنشئ للعبادة المقبولة، ويتم ذلك بالتجرد الكامل للَّه- كما نصت عليه- بكل خوالج القلب، في كل حركات الحياة. صلاةً ونسكًا ومحيًا ومماتًا «عند الشعائر التعبدية، في الحياة الواقعية وعند الممات ..»(١) .

وهذا هو الدين الخالص وإسلام الوجه له- تَعَالَى- الذي «يعتبر معدودًا في ضروريات الدين»(٢) ، فلا يكون العابد عابدًا حتى يحبس حياته طاعة للَّه وبذلا في سبيله «ويتحرى أن يموت ميتة راضية فلا يحرص على الحياة لذاتها، ولا يخاف الموت فيمنعه الخوف من الجهاد في سبيل اللَّه؛ لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإقامة ميزان العدل، والأخذ على أيدي أهل الجور، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(٣) .

ومتى أخلَّ بهذا التوجه الرباني، أضحت أعماله في عداد التوافه بحسب ميزان اللَّه، والذي يستقري نصوص القرآن والسنة النبوية، يعلم أن هذا هو القصد الوحيد الذي ارتضاه الإسلام لقبول الأعمال، من ذلك قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة، الآية:٥].

---

(١) في ظلال القرآن: ١٢٤٠/٣.
(٢) انظر تفسير المنار: ٢٤٣/٨.
(٣) انظر تفسير المنار: ٢٤٤/٨.

قبولًا وردًّا على الإخلاص فتحقيق هذه القاعدة وسرها وضابطها، أن يعمل المأمور به والمقرب به إلى اللَّه- تَعَالَى-، ويقصد به وجه اللَّه- تَعَالَى-، وإلا عُدَّ مرائيًا يروم بعمله تعظيم الناس له وجلب منافعهم ودرء مفاسدهم[١] ؛ لذلك اعتنى العلماء في تعريفاتهم للإخلاص بإبراز هذا القصد العبادي من خلالها.

ومن مثل ذلك ما قاله الراغب- رحمه اللَّه- في الإخلاص، قال: الإخلاص: التبري عن كل ما دون اللَّه- تَعَالَى-[٢] ، وقال سهل بن عبد اللَّه التستري: الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته للَّه- تَعَالَى- خاصة، وتعقبه الغزالي- رحمه اللَّه- بقوله: «وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض»[٣] ، وقال العز بن عبد السلام- رحمه اللَّه-: «الإخلاص: أن يفعل المكلف الطاعة خالصة للَّه وحده لا يريدها تعظيمًا من الناس ولا توقيرًا ولا جلب نفع ديني ولا دفع ضرر دنيوي»[٤] .

وقال في موضع آخر: «الإخلاص أن يقصد بطاعته وجه اللَّه، ولا يريد بها سواه فإن قَصدَ بها سواه كان مرائيًا سواء قصد الناس على انفرادهم أو قصد الرب والناس جميعًا»[٥] وقيل- أيضًا-: «الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين» وقيل: «الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن»[٦] ، وفي ضوء ما ذكر من التعريفات تظهر ضرورة الإخلاص وتنجلي رفعة شأنه في تنقية ما قد يشوب الأعمال ويزاحمها؛ لئلا تغدو معدودة في المنهي عنه من الشرك، قال- تَعَالَى-: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف، الآية: ١١٠]، وقال- تَعَالَى-: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء، الآية: ١٢٥].

---

(١) انظر الفروق: ٣/٢٢.

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ١٥٥-١٥٦.

(٣) إحياء علوم الدين: ٤/٣٨١.

(٤) قواعد الأحكام: ١/١٠٦.

(٥) قواعد الأحكام: ١/١٦٠

(٦) مدارج السالكين، ٢/٩١.

« فإسلام الوجه إخلاص القصد والعمل لله »[١] فلا عبادة- إذًا- إلا بحضور الإخلاص. ولذلك عد عند كثير من العلماء شرطًا لصحة الأعمال وقبولها، وممن نقل عنه هذا العز بن عبد السلام- رحمه الله-، حيث يقول: « إخلاص العبادة شرط »[٢]، ويرى صدّيق حسن خان- رحمه الله-: ألا خلاف في ذلك[٣] وعُدَّ عند بعضهم- كابن تيمية رحمه الله- من قبيل الفرض[٤] . واعتبره القرطبي- رحمه الله- واجبًا[٥]؛ ولذلك كان عجيبًا أن نجد بعض الأحناف يذهبون إلى تصحيح عبادة من لا إخلاص لهم،يقول ابن عابدين- رحمه الله-: « الإخلاص شرط للثواب لا للصحة، فإنه لو قيل لشخص: صل الظهر ولك دينار، فصلى بهذه النية، ينبغي أن يجزيه وأنه لا رياء في الفرائض في حق سقوط الواجب، فهذا يقتضي صحة الشروع مع عدم الإخلاص »[٦] ، فهذا يقتضي صحة الشروع لأن المكلف يُخْلَّى بينه وبين خالقه في شأن الإخلاص وعدمه، فهوقول صحيح كما حرّره صاحب الذخيرة المرضية[٧] . وإن كان ينبغي بذلك- وهو الظاهر- تصحيح العبادة، جاعلًا النية شرطًا للثواب لا للصحة فلا[٨] ؛ لأن من العلماء مَنْ ذهب إلى بطلان العبادة المشوبة، فهذا السيوطي- رحمه الله- يرى بطلان عبادة من نوى بذبحه الأضحية أن تكون لله ولغيره[٩] .

وكذا ما رواه الحطاب - رحمه الله - الذي يقول: إن العبادة تكون مصيبة موبقة لصاحبها متى لم يكن الباعث على العمل قصد التقرب إلى الله وابتغاء ما عنده[١٠] .

---

(١) مدارج السالكين: ٢/٩١.
(٢) قواعد الأحكام.
(٣) الدين الخالص: ٢/٣٨٥.
(٤) الفتاوى: ٢٦/٢٤.
(٥) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/١٤٤.
(٦) حاشية ابن عابدين: ١/٣٠٤.
(٧) نقلًا عن كتاب الإخلاص، ص: ٣٦.
(٨) نقلًا عن كتاب الإخلاص، ص: ٣٦.
(٩) الأشباه والنظائر، ص: ٢٠.
(١٠) الحطاب على الخليل: ٢/٥٣٢.

وفي هذا الصدد يتحدث ابن تيمية - رحمه اللَّه - عن الذين يدفعون الزكاة إلى السلطان خشية أن تضرب أعناقهم أو تنقص حرماتهم، أو تؤخذ أموالهم، وعن الذين يقومون إلى الصلاة خوفًا على دمائهم وأعراضهم... إلى أن وصفهم بالنفاق والرياء، ثم قال: «ولهذا كان الصحيح عندنا وعند أكثر العلماء أن هذه العبادة فاسدة لا يسقط الغرض بهذه النية»(١) ، وهذا هو الموافق لقول الرسول- ﷺ-: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل أمرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأةينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»(٢) ، وهو من وحي اللَّه إلى نبيّه أن الأعمال بالنيات، وناهيك بهذا الحديث أن البخاري- رحمه اللَّه- قال: «ليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمه وأغنى وأكثر فائدة من هذا الحديث»(٣) ، واتفق جمع من العلماء منهم الشافعي، وأحمد بن حنبل، والترمذي، والدارقطني على أنه ثلث الإسلام...، ووجه البيهقي- رحمه اللَّه- كونه ثلث العلم؛ بأن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها؛ لأنها قد تكون عبادة مستقلة وغيرها يحتاج إليها»(٣) .

وقال ابن حجر- رحمه اللَّه- في شرح: «إنما الأعمال بالنيات»، والحديث متروك الظاهر؛ لأن الذوات غير منتفية؛ إذ التقدير: لا عمل إلا بالنية، فليس المراد في ذات العمل؛ لأنه قد يوجد بغير نية، بل المراد نفي أحكامها كالصحة والكمال، لكن الحمل على نفي الصحة أولى؛ لأنه أشبه بنفي الشيء نفسه(٤) .

* * *

(١) الفتاوى: ٢٦/٢٨- ٣٠.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٩/١ (كتاب بدء الوحي كيف كان بدء الوحي إلى رسول اللَّه ﷺ).

(٣) نفسه: ١١/١.

(٤) نفسه: ١٣/١.

القاعدة الثانية : ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد، الآية:٣٣].

المطلب الأول :

بعض مظان ورودها في القرآن

* قوله- تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة، الآية:٢٦٤].

* قوله- تعالى -: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة، الآية:٥].

* قوله- تعالى -: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [الأعراف، الآية:١٤٧].

* قوله- تعالى -: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [الكهف، الآية:١٠٥].

* قوله- تعالى -: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأحزاب، الآية:١٩].

* قوله- تعالى -: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر، الآية:٦٥].

* قوله- تعالى -: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾ [محمد، الآية:٩].

* قوله- تعالى -: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات، الآية:٢].

المطلب الثاني :

فقهها

الباطل في اللغة هو الشيء الذي يذهب ضياعًا وخسرًا[١] . وهو المحبط، قال الجوهري- رحمه اللَّه-: بطل ثوابه وأحبطه اللَّه...، وفي الحديث: أحبط اللَّه عمله أي أبطله[٢] ، فالبطلان والإحباط كلاهما على معنى انعدام الفائدة.

ومعنى النهي عن إبطال الأعمال، النهي عن الإتيان بما يبطلها[٣] .

وقد عدّد المفسرون منها :

* الإشراك باللَّه: وهو ما أورده الرازي- رحمه اللَّه- عند تفسيره للآية، حيث قال: قوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يحتمل وجوهًا، أحدها: الدوام على ما هم عليه وألا يشركوا فتبطل أعمالهم واللَّه- تَعَالَى- يقول: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٤] [الزمر، الآية:٦٥]، وهو أحسن ما ذهب إليه السلف، فقد روي عن ابن عمر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أنه قال: « كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولا حتى نزل: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء، الآية:٤٨]، فكففنا عن القول في ذلك، وكنا نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها »[٥] .

---

(١) لسان العرب: ٥٦/١١، مادة « بطل ».

(٢) لسان العرب: ٢٧٢/٧، مادة « حبط ».

(٣) التحرير والتنوير: ١٢٧/٢٦.

(٤) انظر التفسير الكبير: ٧٢/٢٨ بتصرف يسير.

(٥) التحرير والتنوير: ١٢٨/٢٦، وفتح القدير: ٤٢/٥-٤٣.

* الكفر بالله ومعصية الرسول: أي لا تبطلوا أعمالكم بترك طاعة الرسول- ﷺ-؛ كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم بتكذيب الرسول ﷺ وعصيانه، ويؤيده قوله- تَعَالَى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ...﴾ إلى أن قال: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[1] [الحجرات، الآية:٢]، قال ابن جرير- رحمه الله-: «ولا تبطلوا بمعصيتكم إياها وكفركم بربكم ثواب أعمالكم، فإن الكفر بالله يحبط السالف من العمل الصالح»[2] ، وعن مقاتل: يقول الله- تَعَالَى-: «إذا عصيتم الرسول، فقد أبطلتم أعمالكم»[3] .

* المنّ: وهو المنقول عن معظم المفسرين فقد روي عن مقاتل- رحمه الله- أنه قال: هذا خطاب لقوم من بني أسد أسلموا، وقالوا لرسول الله ﷺ: قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا، يمنّون عليه بذلك؛ فنزلت هذه الآية[4] ، وقال الرازي- رحمه الله-: «وهو مناف للإخلاص، والله لا يقبل إلا العمل الخالص»[5] .

والحق أن هذه المحامل كلها، ما هي إلا بعض مما تشمله الجملة وهو الذي قيده كثير من المفسرين متعقبين بذلك الأقوال السابقة.

روى ابن جرير - رحمه الله - عن قتادة - رحمه الله - أنه قال- عند هذه الآية -: من استطاع منكم ألا يبطل عملاً صالحاً عمله بعمل سيء فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فإن الخير ينسخ الشر، وإن الشر ينسخ الخير، وإن ملاك الأعمال خواتيمها[6] .

---

(١) انظر التفسير الكبير: ٧٢/٢٨.
(٢) جامع البيان: ٣٦/٢٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٥/١٦.
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٥٤/١٦؛ والمحرر الوجيز ٧٨/١٥-٧٩؛ فتح القدير: ٤١/٥؛ التحرير والتنوير: ١٢٨/٢٦.
(٥) التفسير الكبير: ٧٢/٢٨.
(٦) جامع البيان: ٦٣/٢٦.

وهو صنيع الحسن رحمه الله حين فسر الجملة بقوله: «لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصي»[١]، وقال الشوكاني- رحمه الله- بعد عرضه للأقاويل الواردة في الجملة-: الظاهر النهي عن كل سبب من الأسباب التي توصل إلى بطلان الأعمال كائنًا ما كان من غير تخصيص بنوع معين[٢].

وقال ابن عاشور- رحمه الله-: «وتسمح محامله بأن يشمل النهي والتحذير عن كل ما بيَّن الدين أنه مبطل للعمل كلًّا أو بعضًا مثل الردة، والرياء في العمل الصالح فإنه يبطل ثوابه... وكان بعض السلف يخشى أن يكون ارتكاب الفواحش مبطلًا لثواب الأعمال الصالحة ويحمل هذه الآية على ذلك، وقد قالت عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- لما بلغها أن زيد بن أرقم- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عقد عقدًا تراه عائشة حرامًا-: «أخبروا زيدًا أنه أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يترك فعله هذا» ولعلها أرادت بذلك التحذير، وإلا فما وجه تخصيص الإحباط بجهاده، وإنما علمت أنه كان أنفس عمل عنده، ولا سيما إذا عُرِفَ أن زيدًا- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قد غزا مع رسول الله ﷺ سبع عشرة غزوة[٣].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٢٥٤.
(٢) فتح القدير: ٥/٤١.
(٣) التحرير والتنوير: ٢٦/١٢٧، وانظر الإصابة: ٣/٢١.

المطلب الثالث :

قيمتها

وتبرز قيمة هذه الآية القاعدة في شموليتها من حيث النهي عن إبطال أي عمل مهما كان كما رأيناه سالفًا.

كما أن قيمتها تتجلى أيضًا في كون بعض الفقهاء راموها فاستنبطوا منها قاعدتهم الفقهية التي مفادها أن « الشروع في العبادة يوجب إتمامها »[(١)] فحملوا الآية على معنى النهي عن قطع العمل المتقرب به إلى اللّٰه، فكان المعنى: لا تتركوا العمل الصالح بعد الشروع فيه[(٢)] .

فمن الفقهاء من أخذ الأعمال على عمومها ورأى أن الإتمام بعد الشروع لازم في الفرض والنفل، وممن قال به، الإمام أبو حنيفة والإمام مالك وهو ما قرّره ابن العربي في أحكامه وخرّجه بقوله: « قلنا إنما يكون ذلك- أي عدم الإلزام- قبل الشروع في الفعل، فإذا شرع، لزمه كالشروع في المعاملات، ثم قال: ولا تكون عبادة ببعض ركعة، ولا ببعض يوم في صوم، فإذا قطع في بعض الركعة أو في بعض اليوم، إن قال: إنه يعتد به، فقد ناقض الإجماع وإن قال: إنه ليس بشيء، فقد ناقض الإلزام »[(٣)] ، وفرّق الإمام الشافعي بين الفرض والنفل، فقال بالإلزام في الفرض وبعدمه في النفل وحجته في ذلك أن اللفظ وإن كان عامًّا فإنه فيه تخصيصًا ووجه التخصيص أن النفل تطوع، والتطوع يقتضي الاختيار[(٤)] .

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ١٢٨/٢٦؛ وانظر المنثور في القواعد ٢٤٨/٢.

(٢) التحرير والتنوير: ١٢٨/٢٦.

(٣) أحكام القرآن: ١٧٠٤/٤.

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٥/١٦.

الفصل الثاني :

« أصلح ولا تتبع سبيل المفسدين »

المبحث الأول : بعض محال ورودها في القرآن الكريم

المبحث الثاني : فقهها

المبحث الثالث : قيمتها

المبحث الرابع : بعض مظاهر الصلاح والفساد

المبحث الخامس : مقومات الصلاح

المبحث السادس : من آثار الصلاح والفساد

المبحث السابع : ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد

بين يدي الكلية :

إن الحادي لانتقاء هذه الآية دون سواها من الآيات التي وردت في شأن الإصلاح والإفساد:

* هو جمعها بين الأمر والنهي: الأمر بالإصلاح والنهي عن قربان نهج المفسدين فجاءت حاوية لمعنيي درء المفسدة وجلب المصلحة التي هي مقصود الشرع.

* وما أورده بعض المفسرين في شأن هذه الآية العظيمة الجامعة من أقوال يجعلها ترقى على نظيراتها في مجال الصلاح والفساد، وحسبي أن استعرض مقولة «صاحب التحرير والتنوير»، وذلك عند تعرضه لتفسيرها؛ حيث قال: «.. وقد جمع له في وصيته- يريد جمع موسى لهارون- ملاك السياسة بقوله: «وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين»؛ فإن سياسة الأمة تدور حول محور الصلاح؛ وهو جعل الشيء صالحًا، فجميع تصرفات الأمة وأحوالها يجب أن تكون صالحة، وذلك بأن تكون الأعمال عائدة بالخير والصلاح لفاعلها ولغيره، فإن عادت بالصلاح عليه وبضده على غيره، لم تعتبر صلاحًا، ولا تلبث أن تؤول فسادا على من لاحت عنده صلاحًا، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تحذير من الفساد بأبلغ صيغة لأنها جامعة بين نهي- والنهي عن فعل تنصرف صنيعته أول وهلة إلى فساد المنهي عنه- وبين تعليق النهي باتباع سبيل المفسدين... فلما تعلق النهي بسلوك طريق المفسدين كان تحذيرا من كل ما يستروح ما آل إلى الفساد، لأن المفسدين قد يعملون عملا لا فساد فيه، فنهى عن المشاركة في عمل من عرف بالفساد؛ لأن صدوره عن المعروف بالفساد كاف في

توقع إفضاءه إلى فساد، ففي هذا سدّ ذريعة الفساد وسدّ ذرائع الفساد من أصول الإسلام»[١] .

* * *

(١) التحرير والتنوير: ٩/٨٧-٨٨.

المبحث الأول :

من محالّ ورود الكلية في القرآن الكريم

المطلب الأول :

ما تعلق بالصلاح والإصلاح

قول الله- تعالَى-: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة، الآية:١٨٢].

وقوله- تعالَى-: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة، الآية:٢٢٠].

قوله- تعالَى-: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة، الآية:٢٢٤].

قوله- تعالَى-: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ [البقرة، الآية:٢٢٨].

قوله- تعالَى-: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران، الآية:٣٩].

قوله- تعالَى-: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران، الآيتان: ١١٣،١١٤].

قوله- تعالى-: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران، الآية:٤٦].

قوله- تعالى-: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ﴾ [النساء، الآية:١٦].

قوله- تعالى-: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [النساء، الآية:٣٤].

قوله- تعالى-: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ﴾ [النساء، الآية:٣٥].

قوله- تعالى-: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [النساء، الآية:١١٤].

قوله- تعالى-: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ﴾ [النساء، الآية:١٢٨].

قوله- تعالى-: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة، الآية:٩٣].

قوله- تعالى-: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام، الآيتان: ٨٤،٩٥].

قوله- تعالى-: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ [الأعراف، الآيتان٥٥،٥٦].

قوله- تعالى-: ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف، الآية:١٤٢].

قوله- تعالى-: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾ [الأعراف، الآية:١٦٨].

قوله- تعالى-: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف، الآية:١٩٦].

قوله- تعالى-: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال، الآية:١].

قوله- تعالى-: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس، الآية:٨١].

قوله- تعالى-: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ﴾ [هود، الآية:٨٨].

قوله- تعالى-: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ﴾ [هود، الآية:٤٦].

قوله- تعالى-: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء، الآيتان:٧٤،٧٥].

قوله- تَعالَى-: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء، الآيتان:٨٥،٨٦].

قوله- تَعالَى-: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء، الآية:١٠٥].

قوله- تَعالَى-: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور، الآية:٣٢].

قوله- تَعالَى-: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء، الآيتان:١٥١،١٥٢].

قوله- تَعالَى-: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل، الآية:١٩].

قوله- تَعالَى-: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص، الآية:١٩].

قوله- تَعالَى-: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة، الآية:١٢].

قوله- تَعالَى-: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ، الآيتان: ١٠،١١].

قوله- تَعالَى-: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ﴾ [فاطر، الآية:١٠].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر، الآية:٣٧].

قوله- تَعَالَى-: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات، الآية:١٠٠].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات، الآية:١١٢].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص، الآية:٢٤].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [غافر، الآية: ٥٨].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت، الآية:٣٣].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر، الآيات:١، ٢، ٣].

قوله- تَعَالَى-: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى، الآية:٤٠].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى، الآية:١٥].

قوله- تَعَالَى-: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ [الأحقاف، الآية:١٥].

قوله- تعالى-: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ [الحجرات، الآية:٩].

قوله- تعالى-: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات، الآية:١٠].

قوله- تعالى-: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم، الآية:١٠].

* * *

المطلب الثاني :

ما تعلق بالفساد والإفساد

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة، الآيتان:١١،١٢].

قوله- تَعَالَى-: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة، الآية:٣٠].

قوله- تَعَالَى-: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة، الآية:٢٧].

قوله- تَعَالَى-: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة، الآية:٦٠].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة، الآية:٢٠٥].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة، الآية:٢٥١].

قوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران، الآيتان:٦٢،٦٣].

قوله- تَعَالَى-: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة، الآية:٣٢].

قوله- تعالى-: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة، الآية:٣٣].

قوله- تعالى-: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [المائدة، الآية:٦٤].

قوله- تعالى-: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف، الآية:٥٦].

قوله- تعالى-: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [الأعراف، الآية:٧٤].

قوله- تعالى-: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف، الآية:١٢٧].

قوله- تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾ [الأنفال، الآية:٧٣].

قوله- تعالى-: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ [الأعراف، الآية:٨٥].

قوله- تعالى-: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا﴾ [هود، الآية:١١٦].

قوله- تعالى-: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾ [يوسف، الآية:٧٣].

قوله- تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد، الآية:٢٥].

قوله- تعالى-: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل، الآية:٨٨].

قوله- تعالى-: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف، الآية:٩٤].

قوله- تعالى-: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء، الآية:٢٢].

قوله- تعالى-: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء، الآيات: ١٥٠، ١٥١، ١٥٢].

قوله- تعالى-: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل، الآية:١٤].

قوله- تعالى-: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل، الآية:٣٤].

قوله- تعالى-: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل، الآية:٤٨].

قوله- تعالى-: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص، الآية:٤].

قوله- تعالى-: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص، الآية:٧٧].

قوله- تعالى-: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإسراء، الآية:٤].

قوله- تعالى-: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت، الآية:٣٠].

قوله- تعالى-: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم، الآية:٤١].

قوله- تعالى-: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص، الآية:٢٨].

قوله- تعالى-: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر، الآية:٢٦].

قوله- تعالى-: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد، الآية:٢٢].

قوله- تعالى-: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ [الفجر، الآيات، ١٠،١١،١٢].

- بعد تحرير الكلية القرآنية على مستوى الصلاح والفساد يتعين علينا النظر في اللفظتين معًا من جهة اللغة والاصطلاح القرآني، فما معنى الصلاح والفساد في اللغة وما مفهومها في القرآن الكريم؟!

المبحث الثاني :

مفهوم الصلاح والفساد في اللغة

المطلب الأول :

مفهوم الصلاح في اللغة

جاء في البصائر :

« الصلاح والصلوح بمعنى، وصلح - كنصر - و - صلح - ككرم - فهو صالح وصليح، ويختص الصلاح بالأفعال غالبًا، وقوبل في القرآن تارة بالفساد وتارة بالسيئة، قال- تَعَالَى-: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة، الآية:١٠٢]، وقال: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾[1] [الأعراف، الآية:٥٦].

وفي اللسان: « الصلاح ضد الفساد ... ورجل صالح في نفسه من قوم صلحاء، ومصلح في أعماله وأموره... وأصلح الشيء بعد فساده: أقامه، وأصلح الدابة أحسن إليها فصلحت »[2] .

وفي الأساس: « صلحت حال فلان وهو على حال صالحة، ولا تعد صالحاته وحسناته... وصلح الأمر، وأصلح اللَّه- تَعَالَى- الأمير، وأصلح اللَّه- تَعَالَى- في ذريته وماله، وسعى في إصلاح ذات البين، وأمر اللَّه ونهى لاستصلاح العباد، وصالح العدو

---

(١) انظر بصائر ذوي التمييز ٣/٤٣١.

(٢) لسان العرب مادة -صلح- ٢/٥١٦-٥١٧.

ووقع بينهما الصلح، ورأى الإمام المصلحة في ذلك، ونظر في مصالح المسلمين، وهو من أهل المفاسد لا المصالح، وفلان من الصلحاء ومن أهل الصلاح»[١] .

ومما تقدم يعلم أن الصلاح لا يخرج في عمومه عن معنى جامع وهو نقيض الفساد.

* * *

(١) أساس البلاغة، ص: ٣٥٩.

المطلب الثاني :

مفهوم الفساد في اللغة

جاء في اللسان «الفساد: نقيض الصلاح... وتفاسد القوم: تدابروا وقطعوا الأرحام... والمفسدة: خلاف المصلحة، والاستفساد: خلاف الاستصلاح، وقالوا: هذا الأمر مفسدة لكذا: أي فيه فساد... ويقال أفسد فلان المال يفسده إفسادًا وفسادًا، والله لا يحب الفساد، وفسد الشيء إذا أباره، وفي الحديث: كره عشر خلال: منها إفساد الصبي غير محرمه، وهو أن يطأ المرأة المرضع فإذا حملت فسد لبنها وكان من ذلك فساد الصبي، وتسمى الغيلة[١] .

وفي البصائر: «الفساد: ضد الصلاح، والمفسدة: خلاف المصلحة، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجية عن الاستقامة»[٢] .

والمتأمل لما وَرَدَ من تفسيرٍ للفساد عند اللغويين يجد أن من معانيه: التدابر، وقطع الأرحام، والغيال الذي يلحق الصبي، والبوار، وعلى الجملة فكل شيء خرج عن الاستقامة إلا حق أن يسمى فاسدًا وهو في الحسيات والمعنويات.

* * *

---

(١) لسان العرب مادة -فسد- ٣٣٧/٢.

(٢) بصائر ذوي التمييز ١٩٢/٤.

المطلب الثالث:

مفهوم الصلاح والفساد في القرآن الكريم

١- مفهوم الصلاح في القرآن:

ترد لفظة الصلاح في القرآن الكريم ويراد بها معان شتى وذلك بحسب السياق والسباق ومن المعاني التي أُرِيدَ بها الصلاح:

أ- التوفيق والتأييد:

قال- تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ [محمد، الآية:٢]. (أي أقام أنظارهم وعقولهم فلا يفكرون إلا صالحًا ولا يتدبرون إلا ناجحًا)[١] فالصلاح في الآية، (معناه صلاح شأنهم في الدنيا بالتأييد والتوفيق)[٢]. وقال اللّه- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب، الآيتان:٧٠،٧١]. وذلك (بإمداد الصلاح والكمالات والفضائل عليكم)[٣].

ب- الصلاح بمعنى إصلاح النية والدخيلة:

ويرد في مثل قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف، الآية:١١٠] ومعناه: (فليعمل عملا صالحا، أي: في نفسه

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٧/٢٦.
(٢) محاسن التأويل: ٤٧/١٥.
(٣) محاسن التأويل: ٣٢٣/١٣.

لائقًا بذلك المرجو، وهو ما كان موافقًا لشرع اللّٰه ولا يُشْرِك بعبادة ربه أحدًا من خلقه إشراكًا جليًا كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ولا إشراكًا خفيًا كما يفعله أهل الرياء، ومن يطلب به أجرًا من المدح وتحصيل المال والجاه)[١] ، (وتدل الآية على أن للعمل المتقبل ركنين: كونه موافقًا شرع اللّٰه المنزل ومخلصًا أريد به وجه اللّٰه- تَعَالَى- لا يخلط به غيره، وتسمية الرياء شركا أصغر ثبت في السنة وصحَّ فيها حبوط العمل بالرياء، ودخول الرياء في الآية باعتبار عموم معناها، وإن كان السياق في الشرك الجلي للخطاب مع الجاحدين)[٢] .

ج- الإصلاح بمعنى إصلاح ذات البين:

قال اللّٰه- تَعَالَى-: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال، الآية:١]، وإصلاح ذات البين من الركائز المبقية على وحدة الأمة وَلَمِّ الشمل وتقوية الصف؛ لذلك نجد نداءات قرآنية تدعوا إلى الإصلاح فيما بين المسلمين سواء في الحرب أو السلم حتى يتجدد الشعور بالإخوة الصادقة» «فقد أمر في هذه الآية بالتقوى والإصلاح قائلًا كونوا على أمر اللّٰه في الدعاء: اللّٰهم أصلح ذات البين أي الحال التي يقع بها الاجتماع»[٣] .

«والنداء بالتقوى، وإصلاح ذات البين إنما هو دعوة إلى تقوى اللّٰه في الاختلاف والتخاصم وأن يكونوا متحدين متآخين في اللّٰه، وإصلاح ذات البين يعني التآسي والمساعدة فيما رزقهم اللّٰه وتفضل به عليهم، وعن عطاء: كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال اقسموا غنائمكم بالعدل، فقالوا: قد أكلنا وأنفقنا، فقال: ليردَّ بعضكم على بعض... وقد جعل التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة اللّٰه ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته ليُعْلِمَهم أن كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها»[٤] .

---

(١) محاسن التأويل: ١٠٧/١١.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ١٠٨/٣.
(٣) جامع لأحكام القرآن: ٣٦٤/٧.
(٤) الكشاف: ١٤١/٢.

وبهذا الزمام الذي هو التقوى يقود القرآن هذه القلوب إلى إصلاح ذات بينها كي تصلح من علائقها ومشاعرها وتصفو لبعضها البعض»[١] . ومن نظائر هذه الآية، قوله- تَعَالَى-: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات، الآية:٩،١٠].

«ففي البخاري في الصلح، ومسلم في الجهاد، أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال، فأنزل اللَّه- تَعَالَى- هذه الآية فأمر بالصلح بينهما»[٢] ، والآية تعتبر قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك تحت النزوات والاندفاعات، وتأتي تعقيبًا على تبيين خبر الفاسق وعدم العجلة قبل التثبت والاستيقان. وسواء كان نزول هذه الآية بسبب- كما أشرنا- أم كان تشريعًا لتلافي مثل هذه الحالة، فإنها تمثل القاعدة المذكورة لإقرار الحق والعدل والإصلاح»[٣] . ومثل هذا يقال في قوله- تَعَالَى-: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء، الآية:١١٤].

«فبعد أن تحدث الحق- سبحانه وتعالى- عن النجوى، ونفى عنه الخيرية، استثنى منه هذه الثلاثة التي تعتبر مجامع الخيرات والتي يحتاج فيها إلى النجوى»[٤] ومن

---

(١) في ظلال القرآن: ١٤٧٤/٣.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٩٧/٥ (كتاب الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس...) وانظر صحيح مسلم: ١٨٣/٥ (كتاب الجهاد، باب في دعاء النبي ﷺ إلى اللَّه وصبره على أذى المنافقين).

(٣) في ظلال القرآن: ٣٣٤٣/٦.

(٤) تفسير المنار: ٤٠٤/٥.

ضِمْنِ هذه الثلاثة، التناجي من أجل الإصلاح، والذي يشمل جميع أوجه الإصلاح كالتناجي في تشاور فيمن يصلح لمخالطة أو نكاح، أو رأب صدع بين متباينين ليتراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة على ما أذن اللّه وأمر به[١] .

د- الإصلاح بمعنى دعوة الآخرين إلى إصلاح أنفسهم :

قال اللّه- عَزَّ وَجَلَّ- حكايةً عن شعيب: « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت »]هود:٨٨[؛ إذ أن دأب الأنبياء والمصلحين أبدًا هو سعيهم إلى إزالة مظاهر الفساد فلا يدورون إلا على ما يوجب الصلح والصلاح، وذلك بقدر طاقتهم وهذا هو الإبلاغ والإنذار، أما الإجبار على الطاعة فلا قدرة لهم عليه، قال- تَعَالَى-: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية، الآية:٢٢]، وفي ثنايا هذه الآية نجد نموذجًا للدعوة « يتمثل في الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وإن خُيّل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والخلق يفوت عليه بعض الكسب الشخصي، ويضيع بعض الفرص؛ فإنما يفوت الكسب الخبيث ويضيع الفرص القذرة، ويعوض عنها كسبًا حلالًا طيبًا ومجتمعًا متعاونًا لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام »[٢] .

هـ- الإصلاح بمعنى تدبير شؤون اليتيم الدينية والدنيوية :

واليتيم عنصر في المجتمع ضعيف لا يعلم وجهة مصالحه؛ لذلك وجدنا القرآن ينص على النظر في شأنه من جهة صلاح حاله الدينية، ويتم ذلك بتربيته وتأديبه، وهو صنع أعظم تأثيرًا من الرعاية المالية. ومن جهة صلاح حاله الدنيوي المعيشي وذلك في النظر في أمواله ورعايتها والاتجار بها، « وقد ثبت أن النظر في مصالح الأيتام من أهم مقاصد الشريعة في حفظ النظام »[٣] قال- تَعَالَى-: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ

---

(١) جامع البيان: ٥/٢٧٦.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/١٩٢١.

(٣) التحرير والتنوير: ٢/٣٥٥.

خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة، الآية:٢٢٠]، فالآية جامعة للإصلاحين إصلاح تقويم وتأديب، وإصلاح الأموال بالتثمير والتنمية، وقال- تَعَالَى-: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ تعقيب على تلك الدعوة بإنشاء قاعدة جامعة للضمير والوجدان يرجع إليها في إصلاح هؤلاء، ولئلا يؤول الأمر إلى فساد[١] ؛ لذا ورد الحث في كثير من الآثار لتنمية أموال اليتامى خاصة لأن المظنون في الإنسان ألا يهمل مال نفسه فيدع تنميته وتثميره بمقتضى الدافع الذاتي والرغبة في المال، أما اليتامى فمالهم في أيدي أوصيائهم قد يهملون تثميره عمدًا وكسلًا.

و- إطلاقات أخرى:

قد يعبر القرآن بتعابير أخرى ولا يريد منها إلا الصلاح والإصلاح، ومن ذلك التعبير بلفظ الخيرات، قال- تَعَالَى- في حق الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء، الآية:٧٣]، فبعد أن جعلهم قدوة يقتدى بهم في أمور الدين وهي استجابة دعوة إبراهيم- عليه السلام- حين قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم، الآية:٤٠] وكلفهم بالتبليغ بإذن منه- سبحانه وتعالى- يهدون الناس إلى الحق وصاروا صالحين لجعلهم كذلك، «ومن صلح ليكون قدوة في دين الله فالهداية محتومة عليه بأمور ليس له أن يخل بها ويتثاقل عنها»[٢] بعد هذا كله أوحى الله إليهم فعل الخيرات مما يختص بالقلوب والجوارح، كإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وتخصيص إقام الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر بعد شمول الخيرات إياهما للتنويه بشأنهما لأن بالصلاة صلاح النفس؛ إذ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالزكاة صلاح المجتمع لكفاية عوز المعوزين[٣]،

---

(١) تفسير المنار: ٢/٣٤٤.
(٢) الكشاف: ٢/٥٧٨- ٥٧٩.
(٣) محاسن التأويل: ١١/٢٧٠-٢٧١.

ثم ذكر مجموعة من الأنبياء عقيبة وقال عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ وهي جملة واقعة موقع التعليل للجمل المتقدمة في الثناء على الأنبياء المذكورين وما أوتوه من النصر واستجابة الدعوات والإنجاء من كيد الأعداء، وهذه الاستحقاقات كلها كانت لمسلكهم مسالك الخيرات وجدهم في تحصيلها[١] ، وهي منافع الدنيا والآخرة، ونظير هذه الآية قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)﴾ [المؤمنون، الآيات:٥٧-٦١].

ومن التعبيرات- أيضًا- تعبير الإحسان قال- تَعَالَى-: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص، الآية:٧٧] وفي قوله- تَعَالَى-: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)﴾ [البقرة، الآية:١٩٥]، فقوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تذييل للترغيب في الإحسان؛ لأن محبة الله عبده غاية ما يطلبه الناس؛ إذ محبة الله سبب الصلاح والخير دنيا وآخرة»[٢] .

ولا يقف بنا القرآن عند هذا الحد من الإطلاقات التي يراد بها الصلاح، وإنما يتعداها إلى صيغ أخرى كاستعماله عبارات: الاستقامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفعل الحسنات واجتناب السيئات، وهو لا يريد بذلك إلا الصلاح الذي هو أساس الأمر في القرآن، وهو منطلق التكليف.

* * *

(١) التحرير والتنوير: ١٣٦/١٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٢١٦/٢.

المطلب الرابع:

مكملات الصلاح

إن الصلاح لا يقام له وزن في شرع الله إلا إذا كان مقرونًا بالإيمان، ومن استقرى القرآن، وقف على هذه الحقيقة حيث يطالعه الصلاح مقرونًا بالإيمان، مرة، وبالتقوى مرة، وبالتوبة أخرى، وذلك في عدد هائل من الآيات، قال- تعالى-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل، الآية:٩٧]، وقال- تعالى-: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة، الآية:٦٢]، وقال- تعالى-: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف، الآية:٨٨]، وقال- تعالى-: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ [المائدة، الآية:٣٩]، وقال- تعالى-: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف، الآية:٣٥].

وقد دلَّ القرآن على أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور:

الأول: أن يكون موافقًا لما ورد عن النبي ﷺ؛ لأن الله- تعالى- يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر، الآية:٧].

الثاني: أن يكون خالصًا لله- تعالى-؛ لأنه- جلَّ وعلا- يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥٢]، وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر، الآية:١٤-١٥].

الثالث: أن يكون مبنيًا على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن اللَّه- تَعَالَى- يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، فقيّد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن، لم يقبل منه ذلك العمل، وقد أوضح- جل وعلا- هذا المفهوم في آيات كثيرة؛ كقوله في غير المؤمن: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[الفرقان، الآية: ٢٣]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود، الآية:١٦]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور، الآية:٣٩]، وقال- تَعَالَى-: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [إبراهيم، الآية:١٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه لا صلاح بدون إيمان، ويشهد لهذا أيضًا أحاديث رسول اللَّه ﷺ فقد ثبت عنه- عليه الصلاة والسلام- فيما يرويه قتادة عن أنس بن مالك- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيعطى بحسناته في الدنيا، فإذا لقي اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- يوم القيامة، لم تكن له حسنة يعطى بها خيرًا»[(١)]، وفي قوله- تَعَالَى-: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[البلد، الآيات: ١١-١٧] دلالة على أنه لو فعل شيئًا من هذه الأعمال الحسنة، ولم يكن من الذين آمنوا، ما نفعه عمله شيئًا؛ لأنه قد انتفى عنه الحظ الأعظم من الصالحات كما دلَّت عليه، فهو مؤذن بأنه شرط في الاعتداد بالأعمال، عن عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قالت: يا رسول اللَّه! إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم الطعام، ويفك العاني، ويعتق الرقاب ويحمل على إبله للَّه (أي

(١) أضواء البيان: ٤٩٣/٣ وانظر مسند أحمد ١٢٥/٣.

يريد بذلك التقرب) فهل ينفعه ذلك شيئًا؟ قال: لا، إنه لم يقل يومًا: «رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[١]، وفي كل ما ذُكِرَ إرشاد إلى أن القيم الرفيعة لا تحفظ عند الله إلا بمعانٍ رفيعة فاضلة تملأ القلب، وتظهر آثارها في هذه الحياة.

٢- مفهوم الفساد في القرآن:

بعد أن استعرضنا ما يتعلق بالصلاح في القرآن على مستوى الدلالة، ورأينا بعض المعاني التي أفادتها لفظة الصلاح، نحاول الكشف عن المراد من لفظة الفساد، وذلك حسب السياق فنقول- بعون الله-: إنَّ لفظة الفساد ترد في القرآن تارة في سياقها العام، وتارة في سياقها الخاص وتارة يجمع فيها بين العموم والخصوص، ومن ذلك قوله- تعالَى-: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد، الآية:٢٢]، قال ابن كثير: «هذا نهي عن الفساد عمومًا وعن قطع الأرحام خصوصًا»[٢] .

١- أما السياق العام فنعني به ورود الفساد وإطلاقه على عبادة الكفار غير الله- تعالَى- والكفر به، وشق عصا الطاعة لأنبيائه، وتكذيبهم بما جاؤوابه، وإتيان الأفعال بحسب هواهم وتشهّيهم، وهذا المعنى كائن في كثير من الآيات منها قوله- تعالَى-: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة، الآية:٢٧]، قال الطبري - رحمه الله تعالَى-: إن إفسادهم هذا هو ما تقدم من معصية ربهم، وكفرهم، وتكذيبهم رسوله، وجحدهم نبوته، وإنكارهم ما آتاهم به من عند الله[٣] فالإفساد في الأرض- إذا- عبادتهم غير الله

(١) انظر التحرير والتنوير: ٣٠/٣٦٠، وانظره في مسند أحمد: ٦/٩٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤/١٧٨.
(٣) جامع البيان: ١/١٨٥.

وجورهم في الأفعال؛ إذ هي بحسب شهواتهم، وهذا غاية الفساد[١] ، ورأس الفساد في الأرض هو الحيدة عن منهجه الذي اختاره ليحكم حياة البشر ويصرفها، هذا مفرق الطريق الذي ينتهي إلى الفساد حتما، فلا يمكن أن يصلح أمر هذه الأرض ومنهج الله بعيد عن تصريفها، وشريعة الله مقصاة عن حياتها، فإذا انقطعت العروة بين الناس وربهم على هذا النحو، فهو الفساد الشامل للنفوس والأحوال وللحياة والمعاش وللأرض كلها، وما عليها من الناس والأشياء[٢] ، ونظير هذا قوله- تَعالَى-: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة، الآيتان: ١١،١٢] ، وقال- تَعالَى-: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص، الآية:٨٣]، فأريد بالفساد «العمل بالمعاصي أو الدعاء إلى غير عبادة الله، وقوله- تَعالَى-: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء، الآيتان: ١٥١،١٥٢] أي «الداعون إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق»[٣] والمتأمل لهذه الآيات، يجدها تعبر عن فساد العقيدة وفساد العمل، فمن فسدت عقيدته وخبثت فطرته، كان سلوكه وأخلاقه على مثل ما في دخيلته وطويته.

٢- وأما السياق الخاص فحين ترد لفظة الفساد، ويراد بها إبراز مظاهره كقطع الأرحام المعبر عنه في قوله- تَعالَى-: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد، الآية:٢٥]، وإهلاك الحرث والنسل المذكورين في قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة، الآية:٢٠٥]، والإسراف المنطوق به في قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا

---

(١) جامع الأحكام: ٢٤٧/١.

(٢) في ظلال القرآن: ٥١/١.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ١٩٩/٥.

يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ [الشعراء، الآيتان:١٥١،١٥٢]، والصدُّ عن سبيل الله في مثل قوله -تَعَالَى -: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل، الآية:٨٨]، والقتل ظلما والغلبة قهرا، قال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإسراء، الآية:٤]، قال الماوردي رحمه الله: الفساد الذي فعله بنو إسرائيل هو قتلهم للناس ظلما وتغلبهم على أموالهم قهرا وإخراب الديار بغيا[1] ، فهذه بعض موارد الفساد والإفساد على وجه الخصوص وهي التي تكر على الإخلال بالأعمال الصالحات؛ ولذلك نجدها مقرونة بالوعيد غالبا.

٣- إطلاقات أخرى على الفساد :

كما أننا نقف على إطلاقات أخرى على الفساد كالشر والضر والسيئات والمفاسد، بأسرها شرور ومضرات وسيئات، وقد غلب هذا اللفظ الأخير استعماله في القرآن الكريم؛ كقوله- تَعَالَى - ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة، الآية:١٠٢]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء، الآية:٣١]، وغيرهما من الآيات التي تذكر فيها السيئات ويراد بها الأعمال الفاسدة.

* * *

(١) تفسير الماوردي: ٣/٢١٨.

المبحث الثالث :

قيمة الصلاح في القرآن الكريم

المطلب الأول :

مدار القرآن على درء المفاسد وجلب المصالح

إن وجهة القرآن هي العمل على إرشاد متدبره؛ نحو تزكية النفس وذلك بمراقبتها ومحاسبتها، ونجد هذه الهداية مدارها على قطبين اثنين هما: التحلي بالصالحات، والتخلي عن المفسدات، قال- تَعَالَى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ [الأحزاب، الآيتان: ٧٠،٧١]، وقال- تَعَالَى-: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ [الجاثية، الآية:٢٣]، وقال- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص، الآية:٧٧]، وقال- تَعَالَى-: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨﴾ [ص، الآية:٢٨]، فهذا هو الهدف الأسمى من الدعوة القرآنية وهذا هو الهدف الأسمى من التربية القرآنية، إنه العمل على درء المفسدة عن المكلف وجلب المصلحة له.

* * *

المطلب الثاني :

تجليات هذه الكلية القرآنية

لقد اعتبرت هي الأساس في رسالات الأنبياء والرسل جميعهم قال- تَعَالَى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾[المؤمنون، الآية:٥١]، وهي مقالة خوطب بها كل نبي، ونودي بها كل رسول ووصوا بها، حقيق بأن يؤخذ بها ويعمل عليها، فهي طريقتهم التي ينبغي لهم الكون عليها[١] « وقد أمر- جلَّا وعلا- في هذه الآية: رسله- عليه الصلاة والسلام- بالأكل من الطيبات وهي الحلال الذي لا شبهة فيه على التحقيق، وأن يعملوا العمل الصالح، وذلك يدل على أن الأكل من الحلال له أثر في العمل الصالح »[٢] والغرض من هذا الخطاب، بيان كرامة الرسل عند الله ونزاهتهم في أمورهم الجسمانية والروحية، فالأكل من الطيبات نزاهة جسمانية، والعمل الصالح نزاهة نفسانية، وعطف العمل الصالح على الأمر بالأكل من الطيبات إيماء إلى أن همة الرسل إنما تنصرف إلى الأعمال الصالحة؛ لأن ذلك يتضمن الوعيد بالجزاء عنها[٣] ، وقال- تَعَالَى-: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ

(١) التحرير والتنوير: ١١/٣٦، وانظر التفسير الكبير: ٢٣/١٠٥.

(٢) أضواء البيان: ٥/٧٩٣- ٧٦٤.

(٣) التحرير والتنوير: ١٨/٦٨- ٦٩.

عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٨٦﴾ [هود، الآيتان: ٨٥، ٨٦]، وفي آية أخرى: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ [الأعراف، الآية:٨٥]، وقال- تعالَى-: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ۝٦٧﴾ [القصص، الآية:٦٧]، وعن آل داود يقول: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [سبأ، الآية: ١١]، وقال- تعالَى-: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ [فصلت، الآية:٣٣]، وقال- تعالَى- على لسان شعيب تنويها به ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ [هود، الآية:٨٨]، فعلمنا أن اللّه أمر ذلك الرسول بإرادة الإصلاح بمنتهى الاستطاعة، وقد قيل لذي القرنين: ﴿إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾ [الكهف، الآية:٩٤]، فاستجاب دون تردد؛ لأن ذلك من طبيعة وظيفته ومن صميم رسالته ثم قال: ﴿هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾ [الكهف، الآية:٩٨]، شعورًا بنعمة اللّه عليه، وفي الرسالة الخاتمة خاطبنا الحق- سبحانه- بقوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [الأعراف، الآية:٨٥].

هذا هو مقصد الرسالات عبر العصور، ومن ثم أمكن القول: إن الوحي كله منذ آدم إلى النبي الخاتم - عليه الصلاة والسلام - يدور على درء المفسدة وجلب المصلحة في كل عصر ومصر؛ إذ إن هذه الأدلة «أدلة صريحة كلية دلّت على أن مقصد الشريعة الإصلاح وإزالة الفساد وذلك في تصاريف أعمال الناس»[١] ، «ومن عموم هذه الأدلة ونحوها حصل لنا اليقين بهذا، واعتبرنا ذلك قاعدة كلية في الشريعة»[٢] ومن هنا يتبين أن هذه الكلية جلية القدر عظيمة الأثر في مجالي الصلاح ودرء الفساد.

---

(١) مقاصد الشريعة ص: ٦٣.

(٢) مقاصد الشريعة ص: ٦٤.

المطلب الثاني:

اعتبرت ثالث أصول دعوة الأنبياء والرسل

مما سبق يتبين خطورة هذه الكلية وأن لها قدرًا عظيمًا متى أُخِذَتْ بعين الاعتبار؛ لذلك وجدناها تشكل إحدى الركائز الأساسة في بناء الأديان، وهي ثلاثة أصول دعا إليها الرسل والأنبياء، قال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة، الآية: ٦٢]، وهذه هي أصول الدين الأساسة الثلاثة، وهي: الإيمان بأن لهذا الكون العظيم المتقن في وحدة نظامه وبديع إحكامه ربًّا أبدعه وأتقنه بقدرته وحكمته، فيجب على الناس عبادته وحده لا شريك له لا في الدعاء ولا في غيره من معاني العبادة، وهذا الأصل هو منتهى ما يصل إليه ارتقاء العقل البشري في الاعتقاد وتطهير الأنفس من الخرافات والأوهام.

الأصل الثاني: الإيمان بعالم الغيب والحياة الآخرة، ذلك أن العوالم الحية التي في هذا الكون لا تنعدم من الوجود ولا تنفذ من أقطار ملك اللّٰه بما نراه من فساد تركيبها وذهاب صورها، فإذا كان العدم المحض غير معقول والتحول في الصور مألوف منظور، فلا غرو أن يكون للناس حياة أخرى في عالم آخر بعد خراب هذا العالم، وهذا ركن من أركان الارتقاء البشري؛ لأنه باعث لهم إلى الاستعداد لذلك العالم الأوسع الأكمل.

الأصل الثالث: العمل الصالح الذي ينفع صاحبه وينفع الناس.

فهذه الأصول الثلاثة التي جاء بها كل نبي مرسل لا يتركها إنسان بعد معرفتها والأخذ بها إلا ويكون منكوسًا، لا حظ له من الكمال في دنياه ولا في آخرته؛ بل يكون من أصحاب النفوس الخبيثة والأرواح المظلمة التي لا مقر لها في الآخرة إلا دار الخزي والهوان، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1] [يونس، الآية:٢٧].

* * *

(١) انظر تفسير المنار: ٢/٣١٩.

المطلب الرابع:

وهي المقصد الأعظم من الرسالة

فلا غرو- إذًا- أن تكون هي المقصد الأعظم من وضع الشرائع كلها، قال الشاطبي- رحمه الله-: «وذلك بالاستقراء حيث استقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد استقراء لا ينازع فيه أحد فإن الله- تعالى- يقول في بعثة الرسل- وهو الأصل-: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء، الآية:١٦٤]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء، الآية:١٠٧]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ﴾ [هود، الآية:٧]، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات، الآية:٥٦]، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾ [الملك، الآية:٢].

وأما التعليل لتفاصيل الأحكام في الكتاب والسنة فأكثر من أن تحصر؛ كقوله- تعالَى-: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة، الآية:٦]، وقال في الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة، الآية:١٨٣]، وعن الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت، الآية:٤٥]، وقال في القبلة: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة، الآية:١٥٠]، وفي الجهاد: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [الحج، الآية:٣٩]، وفي القصاص: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة، الآية:١٧٩]، وفي التقرير على التوحيد: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف، الآية:١٧٢]، والمقصود التنبيه، وإذا دل

الاستقراء على هذا وكان في مثل هذه القضية مفيدًا للعلم، فنحن نقطع بأن الأمر مستمر في جميع تفاصيل الشريعة[(١)] . وبمثل هذا عبّر ابن عاشور- رحمه اللَّه-، حيث قال: «إذا نحن استقرينا موارد الشريعة الإسلامية الدالة على مقاصدها من التشريع، استبان لنا من كليات دلائلها ومن جزئياتها المستقراة أن المقصد العام من التشريع فيها هو حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه وهو نوع الإنسان، ويشمل صلاحه صلاح عقله وصلاح عمله وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم، قال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص، الآية:٤]، فهذه الصفات التي أجريت على فرعون كلها من الفساد، وبعثة موسى جاءت لإنقاذ بني إسرائيل من هذا الفساد»[(٢)] .

* * *

(١) الموافقات: ٢/٢-٣.

(٢) مقاصد الشريعة، ص: ٦٣.

المطلب الخامس:

التنويه بالأعمال الصالحة والتنديد بالفاسدة

لقد نوه القرآن الكريم بعمل الصالحات وبيَّن آثارها وثمراتها، والآيات في هذا أكثر من أن تحصى، وإليك شواهد عليه، قال- تعالى-: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر، الآيتان:١،٢]، وقال- تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس، الآية:٩]، وقال- تعالى-: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود، الآية:١١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت، الآية:٥٨]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف، الآية:١٠٧]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء، الآية:١٠٥]، وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور، الآية:٥٥]، والآية تأكيد وتقرير لسابقتها، وقال- تعالى-: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف، الآية:١١٠]، وقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ [الرعد، الآية:٢٣].

وفي معرض الحديث عن الفساد وأهله نجده يلون الخطاب كاشفًا عن هذه السلوكات، وما ينجم عنها من آثار في المعاش والمعاد، يقول اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- ناهيًا عن التلبس بالفساد-: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف، الآية:٥٦]، وقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف، الآية:٨٥]، وقال: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ

أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص، الآية:٧٧]، ويقرّر القرآن الكريم مأتى الفساد واستفحاله في هذا الكون؛ فيقول: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم، الآية:٤١]، وبيّن عاقبة المفسدين، فيقول: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة، الآية:٣٣]، ويحكي عاقبة المفسدين في الآخرة، فيقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد، الآية:٢٥]، ويقول- أيضًا-: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل، الآية:٨٨].

* * *

المبحث الرابع :

بعض مظاهر الصلاح والفساد

المطلب الأول :

بعض مظاهر الصلاح

لقد حضَّ القرآن الكريم على الصلاح في مواضع شتى، فقال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون، الآية:٥١]، حيث أمر- سبحانه- أنبياءه بالأكل من الحلال الطيب والقيام بالصالح من الأعمال، فأذعنوا لذلك، فجمعوا بين كل خير؛ قولًا وعملًا، ودلالةً ونصحًا[١] ، ويستعرض الحق- سبحانه- نماذج من أصفيائه لقصد تكميلهم لأجل أن يُعْرَفُوا بالصلاح، فيقول- تَعَالَى-: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام، الآيتان:٨٤،٨٥]، ثم يشير إلى سمت هؤلاء، فيقول لنبيه ﷺ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام، الآية:٩٠]، قال ابن كثير- رحمه الله-: «أي هم أهل الهدى لا غيرهم، فاقتد بهم واتبعهم، وهو أمر للنبي ﷺ ولأمته»[٢] .

ومظاهر الصلاح كثيرة سنقف عند أهمها، وذلك لأن مقاصد القرآن الكبرى تتمثل في أسس كبيرة يمكن إجمالها فيما يأتي:

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢٤٦/٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ١٥٦/٢.

١- إصلاح الاعتقاد :

وهذا هو أعظم سبب لإصلاح الخلق لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك.

٢- إصلاح التشريع :

ويتمثل في الأحكام الخاصة والعامة، وقال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء، الآية: ١٠٥] ، وقال- تَعَالَى-: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة، الآية: ٤٨].

٣- تهذيب الأخلاق :

قال – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم، الآية:٤]، وفي الحديث أن رسول اللَّه ﷺ قال: «بعثتُ لأتمم حسن الأخلاق»[1] ، وهو المقصد الذي فهمه العرب عامة بَلْهَ الصحابة – رضوان اللَّه عليهم – قال أبو خراش الهذلي – مشيرًا إلى ما دخل على العرب من أحكام الإسلام بأحسن تعبير:

فليس كعهد الدار يا أم مالك ... ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل ... سوى العدل شيئًا فاستراح العواذل[2]

---

(١) انظر المسوى بشرح الموطإ: ٤٥٩/٢ (باب الترغيب في الخلق الحسن).

(٢) انظر التحرير والتنوير: ٤٠/١.

قال الدهلوي- رحمه الله -: «كل مصلحة حثنا الشارع عليها وكل مفسدة ردعنا عنها فإن ذلك لا يخلو من الرجوع إلى أحد أصول ثلاثة: أحدها تهذيب النفس بالخصال النافعة في المعاد وسائر الخصال النافعة في الدنيا، ثانيها: إعلاء كلمة الحق وتمكين الشرائع والسعي في إشاعتها، ثالثها: انتظام أمر الناس وإصلاح اتفاقاتهم وتهذيب رسومهم»(١) ، من أجل ذلك وجدنا في القرآن الكريم مظاهر تتمثل فيها هذه الركائز الثلاث:

أولاها: الإيمان الصادق الكامل الذي يمثل جانب العقيدة وهو المقصد الأسنى كما رأينا آنفًا. قال- تَعَالَى-: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [آل عمران، الآية:١١٣،١١٤]، «وهو حق من حقوق الله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله وكتبه واليوم الآخر، وكل ذلك يستلزم الحذر من المعاصي، فقوله- تَعَالَى-: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إشارة إلى فضل المعارف الحاصلة في قلوبهم، فكان هذا إشارة على كمال حالهم في القوة العملية والقوة النظرية، ومن أفضل المعارف بالنسبة للإنسان الصالح معرفة المبدأ والمعاد»(٢) .

ثانيها: النهوض بالتكاليف الشرعية: ولا يتأتى إلا بمعرفة الله- عَزَّ وَجَلَّ- حق معرفته وتقديره حق قدره، فبقدر تعظيم الآمر يعظم الإتيان بالمأمور قال الله - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا﴾ [فصلت، الآية:٣٠]، فبعد إعلان التوحيد والتصريح به اعتقادًا - وهو أنه لا رب لهم إلا الله، وهو جامع لأصل الاعتقاد الحق -، عبروا عن الوفاء بما كُلِّفوا به.

---

(١) حجة الله البالغة: ١/٤٧٤.

(٢) التفسير الكبير: ٨/٢٠٧.

ومن معنى هذه الآية ما رواه مسلم عن سفيان الثقفي- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قلت: يا رسول اللَّه! قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك قال: قل آمنتُ باللَّه ثم استقم[١]، فالاستقامة هي أداء الفرائض بالإخلاص للَّه والطاعة له، فقد جمعت الآية أصليْ الكمال الإسلامي، فقوله: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾، إشارة إلى الكمال النفسي وهو معرفة الحق للاهتداء به ومعرفة الخير لأجل العمل به، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، إشارة إلى أساس الأعمال الصالحة وهو الاستقامة مع الحق الذي أذعن له القلب، هذه الاستقامة التي تعني التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، قال- تَعَالَى-: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝﴾ [الفاتحة، الآيتان:٦،٧].

ثالثها: حراسة الدين ويمكن التمثيل له بإجراءين:

الإجراء الأول: القيام بالعدل قال- تَعَالَى-: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ [آل عمران، الآية:١١٣]، فالقيام يعني العدل، وقيل القيام على كتاب اللَّه والهداية على حدوده وقيل الطاعة والقنوت، وكل هذا راجع إلى معنى واحد من الاعتدال على أمر اللَّه وإتيان أعمال الدين على الوجه الحق[٢]. وقيل- أيضًا-: أريد بالقيام قيام المسلم بحق العبودية في مقابل قيام المولى بحق الربوبية في العدل والإحسان، فتمت المعاهدة بفضل اللَّه- تَعَالَى- كما قال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[٣] [البقرة، الآية:٤٠].

الإجراء الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهذا الإجراء من سمات الأمة المسلمة الراغبة في الانضمام في سلك الحائزين على الخيرية المعبر عنها في الكتاب

---

(١) صحيح مسلم: ٤٧/١، (باب جامع أوصاف الإسلام)، وانظر مسند أحمد ٤١٣/٣.

(٢) المحرر الوجيز: ٢٠٠/٣.

(٣) التفسير الكبير: ٢٠٦/٨.

بقوله- تعالَى-: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران، الآية:١١٠]، قال الرازي- رحمه اللَّه-: «واعلم أن الغاية القصوى في الكمال أن يكون الإنسان تاما وفوق التمام، وسر كونه فوق التمام، أن يسعى في تكميل الناقصين وذلك بطريقين: إما بإرشادهم إلى ما ينبغي وهو الأمر بالمعروف، أو بمنعهم عما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر»[١] ، وقد حضَّ القرآن على هذا الإجراء من أجل حفظ الدين من جهة العدم، فعد بذلك من مقاصد الشريعة المرغوبة، ومن الآيات الدالة على هذا قوله- تعالَى-: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود، الآية:١١٦]، أي: «هلا بقي من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض، وقد وجد من هذا الضرب لكنهم قلة، وهم الذين أنجاهم اللَّه عند حلول غضبه على المفسدين، ولهذا أمر اللَّه- تعالَى- هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى لا يعمهم اللَّه بعذاب»[٢] .

رابعها: الرغبة في الخير جملة: ولذلك أثنى اللَّه على عباده الصالحين بجمل منها: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء، الآية:٧٣]، وقال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران، الآية:١١٤]، فهي الجملة التي ذُيِّلتْ بها الآيتان، وهي: «فعل الخيرات والمسارعة إليها» دلالة إلى الرغبة في الأمر الصالح، «ومن رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وآثر الفور على

---

(١) التفسير الكبير: ٨/٢٠٧- ٢٠٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/٤٦٤.

التراخي »[١] ، « فالصالحون يبادرون إلى فعل العمل الصالح، غير متثاقلين عن إتيانهم إياه لمعرفتهم بقدر ثوابه »[٢] .

وهكذا نلحظ أن من خصائص الإنسان الصالح أن يكون ممن دُعِيَ إلى خير؛ من نصرة مظلوم، وإغاثة مكروب، وجبر مهيض (أي مكسور بعد الجبور) وعبادة اللَّه، أجاب، ومنه فعل الإمام مالك- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في ركعتي المسجد؛ حتى قال: « دعوتني إلى الخير فأجبت إليه »[٣] .

* * *

(١) الكشاف: ٤٥٦/١.

(٢) فتح القدير: ٣٧٤/١.

(٣) المحرر الوجيز: ٢٠٣/٣.

المطلب الثاني :

بعض مظاهر الفساد

* كثيرة هي الآيات التي ورد فيها النهي عن الفساد، قال- تَعالَى-: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف، الآية:٥٦]، فهو سبحانه ينهى عن الفساد في الأرض ويقر على الإصلاح، فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك، تجده- سبحانه- ينهى عن الإفساد والفساد، ويأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، وكل ذلك في قوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[١] [الأعراف، الآية:٥٦]، قال- تَعالَى-: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة، الآية:٢٠٥]، وما الحرث والنسل إلا من أساسات ما تقوم به الحياة، وتقوم به أحوال الناس، وبضياعه يتعرض للضياع، وإنما كان الفساد غير محبوب عند اللّه في عمومه؛ لأنه تعطيل لما خلقه اللّه في هذا العالم لحكمة صلاح الناس، فإن الحكيم لا يحب تعطيل ما تقتضيه الحكمة[٢] ، وقال- تَعالَى-: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، وذلك عقيب قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ [البقرة، الآية:٦٠]، ووجه النهي عنه أن النعمة قد تنسي العبد حاجته إلى خالقه، فيهجر الشريعة فيقع في الفساد قال- تَعالَى-: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق، الآيتان:٦،٧]، وحينما قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ إنما أراد بالعثيان أشد الفساد فهو- إذًا- نهي عن التمادي في الفساد والغلو فيه[٣] ، وكأن الآية خطاب لمن سوَّل له الشيطان وزَّين له، فصار متلبسًا بالفساد لا يبرحه، بل يتفنن فيه ويغالي في اقترافه.

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم: ٢/٢٢٢.

(٢) التحرير والتنوير: ٢/٢٧.

(٣) التحرير والتنوير: ١/٥٢٠.

* وفي مقابل الصالحين المذكورين في القرآن ترغيبًا يورد الحق- سبحانه وتعالى- نماذج من المفسدين ترهيبًا، فيحكي عن أمم كانت قد ضربت بعطن في الفساد وعتت عتوًّا كبيرًا، فأخذها الله نكال الآخرة والأولى. يقول الله- عزَّ وجلَّ-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢﴾ [الفجر، الآيات:٦-١٢]، وقال- تَعَالَى-: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [ق، الآيات:١٢-١٤]، وقال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف، الآية:٩٤]، وقال- تَعَالَى-: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝٤٨﴾ [النمل، الآية:٤٨]، وقال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل، الآية:٣٤]، وقال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص، الآية:٤].

* والمطالع للآيات القرآنية التي تناولت الحديث عن الفساد، يلحظ أن القرآن تحدث عن الفساد ومظاهره بدءًا بالمجال العقدي وبلوغًا به إلى المجال الخلقي، كل ذلك بطريق الإجمال تارة والتفصيل أخرى، ومن صور الفساد التي يحكيها القرآن ما يأتي:

١- الصدُّ عن سبيل الله:

قال- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝٨٦﴾ [الأعراف، الآية:٨٦]، إذ كل من قعد على طريق من طرق الدين ومناهج الحق لأجل أن يمنع الناس عن قبوله أو إتيانه، عُدَّ من الصادِّين المفسدين، خصوصًا إذا كان ينزل المضار بالمنهج الرباني، كإلقاء الشكوك والشبهات

ونحوها، ورأس الفساد: الحيدة عن المنهج، ومن أظلم ممن حاد عن منهج القرآن، وغدا يصدُّ الناس عن طريق فإنه لاحد بلا ريب.

ومما يدخل في هذا الصد عكوف أناس على دين قد اضمحل وقت العمل به وأصبح غير صالح لما أراد الله من البشر، فإن الله ما جعل شريعة من الشرائع خاصة وقابلة للنسخ إلا وقد أراد منها إصلاح طائفة من البشر معينة في مدة معينة في علمه، وما نسخ دينا إلا لتمام وقت صلاحيته للعمل به، فالتصميم على عدم تلقي الناسخ وملازمة المنسوخ، هو عمل بما لم يبق فيه صلاح للبشر فيصير بذلك من الصدٌ عن كتاب الله الخاتم، وهو فساد، وهو ما عبر عنه الحق، حين قال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل، الآية:١٤].

٢- بخس الناس أشياءهم:

قال- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف، الآية:٨٥]، وهو تشريع اعتبر أصلًا من أصول رواج المعاملة بين أفراد الأمة؛ لأن المعاملة معتمدها الأساس هو الثقة المتبادلة بين أفراد المجتمع الواحد، ولا تحصل الثقة إلا بشيوع الأمانة، وينجم عن هذا نشاط الناس في التعامل، فالمنتَج يزداد انتاجًا وعرضًا في الأسواق، والطالب من تاجر أو مستهلك يقبل على الأسواق آمنا لا يخشى غبنًا ولا خلابة، فتتوفر السلع في أسواق الأمة وتستغني عن اجتلاب أقواتها وحاجياتها وتحسينياتها، فيقوم نماء الأمة وحضارتها على أساس متين ويعيش الناس في رخاء وتحابب وتآخ، وبضد ذلك يختل حال الأمة بمقدار تفشي ضد ذلك»[1] ؛ لذلك نهى الحق- سبحانه- عن بخس الناس أشيائهم، ثم ذيله بالنهي عن الفساد لما يجره هذا الجنس من عواقب كلها فساد ووبال على المجتمع، فتذييل الآية بقوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ

(١) التحرير والتنوير: ٨/٢٤٤.

إِصْلَٰحِهَا﴾؛ لأن صلاح الأحوال المعاشية تعتبر من متممات الصلاح، وفسادها يعتبر من فساده، ومن ثم كانت الدعوة إلى نبذ الفساد أصلًا من الأصول الدعوية لدى الأنبياء وهذا المظهر داخل فيها[١] .

٣- إهلاك الحرث والنسل:

قال- تَعَالَى-: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة، الآية:٢٠٥]، وهو مظهر آخر من مظاهر الفساد؛ لأن إتلاف خيرات الأرض رزء على الناس كلهم، وإنما كان غير محبوب عند الله؛ لأن فيه تعطيلًا لنعم الله وقطع طريقها للبلوغ إلى عباده لصلاحهم، والله- عَزَّ وَجَلَّ- حكيم لا يحب تعطيل ما تقتضيه الحكمة، فقتال العدو- مثلًا- إنما هو تلاف للضر الراجح؛ ولذلك يقتصر في القتال على ما يحصل به تلافي الضر دون زيادة، ومن أجل ذلك نهى الشرع عن إحراق الديار في الحرب وعن قطع الأشجار، إلاّ إذا رجحت مصلحة قطعه، وذلك قاعدة: «الضرورة تقدَّر بقدرها».

ونظير هذه الآية قوله- عَزَّ وَجَلَّ- إخبارا عن فرعون في بني إسرائيل ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص، الآية: ٤]، وكذا قوله- تَعَالَى-: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ﴾ [البقرة، الآية: ٣٠].

٤- قطع الأرحام:

إن للأرحام لشأنًا عند الله، ولذلك قال- تَعَالَى-: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ﴾ [النساء، الآية:١]، فتقوى الأرحام فيه دعوى إلى الإحساس بوشائجها والإحساس بحقها، وتوقي هضمها وظلمها، والتحرج من خدشها، كل ذلك يتطلب

---

(١) التفسير الكبير: ١٨١/٧.

إرهاف الحساسية بها والتوقير لها؛ لذلك وجدنا القرآن ينعي على من سولت له نفسه أن يخرق حجبها بالخسران والبوار، فيعده مع القوم المفسدين، قال اللَّه- تَعَالَى-: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [البقرة، الآية: ٢٧]، ولئن اختلف المفسرون في معنى هذا القطع حيث يرى البعض أنه قرابة الأرحام، ويرى البعض الآخر أنه موالاة المؤمنين، ويرى آخرون أنه الاقتران بالقول والعمل، وقيل- أيضًا-: التفرقة بين الأنبياء في الإيمان ببعض والكفر ببعض.

أقول: إن اختلف المفسرون على هذه المستويات، فإن المعنى العام يشمل هذه الأحوال؛ «لأن مراد اللَّه- تَعَالَى- بما شرع للناس منذ النشأة إلى ختم الرسالة واحد، وهو إبلاغ البشر إلى الغاية التي خلقوا لها، وحفظ نظام عالمهم، وضبط تصرفاتهم فيه على وجه لا يعتوره خلل»[(١)] وما الأرحام إلا وشيجة من هذه الوشائج التي ينبغي أن تعم وتستمر في الخلق، ليستمر الرباط، وتتقوى العلائق المثمرة للاعتصام بحبل اللَّه «فاللَّه أمر بصلات كثيرة، أمر بصلة الرحم والقربى، وأمر بصلة الإنسانية الكبرى، وأمر قبل هذا كله بصلة العقيدة والأخوة الإيمانية التي لا تقوم صلة ولا وشيجة إلا معها، وإذا قطع ما أمر اللَّه به أن يوصل، فقد تفككت العرى، وانحلت الروابط، ووقع الفساد في الأرض بشتى ألوانه وصنوفه؛ حيث تتبع هذه الصنوف من الفسوق عن كلمة اللَّه، ونقض عهد اللَّه، وقطع ما أمر اللَّه به أن يوصل»[(٢)].

٥- مظاهر أخرى يعرضها القرآن الكريم وذلك في مثل قوله- تَعَالَى- حكاية عن أحوال فرعون الفسادية: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص، الآية:٤]، فالآية اشتملت على مفاسد خطيرة منها التكبر والتجبر فإنه مفسدة

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٧١/١.

(٢) في ظلال القرآن: ٥٢/١.

تتولد عنها مفاسد جمة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم وبث العداوة فيهم وسوء الظن بهم والاجتراء عليهم واحتقارهم، كل ذلك يحول دون جلب المصالح لهم ودرء المفاسد عنهم، ومنها جعلهم شيعًا وطوائف وأقسامًا مما يفضي إلى فساد، فمنهم المقربون ومنهم المبعدون مما يفضي إلى التحاسد والتباغض ويجعل البعض يتربص الدوائر بالبعض الآخر، ومن شأن الراعي الصالح أن يجعل الرعية كلها على صعيد واحد لا ميزة ولا فرقة!

ومن هذه المفاسد التي اقترفها هذا الفرعون المذكور في القرآن: الفتك بالذكور من المولودين وذلك لئلا يذهب ملكه، واستبقاؤه النساء حيات فيصرن بغايا؛ إذ ليس لهن حظ من علية القوم سوى قضاء الشهوة منهن من غير نكاح حلال، وباعتبار هذا المقصد ينقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة تذبيح الذكور؛ إذ كل ذلك اعتداء على الحق[1].

ومثل هؤلاء لا يعبؤون في تصرفاتهم برعي صلاح ولا تجنب فساد وصدق الله حين قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، حيث أشعر في هذا التذييل بكون خصال الفساد قد استحكمت فيه وتمكنت منه، وكأنها صارت خلقة لا خلقًا.

* * *

انتهى المجلد الأول
بحمد الله وتوفيقه، ويليه إن
شاء الله المجلد الثاني وأوله
المبحث الخامس
مقومات الصلاح

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ٢٠/٦٨- ٦٩.

رسائل جامعية

الكليات الشرعية في القرآن الكريم

تأليف
الدكتور الحسن حريفي

المجلد الثاني

دار ابن عفان
دار ابن القيم

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾

المبحث الخامس :

مقومات الصلاح

المطلب الأول :

التوحيد

وهو من الركائز التي يقوم عليها بناء الصلاح، ولسنا- هنا- بصدد الحديث أو البحث في التوحيد؛ لأنه سبق الكلام عنه استقلالًا، وإنما مُرَادُنا أن نكشف عن حاجة الصلاح والإصلاح لهذه الأرضية التي متى كانت صحيحة راسخة، كانت منطلقًا للأعمال الصالحة؛ إذ الميزان هو الميزان الشرعي؛ فهو الفاصل في القول، والمميز بين ما هو صالح وما هو فاسد، وبين ما هو غثٌّ وما هو سمين.

ولذلك وجدنا منطلقات الدعوات السالفة للأنبياء السالفين هي قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء، الآية:٢٥]، فالآية تقرير للأمر بالتوحيد الذي نطقت به الكتب، كل الكتب الإلهية، وأجمعت عليه دعوات الرسل، وقد صلح به دليل النقل، ودليل العقل، وقامت عليه حجة اللَّه- تَعَالَى (١) .

وَيَعْرِضُ القرآن دليل الوحدانية من المشهود في نظام الكون الواحد الدال على المدبر الواحد؛ فيقول: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء، الآيتان:٢١-٢٢].

---

(١) الدين الخالص: ٣٥/١.

وهذا السؤال في الآية إنما هو سؤال تقريع وإنكار للواقع من المنكرين، ووصف هؤلاء الآلهة بأنهم يُنْشَرُونَ من الأرض، فَيُقِيمُونَ الأموات، ويبعثونهم أحياء، فيه تهكم بتلك الآلهة التي اتخذوها، وهي من صفات الإله الحق... ذلك منطق الواقع المشهود في الأرض، وهنالك الدليل المستمد من واقع الوجود: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، وهو كقوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون، الآية:٩١]، والآيتان فيهما استدلال على استحالة وجود آلهة غير اللَّه؛ «إذ لو تعددت الآلهة، للزم أن يكون كلٌّ مُتَصِفًا بصفات الألوهية المعروفة آثارها، وهي الإرادة المطلقة، والقدرة التامة على التصرف، ثم إن التعدد يقتضي اختلاف متعلقات الإرادة والقدرة؛ لأن الآلهة لو استوت في تعلُّقات إرادتها تلك، لكان تعدد الآلهة عبثا؛ للاستغناء بواحد منهم، ولأنه إذا حصل كائن فإن كان حدوثه بإرادة متعددين، لزم اجتماع مؤثرات على مؤثر واحد، وهو محال»[(١)] ، فالكون- إذًا- قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعًا، وينسق بين أجزائه جميعًا، هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد، فلو تعددت الذوات، لتعددت الإرادات، ولانعدمت الوحدة، ولوقع الاضطراب والفساد تبعًا لفقدان التناسق، هذا التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشدُّ الملحدين؛ لأنه واقع محسوس، والفطرة السليمة تشهد شهادة فطرية بوحدة هذا الخالق المدبر لهذا الكون المنظم، الذي لا فساد في تكوينه، ولا خلل في سيره[(٢)] .

* * *

---

(١) التحرير والتنوير: ١٧/٣٩-٤٠.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/٢٣٧٣-٢٣٧٤.

المطلب الثاني :

نبـذ الهـوى

إذا علمنا أن أصل الحق وقوامه هو الخالق- عَزَّ وَجَلَّ-، ولو تعددت الآلهة، لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، وذلك أصل الحق، إذا علمنا هذا، ننتقل إلى حقيقة ما جاء به النبي ﷺ ؛ إذ لو فُرِضَ أن يكون الثابت نقيض هذا الحق، لتسرب الفساد إلى السماوات والأرض، « فلو فُرِضَ عدم البعث للجزاء لكان الثابت ألَّا جزاء على العمل، فلم يعمل أحد خيرًا إذ لا رجاء في ثواب، ولم يترك أحد شرًّا؛ إذ لا خوف من عقاب، فيغمر الشر الخير، والباطل الحق، وذلك فساد لمن في السماوات والأرض؛ ولذلك قال اللَّه- تَعَالَى-: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون، الآية:٧١]، وكذا لو كان الحق حَسَّن الاعتداء، والباطل قَبّح العدل، لارتمى الناس بعضهم على بعض بالإهلاك جهد المستطاع، فهلك الضرع والزرع، وهكذا في أهوائهم المختلفة، ويزيد أمرها فسادًا بأن يتتبع الحق كل ساعة هوى مخالفًا للّهوى الذي اتبعه قبل ذلك؛ إذ الأهواء لا تستقر على حال، فلا يستقر بذلك نظام ولا قانون، ويئول العالم إلى الفساد[١] . من خلال ذلك عُلِمَ عِظَمُ شأن الحق، وأن السماوات والأرض ومن فيهن ما قامت إلا به، وأن الهوى والتشهي يُفضِيَانِ بالخلق إلى فسادٍ عريض.



(١) التحرير والتنوير: ٩٣/١٨.

المطلب الثالث :

العدل والقسط

إلى جانب كون العدل من المقومات- كما سنرى- فإنه يعتبر من المحصنات للإبقاء على الصلاح- كما مرَّ معنا- فهو سياج يحمي عناصر الصلاح والإصلاح من أن تنماع في خضمِّ الفساد؛ لذلك وجدنا من الآيات العدد الهائل الذي يدعو إلى قيام الدنيا على العدل والقسطاس المستقيم، قال اللَّه- تعالَى-: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف، الآية:٢٩]، وقال: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة، الآية:٨]، وقال- تعالَى-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل، الآية:٩٠]، وقال- تعالَى-: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى، الآية:١٥]، وقال- عزَّ وجلَّ-: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد، الآية:٢٥]، والقسط: العدل في جميع الأمور؛ بحيث يتم به إجراء أمور الناس على ما يقتضيه الحق فهو عدل عام[١]، وكذا الميزان؛ إذ هو مستعار للعدل بين الناس وإعطائهم حقوقهم؛ لأن مما يقتضيه الميزان وجود طرفين يُرَادُ معرفة تكافئهما، وهذا الميزان تبينه كتب الرسل، «التي يُتَوَسَّلُ بها إلى فعل ما ينبغي من الأفعال النفسانية لأن يتميز الحق من الباطل والحجة من الشبهة، فإن معظم التكاليف الشاقة في الأعمال هو ما يرجع إلى معاملة الخلق»[٢]، وهو شأن كل الرسالات حيث جاءت في الأرض، وفي حياة الناس، ميزانًا ثابتًا ترجع إليه البشرية؛ لتقويم الأعمال، والأحداث، والأشياء، والرجال، وتقيم عليها حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء، وتصادم المصالح

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٧/٤١٦.

(٢) التفسير الكبير: ١٥/٢٤١، ٢٤٢.

والمنافع، هذا الميزان الذي لا يحابي أحدًا؛ لأنه يزن بالحق الرباني، ولا يحيف على أحد؛ لأن اللَّه رب الجميع؛ فبغير هذا الميزان لا يهتدي الناس إلى العدل!

* * *

المطلب الرابع :

مدافعة الناس بعضهم ببعض

وفي هذا الشأن يقول المولى- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة، الآية:٢٥١]، وهي من الحكم الإلهية، أراد من خلالها- سبحانه- أن تتصارع قوى الخير مع قوى الشر، «ولقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع اللَّه الناس بعضهم ببعض، وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء، ويقوم ذلك بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة، تَعْرِفُ الحق الذي بينه اللَّه لها، وتَعْرِفُ طريقها إليه واضحًا، وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض»[1] ، وتعرف أن اللَّه يدافع عن الذين آمنوا، فما عليها إلا أن تمتطي أسباب الدفع، وأن تتحمل في سبيله ما تتحمل، وما لا تتحمل طاعةً للَّه وابتغاءَ مرضاته، وإعلاءً لكلمته؛ وذلك لأنها تمثل إرادة اللَّه العليا في دفع الفساد عن الأرض، والتمكين للصلاح في هذه الحياة، ومن ثم أمكن القول ألَّا صلاح إلا بامتطاء الأسباب؛ لمدفعة الظالمين، وإلَّا لغلبوا، وبغوا في الأرض، وأوقعوا الفتن، فتكون الأرض مرتعًا لهم، وكوكبًا لتفريخ الفساد.

«لذلك كان من رحمة اللَّه على عباده، وإحسانه إلى الناس جميعًا، أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين في الأرض في كل زمان بقتال هؤلاء المفسدين، واللَّه ناصر أهل الإصلاح ما نصروا الحقَّ وأرادوا بثه في الأرض»[2]، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد، الآية:١٧].

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٢٧٠.

(٢) تفسير المنار: ٢/ ٤٩١.

وهكذا يضرب الله هذا المثل للحق والباطل، وللدعوة الباقية والدعوة الفانية؛ حيث إنَّ الباطل يطفو، ولكنه لا يلبث أن يذهب جفاءً مطروحًا لا حقيقة له، ولا تماسك فيه، والحق يظل هادئًا ساكنًا باقيًا في الأرض، وإنْ ظن البعض أنه قد انزوى وضاع، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد، الآية:١٧]، فيقرِّر مصائر الدعوات، ومصائر المعتقدات، ومصائر الأعمال والأقوال؛ فمن استجاب لله فله الحسنى، ومن لم يرفع بذلك رأسًا فإنما له الحساب الذي يسوء، ولو افتدى بملإ الأرض ذهبًا ما تُقبِّل منه، وخسر الدنيا والآخرة.



المبحث السادس :

من آثار الصلاح والفساد

* يقول اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء، الآية:٧]، وهي قاعدة لا تتغير في الدنيا والآخرة، والتي تجعل عمل الإنسان كله له بكل ثماره ونتائجه وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل، منه تنتج، وبه تتكيف، وتجعل الإنسان مسئولًا عن نفسه إن شاء أحسن إليها، وإن شاء أساء إليها، لا يلومن إلا نفسه، حين يحقُّ عليه الجزاء، وقد خطب النبي ﷺ أول بعثته، فقال- عليه الصلاة والسلام-: «إن الرائد لا يكذب أهله، واللَّه لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتجزون بالإحسان، إحسانًا وبالسوء سوءًا، وإنها لجنة أبدًا، أو لنار ابدًا»[١] .

فالمكلف لا بد أن يلقى جزاءه، وأن يواجه الجزاء من جنس عمله، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة، الآيتان:٧،٨]، فاللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- قد جعل في الأوامر إذا أُمْتُثِلَتْ، وفي النواهي إذا اجتنبت- أجورًا منتظرة، ولو شاء لم يفعل، وجعل في الأوامر إذا ارْتُكِبَتْ، والنواهي إذا اقْتُرِفَتْ- جزاء على خلاف الأول؛ ليكون جميع ذلك مُنْهِضًا للعزائم في الامتثال.

وها هنا شُبهة لا بأس مِنْ إيرادها، وهي شُبهة طائفة ممن يتعاملون مع التأويل عريًّا عن ضوابطه، فيتلاعبون بالنصوص ليصلوا بها إلى الفصل بين الجزاء وعلاقته بالعمل

---

(١) انظر الكامل في التاريخ ٦١/٢، وانظر خطب الرسول، ص: ٢٢، والرائد: الذي يتقدم لطلب الماء والكلإ لهم، فإن كذبهم أفسد أمرهم وأفسد أمر نفسه معهم؛ لأنه واحد منهم، وهو من أمثال العرب يضرب للناصح الأمين، لسان العرب ١٧٨/٣، مادة «رود» .

الفاسد، والشبهة التي اتخذوها ذريعة هي: إيهام العامة أن الأمر مرتبط بالمشيئة العليا، لا بعمل الإنسان، وأن المفسدين في الأرض، المنتهكين للحرمات، المستهزئين بالقيم، قد ينالهم العفو مهما ارتكبوا، وأنه يجوز أن يلحق العذاب بالصالحين؛ لأن اللَّه لا يسأل عمَّا يَفْعَلُ، وهو كلام مخالف للحقائق المثبتة المقرَّرة في الأصلين: الكتاب والسنة.

والقصد من الشُّبهة إسقاط قيم الأعمال، فلا يرهب أحد ذنبًا، ولا يرجو مؤمن حسنة، وهي فلسفة حقيرة أدَّت مهمتها في إفساد الأمم، وتلويث المجتمعات، وتهميش العقائد الدينية وإهانتها، واللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- يكذب ذلك كله بأسلوب صريح، فيقول- تَعَالَى-: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية، الآية: ٢١]، فذوو النُّهى يعلمون علم اليقين، أن عموم المشيئة لا يعني التسوية بين خائن وأمين، وأن جواز العفو لا يعني إبطال الشرائع وتعطيل القوانين، والناظر في رحاب كلام اللَّه يجد فصل المقال في هذا الشأن حيث يورد- إلى جوار الآية التي مرت معنا- صورًا عديدة في الوعد، وصورًا في الوعيد تنطق بعدل اللَّه، وتقرِّر قاعدة الجزاء من جنس العمل[١] .

وإليك بعض المواقع القرآنية التي تتجلَّى فيها هذه القاعدة الجامعة، وسأكتفي بسوق بعض الخصائص العامة للحياة الصالحة، ثم أُتْبِعُهَا ببعض الخسائس للحياة الفاسدة.



(١) وسنتعرض لهذه الكلية العظيمة بشيء من التفصيل حين الحديث عنها - إن شاء اللَّه.

المطلب الأول :

من آثار الصلاح

١- الاصطفاء على العالمين: قال الله- تعالَى-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة، الآية:٧]، وهي من خصائص الأبرار الصالحين، وثمرة نضيجة أثمرتها أعمالهم، فأخبر عنهم- جلَّ وعلا- أنهم خير البرية، «وقد استدل أبو هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بهذه الآية على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة»[١].

٢- الاستخلاف في الأرض ووراثتها: قال- تعالَى-: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [النور، الآية:٥٥]، وقال- سبحانه-: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء، الآية:١٠٥]، ففي الآية الأولى وعد بالاستخلاف عن الله في تدبير شئون عباده، وهو ما أخبر به- سبحانه- في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة، الآية:٣٠]، وفي قوله: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾ إيماء إلى أن الاستخلاف كائن لا محالة، وأنه يحصل في معظم الأرض، كما أن حرمة هذه الأمة تنتشر في المعمورة كلها؛ بحيث يهابهم من عاداهم من الأمم التي لم تدخل تحت حكمهم[٢].

وفي الآية الثانية نجد أن مصير الأرض آيل إلى أيدي عباد الله الصالحين، وهو الوعد الذي تكرر في الكتب كلها، وعلى ألسنة الرسل، تبشر بها الطائفة الناجية.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥٨٤/٤.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٨٦/١٨.

٣- الولاية الربانية: قال- تعالى-: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف، الآية:١٩٦]، وقال- سبحانه-: ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف، الآية:١٠١]، وهذه الولاية هي ولاية الحفظ والنصرة والرعاية، وما أثمرها إلا الصلاح، «وفي الآيتين تعريض لمن فقد هذا الصلاح بالخذلان والمحق»[١] .

٤- الحياة الطيبة الهنيئة: فإذا تمت للصالحين هذه الكرامات، من الاصطفاء على العالمين، والسيادة، والريادة، والتمكين، والولاية الربانية التي تفيد حب الله لعباده الصالحين، فتلك هي الحياة الهنيئة التي بُشِّرُوا بها في قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ﴾ [النحل، الآية:٩٧]، هذه الحياة التي فيها برد الصدور بلذة اليقين والإيمان، والرغبة في الموعود، والرضا بالقضاء، وعتق الروح من الاستعباد لغير الله، والاستكانة إلى المعبود بسر الوجود[٢] .

أما ما يَنْتَظِرُ الصالحين من مكافئة في المعاد، فقد تحدث عنه القرآن مبشرًا إياهم بجوائز لا يستأهلها إلا من عاش صالحًا متنورًا في حياته بنور الهدى والإيمان.

ومما أخبر به- سبحانه- عن عباده الصالحين- قوله تعَالَى-: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ [سبأ، الآية:٣٧]، فبشَّرَ الصالحين بمضاعفة الأجر والمثوبة، وقال- تعَالَى-: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ﴾ [آل عمران، الآية:٥٧].

كما بشَّرَهم بالفوز بالجنة؛ قال- تعَالَى-: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ [الطلاق، الآية:١١].

---

(١) محاسن التأويل: ١٩٦/٧.

(٢) محاسن التأويل: ١٥٦/١٠.

ومن البشارات - أيضًا -، الفوز بالرحمة؛ قال - تعالى -: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦۚ﴾ [الجاثية، الآية:٢٩]، وقال: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥﴾ [الأنبياء، الآية:٧٥]، وقال: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٦﴾ [الأنبياء، الآية:٨٦]، والدخول في الرحمة الربانية أسنى المطالب ومنتهى المقاصد؛ إذ الأعمال الصالحة لا يراد من ورائها إلا كسب التقوى؛ قال - تعالى -: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة، الآية:١٨٧]، ثم يذكر - سبحانه وتعالى - التقوى في مواطن أخرى؛ حيث يجعلها مطية إلى رحمته، فيقول: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٥٥﴾ [الأنعام، الآية:١٥٥]، فدلَّ بذلك على أن الرحمة هي محط الرحال، ومنتهى المآل.

* * *

المطلب الثاني:

من آثار الفساد

إذا كان للصالحين خصائص امتازوا بها في الدارين، ونالوا بها العقبى، قال الله-تَعَالَى-: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف، الآية:٤٤]، إذا كانت للصالحين هذه الخصائص؛ فللمفسدين خسائس ذُلُّوا بها، وأُهِينُوا في الدنيا والآخرة، وهي خسائس أثمرت ثمارًا بغيضة؛ ومنها:

١- **بغض الله لهم**: قال- تَعَالَى-: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة، الآية:٦٤]، فانتفت عنهم محبته، فحلَّ محلها كرهه وغضبه.

٢- لعنته عليهم، وسوء منقلبهم: قال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد، الآية:٢٥].

٣- **خسرانهم المبين**: قال- تَعَالَى-: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة، الآية:٢٧]؛ لأنهم استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل، والفساد بالصلاح، وعقاب هذه بثواب أضدادها.

٤- **خذلانهم**: فلا يأتون إلا عملًا باطلًا ولا يُنْتِجُونَ إلا فسادًا، قال الله- تَعَالَى-: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس، الآية:٨١]، «وإضافة عمل إلى ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، يؤذن بأن أعمالهم كلها فساد، والمراد بإصلاح عمل المفسدين الذي نفاه، أنه لا يؤيده؛

وليس المراد تصييره صالحاً؛ لأن ماهية الفساد لا تقبل أن تصير صلاحًا»[١].

٥- مضاعفة العذاب : قال- تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل، الآية:٨٨]، فيتضاعف لهم كما ضاعفوا كفرهم وإفسادهم بِصدِّهم غيرهم عن الإيمان، وهي كقوله- تعالى-: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف، الآية:٣٨].

* * *

(١) التحرير والتنوير: ٢٥٦/١١.

المبحث السابع :

ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد الأصولية والفقهية

قال العز بن عبدالسلام- رحمه اللَّه-: «الاعتماد في جلب مصالح الدارين ودرء مفاسدهما على ما يظهر على الظنون، وللدارين مصالح إذا فاتت، فسد أمرهما، ومفاسد إذا تحققت هلك أهلهما، وتحصيل معظم هذه المصالح بتعاطي أسبابها مظنون غير مقطوع به، فإن عُمَّالَ الآخرة لا يقطعون لحسن الخاتمة، وإنما يعملون بناء على حسن الظن، وهم- مع ذلك- يخافون ألا يقبل منهم ما يعملون، وقد جاء التنزيل بذلك في قوله- تعَالَى-: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ [المؤمنون، الآية: ٦٠]، فكذلك أهل الدنيا إنما يتصرفون بناء على حسن الظنون، وإنما اعتقد عليها؛ لأن الغالب صدقها عند قيام أسبابها؛ فإن التجار يسافرون على الظن أنهم يسلمون ويربحون، والأكارون يحرثون ويزرعون بناءً على أنهم مستغلون»... إلى أن قال: «الناظرون في الأدلَّة المجتهدون في تعرف الأحكام يعتمدون في الأكثر على ظن أنهم يظفرون بما يطلبون... ومعظم هذه الظنون صادق موافق غير مخالف ولا كاذب، فلا يجوز تعطيل هذه المصالح الغالبة الوقوع خوفًا من ندور الكذب المظنون، ولا يفعل ذلك إلا الجاهلون»[1] .

وبنظرة فاحصة، ووقفة تأمل يعنُّ لنا من خلال هذا النص أن الرجل قد جعل أساس المصالح الدنوية والأخروية - على حد سواء- مبناها على الظن؛ وكان من أجل تحصيل هذه المصالح أن وجدنا الخلق يجتهدون، ومن ضمنهم أهل العلم، بما فيهم

---

(١) قواعد الأحكام: ١/٥، ٦.

أصحاب القواعد، سواء الأصوليون أو الفقهاء؛ حيث نُظِرَ في صنيعهم واعتُبِرَ اجتهادهم، واستنباطهم، وتقعيدهم، وتفريعهم- إنما هو من قبيلَ جلب المصالح ودرء المفاسد، وهو منهج تجلَّتْ فيه النظرة المقاصدية؛ مما أثمر لديه أن هذه القواعد مآلها القاعدة العظمى الجامعة؛ وهي قاعدة درء المفسدة، وجلب المصلحة.

وإذا كان منهجه يئول إلى النظر في نتائج أعمال الدنيا والدين؛ فإن الأصوليين والفقهاء عكفوا على النظر في تطلب الوقوف على القواعد، باعتبارها وسائل موصلة إلى تلك الغاية، وبناءً على هذا، أمكن القول بأن القواعد ما هي إلا فروع للكلية العظمى التي تمثلت في قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾. وإليك بعض ما يتفرع عنها من القواعد الأصولية والفقهية.



المطلب الأول :

ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من بعض القواعد الأصولية

١- قاعدة : سد الذرائع :

قال اللَّه- تعالى-: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام، الآية:١٠٨]، والمخاطب بهذا النهي، المسلمون لا الرسول ﷺ ؛ لأن خلقه الكريم، وطبعه القرآني حال دون كونه فحّاشًا أو سَّبابًا أو طعّانًا؛ روى الإمام الطبري- رحمه اللَّه- عن قتادة قال: « كان المسلمون يسبون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم، فنهاهم اللَّه أن يتسببوا لربهم »[1] ، والمراد ما يصدر من بعض المسلمين من كلمات الذم والتعيير لآلهة المشركين كما جاء ذلك في السيرة النبوية: أن عروة الثقفي جاء رسولًا من أهل مكة إلى رسول اللَّه ﷺ يوم الحديبية، فكان من جملة ما قاله لرسول اللَّه: « وأيم اللَّه، لكأني بهؤلاء- يعني المسلمين- قد انكشفوا عنك- يريد بذلك رسول اللَّه ﷺ ، وكان أبو بكر من خلف رسول اللَّه ﷺ ، فقال لعروة: « امصص بظر اللات » ... إلى آخر الخبر[2] .

أما ما يرد في القرآن الكريم من إثبات نقائص آلهتهم، مما يدل على انتفاء ألوهيتها، فليس من السب ولا الشتم، قال القرطبي- رحمه اللَّه-: « قال العلماء: وحكم هذه

---

(١) جامع البيان: ٣٠٩/٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٣١٣/٢.

الآية يأتي في هذه الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في مَنَعة وضيق، أنه إن سب المسلمون أصنامه، أو أُمُورَ شريعته، أن يسب هو الإسلام أو النبي ﷺ أو اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ-، لم يحل للمسلم أن يسبَّ صلبانهم ولا كنائسهم؛ لأنه بمنزلة البعث على المصعية»[١] .

ويتجلى التعبير عن قاعدة سد الذرائع عند قوله: «لأنه بمنزلة البعث على المعصية»، وسد الذرائع هو السائد في التعبير لدى السادة المالكية، قال القرافي: «وهو اصطلاح أصحابنا، وهذا اللفظ في مذهبنا؛ ولذلك يقولون: إن معناه: حسم مادة الفساد دفعًا لها، فمتى كان الفعل السالم عن المفسدة وسيلة إلى المفسدة، مَنَعَ مالك من ذلك الفعل كثيرًا من الصور»[٢] ، وعبّر ابن العربي- رحمه اللَّه- عنها- أيضًا- بقوله: «منع اللَّه في كتابه أحدًا أن يفعل فعلًا جائزًا يؤدي إلى محظور، ولأجل هذا تعلق علماؤنا بالآية- يريد قوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ...الآية- في سد الذرائع، وهو كل عقد جائز في الظاهر يئول، أو يمكن أن يتوصل به إلى محظور[٣]»، وعند تفسيره لقوله- تَعَالَى-: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [الأعراف، الآية:١٦٣]، قال- رحمه اللَّه-: «هذه الآية من أمهات الشريعة»[٤] ، ثم قال: «وهي أصل من أصول إثبات الذرائع التي تفرد بها مالك - وتابعه أحمد في بعض رواياته -، خفيت على الشافعي، وأبي حنيفة، مع تبحرهما في الشريعة، وهو كل عمل ظاهر الجواز يتوصل به إلى محظور، كما فعل اليهود؛ حيث حرم عليهم صيد السبت، فسكَّروا الأنهار، وربطوا الحيتان فيه إلى يوم الأحد»[٥]، وما يلاحظ على الذرائع أنها استعملت بكثرة في سد

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٦١/٧.
(٢) الفروق: ٣٢/٢.
(٣) أحكام القرآن: ٧٤٢/٢.
(٤) أحكام القرآن: ٧٩٢/٢.
(٥) أحكام القرآن: ٧٩٨/٢.

الفساد، وإن كان يؤخذ بها في جلب المصالح، فإذا أضيفت إلى: « السد » تعينَّ المراد انصرافها إلى الفساد؛ لأن المصالح لا يعمل من أجل سدها.

لذلك فالذرائع لا يراد منها كلها الفساد، وهو مما يؤخذ من تقسيم الشاطبي- رحمه اللَّه- للذرائع؛ حيث نظر إلى ما يسببه من مفاسد لغير الفاعل، فجعل ذلك في أقسام أربعة:

الأول : فعل مأذون فيه، يؤدي إلى المفسدة قطعًا، ويعني بذلك القطع العادي؛ كحفر البئر خلف باب الدار في طريق مظلم، بحيث يقع فيه الداخل لا محالة، أقول: « ولا شك أن الإجماع المحكي من قبل القرافي ينصرف إلى هذا القسم بالذات »[(١)] .

الثاني : فعل مأذون فيه، يكون أداؤه إلى المفسدة نادرًا؛ كحفر البئر بموضع لا يؤدي غالبًا وقوع أحد فيه، وكزراعة العنب ولو اتُّخِذَ ذلك العنب بعد ذلك للخمر.

الثالث : فعل مأذون فيه؛ لما فيه من مصلحة، ولكنه يؤدي إلى المفسدة غالبًا- أي من غلبة الظن لا من باب العلم القطعي-؛ كبيع السلاح وقت الفتن، وبيع العنب للخمار، ونحو ذلك مما يقع في غالب الظن أداؤه إلى مفسدة لا على سبيل القطع.

الرابع : فعل مأذون فيه لما فيه؛ من مصلحة ولكنه يؤدي إلى المفسدة كثيرًا، لا غالبًا؛ بحيث إن هذه الكثرة لا تبلغ مبلغًا يحمل العقل على ظن دوام المفسدة فيه؛ وذلك كمسائل البيوع، ومنها بيع السلعة بعشرة إلى شهر، ثم شراؤها بخمسة قبل الشهر، فإن مالك يرى أنه أخرج من يده خمسة الآن، وأخذ عشرة آخر الشهر، فهذه وسيلة لسلف خمسة بعشرة إلى أجل توسلًا بإظهار البيع لذلك[(٢)].

---

(١) الفروق : ٣٣/٢.

(٢) الفروق : ٣٢/٢.

ومن هذه التقسيمات أمكن القول: إن الذرائع أصل في الفقة الإسلامي أخذ به الفقهاء جميعًا، وإن اختلفوا في مقداره، إلا أنهم لم يختلفوا في كونه أصلًا مقررًا ثابتًا.

ومن تطبيقات هذه القاعدة في القرآن:

١- قوله- تَعَالَى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ [البقرة، الآية:١٠٤]، ووجه الاستدلال بالآية الشريفة، هو أن اللَّه- تَعَالَى- نهى المؤمنين أن يقولوا هذه الكلمة- مع أن قصدهم كان حسنًا-؛ لئلا يكون ذلك ذريعة إلى أن تَقُولهَا اليهود للنبي ﷺ بقصد مغاير؛ إذ كانوا يعنون بها سب النبي ﷺ .

٢- وقوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ [النور، الآية:٣١]، ووجه الاستدلال من الآية الكريمة: أن اللَّه- تَعَالَى- منع المؤمنات من الضرب بالأرجل، وهو- وإن كان جائزًا في نفسه- إلا أنه يكون سببًا إلى سماع الرجال صوت الخلخال، فيلفت أنظارهم إلى النساء فيكون ذلك داعيًا إلى الفتنة.

٣- قوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ١٠﴾ [النساء، الآية:١٠]، قال العز بن عبد السلام- رحمه اللَّه-: «وأكل مال اليتيم من الكبائر، فإن وقع في مال خطير فهذا ظاهر، وإن وقع في مال حقير؛ كزبيبة وتمرة، فهذا مشكل... ثم قال: ويجوز أن يُجْعَلَ من الكبائر وإن لم تتحقق المفسدة فيه»[1].

(١) قواعد الأحكام: ١/ ٢٠.

٢- قاعدة : النهي عن الشيء يقتضي فساده :

وقبل مباشرة القاعدة يَحْسُن بنا أن نوطئ لها، وذلك ببيان ماهية النهي، ووجه استعماله في التحريم، وأثره في العبادات والمعاملات.

ماهية النهي: النهي هو القول الدال على طلب الامتناع من الفعل على وجه الاستعلاء، وهذا الطلب يكون بصيغة: «لا تفعل»، وهي صيغة النهي المعروفة؛ كقوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام، الآية:١٥١]، ويكون بما يجري مجراها؛ كما في صيغة الأمر الدال على الكف؛ كقوله- تَعَالَى- في شأن تلبية نداء الجمعة: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة، الآية:٩]، وكما في مادة النهي؛ مثل قوله- تَعَالَى-: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾، وكما في الجملة الخبرية المستعملة في النهي من طرق التحريم أو نفي الحلِّ؛ كقوله- تَعَالَى- في شأن المحرمات من النساء: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء، الآية:٢٣]، وقوله في شأن أخذ عوض من المطلقات: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ [البقرة، الآية:٢٢٩]، ولئن كان النهي في اللغة حقيقة في طلب الترك واقتضائه- كما يقول الآمدي-، فإن استعماله وَرَدَ على وجوه عدة[1] . ومن هذه الوجوه التحريم؛ كقوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة، الآية:٢٢١]، والكراهة؛ كقوله- تَعَالَى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة، الآية:٨٧]، والإرشاد؛ كقوله- تَعَالَى-: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة، الآية:١٠١]، والدعاء: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة، الآية:٢٨٦]، والتيئيس: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا

(١) انظر الإحكام في أصول الأحكام للآمدي: ٢/٢٧٥.

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم، الآية:٧]، والتحقير: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [طه، الآية:١٣١].

والذي يعنينا من هذه الأوجه كلها استعماله في التحريم، على أن جمهور الأصوليين يذهبون إلى أن دلالة النهي على التحريم على الحقيقة، لا يتم إلا إذا ورد مطلقًا[١]، ومن أمثلته في القرآن قوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة، الآية:٢٢١]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة، الآية:١٨٨]؛ حيث جاء النهي مطلقًا، فأفاد في الآية الأولى تحريم زواج المسلم بالمشركات، وأفاد في الثانية تحريم الاعتداء على أموال الآخرين، فتحصَّل من اللغة والشرع أن النهي يقتضي التحريم، ويترتب على مرتكب المنهي عنه كونه عاصيًا مستحقًّا للعقوبة، قال الشافعي- رحمه اللَّه-: «ومن فعل ما نهي عنه وهو عالم بنهيه، فهو عاصٍ بفعل ما نهي عنه، وليستغفر اللَّه ولا يعود»[٢].

وما ينبني على ما سبق هو أن: «النهي يقتضي فساد المنهي عنه، سواء كان ذلك في العبادات، أو في المعاملات، وهو مذهب جماهير الفقهاء من أصحاب الشافعي، ومالك، والحنابلة، وجميع أهل الظاهر»[٣]، ومسلكهم في هذا النهي- حين يرد بصفة الإطلاق-؛ فإنه ينصرف بكليته إلى ذات الشيء المنهي عنه على وجه الحقيقة، كما أن سلامة التصرفات الشرعية من عبادات ومعاملات إنما تُسْتَمَدُّ من حكم الشارع بصحتها؛ لاستيفائها ما حدد لها في أوامره ونواهيه كي تكون صحيحة[٤].

---

(١) تفسير النصوص: ٣٧٩/٢.
(٢) الرسالة، ص: ٣٥٣.
(٣) تفسير النصوص: ٣٨٩/٢.
(٤) تفسير النصوص: ٣٩١/٢.

والصحابة، ومن جاء بعدهم، كانوا يستدلون على بطلان الأفعال والعقود بنهي الشارع عنها، من غير نكير من أحد منهم، ومن ذلك استدلال ابن عمر على بطلان نكاح المشركات بقوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ﴾ [البقرة، الآية:٢٢١]، وكذا استدلالهم على تحريم الربا والبيع والأنكحة بما ورد من النهي في الكتاب والسنة[1]، ومن تطبيقات هذه القاعدة في القرآن الكريم قوله- تَعَالَى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ﴾ [الجمعة، الآية:٩]، فالأمر الوارد في قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ﴾ يدل على أن من تَلَبَّسَ بالبيع وقت النداء فإن بيعه فاسد.



(١) إرشاد الفحول، ص: ١٩٤.

المطلب الثاني :

ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من بعض القواعد الفقهية

١- قاعدة : درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح :

وذلك لأن اعتناء الشارع بالمنهيات أشد من اعتنائه بالمأمورات(١)، قال ﷺ : « إذا أمرتكم بشيء فآتوا منه ما استطعتم »(٢) .

ومن تطبيقاتها في القرآن الكريم:

أ- قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل، الآية:١٠٦]، فالتلفظ بكلمة الكفر مَفْسَدَة محرمة؛ لكنه جائز بالحكاية والإكراه إذا كان قلب المكره مطمئنًا؛ « لأن حفظ المهج والأرواح أكمل مصلحة من مفسدة التلفظ بكلمة لا يعتقدها الجنان »(٣) .

ب- قوله- تَعَالَى-: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة، الآية:٢١٩]، فحرَّمهما لأن مفسدتهما أكبر من منفعتهما، أما منفعة الخمر فبالتجارة ونحوها، ومنفعة

---

(١) شرح القواعد الفقهية، ص: ٢٠٥.

(٢) رواه البخاري ٢٥١/١٣ (كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ .

(٣) قواعد الأحكام: ٧٥/١.

الميسر فيما يأخذ القامر من المقمور، وأما مفسدة الخمر فبإزالتها العقول، وما تحدثه من العداوة والبغضاء، والصدِّ عن ذكر اللَّه، وعن الصلاة، وهي نفس المفاسد الناجمة عن القمار، وهي مفاسد عظيمة نسبة إلى المنافع المذكورة إليها[١] .

٢- قاعدة: إذا تزاحمت المصالح قُدِّمَ الأعلى منها، وإذا تزاحمت المفاسد، واضطر إلى واحد منها، قُدِّمَ الأخف:

وهو أمر مَنْ وُفقَّ إليه هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم، وأول سبيله معرفة المصالح وفضلها؛ بحيث يتعين المضي إلى جلب الأفضل فالأفضل، وما يقال في المصالح يقال في المفاسد؛ حيث يعمد إلى درء الأعظم مفسدة بالأخف عند التزاحم.

ومن تطبيقاتها في القرآن الكريم:

١- في تزاحم المصالح:

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء، الآية:٣٦]، فطاعة اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- هي الأولى بحيث لا تقدم طاعة أحد على طاعته، ومن صوره ألا يطيع والديه في منعهما له من الحج الواجب، والجهاد المتعين، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

* وكذلك ما يتعلق بالأركان الباقية بحيث يجب عليه تقديم الواجب من الصلاة على النافلة، والزكاة على الصدقة، والصيام الفرض على صيام النفل.

---

(١) قواعد الأحكام: ٧٤/١.

٢- في تزاحم المفاسد:

* قوله- تَعَالَى-: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الكهف، الآية:٧١]؛ لأن خرق السفينة مفسدة وذهابها كلها غصبًا من المَلِكِ الذي أمامهم مفسدة أكبر، فارتكب الأخف وهو الخرق؛ لئلا يئول الأمر إلى الغصب، وهو أعظم مفسدة، وأشد ضررًا على المساكين.

* قوله- تَعَالَى-: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ [الكهف، الآية:٧٤]، وذلك أن الحال دائرة بين قتله للغلام وهو مفسدة، وبين إرهاقه لأبويه بالكفر، وإفساده لدينهما، وهي مفسدة أعظم، فارتكب الأخف؛ وهو القتل.

* قوله- تَعَالَى-: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص، الآية:٢٠]، فإذا اعْتُبِرَ هذا من قبيل النميمة فهو مفسدة محرمة؛ لكنها جائزة، أو مأمور بها، إذا نقل للمسلم أن هناك من يريد قتله، أو هتك عرضه، أو أخذ ماله، فيكون من قبيل التوسل بهذا إلى دفع ما هو أعظم مفسدة عن هذا المسلم.

* * *

الفصل الثالث :

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

المبحـــث الأول : ذكر بعض محال ورودها في القرآن

المبحث الثانـي : فقهها

المبحث الثالـث : قيمتها

المبحث الرابــع : منهج القرآن في رفع الحرج

المبحث الخامس : مواكبة الكلية لمواكبة الحياة

المبحث السادس : الكلية والتشريع

المبحث السابــع : تفريعات وتطبيقات

المبحث الأول :

ذكر بعض محالِّ ورودها في القرآن

* قوله- تعالَى-: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة، الآية:١٧٣].

* قوله- تعالَى-: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ إلى أن قال: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة، الآية:١٧٨].

* قوله- تعالَى-: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة، الآية:١٨٤].

* قوله- تعالَى-: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة، الآية:١٨٥]، وقوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾ [البقرة، الآية:١٨٧].

* وقوله- تعالَى-: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة، الآية:٢١٨]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة، الآية:٢٢٠]، وقوله: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة، الآية:٢٢٥]، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة، الآية:٢٨٦]، وقوله- تعالَى-: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة، الآية:٢٨٦].

* قوله- تعالَى-: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران، الآية:٩٧].

* قوله- تعالى-: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ [النساء، الآية:٢٤]، وقوله- تعالى-: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء، الآية:٢٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء، الآية:٢٩]، وقوله- تعالى-: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء، الآية:٤٣]، وقوله- تعالى-: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء، الآية:٩٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [النساء، الآية:١٠١]، وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ [النساء، الآية:١٠٢].

* قوله- تعالى-: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة، الآية:٣]، وقوله- تعالى-: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾ [المائدة، الآية:٩٣].

* قوله- تعالى-: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام، الآية:١٢]، وقوله- تعالى-: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام، الآية:١١٩]، وقوله- تعالى-: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام، الآية:١٥٢]، وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام، الآية:١٤٦].

* قوله- تعالى-: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ [الأعراف، الآية:٤٢]، وقوله- تعالى-: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف، الآية:١٥٧].

* قوله- تعالى-: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال، الآية:٦٦].

* قوله- تعالى-: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة، الآية:٩١]، وقال- تعالى-: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة، الآية:٩٢].

* قوله- تعالى-: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل، الآيات: ٥-٧]، قوله- تعالى-: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل، الآية:١٠٦]، قوله- تعالى-: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [النحل، الآية:١١٥].

* قوله- تعالى-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء، الآية:١٠٧].

* قوله- تعالى-: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المؤمنون، الآية:٦٢].

* قوله- تعالى-: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [النور، الآية:٢٩].

* قوله- تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [النور، الآية:٥٨].

* قوله- تعالى-: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور، الآية:٥٩].

* قوله- تعالى-: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ﴾ [القصص، الآية:٥٩].

* قوله- تعالى-: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ﴾ [الأحزاب، الآية:٥]، قوله- تعالى-: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب، الآية:٣٧]. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾[الأحزاب، الآيتان:٥٠،٥١]، وقوله- تعالى-: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ [الأحزاب، الآية:٥٥].

* قوله- تعالى-: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ [الفتح، الآية:١٧].

* قوله- تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [المجادلة، الآية:٢-٤]، قوله- تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢﴾ [المجادلة، الآية:١٢].

* قوله- تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾ [الممتحنة، الآية:١٠].

* قوله- تعالى-: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن، الآية:١٦].

* قوله- تعالى-: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق، الآية:٧].

* قوله- تعالى-: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ [الأعلى، الآية:٨].

* قوله- تعالى-: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح، الآيتان:٥،٦].

* * *

المبحث الثاني :

فقهها

المطلب الأول :

لئن كان مطلع الآية الكلية يوحي بأن اللَّه- تَعَالَى- يأمر بالجهاد في سبيله، وهو قتال أهل الكفر، فإن من المفسرين من رأى أن العموم حسن[١] ، حيث يأمر- سبحانه- عباده المؤمنين أن يجاهدوا أنفسهم، وأن يجاهدوا الكفار والمنافقين، وأن يجاهدوا الظلمة المعتدين، فكان ذلك أمرًا عامًّا يَلْزَمُ منه أن يكون المأمور أهلًا للإتيان بالمأمور به؛ لذلك أتبعه بقوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾، هذا الاجتباء الذي يعني الاختيار والاصطفاء، وهو قربة وزلفى من اللَّه، ومن قربه العظيم، لزمه دفع أعدائه ومجاهدة نفسه بترك ما لا يرضاه.

ودفعًا لتوهم التكاليف والمشاق التي لا تطاق عند التلبس بهذه المأمورات والمنهيات المؤلفة للتشريع، حرص الشرع أن يزفَّ البشارة إلى المكلفين مخبرًا إياهم بقوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٢] [الحج، الآية:٧٨].

---

(١) المحرر الوجيز ١١/٢٢٠.

(٢) والقول بسماحة الشريعة ويسرها حق لا مراء فيه، إلا أن من الناس من يمضي في الاحتجاج بهذا التيسير قصد التفلت من أحكام الشريعة، والتحايل عليها، واتباع الهوى في الأخذ بالرخص والشذوذات الفقهية، وكل ذلك باطل يتبعه أصحاب الهوى يريدون بذلك تحلل المجتمع من أحكام الشريعة تحت مظلة التيسير! وترك الحرج، وصدق اللَّه العظيم: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء، الآية: ٢٧].

وذلك حتى يَسْهُلَ العمل بهذه الشريعة فيسعد أهلها بسهولة الامتثال، ولقد امتن الحق- سبحانه- بهذا في كثير من المواضع منها هذه الآية الكلية، حيث بَيَّنَ أن هذه الحنيفية السمحة التي جاء بها النبي ﷺ مبنية على التخفيف واليسر لا على الحرج الذي يعني الضيق. وقد أطلق الحرج على عسر الأفعال تشبيهًا للمعقول بالمحسوس، كما أن الرسول ﷺ يبشّرُ أتباعه بهذا في أحاديث كثيرة؛ منها قوله ﷺ : « بُعثتُ بالحنيفية السَّمحة »[١] ، فكان أن سمَّح اللّه هذا الدين، تحبيبًا له في النفوس، ورفعًا للآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا، وقد اختلف العلماء في هذا الحرج الذي رفعه اللّه، فقيل: هو ما أحلَّ اللّه من النساء مثنى وثلاث ورباع وملك اليمين، وقيل المراد قصر الصلاة، والإفطار للمسافر والصلاة بالإيماء على من لا يقدر على غيره، وإسقاط الجهاد عن الأعرج والأعمى والمريض، واغتفار الخطإ في تقديم الصيام وتأخيره؛ لاختلاف الأهلة وكذا في الفطر والأضحى.

وقيل المعنى أنه- سبحانه- ما جعل عليهم حرجًا بتكليف ما يشق عليهم ولكن كلفهم بما يقدرون عليه.

وقيل: المراد بذلك أنه جعل من الذنب مخرجًا بفتح باب التوبة وقبول الاستغفار والتكفير فيما شرع فيه الكفارة والأرش والقصاص في الجنايات وردُّ الملل أو مثله أو قيمته في الغضب ونحوه[٢] .

لو قال أمْعَنَ لكان أحْسَنَ، أقول: ومن غلغل النظر في الآية، ظهر له أن الأمر أعمُّ؛ لأنه- تَعَالَى- قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾، وكل هذه الأمور التي ذكرت هي من الدين ولا شك، فاقتضت الآية العموم في كل التكاليف، حيث « حطَّ- سبحانه- ما فيه مشقة من التكاليف على عباده إما بإسقاطها من الأصل، وعدم التكليف بها، أو

(١) مسند أحمد: ٢٦٦/٥.

(٢) فتح القدير: ٤٧١/٣.

بالتخفيف، وتجويز العدول إلى بدل لا مشقة فيه أو بمشروعية التخلص من الذنب بالوجه الذي شرَّعه اللَّه، فتكون الآية أعظم نفعًا وأشد وقعًا وأكثر فائدة إن أُخِذَتْ على الوجه العام[1].

* * *

(١) فتح القدير: ٣/٤٧١.

المطلب الثاني :

إطلاقات عليها

إن المتأمل للآيات السابقة التي وَرَدَتْ في سياق الحديث عن امتنان اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- برفع الحرج والكلفة عن المكلفين، لِيَجِدَنَّ رفع الحرج واردًا بإطلاقات متعددة، وهو من قبيل براعة الكتاب في تصريف القول، وثروته في أفانين الكلام، حيث يورد المعنى بألفاظ وطرق مختلفة بمقدرة فائقة خارقة، وحسبنا أمثلة تهدينا إلى الإشراف على هذه الحقيقة، حيث إن الحرج يَرِدُ في القرآن بتعبير ذات الحرج، ومرة بتعبير اليسر والتخفيف، ومرة برفع العسر، وأخرى بنفي العنت، وفي مقام آخر نجد التعبير بنفي الجناح، ومرة بالنهي عن الغلو في الدين، ومرة بنفي المؤاخذة، ومؤدى هذه التعبيرات وهذه الإطلاقات كلها هو رفع الضيق والمشقة التي لا تطاق عن المكلفين، وإليك نماذج لكل هذه الإطلاقات.

١- **من آيات نفي الحرج** : ومن هذه الآيات ما هو نصٌّ صريح في نفي الحرج عن الدين كله؛ كقوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج، الآية:٧٨]، فهي عامة في بابها، جامعة لكل ألوان المشاق التي قد تلابس التكاليف.

ومنها ما هو خاص يُقْصِرُ نفي الحرج على فئات معينة، وفي أحوال خاصة، وهذا لا يعني قصور دلالتها، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومن مثل ذلك قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة، الآية:٦]، فهذا الجزء من الآية الكريمة إنما ورد تعليلًا لرخصة التيمم، والحرج المنفي هنا هو:

أولًا : الحرج الحسي لو كلفوا بطهارة الماء مع المرض والسفر.

ثانيًا : الحرج النفسي لو مُنِعُوا من أداء الصلاة في حال العجز عن استعمال الماء؛ لضرر أو لسفر أو لغيرها، فإن المسلمين الخلَّص كانوا- ولا زالوا- يرتاحون إلى الصلاة ويميلون إليها[١] ، ونظير هذه الآية قوله- تعالى-: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة، الآية:٩١]، فالآية تمثل جوابًا عن سؤال مقدر نشأ من تهويل القعود عن الغزو وما توجهه به إلى المتخلفين من الوعيد، وإعادة صرف النفي في عطف الضعفاء والمرضى لتوكيد نفي المؤاخذة عن كل فريق بخصوصه[٢] ، ومثله- أيضًا- قوله- تعالى-: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا * مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب، الآيتان:٣٧،٣٨]، « فالحكمة من هذا التزويج في إقامة الشريعة تظهر- كما أشارت الآية- في إبطال الحرج الذي كان يتحرجه أهل الجاهلية من أن يتزوج الرجل بزوجة دعيِّه، فلما أبطله اللَّه بالقول في سورة الأحزاب؛ حيث قال- تعالى-: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب، الآية:٤]، أكد إبطاله بالفعل حتى لا يبقى أثر من الحرج كأن يقول قائل: إن ذاك وإن صار حلالًا فينبغي التنزه عنه لأهل الكمال، فاحتيط لانتفاء ذلك بإيقاع الزوج بامرأة الدعي بعد طلاقها منه- من أفضل الناس وهو النبي ﷺ فلا حرج على أي مسلم في زواج من هذا القبيل، فإن له في رسول اللَّه إسوة حسنة، ولا حرج على النبي ﷺ فيما فرض اللَّه له »[٣] .

---

(١) التحرير والتنوير: ١٣١/٦.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٩٤/١٠.

(٣) التحرير والتنوير ٣٨/٢٢.

٢- من آيات التيسير والتخفيف:

أ- ومن هذا النوع ما وَرَدَ على شكل التيسير، فجاء الإخبار بهذا التيسير والتخفيف ابتداء، وذلك كقوله- تَعَالَى-: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ⑧﴾ [الأعلى، الآية:٨]، أي نهيئك للأمور اليسرى في أمر الدين وعواقبه من تيسير حفظ القرآن- الذي هو وعاء الشريعة- وتيسير الشريعة التي أُرْسِلْتَ بها[١]، ومن هذا القبيل قوله- تَعَالَى-: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ⑤ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ⑥﴾ [الشرح، الآيتان: ٥،٦]، حيث وعد اللَّه- تَعَالَى- نبيه ﷺ بأن يجعل له الأمور العسرة عليه يسرة له، وهو ما سبق وعده في قوله- تَعَالَى-: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ⑧﴾[٢] [الأعلى، الآية:٨]، ومن آثار هذا التيسير أن رسول اللَّه ﷺ ما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وقد قال لأصحابه- رضوان اللَّه عليهم-: «إنما بعثتم ميسرين لا معسرين»[٣].

ب- ومن هذا النوع من الآي ما يرد باعتباره علة لما قبله ويكون القصد منه التخفيف والتيسير، وذلك كقوله- تَعَالَى- عقب الحديث عن الصيام وبعض أحكامه-: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة، الآية:١٨٥]، فهذا القول الكريم يتكون من جملتين، جملة إثبات وجملة نفي، الأولى: مقصودة ابتداء، والثانية: جاءت تأكيدًا لها فهما معا تُبيِّنَانِ أن اللَّه- تَعَالَى- أراد بتشريعه الأحكام، اليسر والسهولة والرفق بالناس، ونفي العسر والشدة والضيق عنهم، ولئن كان هذا القول واردًا مباشرة بعد النص على

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٨٢/٣٠.

(٢) التحرير والتنوير: ٤١٤/٣٠.

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٣٢٣/١ (كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد).

الترخيص- إذ هو كالعلة له- فإن دلالته على العموم واضحة جليّة، وقد أشار غير واحد من المفسرين إلى ذلك[١] .

والمراد باليسر في الآية العمل الذي لا يجهد النفس ولا يثقل الجسم وليست فيه مشقة زائدة، ويقابله تمام المقابلة العسر؛ لأن هذا فيه إجهاد للنفس، وفيه ضرر للجسم وفيه مشقة زائدة.

ومن أمثلته- أيضًا- قوله- تَعَالَى-: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ٢٨﴾ [النساء، الآية:٢٨]، وفيها تذكير بأن اللَّه- تَعَالَى- لا يزال مراعيًا رفقه بالعباد ولا يريد بهم إلا اليسر، وإلى جانب هذا المعنى، فقد حوت الآية إشارة تدل على أن هذا الدين بين حفظ المصالح ودرء المفاسد في أيسر كيفية وأرفقها، حتى إن الشريعة لتعمد إلى إلغاء المفاسد حين يشعر الحمل إلى تركها أنه مؤدٍّ بالناس إلى تعطيل مصالحهم[٢] .

٣- من آيات نفي العنت: «والعنت يطلق ويراد به المشقة والصعوبة والشدة والفساد والهلاك والإثم والغلط والخطأ والزنا»[٣] ، وما يهمنا من هذه المعاني ما وَرَدَ منها أولًا وهو ما دل على المشقة، وقد ذكر العنت في آيتين من القرآن:

* في قوله- تَعَالَى-: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات، الآية:٧]، فقوله- تَعَالَى-: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾، خبرٌ أُرِيدَ به إيقاظ السامعين وتحذيرهم على سبيل الكناية؛ لأن وجود رسول اللَّه ﷺ بين أظهرهم أمر معلوم من الخاص والعام، وما كان كذلك لا يُخْبَرُ عنه عادة، فيقين أن يكون المقصود دعوة المسلمين إلى اتباع ما شرع لهم رسول اللَّه ﷺ من أحكام ولو

---

(١) التحرير والتنوير: ٢/١٧٥.

(٢) التحرير والتنوير: ٥/٢٢.

(٣) النهاية غريب الحديث: ٣/٣٠٦-٣٠٧.

كانت معارضة لأهوائهم ورغباتهم الخاصة في الظاهر أو العاجل، وجملة ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾؛ تفيد تقريرًا وتأكيدًا من اللَّه- تَعَالَى- بأن الرسول ﷺ لو أطاعهم في كثير مما يختارون؛ لأدى ذلك إلى وقوعهم في الحرج كما قال- سبحانه وتعالى- في آية أخرى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون، الآية:٧١]؛ لأن بعض ما يطلبونه مُضِرٌّ بالغير أو بالراغب نفسه، فربما أحب عاجل النفع دون أن يعلم أنه عائد عليه بالمضرة[١] ، وبتحبيبه الإيمان إلى نفوسنا وتزيينه في قلوبنا، إنما هو من قبيل الإجراءات الوقائية حتى يحول بيننا وبين الوقوع في العنت.

* وفي قوله- تَعَالَى-: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة، الآية:٢٢٠]، وأين تبرز مشيئةُ اللَّه الإعناتَ بالمكلفين المخالطين لليتامى؟ إنما تبرزها في تكليفنا بالقيام بشئون اليتيم تربية وحفظًا لماله- ثم لا يأذن بمخالطته ولا يأكل ولو لقمة واحدة من طعامه- إلا أنه لسعة رحمته لا يُكَلِّف نفسًا إلا وسُعها، وما جعل علينا في الدين من حرج، لذلك أباح المخالطة والمعاملة لليتامى معاملة الإخوة مع عفوه عما جرى العرف على التسامح فيه لعدم استغناء الخلطاء عنه[٢] .

٤- من آيات نفي المؤاخذة: قوله- تَعَالَى-: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ﴾ [البقرة، الآية:٢٢٥]، فالآية التي قبلها أفادت النهي عن التسرع بالحلف مما أثار التشوف عند من كانت عادته جريان الحلف على لسانه ولكن دون قصد منه، فتطلع بخوف وحذر إلى حكم هذا النوع من الأيمان، فجاءت

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/٣١٦.

(٢) التحرير والتنوير: ٢/٣٥٥.

هذه الآية الكريمة مطمئنة له بنفي المؤاخذة باللغو في الأيمان وإثباتها فقط لما يكسبه قلبه وتَعْزِمُ عليه نفسه من إصرار على اليمين الغموس[١] .

٥- من آيات النهي عن الغلو في الدين : وهو تجاوز الحد المألوف: يقال: غاليت الشيء وغلوت فيه أغلو غلوًّ إذا جاوزت فيه الحدَّ من المعقول أو من المشروع. والغلو في الدين: أن يظهر المتدين ما يفوت الحدَّ الذي حَدَّدَ له الدين[٢] ، ومما وَرَدَ في القرآن من آيات النهي عن الغلو:

* قوله- تَعَالَى-: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء، الآية:١٧١]، فالخطاب للنصارى وقيل: يدخل معهم اليهود، والإضافة فيه بين أهل الكتاب تضمن تعريفًا بليغًا بكونهم خالفوا كتابهم بالإفراط فيه والافتئات عليه.. وإذاكان هذا النهي موجهًا لأهل الكتاب ويخص النهي عن الغلو في الدين، فإن فيه عبرة للمسلمين، فهم أولى بالانتهاء عن الغلو من غيرهم وأحق بهذا الخطاب من سواهم، حيث إن دينهم دين الرحمة واليسر والعدل والاعتدال فلا إفراط ولا تفريط ولا تقتير ولا تبذير، ومثل هذا في قوله- تَعَالَى-: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ [المائدة، الآية:٧٧]، والآية تَنْعَى على أهل الكتاب غلوهم الذي كان مأتاه اتباع هواة الضلال والإضلال، حتى أنسوهم منهج اللَّه، فحادوا عن الصراط المستقيم الذي يتَّسِمُ بالوسطية، فلا وكس ولا شطط، وهي سنة الأنبياء والصالحين والحواريين الذين كانوا لهذا النوع من العبادة منكرين.

---

(١) التحرير والتنوير: ٢/٣٨٠.

(٢) غريب القرآن وتفسيره: ١٨٧/٣، وانظر مجاز القرآن: ١٤٣/١، وانظر معجم مفردات ألفاظ القرآن: ص:٣٧٧.

٦- آيات أخرى دالة على رفع الضيق والحرج من حيث المعنى:

ومن هذه الآيات قوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [النساء، الآية:٢٩]، فهي دالة بإشارتها على أن ذلك من جهة الرفق بالعباد، وقوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء، الآية:٢٩]، وفيها إشارة إلى رفع الحرج عن المكلَّف؛ إذ الرحمة تقتضي الرفق بالمكلَّف، ونظيرها قوله- عَزَّ وَجَلَّ- واصفًا نبيه عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء، الآية:١٠٧]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن، الآية:١٦]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ [آل عمران، الآية:٩٧]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [الأعراف، الآية:١٥٧]، «والمراد بالإصر: التكاليف الصعبة؛ كقتل النفس في توبته وقطع الأعضاء الخاطئة، وأما الأغلال فيراد بها- والله أعلم- الأحكام الشاقة نحو قطع الأعضاء بالقصاص عما كان أو خطأ من شرع الدية»(١).

* * *

(١) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، ص:٢٨.

المبحث الثالث :

قيمتها

المطلب الأول :

الكلية من مقاصد الشريعة

تضافرت الأدلة إلى حد القطع- كما رأينا- حتى عُلِمَ أن الكلية من مقاصد الشريعة، وفي هذا الشأن يقول الشاطبي- رحمه اللَّه-: «ورفع الحرج مقصود للشارع في الكليات، فلا تجد كلية شرعية مكلفًا بها، وفيها حرج كلي أو أكثري البتة، وهو مقتضى قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1] [الحج، الآية:٧٨]، ولو كان قصد الشارع إلى المشقة في التكاليف، لحصل في الشريعة التناقض والاختلاف، وهو أمر تنزهت عنه الشريعة بلا ريب؛ إذ لو كان وضعها على قصد الإعنات، لحصل التناقض وهو محال، وما يشهد لهذا القصد الشرعي، والثابت من مشروعية الرُّخَص المقطوع بها حتى صارت من المعلوم من الدين بالضرورة، كرخص القصر والفطر والجمع وتناول المحرمات عند الاضطرار، فهذه كلها دالة بالقطع على رفع الحرج، ولا يلزم من قصد الشارع عدم التكليف بما لا يطاق أن يفهم منه انتفاء المشقة بالكلية، فالتكليف بالمشاق حاصل بدليل لفظة التكليف نفسها، إلا أنه في العادة المستمرة لا تسمى مشقة «فشأن هذا النوع من المشاق شأن طلب المعاش؛ لأنه ممكن معتاد لا يقطع ما فيه من الكلفة عن العمل في الغالب، بل أهل العقول السليمة يعدون المنقطع عنه كسلان، ويذمونه بذلك، فكذلك بالنسبة للتكاليف»[2] ، فالمشقة- إذًا-

(١) المرافقات: ٣١٣/١.

(٢) المرافقات: ٨١/١، ٨٢.

كائنة إلا أن الشارع جعل فيها للمكلف مخرجًا، والشارع قصد بذلك المخرج أن يتحراه المكلف كما جاء في الرخص المخرجة من المشاق، فإن هو توخى الخروج من ذلك على الوجه الذي رسمه الشرع، عُدَّ ممتثلًا، وإن لم يفعل وقع في محظورين: أحدهما: مخالفته لقصد الشارع، الثاني: سدُّ باب التيسير عليه وفقد المخرج عن ذلك الأمر الشاق[١] ، ومن أمثلة هذا ما لو طلَّق الرجل زوجته ثلاثًا ابتداء حيث يكون بذلك مخالفًا لرسم الشارع، فيفقد المخرج من ورطته تلك، في حين لو تحرى السبيل الأقوم في ذلك حيث جعل له الشرع أن يُنَفِّسَ كربته الشديدة من الزوجة، وذلك بتطليقها طلقة واحدة فيؤدبها بهذا حتى إذا عرف توبتها وراجع نفسه في تحملها حفظًا لمصلحته، راجعها، فإذا اشتد كربه ثانيًا، عاود تطليقها.

وهكذا يكون له من خلال تحريه لمقصود الشرع مخرجا، وفي نفس الأمر امتثالًا للشارع الحكيم[٢] . وعلى الجملة؛ « فإن من المقاصد الجليلة لهذه الكلية أن يسدَّ باب التعمق في الدين؛ لئلا يعضوا عليها بنواجذهم، فيأتي من بعدهم قوم فيظنون أنها من الطاعات السماوية المفروضة عليهم، ثم تأتي طبقة أخرى فيصير الظن يقينًا؛ والمحتمل مُطْمَأنًا به، فيظلُّ الدين مُحَرَّفًا، وهوقوله- تَعَالَى-: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد، الآية:٢٧][٣] ، فالْمُكَلَّفُ مُطالب بالإتيان بوظائف شرعية واجبة عليه يقوم فيها بحق اللَّه- تَعَالَى- وبحقوق الغير، فإذا أوغل في عمل شاق، فربما كان سببًا في عدم القيام بأمر آخر واجب التكليف، فيكون بذلك ملومًا غير معذور؛ إذ المطلوب القيام بجميع المأمورات على وجه لا يخلُّ بواحد منها، ومما هو معلوم أن الحقوق تتزاحم على المكلف؛ لذلك أوجب الإتيان بها دون الإخلال بواحد منها، روى البخاري- رحمه اللَّه- في صحيحه عن أبي جحيفة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: « آخى

(١) المرافقات: ٣٠٨/١.
(٢) انظر تعليق دراز هامش٢ من المرافقات: ٣٠٧/١.
(٣) انظر حجة اللَّه البالغة: ٥٥،٥٤/٢.

رسول اللّه ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فرأى أم الدرداء وهي زوجة مبتذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا! فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعامًا، فقال له: كُلْ فإني صائم، فقال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال: نم فنام، ثم ذهب يقوم، فقال له: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ، فذكر له ذلك، فقال له النبي ﷺ : صدق سلمان[١] ، والحديث يشتمل على جواز النهي عن المستحبات إذا خيف الإفضاء إلى السآمة والملل وتفويت الحقوق المطلوبة الواجبة أو المندوبة الراجح فعلها على فعل المستحب المذكور[١] ، وإذا كان رفع الحرج مقصودًا للشارع في التكاليف فإن الحكمة من ذلك، هي: الإبقاء على هذه التكاليف من حيث إتيان المكلف لها دون تقصير أو خوف من الانقطاع وبغض العبادة وكراهة هذا التكليف[٢] .



(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٢٠٩/٤ (كتاب الصيام باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع..).

(٢) المرافقات: ٤٤٠/٢.

المطلب الثاني :

الكلية تتماشى والفطرة الإنسانية

لا شك أن بين شريعة الله وفطرة الإنسان تلاحمًا كبيرًا وتجاوبًا وانسجامًا، ذلك أن من البدهيات التي لا يُجَادِلُ فيها اثنان أنه ما من إنسان إلا ويحب الخير لنفسه، ويسعى جاهدا لتحقيق مصالحه، ويجتهد في تلبية رغباته، كل ذلك منصوص عليه في الكتاب قال- تَعَالَى- مبينًا نزعات الإنسان-: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ [العاديات، الآية:٨]، وقال- تَعَالَى-: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ٤٩﴾ [فصلت، الآية:٤٩].

وحين يتلبس المكلف بالشر ظنًّا منه أنه خير، ويتورط في المفسدة ظنًّا منه أنها مصلحة؛ فإنما لقصور إدراكه وسوء فهمه؛ إذ المعوَّل عليه في هذا المقام هو الشرع، هذا الشرع الذي لم يُغيِّبْ التلاقي بين طبيعة الإنسان وأحكامه؛ حيث جاء بها على وفاق تام بينهما، فلم تقف الشريعة حائلا في طريق ازدهار وتطور هذا الإنسان، بل جاءت ملبِّيَة لرغباته الفطرية، مستجيبة لمطالبه الحيوية، آخذة بعين الاعتبار مجموع مصالحه الحقيقية، كما أنها لم تقف به عند الحدِّ الأدنى الذي ينتهي بالحصول على الضروريات، بل فتحت دونه الطريق للتمكن من وسائل التوسعة والترفيه، فأقامت كل ما من شأنه أن يخفف العبء ويرفع الحرج؛ حرصًا من الشريعة على عدم إرهاقه بما فوق طاقته، وتفاديًا لكل ما يتجاوز حدود استطاعته، مريدة من ذلك كله التخفيف كما عبر الكتاب ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة، الآية:١٨٥]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النساء، الآية:٢٨]، فعالجت- من ضمن ما عالجت- حالات؛ كحالتي الصحة والمرض، وحالتي الإقامة

والسفر، وحالتي العجز الجزئي والعجز الكلي، وحالتي الذكر والنسيان، وحالتي النوم واليقظة، وحالتي العمد والخطإ، وحالتي اليسر والعسر، وحالتي الغنى والفقر، وحالتي العقل والجنون، وحلتي الحرية والرق، وحالتي الطفولة، والبلوغ، وحالتي المكره والمختار، وحالتي الحياة والموت، إلى غير ذلك من الأحوال التي قد يتعرَّضُ لها المكلَّف بحيث لم تترك الشريعة مجالًا من حياة الإنسان إلا قالت كلمتها فيه إما بواسطة قاعدة كلية، وإما بحكم جزئي فرعي، وإذا حرَّمَت الشريعة على الإنسان شيئًا عوّضته عنه بما هو خير منه وأنفع، وأباحت له ما تدعو حاجته إليه، الأمر الذي يستطيع معه أن يتحرك بكل يسر وسهولة ضمن إطار الشريعة العام دون اللجوء إلى سواها مما هو غريب عنها، «وحتى لا يخفى على المكلَّف شيء منها، فإن من مظاهر هذه الكلية أن جعل التكليف بينًا واضحًا منضبطًا؛ إذ لو كان خفيًّا لشق ذلك على المكلف ولأدى به إلى الوقوع فيما سواه مما لم يأذن به اللَّه»[1] .

* * *

(١) انظر حجة اللَّه البالغة: ١/٢٨١.

المطلب الثالث:

الكلية من سنن الأنبياء

إلى جانب كون هذه الكلية مقصودة للشارع متناسقة والفطرة البشرية؛ فإنها تعتبر من سنن الأنبياء كلهم، قال اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ [الأحزاب، الآية:٣٨]، قال ابن كثير- رحمه اللَّه- عند تفسير هذه الآية: «أي حكم في الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج»[١]، فلا مأثم، ولا ضيق، ولا حرج فيما أباحه اللَّه لأنبيائه ورسله وسنه لهم، فإنَّ ذلك توسعة عليهم، فلينالوا ما أحبوا من المباحات والطيبات وبهداهم القدوة وقد عدَّ ابن عاشور- رحمه اللَّه- قوله- تَعَالَى-: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة، الآية:٢٨٦]، دليلًا على عدم وقوع التكليف بما فوق الطاقة في أديان اللَّه- تَعَالَى- لعموم لفظ ﴿نَفْسًا﴾ الوارد في سياق النفي؛ لأن اللَّه- تَعَالَى- ما شرع التكليف إلا للعمل واستقامة أحوال الخلق، فلا يكلفهم ما لا يطيقون فعله[٢]، من أجل ذلك وجدنا هذه الصفة لا تنفك عن نبينا- صلوات اللَّه وسلامه عليه- فمرّة يومئ إليها القرآن إيماء، كما في قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء، الآية:١٠٧]، ومرّة يجعلها ضمن وظائفه التي من أجلها أُرْسِلَ، كما في قوله- تَعَالَى-: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف، الآية:١٥٧]، وما الآصار والأغلال التي بُعِثَ لرفعها إلا تلك التشديدات التي نزلت على من قبلنا «نكاية بهم»[٣]، والناظر في سيرة رسول اللَّه ﷺ يعجب لذلك اليسر الذي

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/٤٩٣.

(٢) التحرير والتنوير ٣/١٣٥ وقوله: «في أديان اللَّه» الظاهر أنه أراد الشرائع.

(٣) انظر مقاصد الشريعة، ص: ١٠٠.

كان يأخذ به نفسه في عبادته ودعوته وتعامله مع صحابته وأعدائه... كان ﷺ يصوم من الشهر، حتى يقول القائل: لا يفطر، ويفطر من الشهر، حتى يقول القائل: لا يصوم، وإذا وجد طعامًا أكل وإذا وجد شرابًا شرب، وإذا لم يجد لا هذا ولا ذاك صبر، يدعو- عليه الصلاة والسلام- فيستجاب، ويسأل فيعطى، وفي كلمات يسيرة يعالج القلوب وما استحكم فيها من أمراض نفسية، وكان يقيم الحجة على الخصوم في أيسر عبارة، وبنفس الطريقة كان يقود المجتمع المسلم حيث كان، يرقب صحبه ﷺ فإذا رأى منهم ميلًا إلى العسر ردهم إلى اليسر، وأرشدهم إلى طريق الرفق، وهو القائل فيهم: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»[(١)] .

ودخل المسجد مرة فإذا حبل ممدود بين ساريتين، فقال: «ما هذا الحبل؟ قالوا: هو لزينب فإذا فترت تعلقت به، فقال ﷺ : «لا ! حلوه ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعد»[(٢)] .

ودخل يومًا على عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- وعندها الحولاء بنت تويت- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- وكانت تذكر من عبادتها، وأنها لا تنام الليل فردَّها الرسول ﷺ إلى المنهج الوسط قائلًا: «مَهْ! عليكم بما تطيقون، فواللّٰه لا يمل حتى تملوا»، وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه[(٣)] .

وكان يكره أن يوجه إليه سؤال يكون سببًا في تحريم أمر لم يكن محرمًا من قبل، فكان- صلوات اللّٰه وسلامه عليه- يقول: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»[(٤)] .

---

(١) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٦٣/١ (كتاب العلم، باب ما كان النبي يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا).

(٢) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٣٦/٣ (كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة).

(٣) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٠١/١ (كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى اللّٰه أدومه).

(٤) سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي: ١١٠/٥ (كتاب مناسك الحج، باب وجوب الحج).

وكان ﷺ يقوِّم ميل بعض النفوس عند مجاوزة جادة الطريق فيقيمها على الاعتدال، وهو ما يحقق اليسر والسعة اللذين يتصف بهما هذا الدين، ومن هذا المنطلق رفض ﷺ السماح لمن سوَّلتْ له نفسه بالانقطاع للعبادة في سفح جبل، ورفض توجُّه بعض الصحابة بالعبادة نحو الغلو، كما وبَّخ الذين امتنعوا عن النكاح والطيبات، وكان من وصاياه ﷺ لأمته - إشفاقًا عليها -: «لا تشدِّدوا فيشدِّد اللَّه عليكم، فإن قومًا شدَّدوا على أنفسهم؛ فشدَّد اللَّه عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار، ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم»[1] ، فكان ﷺ بذلك كله رحمة ونعمة ومنة امتن اللَّه بها علينا، وَمِنْ شُكْرِ هذه النعمة أن نَفْقَهَ يسر هذا الدين، فإنه يثمر التعامل به على طول امتداد الزمن دون كلل ولا ملل، ولا يزال المفسرون ينقلون الإشادة بهذه الكلية العظيمة، فقد أسند الطبري- رحمه اللَّه- إلى قتادة- رحمه اللَّه- أنه قال: أُعْطِيَتْ هذه الأمة ما لم يعطه إلا نبي! كان يقال للنبي: ليس عليك حرج وقيل لهذه: وما جعل عليكم في الدين من حرج، وكان يقال للنبي: سل تعط، وقيل لهذه: ادعوني استجب لكم[2] ، وعلى هذا النهج سار السلف الصالح، فهذا عمر بن الخطاب- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يحول المقام رفقًا بالناس. فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عيينة قال: كان المقام في سقع البيت في عهد رسول اللَّه ﷺ فحوّله عمر، فجاء سيل فذهب به فرده عمر إليه. ولم تنكر الصحابة هذا الفعل ولا من جاء بعدهم، فصار إجماعًا، وكان فعل عمر إنما لما رآه من التضييق على الطائفين أو على المصلين فوضعه في مكان يرتفع به الحرج[3] .

* * *

---

(١) سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي: ٢٣٢/٨ (كتاب آداب القضاة، تأويل قول اللَّه-عز وجل-: «ومن لم يحكم بما أنزل اللَّه فأولئك هم الكافرون»).

(٢) المحرر الوجيز: ٢٢١/١١.

(٣) فتح الباري: ١٦٩/٨.

المطلب الرابع :

الكلية أصل إحدى القواعد الخمس التي بني عليها الفقه الإسلامي

وهي قولهم: «المشقة تجلب التيسير»، أما الثانية فقولهم: «الضرر يزال»، والثالثة: «اليقين لا يزول بالشك»، والرابعة: «العادة مُحكَّمة». وهو ما يعني عُرْفُ الناس المتعارف عندهم في صيغ عقودهم ومعاملاتهم ونحو ذلك، ومن الناس من يستدل لهذا بقوله- تَعَالَى-: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف، الآية:١٩٩]، والخامسة هي: «الأمور تبع للمقاصد»، وقد استدل لهذا بقوله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات»[1].

* * *

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٩/١ (كتاب الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ).

المبحث الرابع :

منهج القرآن في رفع الحرج

لقد سلك القرآن في مسألة رفع الحرج مسلكين :

المطلب الأول :

ورود بعض الآيات على هيئة بشارات تؤذن من خلالها بمقدم شريعة لا كُلْفَةَ فيها ولا مشقة وقد ورد ذلك على مستويين اثنين:

أ- على مستوى التلقي تحفيظًا وتفهيمًا، قال- تعَالَى-: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة، الآيات:١٦،١٧،١٨،١٩]، حيث إن في الآية ما يدل على البشرى والطمأنة لرسول الله ﷺ للتمكن من ألفاظ القرآن وفهم شرائعه وأحكامه وتغيير ما فيه من الحلال والحرام(١) .

ب- على مستوى الممارسة، حيث يقول- تعَالَى-: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الأعلى، الآية:٨]، وهي من أول القرآن نزولًا، قال ابن كثير- رحمه اللَّه- في معناها: « نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعًا سمحًا سهلًا مستقيمًا عدلًا لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر »(٢) ، وقال ابن عاشور- رحمه اللَّه-: « نهيئك للأمور اليسيرة في أمر الدين وعواقبه من تيسير حفظ

---

(١) انظر فتح القدير: ٣٣٨/٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٥٠٠/٤.

القرآن لك، وتيسير الشريعة التي أُرْسِلْتَ بها، وتيسير الخير لك في الدنيا والآخرة »[١] ، ولا شك أن هذه البشارة بشارة عامة في مضمونها، فتناولت الدين كله، كما أنها عامة في المخاطبين بها فتناولت جميع المكلَّفين إلى يوم الدين.

وفي قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ﴾ [البقرة، الآية:٢٨٦]، كل عناصر هذا الدعاء من عدم تحميل الإصر وما لا طاقة للمكلفين به والعفو والغفران والرحمة، كل هذه المكونات لهذا الدعاء الخاتم، يبرز كيف أن ربَّ العزة يعلِّمُ الأمة أن تطلب منه اليسر، وهو من إشارة الشارع إلى أنه قاصد في تعاليم شرعه أن تكون كذلك موسومة بسمة السعة واليسر، وقد ثبت أن رسول اللَّه ﷺ قرأ هذه الآية، فقال اللَّه- تَعَالَى-: نعم، وفي رواية: قد فعلت[٢] .

قال ابن القيم- رحمه اللَّه- عن هذه الخاتمة: « فيها من العلوم والمعارف وقواعد الإسلام وأصول الإيمان ومقامات الإحسان ما يستدعي كتابًا مفردًا »[٣] ، فمن خلال هذه النظرة التي تصورها ابن القيم- رحمه اللَّه- يظهر أنها خاتمة ثمينة لسورة ثمينة. جمعت التشريع كله، فكان جديرًا برحمة اللَّه- وهو يأمر وينهى ويحلل ويحرم- أن تختم بهذا الدعاء التعليمي التربوي الذي يحمل في طياته الإشعار برفع الكلفة والحرج عن أهل هذه الملة.

ونظير هذه الآيات قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء، الآية:١٠٧]، ومن الرحمة عدم إيقاعهم في الحرج؛ إذ الإيقاع في المشقة

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٨٢/٣٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣٤٣/١.
(٣) التفسير القيم، ص: ١٧٣.

لا يتناسب وصفة الرحمة، وحينما تحدث- سبحانه وتعالى- عن رسول اللّه ﷺ مبشرًا به ذاكرًا بعض أوصافه مادحًا المؤمنين به، كان من ضمن ما مدحه به قوله- تَعَالَى-: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف، الآية:١٥٧]، وهذا الوصف دال على أن هذه الشريعة أيسر الشرائع حيث وضع- سبحانه- عن هذه الأمة كل ثقل أنقض ظهور الأمم السابقة وهي نعمة- يمنها علينا- سبحانه- أولى أن نتوجه إليه بالشكر وأن نعظِّمَ ونوقر المبعوث بها وذلك بنصرة هذا الدين، وهو غير مختص بعصر رسول اللّه ﷺ ، وإنما هو واجب لازم إلى انقضاء التكليف.

* * *

المطلب الثاني :

التنصيص على رفع الحرج وَيُنْظَرُ إليه من جهتين

أ- من جهة رفعه بالكلية .

ب- من جهة التخفيف منه .

أ- من جهة رفعه بالكلية: ويتم ذلك إما :

لعذر لازم غير منفك ناجم عن ضعف في التركيب، لا يطيق معه المكلف الإتيان بالتكليف، وذلك كالعمى والعرج ونحوهما مما هو نقص ناسبه التخفيف في التكليفات، ومنه عدم تكليف الصبي والمجنون، وعدم تكليف النساء مما يجب على الرجال كالجماعة والجهاد والجمع[١] .

أو عذر عارض طارئ؛ كالمرض الذي يعنّ للمكلَّف، أو الفقر الذي لا يقدر معه بالبذل من أجل الإتيان بالمأمور، وهذا هو المعبر عنه عند بعض العلماء بتخفيف الإسقاط، قال العز بن عبد السلام- رحمه اللّٰه- حين تعرَّض، للحديث عن تخفيفات الشرع-: « وهي أنواع ستة منها: تخفيف الإسقاط كإسقاط الجمعات والصوم والحج والعمرة بأعذار معروفة »[٢] ، وفي القرآن أمثلة لهذا النوع من حطِّ الحرج من ذلك:

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي، ص: ٨٠.

(٢) قواعد الأحكام: ١٩٢/٢.

* ما وَرَدَ في شأن المضطر غير المتجانف للإثم، حيث يقول- تَعَالَى-: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة، الآية:٣]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة، الآية:١٧٣].

* ما وَرَدَ في أمر من ليست له القدرة على الحج، حيث يقول- تَعَالَى-: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران، الآية:٩٧].

* ما سيق في شأن الجهاد حيث رفع اللَّه- تَعَالَى- الكلفة والحرج عن جملة من المعذورين بينَّهم في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة، الآية:٩١].

ب- من جهة التخفيف منه :

وهو مما أجمل فيه العلماء عدم الحرج باستقراء مواطن التخفيف فألفوها منحصرة في هذه الأنواع الآتية:

* تخفيف التنقيص، كقصر الصلاة الرباعية.

* تخفيف التقديم، كتقديم العصر إلى الظهر وكذا العشاء إلى المغرب.

* تخفيف التأخير، كتأخير الظهر إلى العصر وكذا المغرب إلى العشاء.

* تخفيف الترخيص، كمن صلى متيمّمًا مع الحدث أو مستجمرًا - حيث إن فضلة النجو معفوة - وكأكل النجاسة والمداومة والتلفظ بكلمة الكفر عند الإكراه[1]، ولا بأس أن نذكر في هذا المقام ما للسنة الشريفة من تأثير بَيِّنٍ في كشف سمات رفع

(١) قواعد الأحكام: ٢/١٩٢-١٩٣.

الحرج المعبر عنه في القرآن، حيث تتولى تفصيل ما أُجْمِلَ في هذا الشأن. وأين نجد الكثير من التخفيفات المذكورة آنفًا إن لم نجدها في السنة، وذلك كتخفيف التنقيص من قصر الصلاة وتنقيص أفعالها بالنسبة للعاجز من ركوع وسجود، وتخفيف الإبدال كإبدال القيام بالقعود والقعود بالاضطجاع، وتخفيف التقديم والتأخير، كل ذلك تولته السنة بالبيان والتفصيل.

* * *

المبحث الخامس :

مواكبة الكلية لمجالات الحياة

لم تقتصر كلية رفع الحرج على مجال واحد أو مجالات معدودة، بل شملت كل مجالات الحياة في العقيدة وفي العبادات والمعاملات والجنايات والأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما يؤكده القرطبي- رحمه اللّه تَعَالَى- في تفسير قوله- تَعَالَى-: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة، الآية:٢٨٦]، حيث إن الآية نصت على أن اللّه- تَعَالَى- لا يكلف العباد عبادة لأعمال القلب أو الجوارح إلا وهي في وسع المكلف وفي مقتضى إدراكه وبنيته،- ثم قال-: وبهذا انكشفت الكربة عن المسلمين في تأولهم أمر الخواطر[1]، وقال ابن كثير- رحمه اللّه-: «وهذه الآية جامعة والمعنى: لا يكلف أحدًا فوق طاقته، وهو من لطف اللّه بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة في قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة، الآية:٢٨٤]، أي وهو إن حاسب وسأل لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، أما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يُكلَّف به الإنسان[2] ولنحاول أن نجول بساحة كتاب اللّه الفسيحة لنقف على هذه المكْرُمَة التي عمَّت أرجاء شريعته، وكشفت بذلك عن المكلَّف الغمة، وأقامت عليه الحجة بأن هيئت له سمت العبادة واضح المعالم سهلًا ميسورًا، موصلًا إلى أعلى المطالب والغايات.

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٣/٤٢٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ١/٣٤٢.

المطلب الأول:

الكلية والعقيدة

لقد وجدنا الشريعة وإن كانت قد اعتبرت الثبات على الإيمان- رغم كل الأحوال- من عزائم الأمور وعظائمها، فإنها قد رخَّصَتْ للمكلَّف بأن يتظاهر بالكفر- شريطة أن يكون قلبه مطمئنًّا بالإيمان- وفي هذا يقول- تَعَالَى-: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل، الآية:١٠٦]، والآية دليل على أن المكره غير مكلَّفٍ، وأن الإكراه يبيح التلفظ بكلمة الكفر، بشرط طمأنينة القلب على الإيمان، قال ابن كثير- رحمه اللَّه- عند هذه الآية: ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاءًا لمهجته، وقد روى العوفي عن ابن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مُكرَهًا، وجاء معتذرًا إلى النبي ﷺ فأنزل اللَّه هذه الآية، وفي رواية للبيهقي أنه ﷺ قال لعمار: «كيف تجد في قلبك؟ قال: مطمئنًّا بالإيمان، قال النبي ﷺ: «إن عادوا فعد»[1]، فكانت الآية ترخيصًا ومعذرة لما صدر من عمار بن ياسر وأمثاله إذا اشتد عليهم عذاب فاتنيهم.



(١) تفسير القرآن العظيم: ٥٨٨/٢، وانظر القصة في أسباب النزول للواحدي، ص:١٩٠.

المطلب الثاني :

الكلية وحديث النفس

روى الإمام أحمد - رحمه اللَّه - من طريق مجاهد، قال: دخلتُ على ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، فقلت: كنتُ عند ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فقرأ: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة، الآية:٢٨٤]، فبكى فقال ابن عباس: إن هذه الآية لمّا نزلت غمَّت أصحاب رسول اللَّه ﷺ غمًّا شديدًا، وقالوا: يا رسولَ اللَّه اهلكنا فإن قلوبنا ليست بأيدينا، فقال: قولوا سمعنا وأطعنا، فقالوا، فنسختها هذه الآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1] ، وإبداء ما في النفس: إظهاره قولًا كان أو عملًا، وإخفاؤه: بخلافه، وبذلك تكتنف المكلَّف رحمة اللَّه فيتجاوز اللَّه عما حدَّثَتْ به نفسه وهو ما قرره المصطفى - صلوات اللَّه وسلامه عليه - في قوله: «إن اللَّه يتجاوز لأمتي عما وسوست- أو حدثت- به أنفسها ما لم تعمل أوتكلم»[2] .

* * *

(١) مسند أحمد: ٣٣٢/١، وانظر أسباب النزول للواحدي، ص: ٦٠.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري:٥٤٩/١١، (كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان).

المبحث السادس :

الكلية والتشريع

المطلب الأول :

في العبادات

١- **الطهارة**، يقول الله- تعالَى-: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء، الآية:٤٣]، وفي تذييل الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء، الآية:٤٣]؛ بيان لحكم الرخصة حيث لم يكلِّف المؤمنين الغسل أو الوضوء عند المرض، ولا ترقب وجود الماء عند عدمه.

٢- **الصلاة**، حيث يقول الله- تعَالَى- في شأن التخفيف من هذه العبادة التي تعتبر الركن الأساس: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [النساء، الآية:١٠٠]، وبذلك تكون الآية قد أشارت إلى قصر الصلاة الرباعية في السفر، وقد بينه فعل النبي ﷺ إذ صَيَّر الصلاة ذات الأربع ركعات ركعتين، ولقد أجملت الآية فلم تعيِّن الصلوات التي يعتبرها القصر فبينتها السنة بأنها الظهر والعصر والعشاء.

ولقائل أن يقول: لعل هذا القصر والإذن فيه مشروط بحال الخوف؟ والجواب هوأن الصحابي يعلى بن أمية- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- سأل عمر عن هذه الآية بقوله له: إن اللَّه- تَعَالَى- يقول: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ وقد أمن الناس، فأجابه عمر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بقوله:

عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألتُ رسول الله ﷺ فقال: « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته »، فكان القصر لغير الخوف، كما أنه صدقة من الله قُصِدَ به التخفيف على المؤمنين(١) .

٣- **الصيام**، فبعد أن نصَّت الآية بفرضية الصيام، وذلك في قوله- تَعَالَى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة، الآية:١٨٣]، أتبعه- سبحانه- بذكر أحوال يرفع فيها الحرج عن الصائم، فيباشر الفطر إلى حين زوال تلك الأحوال العارضة تطمينًا لنفس المكلَّف؛ لئلا يظن وجوب الصوم عليه في كل حال وبلا استثناء، فقال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ [البقرة:، الآية:١٨٤]، قال- تَعَالَى-: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾ [البقرة، الآية:١٨٤]، والذين يطيقونه هم بعض المخاطبين بحيث يجهدهم، فتشتد بهم مشقة الصوم، ورحمة بهم وإشفاقًا عليهم، رخَّص لهم، ففي البخاري: « قال الحسن وإبراهيم: في المرضع والحامل إذا خافتا على أنفسهما أو ولدهما تفطران ثم تقضيان، وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم « أنس » بعد ما كبر عامًا أو عامين كل يوم مسكينًا خبزًا ولحمًا وأفطر »(٢) ، وعن عطاء سمع ابن عباس يقرأ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾، قال ابن عباس: ليست بمنسوخة، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فليطعمان مكان كل يوم مسكينًا(٢) ، وفي نفس هذه الشعيرة لم يشأ الله أن يحرج عباده المؤمنين- فهو لا يريد بهم إلا اليسر- حيث نجد القرآن ينتقل إلى بيان أعمال في بعض أزمنة

---

(١) التحرير والتنوير: ٢/١٨٣-١٨٤.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٨/١٧٩ (كتاب التفسير، باب أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام آخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين...).

رمضان قد يُظَنُّ أنها تنافي عبادة الصيام، فأنزل اللَّه- تَعَالَى- بهذا الشأن قوله- تَعَالَى-: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة، الآية:١٨٧]، فكان المقصود شيئًا توهمه بعض المسلمين، وهو أن الأكل بين الليل لا يتجاوز وقتين: وقت الإفطار ووقت السحور، وجعلوا وقت الإفطار هو ما بين المغرب إلى العشاء لأنهم كانوا ينامون إثر صلاة العشاء؛ وقيامها، فإذا صلوا العشاء لم يأكلوا إلا أكلة السحور، وأنهم كانوا في أمر الجماع كشأنهم في أمر الطعام، ولأنهم لما اعتادوا جعل النوم مبدأ وقت الإمساك الليلي، ظنوا أن النوم إن حصل في غير إبّانه المعتاد يكون- أيضًا- مانعًا من الأكل والجماع إلى وقت السحور وأن وقت السحور، لا يباح فيه إلا الأكل دون الجماع؛ إذ كانوا يتأثمون من الإصباح في رمضان على جنابة[1] ، ولو كان العموم مفروضًا على الناس ليلًا، لشقَّ؛ ذلك عليهم؛ لأن من لوازمه عدم قربان النساء، وهو مما ينزل بهم العنت والشدة التي ليست موجودة في الإمساك عن قربانهن في النهار لإمكان الاستعانة عليه بالبعد عن المرأة، خلافًا لوقت الليل حيث يشتد الاتصال بين الزوجين، وهو المعبَّر عنه بقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾؛ لذلك كشف الحق- سبحانه- عن مصارعة المكلَّف لهذه الحال ومراودته للخيانة فيكلِّفُ نفسه ما لم تُكَلَّف به بحيث يوهمها أن المشقة مشروعة عليها وهي في الواقع ليست بمشروعة، وهو المعبَّرُ عنه بقوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾[البقرة، الآية:١٨٧]، حيث أباح المباشرة[2] . روى ابن القاسم- رحمه اللَّه- عن الإمام مالك- رحمه اللَّه-

---

(١) التحرير والتنوير: ١٨١/٢.

(٢) التحرير والتنوير: ١٨٢/٢-١٨٣.

كان في أول الإسلام من رقد قبل أن يطعم لم يطعم من الليل شيئًا، فأنزل الله: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ﴾ [البقرة، الآية:١٨٧]، فأكلوا بعد ذلك(١) ، فقوله- تَعَالَى-: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾ دليل على أن القرآن نزل بهذا الحكم لزيادة البيان؛ إذ علم ما ضيَّق به بعض المسلمين على أنفسهم فأوحى به- سبحانه- إلى نبيه ﷺ .

٤- الحج ، وفيه يقول- تَعَالَى-: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ [آل عمران، الآية:٩٧]، ولئن تمالأ العلماء على الاستدلال بهذه الآية على وجوب الحج فإن مما يطالعنا من خلالها ما طُبِعَتْ به من رفع للحرج تجلى من خلال التقييد بالاستطاعة وهو خطاب يخص طائفة القادرين، كما أن هذه الطائفة نفسها رفعت عنها كلفة إتيان الحج كل عام على سبيل الفرض، عن أبي هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: خطب رسول الله ﷺ الناس، فقال: «إن الله- عَزَّ وَجَلَّ- قد فرض عليكم الحج، فقال رجل: في كل عام؟ فسكت عنه حتى أعاده ثلاثًا، فقال: لو قلتُ نعم لوجبت، ولو وجبت ما قمتم بها، ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بالشيء فخذوا به ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»(٢). فدلَّ الحديث على أن الحج إن وجب على القادر فإنما هو مرة في العمر، وما سواه يكون تطوعًا، فانظر كيف ورد استهلال هذه الفريضة موسومًا بسمة رفع المشقة والحرج، ثم إذا عدنا للنظر في مجال الاستطاعة، ألفينا أن الأمر كله يُسْرٌ لا عُسْرَ فيه؛ إذًا إن هذه الاستطاعة نوعان:

---

(١) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي: ٩٢/١١. وانظر فتح الباري: ١٣١/٤-٤٦٢.

(٢) سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي ١١٠/٥ (كتاب مناسك الحج، وجوب الحج).

استطاعة مباشرته بنفسه، واستطاعة تحصيله بغيره، فأما الأولى: فتتعلق بوجود الزاد والراحلة لما روي عن رسول اللَّه ﷺ أنه فسّر السبيل في قوله- تَعَالَى-: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ﴾ بأنه الزاد والراحلة[١] ، ومن العلماء مَنْ لم يَقْصِرُ الاستطاعة على هذين بل رأى أنها تتعلق بالمال والبدن؛ لأنها لو اخْتُصَّتْ للزم، وأما الاستطاعة الثانية فتئول إلى الاستنابة، ومن العلماء من قيّدها بموت أو زمانة مستديمة لا يرجى زوالها[٢] ، واستُدِلَّ لهذا النوع بما رواه البخاري- رحمه اللَّه- عن عبد اللَّه بن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: « كان الفضل رديف النبي ﷺ فجاءت امرأة من خثعم فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، وجعل النبي ﷺ يصرف وجهه إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسول اللَّه إن فريضة اللَّه على عباده في الحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: نعم. وذلك في حجة الوداع »[٣] ، وعند مباشرة الحاج للمناسك نلحظ رفع الحرج واضحًا؛ حيث تعترضه بعض الأمور التي هو في حاجة إلى التخفيف من أجلها، من بينها مثلًا:

* الإحصار وذلك بعدو أو مرض أو سواهما مما يحبسه عن المضي في إتمام حجه، قال- تَعَالَى-: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة، الآية:١٩٦].

وكذا العفو عن الحلق بسبب التأذي من المرض والقمل، فعن كعب بن عجرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: « وقف عليَّ رسول اللَّه ﷺ بالحديبية- ورأسي يتهافت قملًا- فقال: يؤذيك هوامك؟ قلتُ: نعم، قال ﷺ : فاحلق رأسك، قال: فيَّ نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ

---

(١) انظر السنن الكبرى للبيهقي ٣٢٧/٤، (كتاب الحج، باب بيان السبيل الذي بوجوده يجب الحج إذا تمكن من فعله).

(٢) انظر المجموع شرح المهذب: ٣٩/٧.

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٣٧٨/٣ (كتاب الحج باب وجوب الحج وفضله...).

نُسُكٍۚ﴾ [البقرة، الآية:١٩٦]، فقال النبي ﷺ : صم ثلاثة أيام أو تصدق بفَرَقٍ بين ستة مساكين أو انسُكْ ما تَيَسَّر»[(١)] .

والانتقال من منسك إلى بدل أخف منه كما في قوله- تَعَالَى-: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ [البقرة، الآية:١٩٦]، وهو هدي التمتع أو بدله وهو الصيام، والمعنى أن الهدي على الغريب عن مكة كي لا يعيد السفر للعمرة، فأما المكي فلم ينتفع بالاستغناء عن إعادة السفر؛ فلذا لم يكن عليه هدي، وهذا قول مالك والشافعي والجمهور- رحمهم اللَّه- تَعَالَى- فلم يكن عندهم على أهل مكة هدي في التمتع والقِرِ؛ لأنهم لا مشقة عليهم في إعادة العمرة[(٢)] .

وإباحة الاتجاه أثناء الحج، وبما أن اللَّه- تَعَالَى- قد بيَّنَ أعمالًا في الحج ونهى عنها لكونها تتنافى ومقاصد الحج، نقل الكلام إلى إباحة ما كانوا يتحرجون منه في الحج وهو التجارة، حتى يدرك الحاج أنها لا تنافي المقصد الشرعي وفي نفس الأمر إبطالا لما كان عليه المشركون حيث كانوا يرون التجارة للمحرم بالحج حرامًا؛ لذلك قال- تَعَالَى-: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ﴾ [البقرة، الآية:١٩٨][(٣)] .

والإذن بالرخصة في ترك حضور بعض أيام منى لمن أعجله الرجوع إلى وطنه، قال- تَعَالَى-: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ﴾ [البقرة، الآية:٢٠٣]، فأفادت الآية الترخيص بالنفر عن منى بعد زوال اليوم الثاني من أيام التشريق، وذلك بنفي الإثم عمَّن يريد الدفع إلى الحرم.

---

(١) صحيح مسلم: ٤/٢٠ (باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى ووجوب العذبية لحلقه وبيان قدرها).

(٢) التحرير والتنوير: ٢/٢٣٠.

(٣) انظر التحرير والتنوير: ٢/٢٣٧-٤٦٥.

٥- **الزكاة**، وتمثل الركن المالي ضمن أركان الإسلام فبها- مع التوحيد وإقامة الصلاة- يتم الانتماء إلى جماعة المسلمين، ويستأهل المكلَّف أخوة الإسلام، قال- تَعَالَى-: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة، الآية:١١]، وما شَرِعَ هذا الركن إلا رأفة بالفقراء وقصدًا إلى مصلحتهم، وقد بينَّ- سبحانه وتعالى- أصناف من تجوز في حقهم، وذلك في قوله- تعَالَى-: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة، الآية:٦٠]، وتجب في الزروع والثمار عند حصادها بنص الكتاب، قال- تَعَالَى-: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام، الآية:١٤١]، وكذا الركاز؛ إذ لا يشترط فيها حولان الحول، وأما ما تبقى من الأموال فَلِوجُوبِ الزكاة فيها لابد من حولان الحول، ومعناه أن يمر على الملك اثنا عشر شهرًا عربيًّا[١] ، وذكر ابن رشد: أن جمهور الفقهاء اشترطوا في وجوب الزكاة في الذهب والفضة والماشية الحول لثبوت ذلك عن الخلفاء الأربعة ولانتشار العمل به، ولاعتقادهم أن مثل هذا الانتشار من غير خلاف لا يجوز أن يكون إلا عن توقيف، وقد روي عن علي بن أبي طالب- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي ﷺ أنه قال: «لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول»[٢] ، وهذا مُجْمَعٌ عليه عند فقهاء الأمصار، وليس فيه في الصدر الأول خلاف إلا ما روي عن ابن عباس ومعاوية، وسبب الاختلاف أنه لم يرد في ذلك حديث ثابت[٣] .

---

(١) فقه الزكاة: ١٦٢/١.

(٢) مسند أحمد: ١٤٨/١.

(٣) بداية المجتهد: ١٩٧/١.

وإن أول ما يطالعنا باعتباره مظهرًا من مظاهر رفع الحرج في ركن الزكاة هو حولان الحول، فالزكاة لا تؤدى من مال واحد مرتين في العام، روى البيهقي في سننه عن الزهري- رحمه اللَّه- قال: لم يبلغنا عن أحد من ولاة هذه الأمة الذين كانوا بالمدينة- أبو بكر وعمر وعثمان- أنهم كانوا يثنون الصدقة لكن يبعثون عليها كل عام في الخصب والجدب؛ لأن أخذها سنة رسول اللَّه ﷺ [١]، وروى أبو عبيدة القاسم بن سلام أن النبي ﷺ قال: «لا ثني في الصدقة»[٢]، وهو من سبق الشريعة الإسلامية وعدلها حيث لم تترك فرض الزكاة لرغبة الحكام والطامعين يفرضونها كلما اشتهت أنفسهم، ولا لهوى الأفراد من الناس الذين أُحْضِرَتْ أنفسهم الشح، بل جعلتها فريضة دورية محددة، وقدَّرَتْهَا بالحول؛ لأنه الذي تتغير فيه الفصول وتتجدد مكاسب ذوي الأموال وتطرأ حاجات ذوي الحاجات، وهو المدة المعقُولة التي يمكن أن يتحقق فيها نماء رأس المال، وتربح التجارة، وتلد الماشية، وتكبر صغارها وهكذا[٣]، قال ابن القيم- رحمه اللَّه- في هدي الرسول ﷺ في الزكاة: «إنه أوجبها مرة كل عام، وجعل الزروع والثمار عند كمالها واستوائها، وهذا أعدل ما يكون؛ إذ وجوبها كل شهر أو كل جمعة يَضُرُّ بأرباب الأموال، ووجوبها في العمر مرة يضر بالمساكين فلم يكن أعدل من وجوبها كل عام مرة»[٤].

ومن مظاهر رفع الحرج في الزكاة جواز تعجيلها وتقديمها على حولها، إن كان يرى في ذلك سدا لحاجة الفقراء، ففي سنن البيهقي أن العباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- سأل النبي ﷺ في تعجيل صدقته قبل حلولها فرخَّص له في ذلك[٥].

---

(١) سنن البيهقي: ٨٨٥/٤. (كتاب الزكاة: باب ما على الإمام من بعث السعادة على الصدقة).

(٢) كتاب الأموال، ص: ٣٧٥.

(٣) فقه الزكاة: ١٦٤/١.

(٤) زاد المعاد: ١٨١/١.

(٥) السنن الكبرى: ١١١/٤ (كتاب الزكاة، باب تعجيل الصدقة).

كما أن من مظاهره- أيضًا- عدم وجوبها إلا فيما فاض عن الحوائج الأصلية، فلا زكاة في دور السكنى وثياب البدن وأثاث المنزل ودواب الركوب وسلاح الاستعمال وكتب العلم إذا لم تكن للتجارة، وآلات المحترفين وغير ذلك مما لا بدَّ منه في معاشه[١] وعن أبي هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي ﷺ قال: « خير الصدقة ما كان عن ظهر غني وابدأ بمن تعول »[٢] .

ومن مظاهره- أيضًا- ألا تيمم كرائم الأموال فإن فيه حرجًا لصاحبها عن ابن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أن النبي ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال: إنك تُقْدِمُ على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- فإذا عرفوا اللَّه فأخبرهم أن اللَّه قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن اللَّه قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أموالهم فتردُّ على فقرائهم فإذا أطاعوا بها، فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس[٣] ، وكرائم الأموال: نفائسها من أي صنف كانت، وقيل: ما سميت بالنفيسة إلا لأن نفس صاحبها تتعلق بها، وفيما لو تحرى الساعي النفائس فقط، فسيلحق بربِّ المال حرجًا ولا شك وقد أورد أبو يوسف في كتابه « الخراج » ألا يؤخذ من غنم الصدقة فحلها ولا الحوامل ولا الربّى- وهي التي معها ولد تربيه- ولا الأكيلة وهي التي يسمِّنها صاحبها ليأكلها: وليس لصاحب الصدقة أن يتخير الغنم فيأخذ من خيارها ولا يأخذ من شرارها، ولكن يأخذ الوسط من ذلك على السنة[٤] .

* * *

---

(١) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، ص: ٨٣.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٢٩٤/٣ (باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى...).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٣٢٣/٣ (كتاب الزكاة باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة).

(٤) كتاب الخراج لأبي يوسف، ص: ٧٧، ٧٨.

المطلب الثاني :

في المعاملات

١- المعاملات المالية: وذلك لأن ضروريات الحياة تقتضي التعامل وانتقال الملكية بين الأفراد، وقد أباح الشارع ذلك في صور البيع والشراء فقال- تَعَالَى-: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة، الآية:٢٧٥]، وأبرز- سبحانه- حرمة الأموال وحذَّر من الاستيلاء عليها بنية عدم إرجاعها لأربابها، فقال- تَعَالَى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ﴾ [النساء، الآية:٢٩]، ومما تَطَرَّقَ إليه القرآن من جنس المعاملات المالية، معاملة اليتامى، ففي تفسير الطبري بسنده إلى بن عباس، لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ﴾ [الأنعام، الآية:١٥٢]، عزلوا أموال اليتامى فذكروا ذلك لرسول اللَّه ﷺ فنزلت: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾؛ فكانت هذه لهم فيها رخصة[1] ، فورود النهي في مطلع الآية ألجأهم إلى تجنب النظر في شئون اليتامى، وهو مما يشق على الجانبين معا إلا أن قوله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ إيذان بإصلاح أحوالهم ماليًا وتربويًا، بل إن المخالطة تعني المشاركة والكفالة والمصاهرة، وقد حثَّ الشرع على ذلك فلفظة: ﴿إِخْوَٰنِكُمْ﴾ تشي به وما الأخوة إلا التواصي والتعاون وبذل النصح كل ذلك رفعًا للحرج عن القيمين والمحاجير على السواء، وقد امتنَّ اللَّه به وأعلن عنه في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ﴾ هذا الإعنات الذي هو حرمانكم من مخالطة اليتامى، فتجدوا ذلك شاقًّا عليكم؛ لأن تجنب المرء مخالطة أقاربه من إخوة وأبناء عم، ورؤيته إياهم مضيعةً أمورهم لا يحفل بهم أحد يشقُّ على

(١) جامع البيان: ٨٤/٩.

الناس في الجبلة، وهم وإن فعلوا ذلك حذرًا وتنزهًا، فلا يعني المداومة عليه حتى يصير لهم ديدنًا[١].

ومن هذا النوع - أيضًا - الدعوة إلى نبذ الغشّ الذي من مظاهره التطفيف في الميزان لذلك قال- تَعَالَى-: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾، فهي دعوة صريحة إلى إقامة العدل، وحتى لا يُظَنَّ أن هذا التكليف لا يتسامح في مثقال حبة فيشقُّ ذلك على الناس فيتركون التعامل بينهم خشية الوقوع في الخطأ أو الغفلة مما يفضي إلى تعطيل منافع جمة، عقَّب سبحانه وتعالى الجملة السابقة بقوله ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ تسجيلًا عليهم بأن جميع ما دعا إليه هو في طاقتهم ومكنتهم[٢] وأنه لن يكلفهم فوق ما لا طاقة لهم به.

ومن المعاملات ما يتعلق بالأنكحة حيث كمَّلها الشارع بسمة رفع الحرج صيانة لها وإبقاء على الروابط الزوجية، ولا يزال القرآن يحثُّ الزوجين على حظهما المحمود فيما أُبيح لهما منه ومن ذلك قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾[٣] [النساء، الآية:٢٤]، فالآية تتحدث عن المهر بعد التسمية -؛ إذ هو ركن من أركان النكاح - لكن عند وجوبه، « فلا بأس أن يقع فيه التراضي بعد ذلك بين الرجل والمرأة وهما مالكان أمرهما، وإن كان بينهما من لا يملك أمر نفسه فذلك إلى الولي كما أشار إليه قوله - تَعَالَى -: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾[٤] [البقرة، الآية:٢٣٧]، وحين تقرّر في الشريعة تحريم نكاح ما نكح الآباء-؛ إذ كل من تعاطاه بعد ذلك عُدَّ من المرتدين عن دينه يقتل ويصير ماله فيئًا

(١) التحرير والتنوير: ٣٥٨/٢.

(٢) التحرير والتنوير: ١٦٥/٨، ١٦٦.

(٣) انظر أحكام القرآن: ٣٩٠/١.

(٤) انظر أحكام القرآن: ٣٩٠/١.

لبيت المال[١]- استثنى من ذلك ما قد سلف ومضى، فغدا معفوًّا عنه غير مؤاخذ عليه لئلا يتحرج الفاعلون لذلك قبل ورود التحريم.

وحين تعرَّض الشرع لذكر المُحرَّمات من النساء، أراد به التنويه ببيان هذه القرابة القريبة غارسًا لها في النفوس نوعًا فريدًا من الوقار منزهًا عن شوائب الاستعمال في اللَّهو والرفث- لأن مآل هذا التحريم إلى قاعدة حفظ العرض، وهو من الضروريات- كما أنه قصد به التيسير في الخلطة، قال الرازي،- رحمه اللَّه-: «لو لم يدخل على المرأة أبو الرجل وابنه، ولم تدخل على الرجل أم المرأة وابنتها لبقيت المرأة كالمحبوسة في البيت، ولتعطل على الزوج والزوجة أكثر المصالح ولو أذنا في هذا الدخول ولم نحكم بالمحرمية، فربما امتدَّ عين البعض إلى بعض وحصل الميل والرغبة وعند حصول التطليق والفراق، أما إذا حصلت المحرمية، انقطعت الأطماع وانحبست الشهوة فلا يحصل ذلك الضرر، فبقي النكاح بين الزوجين سليمًا عن هذه المفسدة»[٢] .

ولما كانت الحياة الزوجية يعتريها ما يعتريها من هزات تجبر بالتأديب حينًا، وبالصلح والإشهاد عليه حينًا آخر، وأحيانًا تصاب الزوجية بفتور لا ينفع معه سوى الفراق، هذا الذي وضعت له الشريعة قواعد وأحكام من بينها أحكام الإنفاق على المعتدات والمرضعات، قال- تَعَالَى-: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق، الآيات:٦،٧]، فبيّن- تَعَالَى- كيف أن المنفق إن كان في ضيق من المال، فلينفق بما يسمح له رزقه، وهو

(١) مسند أحمد: ٢٩٢/٤.
(٢) التفسير الكبير: ٢٣/١٠.

داخل تحت قول النبي ﷺ لهند: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[١]، «والمقصود منه إقناع المنفق عليه بأن لا يطلب من المنفق أكثر مما يطيقه... وفي قوله- تَعَالَى-: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ خبر لا يقتضي إلا أنَّ من تصرفات اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- أن يجعل بعد عسر قوم يسرًا، فمن كان في عسر، رجا أن يكون ممن يشمله فضل اللَّه فيبدِّل عسره باليسر»[٢] ، وما قيل في هذه النماذج على مستوى رفع الحرج يقال في باقي المعاملات التي تعتبر من متطلبات الحياة كالقراض وإباحة المزارعة والمساقاة والمضاربة والشركة والإجارة والهبة وغيرها.



(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٥٠٦/٩. (كتاب النفقات باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف).

(٢) التحرير والتنوير: ٣٣٢/٣٣١/٢٨.

المطلب الثالث:

في العادات

ومنهاهذه المطاعم والملابس والمراكب وكل ما به يقوم بنيان اللَّه الذي هو جسد ابن آدم حيث سمى هذا كله الطيبات. قال- تعالى-: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة، الآية:١٧٢]، وأنكر على من حرَّم الطيبات بقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف، الآية:٣٢]، والطيبات لا تكون كذلك حتى تكون طاهرة وتكون واقعة في نفس أهل المروءة والأخلاق الجميلة أنها طيبة، ويرى الشافعي- رحمه اللَّه- أن الطيبات هي الحلال المستلذ، ويؤكِّد هذا بقوله- تعالَى-: « خلق لكم ما في الأرض إلا أنه دخله التخصيص بحرمة الخبائث »[(١)] ، وهي موَّطن رفع الحرج وظهوره جليًا حيث يعرض القرآن الكريم جملة من الآيات يعدد فيها المحرمات المتناولات، فيقول- تعالَى-: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ إلى قوله- تعالَى-: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة، الآية:٣]، ويقول- تعالَى-: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام، الآية:١١٩]، ويقول- تعالَى-: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام، الآية:١٤٥]، فلوحظ في هذه الآيات كيف يستعرض القرآن هذه المحرمات ثم يتبعها برفع

---

(١) التحرير والتنوير: ١١١/٦، ١١٢.

الحرج عن المكلف؛ إذ علم اللَّه أن هذا المكلَّف سيوجس خيفة الحاجة عند الضرورة بعد تحريم ما حُرِّمَ عليه؛ لذلك أعقبه بتلك المنة نزعًا لما يتوجسه في نفسه ليئول المحرم الممنوع جائزا، وذلك عند الاضطرار، هذا الاضطرار المعبر عنه بالمخمصة التي هي المجاعة المقيدة بالتجانف المراد به ضبط حالة الاضطرار في الإقدام والإحجام، فلا يقدم على أكل المحرمات إلا إذا اشتدت الحاجة إليها، وهو نظير قوله- تَعَالَى-: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

- ومن العادات- أيضًا- هذه السرابيل التي تتعدد وظيفتها ويمكن إجلاؤها في مقصدين رئيسين:

الأول : مواراة عورة ابن آدم، وهي من أصل الفطرة الإنسانية ومظهر من مظاهر تكريم الإنسان.

الثاني : درء المشقة عنه في حالتي الحر والقر، وبذلك يمتن اللَّه على عباده، فيقول- تَعَالَى-: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل، الآية:٨١]، ويقول: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ [النحل، الآية:٥].

هذه الأنعام الرواحل التي يذكرها- سبحانه- في معرض الامتنان على عباده، فيقول- تَعَالَى-: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الأنعام، الآية:١٤٢]، ثم يقول في موضع آخر- كاشفًا عن أحد مقاصد تسخيرها لعباده- ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [النحل، الآية:٧]، وفي هذا التذييل ما ينبئ عن كامل رحمته ورأفته بعباده.

* * *

المطلب الرابع:

في الأخلاق

ومنه الكذب وفيه يقول- تَعالَى-: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل، الآية:١٠٥]، فالكذب من المحرمات في الإسلام بلا شك، وهو من صفات الذين كفروا ومن خصال المنافقين، وكم من آيةٍ تحثُّ المكلَّفين أن يكونوا من زمرة الصادقين، قال- تَعالَى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة، الآية:١١٩]، ومن المعلوم أن الكلام وسيلة إلى القصد وكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، وإن لم يكن ذلك إلا بالكذب جاز[(١)] ، ومن الأدلة على جوازه في أحوال معينة قوله ﷺ : «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فَيَنْمِي خيرًا أو يقول خيرًا»[(٢)] ، ومن هنا كان الكذب في الحرب للنصرة، وكذب الرجل على الزوجة لإزالة الخصومة، والكذب للإصلاح بين الناس جائزًا مرفوعًا عمن أتاه إذا لم يمكنه إلا سلوك هذه السبيل، لأن الغاية محمودة ومشروعة، وفي صحيح الإمام مسلم- رحمه اللَّه- أن ابن شهاب الزهري- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إنه كذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة

---

(١) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، ص: ١١٣.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٩٩/٥ (كتاب العلم باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس)، وقوله: «ينمي» من تميت الحديث أنميته إذا بلغته على وجه الإصلاح وطلب الخير. انظر النهاية في غريب الحديث: ١٢١/٥. مادة «نما».

زوجها »[١] ، ومن أمثلة جواز الكذب عند الاضطرار، ما لو قصد ظالم قتل رجل وهو مختف عند آخر فله أن ينفي كونه عنده ويحلف على ذلك ولا يأثم[٢] .

ومنه هذه التدابير التعليمية والخلقية والاجتماعية التي وضعتها الشريعة بالنسبة لإتيان البيوت عند الرغبة في زيارة أربابها، قال- تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور، الآية:٢٧]، وهي قاعدة في آداب الاستئذان أراد بها- سبحانه- إصلاح وضع سابق جرت عليه عادة الجاهلية من ولوج الدور دون إذن؛ لذلك أعطى الشرع للفرد حق الخلوة لا يجوز لغيره أن يقتحمه إلا برضاه، ثم يمضي القرآن ليتحدث عن طائفة لها خصوصيتها من حيث حكم هذه القاعدة وهم الخدم والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، فهؤلاء قد رفع اللّه عنهم الحرج إلا في أوقات معلومة نظرًا لكثرة ترددهم على البيت، أما الأطفال فبحكم الصغر، وأما الخدم فبحكم قيامهم بالخدمة؛ لذلك قال اللّه- تعالى-: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾، ثم نعت تلك الأوقات المستثناة من الإذن بالعورات غالبًا، وبذلك يكون قد جمع بين الحرص على عدم انكشاف العورات، ورفع المشقة والحرج عن هؤلاء[٣] ، وفي نفس السياق نجد القرآن بعد أن تناول بالحديث إخفاء زينة النساء- منعًا لإثارة الفتنة- عاد ليستثني منهن القواعد الاتي فرغت نفوسهن من الرغبة في معاشرة الرجال فرفع عنهن الحرج فيما إذا خلعن ثيابهن على ألا تنكشف عوراتهن أو يكشفن عن زينتهن وإلا فما دون ذلك معفو عنه[٤] .

* * *

---

(١) صحيح مسلم: ٢٨/٨ (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه).

(٢) فتح الباري: ٣٠٠/٥.

(٣) تفسير سورة النور ص: ١٩٢.

(٤) في ظلال القرآن: ٢٥٣٢/٤-٢٥٣٣.

المطلب الخامس:

في السياسة الشرعية

ومنه الجهاد، قال اللَّه- تعالَى-: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال، الآية:٦٧]، وقد وردت عقيب آية تستنهض همم المسلمين للجهاد والقتال من أجل الذب عن الحوزة وقتال أعداء اللَّه، ولما كان العدو كثير العدد احتاج المسلمون إلى التقوية- فإن العادة أن زيادة عدد الجيش تقوي نفوس أهله- فجعل تقويتهم في الإيمان حيث زرع في نفوسهم ما يدفع عنهم وَهَن استشعار قلتهم، وأن اللَّه كفيل بنصر العدد منهم على عشرة أمثاله من عدوهم، وهو مما يستلزم وجوب ثبات العدد منهم لعشرة من أمثاله، وبذلك يفيد إطلاق الأمر بالثبات للعدد والواقع في قوله- تعَالَى-: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال، الآية:٤٦]، وإطلاق النهي عن الفرار أيضًا في قوله- تعَالَى-: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال، الآية:١٥]، وهو ومن هذه الناحية التشريعية حكم شاق اقتضته قلة عدد المسلمين يومئذ، لكنَّ اللَّه الرؤوف الرحيم يتدارك عباده برحمته وينزل التخفيف المناسب ليسر هذا الدين، فيقول- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ﴾، روى ابن جرير- رحمه اللَّه- عن ابن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ﴾ قال: كان لكل رجل من المسلمين عشرة لا ينبغي أن يفرَّ منهم، فكانوا كذلك حتى أنزل اللَّه ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾[1] فخفف اللَّه عنهم لعلمه السابق أن فيهم ضعفا، وإنما أخر التخفيف لما يقتضيه استصلاح حالهم[2]،

---

(١) جامع البيان: ٣٩/٩.

(٢) التحرير والتنوير: ٧٠،٦٩/١٠.

وفي موضع آخر يقول- تعالى-: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [التوبة، الآية:٩١]. فبعد نعيه على طائفة المتخلفين تخلفهم؛ تارة بالوعيد والتهديد، وتارة بالسخرية والاستهزاء- كاشفًا عن إيثارهم نعمة الدعة والاستكانة على سمعة الجهاد وثوابه، بادر- سبحانه وتعالى- بالخطاب إلى طائفة أخرى وهم الضعفاء- إما ماديًا أو بدنيًا- الذين حيل بينهم وبين ما يشتهونه من النفر في سبيل الله فبشرهم بنعمة التخفيف، ويكفيهم إسهاما في عمليات الجهاد أن يسدوا النصح للمسلمين، وأن يسعوا لما ينفعهم فيتبوءوا بذلك منزلة المحسنين، ونظير هذه الآية قوله- تعالى-: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [الفتح، الآية:١٧] والقصد منها نفي الوعيد عن أصحاب الضرورة تنصيصًا على العذر للعناية بحكم التولي والتحذير منه.

ومما يدخل في مجال السياسة الشرعية القصاص، وقد روعي فيه- أيضًا- جانب عدم التكلفة، ويعتبر من الأحكام التي أعطي لها السبق، والقصد هو تعظيم الأنفس بحيث لو اختل حفظها لاختلت الأحوال، من أجل ذلك جعله الله حقًا لازمًا لا محيد عن الأخذ به إلا أن يعفو ولي الدم عن دم وليه، وإلا فإن تعويض هذه الجناية بالمثل من باب الإنصاف والعدل المأمور به لقيام الحياة.

ولما كانت مشروعية القصاص كافية في تحقيق مقصد الشريعة في شرع القصاص من ازدجار الناس عن قتل النفوس وتحقيق حفظ حق المقتول، أردفه سبحانه بما هو أولى إبقاءًا على أواصر الدين وأخوة الإسلام فرغب في المصالحة عن الدماء بقوله ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ﴾ [البقرة، الآية:١٧٨]، حتى إن هذا الترغيب ورد بأسلوب كله ترقيق لنفس

ولي المقتول وذلك باستعمال لفظة «أخيه» التي تذكره بأخوة الإسلام؛ لأنه إذا اعتبره أخًا له، كان من المروءة ألا يرضى بالقود، لأنه يكون كمن رضي بقتل أخيه، ويضيف- تَعَالَى-: فيقول: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٌۗ﴾، أي أن ذلك من آثار رحمته، فالأخذ بالقصاص عدل، والأخذ بالعفو رحمة.

ومنه- أيضًا- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولئن كان من فروض الكفاية على الأمة- بحيث إذا قام به البعض سقط الفرض والحرج عن الباقين، قال- تَعَالَى-: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٌ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران، الآية:١٠٤]، وقد أوجبت الآية أن تقوم طائفة من المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنه ينقلب إلى فرض عين على من تعيّن عليه بحيث لا يستطيع غيره القيام به، أو لا يعلم غيره به، أو عينه الحاكم لإنكاره، وهذا هو مراد قوله ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، ومن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[١]، ومن خلال الحديث يمكن الكشف عن مقامات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مستوى التطبيق بحيث لا يؤاخذ القائم وهي كالآتي:

المقام الأول: أن يكون قادرًا على التغيير باليد والمراد القوة والقدرة، وهو مقام خاص بأولي الأمر ونوابهم ومن له سلطة على آخر كالوالد على ولده، والزوج على زوجته ونحوهم ممن يجب في حقهم تغيير المنكر باليد.

المقام الثاني: وهو دون الأول بحيث يتعذر على المغير للمنكر أن يغيره بيده- إذ ليست له أهلية التغيير باليد- فيلجأ إلى التغيير باللسان، ولا حرج على أن يبذل كل ما في وسعه للتأثير من أجل إزالة المنكر.

---

(١) سنن الترمذي: ٣١٨/٣ (باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب).

المقام الثالث: ويصادر إليه إذا انتفت مؤهلات الأول والثاني فيصبح عاجزًا عن التغيير باليد واللسان، فلا يبقى في وسعه إلا الإنكار بالقلب، فله ذلك ولا حرج عليه، عن عبد اللَّه بن مسعود- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: «جاهدوا المنافقين بأيديكم، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهروا في وجوههم فاكفهروا في وجوههم»[١] ، وقال الإمام علي- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «فمن رأى منكرًا يُدْعَى إليه فأنكره بقلبه، فقد برئ وسلم، ومن أنكره بلسانه فقد أُجِرَ، وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة اللَّه هي العليا وكلمة الظالمين السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى وقام على الطريق، ونَوَّرَ في قلبه اليقين»[٢].

إلى جانب ما مرَّ نلاحظ أن الحرج مرفوع- أيضًا- فيما يتعلق بزمان ووقت فعل بعض التكاليف، حيث نجد المدد الزمنية قصيرة مستطاعة بالنسبة للمكلَّف؛ إذ بإمكانه الإتيان بأفعال التكليف في وقت قصير لا يشقه ولا يعنته، فالإيمان باللَّه مجرد التصديق القلبي بالشهادتين حتى ينضم المكلف في سلك المؤمنين ويصير في عدادهم، والصلوات خمس فقط، في ركعات معدودات وأوقات معلومات متفرقات بإمكان المسلم الإتيان بأضعافها لو شاء ووقته يسع ذلك، والصوم شهر واحد في السنة على المستطيع فقط، بإمكان المسلم أن يصوم أزيد من ذلك، والحج لا يجب على القادر إلا مرة واحدة في العمر.

وهكذا نلحظ أن هذه الكلية لم تترك حيزا من التشريع إلا وطبعته بطابعها الخاص وحق بذلك أن يكون قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ حقًّا وصدقًا وعدلًا.



(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٧٧).

(٢) نهج البلاغة: ٨٩/٤.

المبحث السابع :

ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من بعض القواعد الفقهية والأصولية(١)

لما كانت مواطن رفع الحرج في كتاب اللّه جمة، ألفينا الفقهاء وقفوا عندها بعناية فراحوا يستنبطوا منها قواعد مثَّلَتْ أصولًا جامعة حوت فوائد نافعة يانعة.

المطلب الأول :

حديث النفس

فعن حديث النفس- مثلًا- قالوا: «إذا ورد حديث النفس من غير استقرار في القلب فإنه معفو عنه في الشر مكتوب في الخير»(٢) ، وهي قاعدة لا جرم أنها مستقاة

(١) هذه القواعد التي نحن بصدد بسطها والحديث عنها سواء كانت من كبريات القواعد أو ما يتفرع عنها لا تعد من القواعد الأصولية إلا من قبيل التجوز، وقد أفردت بالتصنيف، وممن صنف فيها الإمام أحمد بن إدريس القرافي - رحمه اللّه - الذي استهل مصنفه بقوله: «أما بعدفإن الشريعة المعظمة المحمدية زاد اللّه - تعالى - منارها شرفا وعلوا اشتملت على أصول وفروع، وأصوها قسمان: أحدهما المسمى بأصول الفقه، وهو غالب أمره ليس فيه إلا قواعد الأحكام الناشئة عن الألفاظ العربية خاصة وما يعرض لتلك الألفاظ من النسخ والترجيح، ونحو الأمر للوجوب والنهي للتحريم والصيغة الخاصة للعموم ونحو ذلك... والقسم الثاني: قواعد كلية فقهية جليلة كثيرة العدد عظيمة المدد مشتملة على أسرار الشرع وحكمه لكل قاعدة من الفروع في الشريعة ما لا يخص ولم يذكر منها شيء في أصول الفقه وإن اتفقت الإشارة إليه هنا لك على سبيل الإجمال فبقي تفصيله لم يتحصل» الفروق ١/٢-٣.

(٢) المنثور في القواعد: ٣/٣٩٦.

من قوله- تَعَالَى-: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة، الآية:٢٨٦]، والآية وردت في سياق الحديث عن وسوسة النفس الدال عليها قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة، الآية:٢٨٤]، فتكون الآية السابقة قد رفع بها- عَزَّ وَجَلَّ- الحرج، بل ويزيد من فضله وسعة كرمه فيبشرُ المؤمنين بقوله- تَعَالَى- فيما يرويه النبي ﷺ: «إذا هَمَّ عبدي بحسنةٍ ولم يعملها كَتَبْتُها له حسنة، فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هَمَّ بسيئةٍ فلم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها له سيئة»[1].

* * *

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٣٢٣/١١ (كتاب الرقاق، باب من هم بالحسنة أو السيئة) وصحيح مسلم ٨/١. (كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب).

المطلب الثاني :

قاعدة الإكراه

وعن الإكراه قالوا: «إنه يسقط أثر التصرف رخصة من اللَّه- تَعَالَى-»[١] : «ولا ريب أن هذا مأخوذ- أيضًا- من القرآن كقوله- تَعَالَى-: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل، الآية:١٠٦]، فمن ألجأ إلى فعل ما يكره فقد رخَّصَ له الشارع، ولا أدل على هذا الترخيص من أن يشمل العقيدة التي هي أصل الدين حيث نطقت الآية بالعفو عمن اضطر إلى النطق بكلمة الكفر- تقية ومداراة- رفقًا به واعتبارًا للأشياء بغاياتها ومقاصدها.

ومن هذا القبيل مقارفة الزنا تحت وطأة الإكراه والإلجاء، حيث يتحدث القرآن قائلًا: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور، الآية:٣٣]، فذيل الآية صريح في المغفرة وعدم المؤاخذة ورفع الحرج عن المُكْرَهَة بفعل أجبتر عليه وهو الزنا.

على أن الفقهاء قد استثنوا من القاعدة: إكراه القتل والزنا باعتبار الفارق بينهما وبين الكفر؛ إذ التلفظ بالكفر لا يوجب وقوع مفسدة الكفر؛ لأن الكفر الموجب للمفسدة إنما هو الكفر القلبي بخلاف الزنا والقتل فإنهما يوجبان المفسدة[٢] .

ولا وجه لهذا الاستثناء بالنسبة لزنا المكره، وقتله فساد وعدوان؛ لأن الصواب- إن شاء اللَّه- أنه «لا يقع التكليف إلا بما يدخل تحت القدرة ولذلك يقال: إنه لا حَدَّ عليه؛ لأن الإكراه يسقط حكم التكليف، ولو قيل: إن الزاني ينتشي ويشتهي إذا اتصل

---

(١) المنصور في القواعد: ١٨٩/١.

(٢) المنثور في القواعد ١٩٨/١،١٩٩.

بالمرأة فالجواب: أن الإلجاء إلى ذلك هو الذي أسقط حكمه »[١] ، وأما القتل فقد أجمعوا على أن المكره لا يستفيد من الإكراه في حالة القتل، قال القرطبي- رحمه اللَّه-: « أجمع العلماء على أن من أُكْرِهَ على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمته بجلدٍ أو غيره، ويصبر على البلاء الذي نزل به ولا يحل له أن يفدي نفسه بغيره »[٢] ، وهذا الإجماع المنقول من قبل القرطبي يعضده حديث رسول اللَّه- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعلى آله وَسَلَّمَ-، الذي يقول فيه: « تتكافأ دماؤهم » الحديث.

ومن أمثلة هذه القواعد- أيضًا قاعدة في النسيان ومفادها: « أن النسيان ليس عذرًا في ترك المأمورات، وهو عذر في المنهيات »[٣] ؛ إذ النسيان يهجم على العبد قهرًا بحيث لا تكون له حيلة في دفعه، وقد أجمعت الأمة على أنه لا إثم فيه وحسبنا في هذا قوله- تَعَالَى-: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة، الآية:٢٨٦]، فقد جوّز المفسرون أن يكون هذا الدعاء تلقينا من جانب اللَّه للمكلَّفين- كتلقينهم التحميد في سورة الفاتحة- حيث إنه- تَعَالَى- بعد أن قررّ أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، لقنهم مناجاة بدعوات هي من آثار انتفاء التكليف بما ليس في الوسع ومنها النسيان[٤] ، وفي هذا يقول ﷺ : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[٥] ، ولست هنا بصدد الاستقراء لهذه القواعد المنتزعة من القرآن، وإنما بغيتي أن أجعل من هذه الأمثلة مدخلا إلى البحث الذي سيشمل بعض القواعد الكبرى التي اعتبرت بحق من أمهات القواعد، وهي على وزان الكلية القرآنية المتمثلة في قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج، الآية:٧٨].

---

(١) أحكام القرآن: ١٣٨٦/٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٨٣/١٠.
(٣) المنثور في القواعد: ٣٩٨/٣.
(٤) التحرير والتنوير: ١٤٠/٣.
(٥) سنن ابن ماجة: ٦٥٩/١ (كتاب الطلاق، باب طلاق المكره).

المطلب الثالث :

قاعدة : « المشقة تجلب التيسير »

ومن مرادفاتها قولهم: « إذا ضاق الأمر اتسع » وقد عزيت هذه العبارة إلى الإمام الشافعي- رحمه اللَّه تَعَالَى- عند كلامه على الذباب يقع في الماء القليل[١] ، وتعتبر هذه القاعدة أصلًا كبيرًا ينبئ- كما سبق- على أن الشريعة سمحة في الأحكام والأعمال، « ويتخرّج عليها جميع رخص الشرع وتخفيفاته »[٢] ، على أن الفقهاء حين صاغوا هذه القاعدة، اشترطوا لأن تكون المشقة جالبة للتيسير ألا تصادم نصًّا، فإذا صادمت نصًّا روعي دونها[٣] ، كما أنه لا اعتبار لهذه المشقة الجالبة للتيسير إلا إذا انفكت عنها التكليفات الشرعية- كمشقة الحدود والرجم والجهاد وقتل البغاة والخوف على النفوس والأطراف ومنافع الأعضاء- حيث يجب التخفيف في حق هذه التكليفات والترخيص قطعًا؛ لأن حفظ هذه المذكورات كلها لإقامة مصالح الدين أولى من تعريضها للفوات في عبادة أو عبادات يفوت بها أمثالها، قال القرافي رحمه اللَّه- محررًا محل الفرق بين المشقة المنفكة وغير المنفكة-: « أحدها: لا تنفك عنه العبادة كالوضوء والغسل في البرد والصوم في النهار الطويل والمخاطرة بالنفس في الجهاد ونحو ذلك، فهذا القسم لا يوجب تخفيفًا في العبادة لأنه نوع في الرتبة العليا « كالخوف على النفوس والأعضاء والمنافع فيوجب التخفيف؛ لأن حفظ هذه الأمور هو سبب مصالح الدنيا والآخرة.

---

(١) انظر على سبيل المثال: المنثور في القواعد: ١٦٩/٣، الأشباه والنظائر لابن نجيم والقواعد والأصول الجامعة ص: ١٨، وشرح القواعد الفقهية ص: ١٥٧ والفرائد البهية في القواعد والفوائد الفقهية ص: ١٤، الأشباه والنظائر لتاج الدين السبكي: ٤٨/١، ٤٩.

(٢) الأشباه والنظائر لابن نجيم، ص: ٨٤.

(٣) نفسه لابن نجيم، ص:٩٢،٩٣.

ونوع في الرتبة الدنيا: كأدنى وجع في أصبع، فتحصيل هذه العبادة أولى من درء هذه المشقة لشرف العبادة وخفة المشقة.

النوع الثالث: مشقة بين هذين النوعين فما قرب من العليا أوجب التخفيف، وما قرب من الدنيا لم يوجبه، وما توسط يختلف فيه لتجاذب الطرفين له..»(١).

وها هنا قاعدة للفقهاء تنص على أن التكليفات المنفكة هي المعتبرة في جلب التيسير، وهي قولهم: «الحرج اللازم للفعل لا يسقطه»(٢) وَنَبَّه عليه الزركشي في المنثور بقوله: «هذا إذا كانت المشقة ووقوعها عامًّا فلو كان نادرًا لم تراع المشقة فيه»(٣)؛ «لأن العموم بكثرته يقوم مقام العظم»(٤)، ولا شك أن الزركشي- رحمه اللَّه- لا يريد بالمشقة النادرة إلا تلك المشاق التي لا أثر لها في إسقاط العبادات والطاعات أو التخفيف منها إذ لو أثرت، لفاتت مصالح هذه العبادات، ولفات ما رُتِّبَ عليها من ثواب ولأنها مشقات عادية تستلزم عادةً أداء الواجبات والقيام بالمساعي التي تقتضيها الحياة الصالحة، ومعلوم أن كل واجب لا يخلو من مشقَّة؛ كمشقة العمل واكتساب العيش وبذك النفقات الواجبة، فلكل من هذه الأعمال نوع مشقة تستلزمها طبيعته وتختلف بحسب درجاتها، وهذا كله لا ينافي التكليف ولا يوجب التخفيف؛ لأن التخفيف فيه عندئذ إهمال وتفريط.

وإليك صورا تطبيقية لهذه القاعدة، وقد أجملها الفقهاء في سبعة أنواع:

الأول: السفر، ومن تيسيراته:

* إباحة قصر الصلاة وجمعها.

---

(١) الفروق: ١/١١٩، القواعد للمقري: ١/٣٢٦.
(٢) الفروق: ١/١١٩، القواعد للمقري: ١/٣٢٦.
(٣) المنثور في القواعد: ٣/١٧١.
(٤) الفروق: ١/١١٩.

* الفطر في رمضان.

* وإطالة المسح على الخفين.

* وترك الجمعة والجماعة.

* جواز بيع الإنسان مال رفيقه في السفر وحفظ ثمنه لورثته بدون ولاية ولا وصاية إذا مات في السفر وليس قاضي ثمة.

* جواز إنفاق المضارب على نفسه في السفر من مال المضاربة.

* إمكان كتابة القاضي إلى القاضي في بلد المدعى عليه بشهادة شهود المدعي عنده.

* جواز تزويج الولي الأبعد للصغيرة عند عدم انتظار الكفء الخاطب استطلاع رأي الولي الأقرب المسافر[١] .

الثاني: المرض، ومن تيسيراته:

* جواز التيمم عند مشقة استعمال الماء.

* القعود في صلاة الفرض وخطبة الجمعة.

* الاضطجاع في الصلاة والإيماء.

* الجمع بين الصلاتين ما لم يتخذ عادة[٢] .

* جواز الفطر في رمضان.

* ترك الصوم للشيخ الهرم مع الفدية والانتقال من الصوم إلى الإطعام في الكفارة.

---

(١) انظر هذه الصور في شرح القواعد الفقهية، ص: ١٥٧، ١٥٨.

(٢) المجموع: ٣٠٩/٤.

* والاستنابة في الحج.

* التداوي بالنجاسات.

* إساغة اللقمة بالخمر إذا غص.

* إباحة النظر للعورة[١] .

الثالث: الإكراه، وهو التهديد من قبل من له القدرة على أن يوقع بالمُكرَه ضربًا مبرحًا، أو إزهاقًا لروحه بالكلية، أو إتلاف عضو من أعضاءه سواء كان بقيد أو حبس وسواء طالت مدة الإكراه أم قصرت، ويُسمَّى هذا النوع من الإكراه ملجئًا، وقد يكون الإكراه دون ذلك كأن يكون مما يوجب الغم ويُسمَّى غير ملجئ.

« والإكراه بنوعيه إما أن يوجد في العقود أو في الإسقاطات أو في المنهيات، والعقود والإسقاطات إما أن يؤثر فيها الهزل أو لا، وما لا يباح عند الضرورة إما أن يكون جناية على الغير؛ كقتل محقون الدم أم قطع عضو محترم، أو لا يكون جناية على الغير؛ كالردة.

* أما العقود والإسقاطات التي يؤثر فيها الهزل كالبيع والإجارة والرهن والهبة والإبراء، إذا أكره عليها بملجئ أو بغير ملجئ ففعلها ثم زال الإكراه، فله الخيار إن شاء فسخ وإن شاء أمضى.

* وأما العقود والإسقاطات التي لا مكان لتأثير الهزل فيها كالنكاح والطلاق والعفو عن دم العمد، فلا تأثير للإكراه فيها، فلا خيار للمكره بعد زوال الإكراه، بل ماضية على الصحة ولكن له أن يرجع على المكره له على الطلاق غير الزوجة، فلو كانت هي المكرهة سقط المهر عن الزوج.

---

(١) انظر الدرر البهية في إيضاح القواعد الفقهية، ص: ٨٤.

* وأما المنهيات التي تباح عند الضرورة كإتلاف مال الغير وشرب المسكر فإنها تحل بل تجب بالملجئ لا بغير الملجئ وضمان المال المتلف على المكره.

* وأما المنهيات التي لا تباح عند الضرورة وهي جناية على الغير كما تقدم فإنها لا تحل ولا بالملجئ، ولو فعل فموجبها هو القصاص على المكره.

* وما لا جناية فيه على الغير وليس في معنى الجناية، وهو الردة، فإنه يرخَّص له أن يجري كلمتها على لسانه، وقلبه مطمئن بالإيمان ويوري وجوبًا إن خطر بباله التورية[١] .

الرابع: النسيان، فإنه مسقط للإثم كما أسلفنا، وقد يكون في ترك مأمور أو فعل منهي عنه ليس هو من باب الإتلاف أو فيه إتلاف.

فمن فروع القسم الثاني- وهو فعل منهي عنه وليس من باب الإتلاف- الإتيان بمفسدات العبادة كالأكل في الصلاة، والصوم، والجماع في الصوم والاعتكاف والإحرام، وارتكاب محظورات الإحرام كاللبس والاستمتاع والدهن والطيب ونحوها، فالحكم في الجميع عدم الإفساد وعدم الكفارة والفدية[٢] ، على أن المسألة فيها اختلاف في تضمين الناس هذه العبادات أو عدم تضمينه إياها، وممن قال بالتضمين الفقهاء المالكية، ومن قواعدهم » كل ما يفسد العبادة عمدا يفسدها سهوًا[٣] .

الخامس: الجهل، وهو نوعان:

١- نوع لم يتسامح صاحب الشرع عنه، فلم يعف عن مرتكبه، وضابطه أن كل

(١) شرح القواعد الفقهية، ص: ١٥٨، ١٥٩.

(٢) الدرر البهية في إيضاح القواعد الفقهية، ص: ٨٤.

(٣) الإشراف في مسائل الخلاف: ١/٢٤، و١/٢٠٢ و١/٢٢٦، وانظر عمدة الأحكام لابن دقيق العيد: ٢/٢١.

ما يتعذر الاحتراز عنه ولا يشق لم يعف عنه، وهذا النوع يطرد في أصول الدين وأصول الفقه- على قول من ألحق الفقه بأصول الدين[١] .

أما أصول الدين فلأن صاحب الشرع حين شدد في جميع الاعتقادات تشديدا عظيما بحيث إن الإنسان لو بذل جهده واستفرغ وسعه في رفع الجهل عنه في صفة من صفات اللّه أو في شيء يجب اعتقاده من أصول الدين ولم يرتفع ذلك الجهل لكان بترك ذلك آثما على المشهور من المذاهب[٢] .

٢- النوع الثاني: من أنواع الجهل هو النوع الذي تسامح عنه صاحب الشرع فعفا عنه مرتكبه، وضابطه أن كل ما يتعذر الاحتراز عنه عادة فهو معفو عنه[٢]
ومن تيسيراته:

- لو جهل الشفيع بالبيع، فإنَّه يعذر في تأخير طلب الشفعة.

- ومنها ما لو جهل الوكيل أو القاضي بالعزل أو المحجور بالحجر، فإن تصرفهم صحيح إلى أن يعلموا بذلك، ومنها لو باع الأب أو الوصي مال اليتيم ثم ادعى أن البيع وقع بغبن فاحش وقال لم أعلم تُقْبَلُ دعواه.

- ومنها لو جهلت الزوجة الكبيرة أن إرضاعها لضرتها الصغيرة مفسدة للنكاح لا تضمن المهر.

- ومنها لو أجاز الورثة الوصية ولم يعلموا ما أوصى به الميت لا تصحُّ إجازتهم.

- ومن المسائل التي يعذر فيها بالجهل ما لو اختلعت المرأة من زوجها على بدل، ثم ادعت أنه كان طلَّقها ثلاثًا قبل الخلع وبرهنت فإنها تسترد البدل، ويغتفر تناقضها

---

(١) انظر المعتمد في أصول الفقه: ١/٥.

(٢) تهذيب الفروق: ٢/١٦٣.

الواقع في إقدامها على الاختلاع ثم دعواها الطلاق؛ لأن الطلاق فعل الغير فإن الزوج يستبدُّ به دون علمها فكانت معذورة.

- ومنها أن من أسلم في دار الحرب ولم تبلغه الشريعة فتناول المحرمات جاهلا حرمتها فهو معذور(١) .

السادس: العسر وعموم البلوى، ومن تيسيراته: الصلاة مع النجاسة المعفو عنها كدم القروح والدمامل، والبراغيث، والقيح والصديد، وقليل من دم الأجنبي، وطين الشارع، وأثر نجاسة عسر زواله، وذرق الطيور إذا عمَّ في المساجد والمطاف وما يصيب الخف في الدوس من روث البقر وبوله، وما لا نفس له سائلة، وريق النائم، وفم الهرة، وقليل الدخان.

ومن تيسيراته: مشروعية الاستجمار بالحجر، وإباحة الاستقبال والاستدبار في قضاء الحاجة في البنيان.

ومنه إباحة أربع نسوة، فلم يقتصر على واحدة تيسيرا على الرجال وعلى النساء أيضًا لكثرتهن، ولم يزد على أربع لما فيه من المشقة على الزوجين في القسم وغيره، ومنه الردُّ بالعيب والتحالف والإقالة والحوالة والرهن والضمان والإبراء والقرض والشركة والصلح والحجر والوكالة والإجارة والمزارعة والمساقاة والمضاربة والعارية والوديعة للمشقة العظيمة في أن كل واحد لا ينتفع إلا بما هو ملكه ولا يستوفي إلا ممن عليه حقه ولا يأخذه إلا بكماله ولا يتعاطى أموره إلا بنفسه فَسُهِّلَ الأمر بإباحة الانتفاع بملك الغير بطريق الإجارة والإعارة والقرض وبالاستعانة بالغير وكالة وإيداعًا وشركة ومضاربة ومساقاة وبالاستيفاء من غير المديون حوالة، وبالتوثيق على الدَّين برهن وكفيل ولو بالنفس وبإسقاط بعض الدين أو كله إبراء..

---

(١) شرح القواعد الفقهية، ص: ١٦٠، ١٦١.

ومنه مشروعية الطلاق لما في الإبقاء على الزوجة من المشقة عند التنافر وكذا مشروعية الخلع والافتداء والرجعة في العدة الثلاث[١] .

السابع: النقص، فإنه نوع من المشقة؛ إذ النفوس مجبولة على حب الكمال فناسبه التخفيف في التكليفات.

ومن ذلك عدم تكليف الصبي والمجنون، ففوض أمر أموالهما إلى الولي، وتربيته وحضانته إلى النساء رحمة به وإشفاقًا عليه، ولم يجبر النساء على الحضانة تيسيرًا عليهن.

ولم يكلفهن بكثير مما وجب على الرجال كالجماعة والجمع والجهاد والجزية وتحمل العقل على قول، وإباحة لبس الحرير وحلي الذهب، وعدم تكليف الأرقاء بكثير مما وجب على الأحرار لكونه على النصف من الحر في الحدود والعدة[٢] .

* * *

(١) الأشباه والنظائر لابن نجيم، ص: ٨٧-٨٩.

(٢) الأشباه والنظائر لابن نجيم، ص: ٩٠.

المطلب الرابع :

« الحرج مرفوع »(١)

والمراد بالحرج أن يتحمل المكلف مشقة زائدة عن المشقة المعتادة في التكاليف الشرعية إذ الحرج في اللغة: المشقة والضيق، وقيل: « إنه أضيق الضيق »(٢) ، قال المقري- رحمه اللَّه-: « الحرج مرفوع، وكل ما يؤدي إليه فهو ساقط برفعه إلا بدليل على وضعه »(٣) يريد أن كل شيء يؤدي إلى الحرج فهو ساقط استنادًا إلى هذا الأصل العظيم.

وسقوطه يكون لأسباب منها:

أ- أن أوامر الشارع ونواهيه مختلفة ومتعددة ومقصودة من جهة الآمر والناهي لا بدَّ من القيام بها قال- تعالى-: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس، الآية:١٤]، وقال- تعالى-: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك، الآية:٢، وهود، الآية:٧]، إلا أن المكلف وجد بطبيعته ضعيفًا في نفسه وعزمه وصبره، فكان بذلك أن عذره ربّه حيث جعل له من جهة هذا الضعف ما يشدُّ به أزره ويسند عضده أثناء الدخول في الأعمال وإلا لو تجاوز حدّ الاعتدال في ناحية يكون بذلك قد تعرض للانقطاع أو التقصير في ناحية أخرى كمن يجتهد في العبادة ويكون اجتهاده على حساب غمط حقوق الزوجة والأبناء، وهذا عبد اللَّه بن

(١) وهي قاعدة لا تعدو أن تكون أختًا للسالفة وإن كانت هذه تخبر عن انتفاء رفع المشقة قبل ملابسة الفعل، وتلك تتحدث عن انتفائه ابتداء وملابسة، لذلك ألفينا الفقهاء يوردون صورًا متماثلة عند الحديث عنها.

(٢) النهاية في غريب الحديث: ٣٦١/١.

(٣) القواعد للمقري، ٤٣٢/٢.

مسعود- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- سُئِلَ عن سرّ إقلاله الصوم، أجاب «إنه يضعفني عن قراءة القرآن وهي أحب إليّ منه»[١] .

أنه لو أوصد باب رفع الحرج لورَّث للمكلَّف بغض التكاليف، وما القصد منها إلا إتيانها- كما مر- فهي برهان ودليل على الطاعة، لذلك شفعها- سبحانه- بتقوية المكلَّف عليها وحبّه لها، وكان معه- عَزَّ وَجَلَّ- عند صبره عليها، وبذلك تم فتح باب رفع الحرج وهيأ للمكلفين للتخفيف عنهم استقبالاً بذلك ثقل المداومة حتى لا يصعب عليهم البقاء فيه والاستمرار عليه، وذلك ما يزكيه حديث رسول اللَّه ﷺ حيث يقول: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق»[٢] .

* * *

---

(١) الموافقات: ٣/١٤١، ١٤٢.

(٢) مسند أحمد: ٣/١٩٩.

المطلب الخامس :

قاعدة: « لا ضرر ولا ضرار »[١]

والقاعدة حديث شريف نصًّا ومعنًى، رواه ابن ماجة وأحمد- رحمها اللَّه- من حديث عبد اللَّه بن عباس، وعبادة بن الصامت- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-[٢] . وتعتبر ثالث القواعد الأصول الواردة في شأن رفع الضرر، وما سواهن يعتبر تقييدًا أو تكميلًا كقولهم- مثلًا-: « يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام »[٣] ، فالقاعدة الأولى هي هذه التي معنا واعتُبِرَتْ عند بعض الفقهاء متحدة أو متداخلة مع السابقة التي هي: « المشقة تجلب التيسير »[٤] ، وأما الثانية فهي قولهم: « الضرر يزال »[٥] ، وهي دالة على وجوب إزالة الضرر بعد الوقوع وقد قُيِّدَتْ بقولهم: « الضرر لا يزال بالضرر »[٦]. وأما الثالثة فهي قولهم: « الضرر يدفع بقدر الإمكان »[٧] ، بحيث إذا حلَّ الضرر فإن أمكن دفعه بالكلية، وإلا فبقدر الإمكان.

وهذه القاعدة الجامعة التي تمثلت في الحديث النبوي الشريف: « مقيدة إجماعًا بغير ما أذن به الشرع من الضرر، كالقصاص والحدود وسائر العقوبات والتعازير؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، على أنها في الحقيقة لم تُشَّرع إلا لدفع الضرر

---

(١) انظر شرح القواعد الفقهية، ص:١٦٥، والقواعد والأصول الجامعة، ص:٥٢.

(٢) انظر سنن ابن ماجة ٧٨٤/٢ (كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره) وانظر مسند أحمد ٣٢٧/٥.

(٣) شرح القواعد الفقهية، ص: ١٩٧.

(٤) الأشباه والنظائر لابن نجيم، ص: ٩٤.

(٥) الأشباه والنظائر لتاج الدين السبكي: ٤١/١.

(٦) الأشباه والنظائر لابن نجيم، ص: ٩٦.

(٧) شرح القواعد الفقهية، ص: ٢٠٧.

أيضًا »[١] ، فكل هذه العقوبات المأمور بها- مع أن في الأصل فيها ضرر- لدفع ما هو أعظم ضررًا منها وهي جرائمها؛ إذ لا يمكن دفع الفساد الكبير إلا بهذا الفساد الصغير.

ومما أورد القرآن الكريم في شأن النهي عن المضارّة:

* مضارة الزوجة والتضييق عليها لتفتدي من زوجها بغير حق، قال- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّۚ﴾ [الطلاق، الآية:٦]، وقال- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ﴾ [البقرة، الآية:٢٣١].

* مضارة أحد الوالدين للآخر من جهة الولد، قال- تَعَالَى-: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾ [البقرة، الآية:٢٣٣].

* المضارة في الكتابة، قال- تَعَالَى-: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ﴾ [البقرة، الآية:٢٨٢]، والآية تحتمل أن يكون الكاتب، والشهيد مصدرا للأضرار فيكونان منهيين عن مضارتهما لصاحب الحق بأي ضرر يكون، أو يكون المكتوب له والمشهود له مصدرًا للأضرار، قال ابن عاشور- رحمه اللَّه-: « وقد أخذ فقهاؤنا من هذه الآية أحكامًا كثيرة تتفرع عن الأضرار: منها الشاهد من المسافة البعيدة، ومنها ترك استفساره بعد المدة الطويلة التي هي مظنَّة النسيان، ومنها استفساره استفسارًا يوقعه في الاضطراب ..»[٢] .

* ومن المضارة أيضًا إضرار المورِّث والموصَى، قال- تَعَالَى-: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ﴾ [النساء، الآية:١٢]، إذ النهي عن المضارة في الآية ينصرف إلى الموصي أو المورِّث بحيث يروم بوصيته المجحفة إلى الإضرار بالوارث فقيِّد بما دلَّ على النهي عن هذا اللون من الإضرار.

---

(١) شرح القواعد الفقهية، ص:١٦٥.

(٢) التحرير والتنوير: ١١٧/٣.

وعلى الجملة، فكل ضرر أوصله المكلف إلى مسلم أو غيره بغير حق، فهو محرم داخل في هذا الأصل.

ومن تطبيقات هذه القاعدة:

بعض الخيارات كخيار الرؤية، وخيار الشرط، فإن الأول شرع لدفع الضرر عن المشتري بدخول ما لا يلائمه في ملكه، والثاني شرع للحاجة إلى التروّي لئلا يقع ضرر الغبن.

ومنها أنواع الحجر، فإنها شُرِعَتْ وقاية من وقوع الضرر العائد تارة لذات المحجور وتارة لغيره، فإن من وجب حجره إذا ترك بدون حجر قد يضر نفسه وقد يضر غيره.

ومنها الشفعة فإنها شُرِعَتْ توقيًا من ضرر جار السوء.

ومنها لو باع لآخر ما يتسارع إليه الفساد وغاب المشتري قبل قبضه وقبل نقد الثمن فأبطأ، فللبائع بيعه لغيره توقيًا من تضرره بفساده، ولا يرجع على المشتري بشيء لو نقص الثمن الثاني عن الأول[١] .

ومنها حبس الموسر إذا امتنع عن الإنفاق على أولاده توقيًا من وقوع الضرر بأولاده بإبقائهم بلا نفقة[٢] .

ومنها مشروعية الخيار للبائع في فسخ البيع إذا كان يتضرر في غير ما باعه، كما لو باع جذعًا- مثلًا- من سقف، أو باع حصة شائعة من زرع مملوك له غير مستحصد، فإن له الخيار في فسخ البيع في الأولى؛ لأنه بقلع الجذع يتضرر في غير ما باعه، وهو بقية السقف، وكذلك له الخيار في الثانية إذا طالبه المشتري بالقسمة قبل استحصاد

---

(١) شرح القواعد الفقهية، ص: ١٦٦-١٦٧.

(٢) الأشباه والنظائر لابن نجيم، ص: ٩٦.

الزرع توقيًا من تضرره فيما لم يبعه وهو بقية الزرع؛ إذ لا تمكن القسمة إلا بعد قلع الكل[١] .

* « الضرورات تبيح المحظورات » ويقرب منها قولهم « ما جاز لعذر بطل بزواله »[٢] وتعتبر من فروع القاعدتين السابقتين « لا ضرر ولا ضرار » و« المشقة تجلب التيسير »[٣] ، وما يتفرع عنها يمكن أن يتفرع عن هذه أيضًا.

ومن تطبيقاتها:

- جواز أكل الميتة عند المخمصة.
- إساغة اللقمة بالخمر.
- إتلاف مال وأخذ مال الممتنع من الدين بغير إذنه[٤] .

* * *

---

(١) شرح القواعد الفقهية، ص: ١٦٨، وهذا الخيار خيار مختلف فيه، والصورتان اللتان أوردتهما على مذهب الأحناف.

(٢) الأشباه والنظائر لابن نجيم، ص: ٩٥.

(٣) الأشباه والنظائر لتاج الدين السبكي ٤١/١ وشرح القواعد الفقهية، ص: ١٨٥ والأشباه والنظائر لابن نجيم، ص: ٩٤.

(٤) المنثور في القواعد ٣١٧/٢ وهناك قواعد أخرى متفرعة عن هذه القاعدة تنظر في مظانها من كتب القواعد والأشباه والنظائر، ومنها: « اليسير مغتفر » ، ما لا يتحرج عنه معفو عنه، ويرتكب أخف الضررين، و« لا تكليف بما لا يطاق »، و« الحاجة تنزل منزلة الضرورة » وغيرها.

الباب الثالث :

كليات في الطاعة والجزاء

الفصل الأول : ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾

[النساء : ٥٩]

الفصل الثاني : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾

الفصل الثالث : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١١]

بين يدي الكلية :

تطالعنا في هذا الباب الثالث كليات ثلاث، إحداهن تروم إلى تأسيس الطاعة التي تعتبر مَعْلمًا من معالم العقيدة الصادقة والتسليم التام؛ انطلاقًا مما استيقنته الأنفس واستقرَّ في الأفئدة، وتتمثل في قوله- تَعَالَى-: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

والثانية تؤصل لمبدإ الجزاء المنوط بإيمان المكلف أو عدمه؛ إذ الإيمان والكفر سيكونان من سعيه، وهذا الجزاء من عدله وقسطاسه سبحانه، ولأجل ذلك سُخِّرَتْ طاقات الأنبياء والمرسلين، وتتمثل الكلية في قوله- تَعَالَى-: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

أما الثالثة؛ فقد جمعت بين الثنتين فتمثلت فيها الطاعة أحيانًا، والجزاء حينًا آخر، وذلك عند قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ۝١١﴾، أضف إلى هذا شموليتها لقواعد الدعوة والسلوك.

فتمَّ بذلك ثلاث كليات، وسنفرد عنهن الحديث في فصول ثلاثة مستقلة. آخذين على أنفسنا أن نسير على النهج السابق في إبقاء جمل الكليات بنصها القرآني.

* * *

الفصل الأول :

﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾

[النساء : ٥٩]

المبحث الأول :

تحرير بعض محال ورود الكلية القرآنية

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة، الآية:٢٨٥].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ﴾ [البقرة، الآية:١٤٣].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء، الآية:١٣].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء، الآية:١١٥].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النساء، الآية:٦٣].

قوله- تَعَالَى-: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء، الآية:٨٠].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة، الآية:٩٢].

قوله- تَعَالَى- : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف، الآيتين:١٥٦و١٥٧].

قوله- تَعَالَى-: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال، الآية:١].

قوله- تَعَالَى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال، الآية:٢٤].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال، الآية:٤٦].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة، الآية:٧١].

قوله- تَعَالَى-: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة، الآية:١١٨].

قوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور، الآية:٥١].

قوله- تَعَالَى-: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور، الآية:٥٤].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور، الآية:٥٦].

قوله- تعالى-: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ﴾ [النور، الآية:٦٢].

قوله- تعالى-: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور، الآية:٦٣].

قوله- تعالى-: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء، الآية:٢١٥].

قوله- تعالى-: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب، الآية:٣٦].

قوله- تعالى-: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾ [الأحزاب، الآية:٦٦].

قوله- تعالى-: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب، الآية:٧١].

قوله- تعالى-: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد، الآية:٣٣].

قوله- تعالى-: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح، الآية:١٧].

قوله- تعالى-: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد، الآية:٢٧].

قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر، الآية:٧].

قوله- تَعَالَى-: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ [التغابن، الآية:١٦].

* * *

المبحث الثاني :

فقهها

المطلب الأول :

مفهوم الطاعة في اللغة

يقال: الطوع: الانقياد، وهو نقيض الكره، قال- تَعَالَى-: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت، الآية:١١]، والطاعة: مثله، لكن أكثر ما يقال في الائتمار فيما أمر، وقوله- تَعَالَى-: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد، الآية:٢١]، أي أطيعوا وليكن منكم طاعة معروفة بلا إثم..[١]، وطاع يطاع أطاع: لان وانقاد، وأطاعه إطاعة وانطاع له: كذلك، وفي التهذيب: وقد أطاع له يطاع: إذا انقاد له، فإذا مضى لأمره، فقد أطاعه، فإذا وافقه فقد طاوعه، وفي الحديث: «فإن هم أطاعوا لك بذلك»، فالمطاوعة: الموافقة، ولسانه لا يطوع بكذا أي لا يتابعه[٢]. فلم تنأ لفظة الطاعة لغويًا عن معنى الانقياد والموافقة والمتابعة في إتيان الأفعال.

* * *

---

(١) انظر بصائر ذوي التمييز ٥١٩/٣ بصيرة في «طوع».

(٢) لسان العرب: ٨/٢٤٠-٢٤١. مادة «طوع».

المطلب الثاني :

مفهوم الطاعة في الشرع

وبين المفهوم اللغوي والاصطلاحي مواطئة على مستوى أصل اللفظة، غير أن المعنى يغدو مختلفًا متى وضعت في السياق كما أفادته الآية الكلية حيث تتمثل فيها مراتب الطاعات بعضها فوق بعض؛ إذ ليست طاعة اللَّه هي طاعة رسوله- فهما متغايران- كما أن طاعة الرسول ليست طاعة أولي الأمر؛ «لأن طاعة هؤلاء طاعة امتثال وتنفيذ»[١] ، فبدا الاختلاف واضحًا، وذلك بحسب ما أُضِيفَتْ إليه الطاعة.

* فأما طاعة اللَّه؛ فقد قال أهل التأويل: إنها تعني إتيان المأمورات، والوقوف عند المنهيات[٢] . وقالوا: إنها اتباع كتابه[٣] ، وقالوا: إنها طاعة شريعته، فإنه- تَعَالَى- هو مُنَزِّلُ الشريعة ورسوله مبلغها، والحاكم بها[٤].

* وأما طاعة الرسول ﷺ فتتمثل في طاعته في حياته فيما أمر ونهى، وبعد وفاته في اتباع سنته، وذلك أن اللَّه- تَعَالَى- عمَّ بالأمر بطاعته، ولم يخصص ذلك في حال دون حال، فهو على العموم حتى يخصَّ ذلك ما يجب التسليم له[٥] .

فدلَّ بهذا أن «طاعة اللَّه وطاعة رسوله، هي وجوب متابعة الكتاب والسنة»[٦] . فما أعيد فعل الطاعة عند الأمر بها لرسوله ﷺ إلا لإظهار الاهتمام بتحصيل طاعته

---

(١) التحرير والتنوير: ٥/٩٧.
(٢) انظر جامع البيان: ٥/١٤٧ فتح القدير: ١/٤٨٧.
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم: ١/٥١٨ وتفسير المنار: ٥/١٨٠.
(٤) التحرير والتنوير: ٥/٩٦.
(٥) جامع البيان: ٥/١٤٧.
(٦) التفسير الكبير: ٩/١٤٨.

لتكون أظهر مرتبة من طاعة أولي الأمر، ثم لينبه سبحانه على وجوب طاعته فيما أمر به، ولو كان أمرا غير مقترن بقرائن تبليغ الوحي، لئلا يتوهم السامع أن طاعة الرسول ﷺ المأمور بها ترجع إلى طاعة اللّٰه فيما يبلغه على اللّٰه دون ما يأمر به في غير التشريع، فإن امتثال أمره كله خير(١) . لذلك أفاد الأمر بطاعته مع إعادتها، أنها تجب له استقلالا من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر، وجبت طاعته مطلقا سواء كان ما أمر به في الكتاب أمر لم يكن، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه(٢) وهما اللذان يعرف بهما ما يقع به التكليف، فلا يقال- إذًا- إن في طاعة الرسول ﷺ ما يدل على الجعل لغير اللّٰه في الأمر والنهي والتشريع والتأثير؛ لأنه ﷺ هو المبلِّغ عن ربه، والشريعة نفسها قضت بذلك وتحدثت عن عصمته، وبيَّنت أن طاعة اللّٰه في طاعته، فلم يبق سوى اتباعه فيما بيَّن من الدين والشريعة(٣) .

* أما الطاعة المأمور بها لأولي الأمر، فإنها تعني الانقياد والاتباع- أيضًا- إلا أنه يتعين علينا تحديد أولي الأمر.

- فمن الناس من ذهب إلى القول بأنهم الأمراء في عهد الرسول ﷺ وبعده، ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وأمراء السرية(٤) . وأحسب أن هذا القول مُسْتَنَدُه سبب نزول الآية، فقد نقل البخاري في صحيحه عن ابن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩] قال: نزلت في عبد اللّٰه بن حذافة بن قيس بن عُدي؛ إذ بعثه النبي ﷺ في سرية(٥) .

---

(١) التحرير والتنوير: ٩٧/٥.

(٢) إعلام الموقعين: ٤٨/١.

(٣) انظر تفسير المنار: ١٨٠/٥.

(٤) أنوار التنزيل: ٩٤/٢، ٩٥.

(٥) صحيح لابخاري بشرح فتح الباري: ٢٥٣/٨ (كتاب التفسير، باب أطيعوا اللّٰه والرسول وأولي منكم) قال القرطبي: قال أبو عمر: وكان في عبداللّٰه بن حذافة دعابة معروفة ومن دعابته أن =

على أنه إذا تعين هذا المفهوم، فإن الرضوخ لطاعتهم مشروطة بألا يأمروا بمحرم « بعد أن تكون ولايتهم شرعية لا طاغوتية »[١] ، وهم الموصوفون- عند الزمخشري- في قوله: « أمراء الحق؛ لأن أمراء الجور اللّٰه ورسوله بريئان منهم، فلا يعطفون على اللّٰه ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنما يجمع بين اللّٰه ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إيثار العدل واختيار الحق، والأمر بهما والنهي عن أضدادهما، كالخلفاء الراشدين ومَنْ تبعهم بإحسان »[٢] ، ولا ريب أن القيد المذكور مُنتزع من النصوص النبوية الشريفة، كقوله ﷺ : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »، وقوله- عليه الصلاة والسلام-: « إنما الطاعة في المعروف »[٣] ، وقوله- عليه الصلاة والسلام- فيما رواه عبد اللّٰه بن عمر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عن النبي ﷺ قال: السمع والطاعة على المرء فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[٤] . فلا طاعة- إذًا- لأحد المخلوقين إلا لمن أذن اللّٰه في طاعته... ولا طاعة لأحد في معصية اللّٰه- عَزَّ وَجَلَّ-، لما فيه من المفسدة الموبقة في الدارين أو في أحدهما، فمن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة له[٥] .

= رسول اللّٰه ﷺ أمره على سرية فأمرهم أن يجمعوا حطبًا ويوقدوا نارًا، فلما أوقدوها أمرهم بالتقحم فيها، فقال لهم: ألم يأمركم رسول اللّٰه ﷺ بطاعتي؟ وقال: « ومن أطاع أميري فقد أطاعني"، فقالوا: ما آمنا باللّٰه واتبعنا رسوله إلا لننجو من النار) فصوّب رسول اللّٰه ﷺ فعلهم، وقال: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، قال اللّٰه تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ »، الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٢٦٠.

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤٨١/١.

(٢) الكشاف: ٥٣٥/١.

(٣) وهو جزء من حديث رواه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية عن علي-رضي اللّٰه عنه-انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري: ١٢٢/١٣.

(٤) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٢١/١٣-١٢٢ (كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية).

(٥) انظر قواعد الأحكام: ٣٠٤/٢.

ويرجِّح الشافعي هذا المنحى في تحديد أولي الأمر محتجًّا لذلك بأن قريشًا كانوا لا يعرفون الإمارة ولا ينقادون إلى أمير، فامروا بالطاعة لمن ولي الأمر، ولذلك قال- عليه الصلاة والسلام- في الحديث المتفق عليه: «من أطاع أميري فقد أطاعني»[(١)] .

* ومن أهل التأويل من رأى أن أولي الأمر هم أهل القرآن والعلم كما ذهب إليه الإمام مالك- رحمه اللَّه- قال مطرِّف وابن مسلمة: سمعنا مالكًا يقول: هم العلماء، وقال خالد بن نزار: وقفتُ على مالك، فقلت: يا أبا عبد اللَّه! ما ترى في قوله- تَعَالَى-: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]؟ قال:- وكان مُحْتَبِيًا فحلَّ حبوته، وكان عنده أصحاب الحديث ففتح عينيه في وجهي، وعلمت ما أراد وإنما عني أهل العلم»[(٢)] . وهو المختار عند الزمخشري في تفسيره، حيث يرى أن أولي الأمر هم: «أولو العلم الدينون الذين يُعَلِّمُونَ الناس الدين ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر»[(٣)] ، وهو المروي عن مجاهد وعطاء وأبي العالية- رحمهم اللَّه تَعَالَى- من التابعين، وقد احتج أبو العالية لرأيه بقوله: ألا ترى أنه يقول: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[(٤)] [النساء، الآية: ٨٣].

وبذلك تكون الحجة عند هؤلاء أن أولي الأمر هم العلماء القادرون على استنباط الأحكام غير المنصوصة من الأحكام المنصوصة[(٥)] .

ولو سلَّمنا أن أولي الأمر في الآية هم ذوو السلطان، فإن طاعتهم- رغم ذلك- لا تتم إلا إذا أَمَرُوا بمقتضى الشرع، ولا ريب أن العلماء هم المصدر والمرجع في هذا

---

(١) انظر الرسالة، ص: ٧٩، ٨٠.

(٢) أحكام القرآن: ٤٥٢/١، وانظر التحرير والتنوير: ٩٨/٥.

(٣) الكشاف: ٥٣٥/١.

(٤) انظر جامع البيان: ١٩٥/٥٥.

(٥) تفسير المنار: ١٨١/٥.

الشأن، ومن ثم فطاعة الأمراء تصدر من طاعة العلماء؛ إذ الكتاب والسنة هما المخرج، وهما المحدد للطاعة على وجه الجزم واليقين.

ولذلك حسن أن تكون الآية جامعة للفريقين شاملة لكليهما. كما نصَّ عليه ابن كثير- رحمه اللَّه- عند قوله: «والظاهر- واللَّه أعلم- أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء»(١) . وأَبْيَنُ من هذا قول ابن تيمية- رحمه اللَّه- الذي يقول فيه: «وقد أمر اللَّه- تَعَالَى- في كتابه بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وطاعة أولي الأمر من المؤمنين، وأولو الأمر أصحاب الأمر وذووه، وهم الذين يأمرون الناس، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة، وأهل العلم والكلام، فلهذا كان أولو الأمر صنفين: العلماء والأمراء، فإذا صلحوا، صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس»(٢) ، وصحّحه ابن العربي- رحمه اللَّه- معللًا ذلك: «أن أصل الأمر من الأمراء والحكم إليهم، وأما العلماء فلأن سؤالهم واجب متعين على الخلق وجوابهم وامتثال فتواهم واجب ..»(٣) ، «قال سهل بن عبد اللَّه- رحمه اللَّه- لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء، فإذا عظموا هذين أصلح اللَّه دنياهم وأخراهم، وإذا استخفوا بهذين أفسد دنياهم وأخراهم»(٤) .

وأنعم به حين يكون الأمير عالمًا فيجمع بين السلطان والقرآن، مما يكفل له الإمامة في ضوء الشرع وهديه لترد الطاعة في نهايتها من حيث بدأت، وهي طاعة اللَّه وطاعة رسوله ﷺ .

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥١٨/١.

(٢) الحسبة في الإسلام، ص:

(٣) أحكام القرآن: ٤٥٢/١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٠/٥-٢٦١.

المبحث الثالث :

قيمتها

المطلب الأول :

الطاعة من المقاصد العظمى في دعوة الأنبياء والرسل

فما خلا في أمة نذير إلا نادى في قومه بتقوى اللَّه وطاعته، لقد جاء ذلك على لسان نوح وهود ولوط وعيسى ابن مريم وهارون وصالح- عليهم السلام-، فكل من هؤلاء ردد في قومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [الشعراء، الآيتان:١٠٧-١٠٨، ١٢٥-١٢٦، ١٤٣-١٤٤، ١٦٢، ١٦٣، طه، الآية:٨٩، آل عمران، الآية:٤٩، الزخرف، الآية:٦٣]، وقد أجمل بيان هذا القصد في قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء، الآية:٦٤]؛ لأن المنقذ من الضلال هو طاعة الأنبياء والرسل بأمر منه- تَعَالَى- ووصايته، وإلا فما الفائدة من الشرائع إن لم يكن هناك امتثال لمضامينها؟ وهذا يقتضي أن يكون للرسالة سلطان يحقق المنهج، وتخضع له النفوس خضوع طاعة وتنفيذ.

ومن ثَمَّ أرسل اللَّه- تَعَالَى- هؤلاء الرسل ليطاعوا بإذنه وفي حدود شرعه؛ لتكون طاعتهم طاعة له- سبحانه- وتحقيقًا لمنهجه الكامل في الحياة، فلم يرسل الرسل- إذًا- لمجرد التأثر الوجداني والشعائر التعبدية .. فهذا وهم في فهم الدين لا يستقيم وحكمة اللَّه مِنْ إرسال الرسل، وهي إقامة منهج معين للحياة في واقع الحياة.. وإلا فما أهون دنيا. كل وظيفة الرسول فيها أن يقف واعظًا لا يعنيه إلا أن يقول كلمته ثم يمضي يستهتر بها المستهترون..!

من هنا كان تاريخ الإسلام دعوة وبلاغًا ونظامًا وحكمًا، وبعد ذلك خلافة عن رسول اللَّه ﷺ تقوم بقوة الشريعة لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول وتحقيق إرادة اللَّه من إرسال الرسول. وليست هناك صورة أخرى يقالِ لها الإسلام، أو يقال لها الدين إلا أن تكون طاعة للرسول محققة في وضع وفي تنظيم، ثم تختلف أشكال هذا الوضع ما تختلف، ويبقى أصلها الثابت وحقيقتها التي توجد بغيرها، استسلام لمنهج اللَّه وتحقيق لمنهج رسول اللَّه وتحاكم إلى شريعة اللَّه، وطاعة للرسول فيما بلَّغ عن اللَّه، وإفراد اللَّه بالألوهية، ومن ثَمَّ إفراده بالحاكمية التي تجعل التشريع ابتداء حقًّا للَّه لا يشارك فيه سواه، وعدم احتكام إلى الطاغوت في كثير ولا قليل، والرجوع إلى اللَّه والرسول فيما لم يرد فيه نص من القضايا المستجدة والأحوال الطارئة حين تختلف فيه العقول[١].

وفي قوله- تَعَالَى-: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] ما يؤذن بالاحتراس؛ لأن الطاعة - في الحقيقة - للَّه - تَعَالَى -، فهو قيد من قيود القرآن المزيلة لظن من يظن أن الرسول يطاع لذاته، واللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - بيَّن أن الطاعة الذاتية ليست سوى لرب العالمين، وقد أمر أن تطاع رسله، فطاعتهم واجبة بإذنه فيما يبلغون أو يحكمون به[٢]، فالأمر بالطاعة للَّه ولرسوله، لكن الخشية للَّه دون سواه.

* * *

(١) في ظلال القرآن: ٢/٦٩٦.
(٢) انظر تفسير المنار: ٥/٢٣٢، ٢٣٣.

المطلب الثاني :

الطاعة شرط لقبول الأعمال

إن ثبت أن المرجعية في كل القضايا- جليها وخفيها- إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ وأن اتباع أولي الأمر وطاعتهم يكون في معروف.

إن ثبت هذا، كانت الكلية ترسم «المنهج المهيمن على ما يطرأ على الحياة من مشكلات وأقضية أبد الدهر في حياة الأمة المسلمة، وتمثل هذه القاعدة نظامها الأساسي الذي لا تكون مؤمنة إلا به، ولا تكون مسلمة إلا بتحقيقه... إذ هو يجعل الطاعة بشروطها تلك. وردُّ المسائل التي تجدُّ وتختلف فيها وجهات النظر إلى اللَّه ورسوله شرط الإيمان وحدَّ الإسلام شرطًا، واضحًا ونصًّا صريحًا إن كنتم تحبون اللَّه واليوم الآخر، فإذا انتفى هذا الردَّ انتفى الإيمان ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه، ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين، وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر[1] .

فإذا انتفى الردُّ الذي هو من الأعمال العبادية كان ذلك يعني عدم قبوله لانتفاء الطاعة والاتباع؛ لأن اللَّه- تَعَالَى- إنما يُعْبَدُ بأمره الذي بعث به رسوله. ألا ترى إلى الذين كفروا من أهل الكتاب حين أحلوا أحبارهم مكانة الحاكمية والتشريع، فأطاعوهم في التحليل والتحريم فاتخذوهم بذلك أربابًا من دون اللَّه، وُصِمُوا بالشرك وإن لم يعبدوهم العبادة الصريحة؛ لأن انصياعهم لفتاويهم وقبولها واطمئنان أنفسهم بها، كان بمثابة عبادتهم، وَعُدَّ صنيعهم ذلك إقحامًا لهؤلاء في خصيصة الإلهيه استأثر اللَّه بها نفسه، وهي الحاكمية العليا والمطلقة- ولذلك قال- عَزَّ وَجَلَّ- في هذا

(١) إعلام الموقعين: ١/ ٥٠.

السياق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء، الآية:٤٨].

فكان الجزاء في الآية حتمًا يؤذن بخطورة الموقف، ويتوعد كل من خالف إلى طاعة غير الله ورسوله، وذلك بقطع الطمع عنه في الرضا والمغفرة.

* * *

المطلب الثالث :

الطاعة مَعْلَمٌ مِنْ مَعَالِمِ الائتِلَافِ وَنَبْذِ الْفُرْقَةِ وَالْخِلَافَةِ

وذلك لقوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال، الآية:٤٦]، ولئن كانت الآية تتحدث في شأن القتال وميدانه، فإنها تنطبق- أيضًا- على ميدان النفس بالأولى؛ لأن طاعة اللَّه وطاعة الرسول ﷺ مأمور بها في السلم والحرب، في المنشط والمكْرَه، وإلا فماذا ينتظر من أفراد مجتمع لم ينشَّؤوا على الطاعة ابتداء قبل حلول الشدائد وإحداق النكبات؟

إنه بغياب الطاعة يغيب المنهج الهادي، ويقع تمرّد الأفراد على منفذ الشريعة الأول نتيجة حلول الأهواء وتشابك الآراء، فينفتح باب الفرقة، وينتصر سلطان الهوى مما يفضي إلى وَهَن الأمة وضعفها.

وبحضور الطاعة واستسلام الأفراد للَّه ورسوله، ينتفي النزاع ويرجِّح الحق على الذات ابتداء، فيكون ذلك إعلامًا بأن هذا اللون من الطاعة ليس حَدُّهُ تلك الطاعة الظاهرة، وإنما هي قلبية غائرة لا يقوم ولاؤها للقيادة إلا على ولائها للَّه- تَعَالَى-.

وحينما تكون الطاعة مؤسّسة للقوة العاصمة من الاختلاف، تلك القوة التي عبَّر عنها- عَزَّ وَجَلَّ- بقوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦]، وأحسب أن وجه الشبه، «هو أن الريح لا يُمَانِعُ جريها ولا عملها شيء، فشبه بها الغلب والحكم»[١]، ولا انبثاق لهذا الغلب إلا بتحصيل أسبابه التي منها التفاهم والتشاور، ومراجعة ذوي الرأي بعضهم لبعض حتى يصدروا عن رأي جامع، فإن أوشكوا على التنازع، أحالوا قضيتهم إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ وأولي الأمر، قال- تَعَالَى-: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي

---

(١) التحرير والتنوير: ٣١/١٠.

شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النساء، الآية:٥٩]، «ولفظ»: ﴿شَيْءٍ﴾ [النساء، الآية:٥٩] نكرة متوغلة في الإبهام فهو في حيز الشرط يفيد العموم أي في كل شيء، فيصدق بالتنازع في الخصومات على الحقوق، كما يصدق بالتنازع في اختلاف الآراء عند التشاور أو عند مباشرة عمل ما؛ لذلك كان موقع لفظ: ﴿شَيْءٍ﴾ [النساء، الآية:٥٩] محسنًا لتعميم الحوادث وأنواع الاختلاف[١] فجاء كل ذلك ونظيره مأمورا أصحابه بردِّ أمره إلى اللّٰه والرسول، وردُّ كل نوع من ذلك يتعين أن يكون بحيث يرجى معه زوال الاختلاف، وذلك ببذل الجهد من أجل الوصول إلى الحق الجلي في تلك الأحوال.

وذكر الردِّ إلى اللّٰه في هذا، مقصود منه مراقبة اللّٰه- تَعَالَى- في طلب الجلاء للحق في مواقع النزاع تعظيمًا له- سبحانه-، فإن الردَّ إلى الرسول يحصل به الردُّ إلى اللّٰه؛ إذ الرسول هو المنبيء عن مراد اللّٰه..[٢].

* * *

(١) التحرير والتنوير: ٥/٩٩.

(٢) التحرير والتنوير: ٥/١٠٠-١٠١.

المطلب الرابع :

طاعة اللّه تقتضي طاعة الرسول ﷺ :

وذلك لقوله- تعالى-: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء، الآية:٨٠]، وأول ما يطالعنا في هذه الآية الشريفة، إثباتها لرسالة محمد ﷺ [١]، ثم دلالتها على عصمته- عليه الصلاة والسلام- في جميع أوامره ونواهيه، في كل ما يبلِّغه عن ربه؛ لأنه لو أخطأ في شيء منها، لم تكن طاعته طاعة للّه، ومثل هذا يقال في أفعاله؛ لأنه- تعالى- أمر بمتابعته فقال- عزَّ وجلَّ-: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ﴾[٢] [الأعراف، الآية:١٥٨]، ومن ثَمَّ كانت آية الطاعة بهذه الممهدات بمثابة بوابة الأمان للمتَّبع متى انقاد انقيادًا تامًّا في القول والفعل، في العبادات والفضائل والأعمال العامة والخاصة، فمن أطاع النبي ﷺ في ذلك فقد أطاع اللّه، قال الشافعي- رحمه اللّه- في باب ما أمر اللّه من طاعة رسوله من كتابه «الرسالة»: وقال- تعالى-: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء، الآية:٨٠] فأعلمهم أن بيعتهم رسوله، بيعته، وكذلك أعلمهم أن طاعتهم له طاعته[٣]، وقال- أيضًا- عند قوله- تعالى-: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور، الآية:٥١]، «فأعلم اللّه الناس في هذه الآية أن دعاءهم إلى رسول اللّه ليحكم بينهم دعاء إلى حكم اللّه؛ لأن الحاكم بينهم رسول اللّه، وإذا سلَّموا لحكم رسول اللّه ليحكم بينهم، فإنما سلَّموا لحكمه بفرض اللّه، وأنه أعلمهم أن حكمَه حكمُه على معنى افتراض حكمِه، وما سبق في علمه جلَّ ثناؤه من

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ١٣٥/٥.

(٢) انظر التفسير الكبير: ١٩٨/١٠.

(٣) الرسالة ص: ٨٢.

إسعاده بعصمته وتوفيقه، وما شهد له من هدايته واتباعه أمره»[١] ، وبذلك يكون القرآن قد دلَّ بهذا أن كل تكاليف الشرع التي كَلَّفَ اللَّه بها عباده؛ عبادات ومعاملات- ولو لم يكن ذلك مبينًا في القرآن- فحينئذ لا سبيل لنا بالقيام بتلك التكاليف إلا ببيان الرسول ﷺ، وإذا كان الأمر كذلك، لزم القول بأن طاعة الرسول عين طاعة اللَّه[٢] .

* * *

(١) الرسالة، ص: ٤٨.

(٢) التفسير الكبير: ١٠/١٩٩.

المبحث الرابع :

من تجليات الطاعة

المطلب الأول :

ملازمتها في الشدَّة والرخاء

وذلك لأن عنصر الصدق وأمارته لا يبدوان على الطاعة بإتيانها مرة أو مرتين أو لزومها في المنشط دون المكره، فَمِثْلُ هذا غير معدود في الطاعة، ولا صاحبه في زمرة المطيعين؛ إذ لابد من التكاليف الممحصة الكاشفة عن مدى هذه الطاعة أو تلك، كالهجرة والجهاد والصبر على مناكدة العدو ومواجهة مواطن الشدَّة بكل ما هو شاهد على صدق المطيع وتفانيه في إتيان المأمور.

وهو ما يصوره القرآن الكريم حين يَعْرِضُ ألوانًا من الطاعة المثالية، منها هذه الآية الشريفة التي تعرض طائفة الأنصار والمهاجرين عرضًا نموذجيًا يشرف على صدق العبارة- والتي يقول- تَعَالَى- فيها ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة، الآية:١١١] قال ابن كثير- رحمه اللَّه-، متحدثًا عن ساعة العسرة هذه: «قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شِدَّةٍ من الأمر في سنة مجدبة وحرٍّ شديد، وعسر من الزاد والماء، قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحرِّ على ما يعلم اللَّه من الجهد ما أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة

بينهم، يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم ..»[١] .

هكذا يأتي القرآن الكريم على ذكر مثل هذا اللون من الطاعة الصادقة، فبالرغم من العسرة لم يهن القوم ولم يستكينوا- وإن كانت هناك هزات نفسية تحت مطارق هذه العسرة- فبالرغم من ذلك أبدوا الثبات على المبدإ والطاعة والامتثال التامين فسجّلوا بذلك انتصارا على النفس وخرجوا بأقوى روح وأصلب عود، وذلك لما بصرهم الله به من الحق ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة، الآية:١١٧].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/٣٩٦.

المطلب الثاني :

التسليم لله والرسول

ومن أمارات الطاعة والاتباع، النزول عند قضاء الله ورسوله والرضا والقبول به انطلاقًا مما استيقنته نفس المطيع واستقرَّ في قلبه استقرارًا، وذلك لأن المؤمن الحق ليس له من أمره شيء، وإنما هو وما ملكت يده لله- تَعَالَى- يصرِّفه كيف يشاء ويختار له ما يريد[(١)] ، قال- تَعَالَى-: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب، الآية:٣٦]، وإذا كان للنص علاقة بإبطال التبني وإحلال مطلقات الأدعياء، فإن القاعدة التي تقررها الآية أعمُّ وأشمل، قال ابن كثير- رحمه الله-: «هذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ها هنا ولا رأي ولا قول كما قال تبارك- وتعالى-: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء، الآية: ٦٥]، ولهذا شدّد في خلاف ذلك، فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب، الآية:٣٦]، وحذَّر من ذلك، فقال- تَعَالَى-: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(٢)] [النور، الآية:٦٣]، فلا بدَّ من السمع والطاعة- إذن- «بلا تردد ولا جدال ولا انحراف، السمع والطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أن حكم الله ورسوله هو الحكم وما عداه الهوى»[(٣)] ، ولذلك نفى- سبحانه- خيرة المكلف عند سماع أمره وأمر رسوله ﷺ ، ثم أطلق على من بقيت له

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٨٦٥/٥.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم: ٤٩٠/٣.

(٣) في ظلال القرآن: ٢٥٢٧/٤.

خيرة عند صدور الأمر اسم المعصية، ثم علَّق على المعصية بذلك الضلال[١] ، فواجب على المؤمنين إذا دعوا إلى اللّه ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، سمع طاعة وطاعة تسليم، مطمئنين إلى هذا المنهج، ماضين فيه لا يتخبطون، فلا تتوزع طاقاتهم، ولا يمزقهم الهوى كل ممزق، ولا تقودهم الشهوات والأهواء.

والنهي الإلهي أمامهم واضح لنبذ كل داعية إلى اختيار ما هو خلاف ما أمر اللّه ورسوله به؛ لأن الإيمان بهما حقيقة يقتضي الامتثال لما أمرا به من العمل. وزعم الإيمان باللّه ورسوله، ثم التحاكم والرضا بقضاء غيرهما في مشكلات الحياة، غير مقبول وهو زعم كاذب، برهانه التحاكم إلى الطاغوت، قال- تَعَالَى-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء، الآية:٦٠]، فمحبتهم للتحاكم إلى الطاغوت تبعث على فعل المحبوب، وإنما قال: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء، الآية:٦٠]، لأنه يحب ذلك ويحسِّنُهُ لهم حيث ألقى في روعهم الدعاء إلى تحكيم الطاغوت والانصراف عن حكم الرسول[٢] .

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٨٨/١٤.

(٢) التحرير والتنوير: ١٠٥/٥.

المبحث الخامس :

من مثمرات الطاعة

المطلب الأول :

تقوى الله- عَزَّ وَجَلَّ

وذلك لأن تقوى اللَّه طريقٌ إلى الهدى وهادٍ إلى النور، وزادٌ من أزواد اللَّه يخصُّ به المتقين حتى يميزوا بين الحق والباطل، قال- تَعَالَى-: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال، الآية:٢٩]، وقد فُسِّر هذا الفرقان بالهداية والمعرفة وشرح الصدر كما قال- عَزَّ وَجَلَّ- وهو يجري مفارقة بين المهتدي والضال-: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٢﴾[1] [الزمر، الآية:٢٢]، كما فُسِّرَ بالبصيرة التي يفرَّق بها بين الحق والباطل، وعن بعضهم بالنصر يُفرَّق بين المحق والمبطل بما يعزُّ المؤمن ويذلُّ الكافر وبالنجاة من الشدائد في الدنيا ومن العذاب في الآخرة، وهو من الفرقان العملي[2] . وجميع ما ذُكِرَ قبله من العملي- أيضًا- يمكّن المتقي أن يشرفَ على تعاليم الإسلام وأخلاقه وآدابه، ويكسب به فرحًا بحاله، ومسرة برضى ربه، وجزمًا بأنه على الحق والهدى في كل أمر، بجعل من اللَّه- تَعَالَى- الذي أفاض عليه من معارفه، فأخرجه من التباس الأحوال وانبهام المقاصد فاتخذ سبيله في تعظيم شعائر اللَّه التي هي من تقوى القلوب « ومن أبرزها وأعلاها طاعة النبي ﷺ واتباع شرعه »[3] ، كل ذلك

---

(١) انظر التفسير الكبير: ١٥/١٥٨.

(٢) تفسير المنار: ٩/٦٤٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/٢١٩.

مأتاه التقوى ومنبعه الخوف ومراقبة المولى- عَزَّ وَجَلَّ-، ومن ثَمَّ اعْتبِرَت التقوى ملاك السير على الهدى وزمام الظاعن على الحق والصواب الذي جاء به الرسول ﷺ وبشَّر به الحق بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور، الآية:٥٢]. فَجَمَعَتْ الآية بين ثلاثي يقود إلى الفوز والفلاح، ومنه التقوى.

* * *

المطلب الثاني :

التجرد في طلب الحق

إذ الحق- في أثناء البحث عنه- لا يتوقف الحرص على معرفته وإدراكه فحسب، بل لابد- مع ذلك- من أمر، قلبي هو التجرد والحرص على سلامة القصد، والتبرؤ من الهوى، ولا يتم ذلك إلا بالإخلاص للَّه- عَزَّ وَجَلَّ-، وهو أمر له تعلق بتنقية النفوس من الشوائب والأهواء وتزكيتها قال- تعَالَى-: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس، الآيتان:٩،١٠]، وإلزامها بالطاعة وترك المعصية ظاهرًا وباطنًا، وعدم الإعراض عن الحق، قال ابن تيمية- رحمه اللَّه-: « .. وكذلك من أعرض عن اتباع الحق.. فإن ذلك يورثه الجهل والضلال؛ حتى يعمي قلبه عن الحق الواضح، كما قال- تعَالَى- ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[1] [الصف، الآية:٥]، فوجب على المؤمن أن يستعين باللَّه ويتوكل عليه في أن يقيم قلبه ولا يزيغه ويثبته على الهدى والتقوى، ولا يتبع الهوى كما قال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ﴾ [الشورى، الآية:١٥].

* * *

(١) انظر الفتاوى: ١٠/١٠.

المطلب الثالث:

الرغبة في العمل

ويتم ذلك بالنظر في الوحيين والإدمان في تدبر نصوصهما، كما يتم بالسير على نهج السلف.

١- **النظر في الوحيين**: وذلك؛ لأن الإسلام دين أساسه الوحي، والوحي لا يدرك إلا بالتعلم والتفقه، ومن ثم فلا وسيلة للعمل بأحكام الشرع واتباع النبي ﷺ إلا عن طريق التعلم، ولذلك ألفينا البخاري- رحمه الله- يعقد بابًا في صحيحه وهو باب العلم قبل القول والعمل، لقوله- تَعَالَى-: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[1] [محمد، الآية:١٩]، فبدأ بالعلم، وكان أول ما نزل قوله- تَعَالَى-: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق، الآية:١]، ولا ريب أن القراءة أداة ووسيلة إلى العلم.

ولما كان القرآن والسنة النبوية الصحيحة هما ينبوع الحق ومصدر تلقيه كما قال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء، الآية:٩]، وقوله ﷺ فيما رواه أبو هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «إني تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب اللَّه وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض»[2] ، ولقد تكفَّل اللَّه بحفظ نصوص كتابه من أن يلحقها تحريف، وتضمن ذلك حفظ السنة الشريفة بما هيأ لها من أئمة ثقات في الدين، أكفاء في خدمة السنة، فميزوا صحيحها من سقيمها، لما كان هذا كله، كان لزامًا لمن أراد الاتباع - والبعد عن الابتداع - أن يحرص كل الحرص على اجتناء النصوص منهما والعمل بموجبهما فعلًا وتركًا.

---

(١) انظر فتح الباري: ١/١٩٢.

(٢) المستدرك: ١/٩٣ (كتاب العلم).

ولا شك أن العائد من تدبر النصوص النبوية الصحيحة؛ كالعائد من تدبر النصوص القرآنية؛ لأن كلًّا منهما مصدر الأحكام، وطريق الاعتصام، والأمن من الزيغ والضلال.

٢- **التشبه بالسلف** : وهو إجراء يَعِين على لزوم الحق؛ وذلك باتخاذ الصدر الأول مثلًا أعلى لما أوتي هؤلاء من فهم في الدين ومعاينة للوحيين حتى بوَّأتهم هذه المؤهلات المكانة العلية التي أشار إليها ﷺ في قوله: « خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم »[١] ، وأوضح منه ما جاء في حديث الافتراق حين ذكر ﷺ أن هذه الأمة ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول اللَّه؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي »[٢] ، فأفادت الجملة الأخيرة من الحديث، أن مسلك الصحابة اتباع رسول اللَّه ﷺ ، بل ويكون اتباع السنة ملزمًا باتباع ما كان عليه الصحابة، فمن سلك سبيلهم ونهج نهجهم، فهو أولى الناس بالنبي ﷺ ، ومن أراد أخذ السنة بعيدًا عن طريقهم، كانت دعواه عرية عن الحق، قال الشاطبي- رحمه اللَّه-: « وحاصل الأمر أن الصحابة كانوا مقتدين به، مهتدين بهديه، وقد جاء مدحهم في القرآن الكريم وأثنى عليهم متبوعهم ﷺ ، وإنما خُلُقه القرآن، فقال- تَعَالَى-: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم، الآية:٤]، فالقرآن هو المتبوع على الحقيقة، وجاءت السنة مبينة له؛ فالمتبع للسنة متبع للقرآن، والصحابة كانوا أولى الناس بذلك، فكل من اقتدى بهم، فهومن الفرقة الناجية الداخلة للجنة بفضل اللَّه »[٣] .

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٥٨/٥، ٢٥٩ (كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة زور إذا شهد).

(٢) سنن الترمذي: ١٣٥/٤ (أبواب الإيمان، باب افتراق هذه الأمة).

(٣) الاعتصام: ٢٥٢/٢.

والطريق إلى بوابة السلف، الصحبة الصالحة. قال ﷺ : «الرجل على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل»[١] ؛ والسبب في ذلك أن الخليل يحمل صاحبه على ما هو عليه، إن طاعة كانت الطاعة والاتباع، وإن معصية كان العصيان والابتداع، وهو كما قال - عليه الصلاة والسلام -: «مثل الجليس الصالح والجليس والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»[٢] ، فإن في الحديث «النهي عن مجالسة من يتأذى بمجالسته في الدين والدنيا، والترغيب في مجالسة من ينتفع بمجالسته فيهما»[٣] .

* * *

(١) سنن أبي داود: ١٦٨/٢.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ٦٦٠/٩ (كتاب الذبائح والصيد، باب المسك). وقوله: «إن لم يحذك» ، أي إن لم يعطك من الحذيا والحذية النهاية في غريب الحديث ٣٥٨/١ (باب الحاء مع الذال).

(٣) فتح الباري: ٣٢٤/٤.

المبحث السادس :

من المثبطات عن الطاعة

المطلب الأول :

الجهل واتباع الهوى

أ- الجهل : وهو بطبيعته حاجب عن الحق بل عَدوٌّ له؛ لأن الجاهل لم يكلف همته بالبحث فعطَّل ذهنه عن التفكير، وآوى إلى الظنون عديمة الجدوى، فكان من الذين قال اللّه فيهم: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم، الآية:٢٨].

أو استحب التقليد الأعمى الذي أنكره الشرع، قال- عَزَّ وَجَلَّ- مُخبرًا عن المقلدة على سبيل التعبير-: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف، الآية:٢٢].

وما القناعة بالظنون واستحباب اتباع سنن الذين من قبل إلا دليل على قصور في المدارك والعلم الذي من شأنه أن يستوعب الذكر ويغدو مقصد النجاة، ولو سطعت شمس الحق في قلوب الجهلة، والمقلدة لآووا إلى ركن شديد؛ ولتبددت ظلمة الجهل وأُزيلَت عنهم غمة العماية فأبصروا الحق جليًّا وأورثهم ذلك الطاعة والاتباع.

لذلك كان الجهل غشاوة تحجز عن الأبصار وتثبط عن السير في مدارج الهدى، قال ابن تيمية- رحمه اللّه-: «إن الجهل سبب للمحرمات جميعها من كفر وفسوق وعصيان؛ لأن العبد لا يقترف المعاصي إلا لجهله، فكان أصل وقوع السيئات عدم

العلم»[١]، وفي القرآن حشد من الآيات تتضافر لتقرير ما يشعر بخطورة الجهل ويحذر من مغبته، ويحث على التزين بالعلم، من ذلك قوله- تَعَالَى-: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف، الآية:٣٣]، قال صاحب المنار- رحمه اللَّه- عند تفسير هذه الآية-: «أما القول عل اللَّه بلا علم فهو أشد هذه المحرمات التي عليها الشرائع والأديان، قال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف، الآية:٣٣]، ثم انتقل إلى ما هو أعظم منه؛ فقال: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف، الآية:٣٣]، ثم انتقل إلى ما هو أعظم منه؛ فقال: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ [الأعراف، الآية:٣٣]، ثم انتقل إلى ما هو أعظم منه؛ فقال: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف، الآية:٣٣]، فهذا أعظم المحرمات عند اللَّه وأشدها إثمًا، فإنه يتضمن الكذب على اللَّه ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته، وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله، وإبطال ما أحقه، وعداوة من والاه، وموالاة من عاداه، وحب من أبغضه، وبغض من أحبه، ووصفه بما لا يليق في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله، فليس في أجناس المحرمات أعظم عند اللَّه منه ولا أشد إثمًا، وهو الشرك، وعليه أسست البدع والضلالات»[٢]، ومن الآيات أيضًا قوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء، الآية:٣٦]، حيث أفادت الآية أنه لا يقوم شيء في هذا الدين على الظن أو الوهم أو الشبهة، سواء أكان ذلك في حكم شرعي أو في عقيدة، وهي دعوة قرآنية صريحة لبيان أنه لا مجال للظنون أو الشبهة من أجل سلوك سبيل الحق[٣]. وهو إصلاح عقلي جليل يعلم التفرقة بين المعلوم والموهوم، ليؤدي في منتهاه إلى إصلاح فكري يجنب صاحبه المهالك جراء اتباعه للخرص والتخمين.

---

(١) الفتاوى ١٤/٢٢-٢٣ بتصرف. (٢) تفسير المنار: ٨/٤٠٠.

(٣) انظر في ظلال القرآن: ٤/٢٢٢٧.

ب- اتباع الهوى وما تشتهيه الأنفس: وهو يعد- أيضًا- من العوائق الصارفة عن الحق، وذلك؛ لأن من طبيعة النفس البشرية الرغبة فيما تهواه، ويصعب صرفها عن ذلك ما لم يكن هناك وازع ديني قوي يزاحم هذه الرغبات إلى حد يشبع النفس بالاطمئنان إلى الشرع، مما يتولد عنه حب الشارع والشريعة، فيكون الهوى الحق الذي يحل محل الهوى الباطل، ويتحقق ذلك بالاتباع والحرص على الكمال فيه، وفي قوله- تَعَالَى-: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص، الآية:٥٠]، ما يفيد أن سبب الحيلولة دون الهدى إنما هو الهوى، قال ابن تيمية- رحمه اللَّه-: « ... ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من العلماء والعُبّاد، يُجعل من أهل الأهواء.. وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى اللَّه الذي بعث به رسوله، ولهذا قال- تَعَالَى-: في موضع: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام، الآية:١١٩]، وقال في موضع آخر: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص، الآية:٥٠]، فالواجب على العبد أن ينظر في نفس حبه وبغضه، ومقدار حبه وبغضه، هل هو موافق لأمر اللَّه ورسوله، وهو هدى اللَّه الذي أنزل على رسوله، فإنه قد قال: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات، الآية:١]، ومن أحب أو أبغض قبل أن يأمره اللَّه ورسوله، ففيه نوع من التقدم بين يدي اللَّه ورسوله، ومجرد الحب والبغض هوى، لكن المحرم اتباع حبه وبغضه بغير هدى من اللَّه، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [ص، الآية:٢٦]، فأخبر أن من اتبع هواه أضله عن سبيل اللَّه، وهو هداه الذي بعث به رسوله وهو السبيل إليه»[١] .

---

(١) الحسبة في الإسلام، ص: ٧٠- ٧١

ومن الهوى ما يكون خفيًا، إلا أن خطورته شديدة، وهو حين يعمد المحب للشرع - على حد زعمه - فيتخير سواء أوافق ذلك محبوب اللَّه أم خالفه، وهي من أمارات الزيغ عن الهدى والتخلف عن الطاعة بسبب ما علق في النفس من الهوى والتشهي، ولا حجة حينئذ لمثل هذا في غموض عقيدة أو ضعف حجة أو نقص دليل كما يدعون.. فالذين لم يستجيبوا لهذا الدين غير معذورين؛ لانقطاع عذرهم بوصول الحق إليهم وعرضه عليهم، فلم يعد لهم حجة ولا دليل، فقد أخبر - تَعَالَى - بقوله: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾[1] [القصص، الآية:٥١]، ومن متمات هذا المطلب - المسهم في إكبار الهوى في النفوس - مجالسة أهل الأهواء والركون إليهم، فيزينون لجلسائهم ما هم عليه من باطل؛ ولذلك اشتد نكير السلف وعظم تحذيرهم من مخالطة هؤلاء، (ففي قصة عمر مع صبيغ) قال أبو عثمان الراوي «إن عمر كتب إلينا ألا تجالسوه، قال: فلو جلس إلينا ونحن مائة لتفرقنا عنه»[2] .

* * *

---

(١) انظر في ظلال القرآن: ٥/٢٦٩٩، ٢٧٠٠.

(٢) سنن الدارمي ١/٥٥ (باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع).

المطلب الثاني :

إيثار العقل على النقل

لقد شرف اللَّه الإنسان بالعقل وزينه به، وذكر أولي الألباب ذكرًا حسنًا، فقال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد، الآية:١٩]، وقال- تَعَالَى-: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص، الآية:٢٩]، فجعل في أولي الألباب قابلية التفكر والتدبر حتى يظهر أن هؤلاء أقروا بنعمة العقل فشكروا اللَّه على ما أعطاهم؛ وذلك بإعمال عقولهم وتوظيفها في التفكر والتدبر.

غير أن كثيرًا من الناس لم يبقوا للعقل مكانته، فهم بين معطل لوظيفته مفرط في إبطاله، وبين مفرط في جعله المرجع الوحيد؛ حتى قدّموه- بلا استحياء- على شرع اللَّه؛ فبنوا من جرّاء ذلك لأنفسهم الضلالات ووسموها بالحقائق واليقينيات، ولم يعلم هؤلاء أن للعقل حدًّا ينتهي إليه في المدركات، وأن اللَّه- تَعَالَى- لم يجعل له سبيلا إلى إدراك كل شيء[1] ، كما أنهم جهلوا أن اللَّه- تَعَالَى- حافظ دينه وعاصم نبيه من الزلل في التبليغ، ومن ثَمَّ فما جاء به من حق ويقين لا مِرية فيه، وأن يقينياتهم المزعومة ما هي إل عين الباطل، بدليل تباين العقول والفهوم في تعيين الحقائق والمصالح، وبدليل أن اللَّه- تَعَالَى- أمرنا بالتسليم لحكم رسوله ﷺ تسليمًا مطلقًا، وجعل ذلك من علامات الإيمان، قال- تَعَالَى-: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء، الآية:٦٥]، وما أحسن قول ابن أبي العز الحنفي- رحمه اللَّه- حين شرح قول الطحاوي: «ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم

---

(١) انظر الاعتصام: ١/٢٩٤-٣٠١.

والاستسلام»، قال: «أي لا يثبت إسلام من لم يسلّم لنصوص الوحيين وينقد إليها ولا يعترض عليها، ولا يعارضها برأيه ومعقول قياسه»[١]، وإلا أفسد الدين، قال ابن القيم- رحمه اللّه-: «فما أفسد أديان الرسل إلا أرباب منازعات العقول، الذين يتنازعون بمعقولهم في التصديق بما جاءت به، وإثبات ما أثبتوه ونفي ما نفوه، فنازعت عقولهم ذلك، وتركوا لتلك المنازعات ما جاءت به الرسل، ثم عارضوهم بتلك المعقولات، وقدموها على ما جاءوا به، وقالوا: إذا تعارضت عقولنا وما جاءت به الرسل، قدمنا ما حكمت به عقولنا على ما جاءوا به... ثم قال: وقد هلك بهؤلاء طوائف لا يحصيهم إلا اللّه واغلوا بسببهم من أديان جميع الرسل[٢].

* * *

---

(١) شرح الطحاوية: ٢٣١/١.

(٢) مدارج السالكين: ٥٠١/٣.

المطلب الثالث :

التعلق بالشبهات

فدين الإسلام قائم على تسليم العبد المطلق للوحي- غير أن كثيرًا ممن بضاعته فيه مزجاة لا يقدره، حق قدره ولم يجد التوقير طريقًا إلى قلبه، فتعلق بالشبهات متوهما المصالح فيها، وأنها السبيل الحق، فسبق ذلك إلى فؤاده فتمكن منه، فلما جاءه الحق الثابت، تعلق قلبه بما سكنه من شبهة، ولبس عليه إبليس فلم يؤمن بالحق، بل صار يناضل بالباطل ليدحض به الحق، فآثر بذلك الضلالة على الهدى، فضل وأضل.

وقد حذَّرَ الرسولُ ﷺ ممن هذا شأنه، حيث قال فيما رواه عنه أبو هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «سيكون في آخر أمتي ناس يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم»[١]، كما حذَّر السلف الصالح- أيضًا- من الشبهات وأصحابها، من ذلك قول عمر بن الخطاب- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «إنه سيكون أناس يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب اللّه»[٢]، وقول أبي قلابة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تحادثوهم فإني لا آمن أن يغمروكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»، وعنه- أيضًا- قال: «إذا حدثت الرجل بالسنة فقال: دعنا من هذا وهات كتاب اللّه، فاعلم أنه ضال»[٣]، ويقول ابن سيرين- رحمه اللّه-: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم»[٤].

---

(١) صحيح مسلم: ٩/١ (باب في الضعفاء والكذابين ومن يرغب عن حديثهم).

(٢) سنن الدارمي: ٤٥/١ باب التورع عن الجواب فيما ليس فيه كتاب ولا سنة.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٤٧٢/٤.

(٤) صحيح مسلم: ١١/١ (باب في الضعفاء والكذابين ومن يرغب عن حديثهم).

المبحث السابع :

ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد القرآنية

المطلب الأول :

القاعدة الأولى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء، الآية:١١٥].

١- فقه القاعدة : يبين اللَّه- تَعَالَى- في هذه الآية القاعدة أن من يباين الرسول ﷺ بالمعاداة والمخالفة، فيفارقه على العداوة له من بعد ما تبين له أنه رسول اللَّه، وأن ما جاء به من عند اللَّه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ثم يتبع طريقًا غير طريق أهل التصديق ويسلك منهاجًا غير منهاجهم، وما هم عليه من دين الإسلام والتمسك بأحكامه، فإنه سيجعل اللَّه له ناصره ما استنصره واستعان به من آلهة الباطل، ثم يكون مصيره بعد ذلك جهنم[(١)] .

والآية نظير قوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾﴾ [محمد، الآية:٣٢]، فكل من ظهرت له الهداية على لسان النبي ﷺ ، وقامت عليه الحجة

---

(١) انظر جامع البيان: ٢٧٧/٥، وفتح القدير: ٥١٥/١.

بحقيقة ما جاء به، فهو مستحق لهذا الوعيد؛ لأن المُشاقة بعد تبين الهدى، إنما تكون عنادًا وعصبية واتباعًا تُفيت هذه الهداية المبنية على قاعدة درء المفاسد وجلب المصالح؛ ولهذا كان من غير المعقول أن يُتخلى عنها بعد معرفتها، وإن وقع لا بد له من سبب، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم عند قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة، الآية:١٣٠]، فلا أحد يرغب عنها إلا أن يكون محتقرا لنفسه مزدريها نتيجة جهالته أو استكباره.

ولست بحاصر الوعيد في طعمة بن أبيريق كما تحدثت به التفاسير-(١)، وإنما الوعيد في حق كل من أتى بلون من ألوان المشاقة الظاهرة كمخالفة الكتاب والسنة عمدًا، أو الباطنة كإضمار الشر أو الكيد للشريعة ولأهلها ونحو ذلك.

٢- قيمتها :

لقد كان لبعض المفسرين نظرات استدلالية من خلال هذه الآية الجامعة، من ذلك.

* أنها دلت على وجوب عصمة النبي ﷺ عن جميع الذنوب، والدليل عليه، أنه لو صدر عنه ذنب لجاز منعه، وكل من منع غيره عن فعل يفعله كان مُشاقًا له؛ لأن كل واحدًا منهما يكون في شق غير الشق الذي يكون فيه الآخر، فثبت أنه لو صدر الذنب عن رسول الله ﷺ لوجبت مشاقته، لكن مشاقته محرمة بهذه الآية، فوجب ألا يصدر الذنب عنه.

* كما أن الآية دلت على وجوب الاقتداء بالرسول ﷺ في أفعاله؛ إذ لو كان فعل الأمة غير فعل الرسول، لزم كون كل واحد منهما في شق آخر من العمل فتحصل المشاقة، لكن المشاقة محرمة، فيلزم وجوب الاقتداء به في أفعاله.

---

(١) انظر- على سبيل المثال- جامع البيان: ٢٧٨/٥.

* كما دلت على أنه لا يمكن تصحيح الدين إلا بالدليل والنظر والاستدلال؛ وذلك؛ لأنه- تَعَالَى- شرط حصول الوعيد بتبين الهدى، ولو لم يكن تبين الهدى معتبرًا في صحة الدين، وإلا لم يكن لهذا الشرط معنى[1] .

* كما أن من المفسرين- كبعض الزِيَّدية- من اعتبر أن مشاقة الرسول ﷺ تبلغ إلى حد الكفر[2] .

* ثم إنه قد شاع عند كثير من علماء أصول الفقه الاحتجاج بهذه الآية؛ لكون إجماع علماء الإسلام على حكم من الأحكام حجة، وأولهم الشافعي- رحمه اللَّه-، وتقرير الاستدلال، أن اتباع غير سبيل المؤمنين حرام، فوجب أن يكون اتباع سبيل المؤمنين واجبا. وبيان المقدمة الأولى أنه- تَعَالَى- ألحق الوعيد بمن يشاقق الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين، ومشاقة الرسول وحدها موجبة لهذا الوعيد، فلو لم يكن اتباع غير سبيل المؤمنين موجبًا له، لكان ذلك ضما لما لا أثر له في الوعيد إلى ما هو مستقل باقتضاء ذلك الوعيد، وأنه غير جائز، فثبت أن اتباع غير سبيل المؤمنين حرام، فإذا ثبت هذا، لزم أن يكون اتباع سبيلهم واجبًا[3] .

وينحو المهائمي في تفسيره هذا النحو مستدلًا على حرمة مخالفة الإجماع بهذه الآية؛ «لأنه؛- عَزَّ وَجَلَّ- رتب الوعيد الشديد على مشاقة الرسول ومخالفة الإجماع؛ لحرمة كل واحد منهما»[4] .

* * *

(١) انظر التفسير الكبير: ١١/٤٤، ٤٥.

(٢) انظر محاسن التأويل: ٥/٤٥٨.

(٣) التفسير الكبير: ١١/٤٣، ٤٤.

(٤) انظر تفسير المهائمي: ١/١٦٥.

المطلب الثاني :

القاعدة الثانية: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر، الآية:٧].

١- فقه القاعدة : قال أهل التفسير: إن رسول الله ﷺ قسّم أموال بني النضير على المهاجرين، فإنهم كانوا حينئذ فقراء، ولم يعط الأنصار منها شيئًا فإنهم كانوا أغنياء، فقال بعض الأنصار: لنا سهمنا من هذا الفيء؛ فأنزل الله هذه الآية.

والمعنى ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه وما نهاكم عنه فاجتنبوه فإنه إنما يأمر بكل خير وصلاح، وينهي عن كل شر وفساد؛ كإتيانكم الغنائم ومنعكم الغلول[١] .

٢- قيمتها :

إن من أعظم المظان التي تتجلى فيها السنة النبوية الشريفة باعتبارها حاكمة هذه الآية القاعدة؛ إذ إنها عامة في كل ما أمر به رسول الله ﷺ ونهى عنه[٢] ، فهي تعني مهما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه يأمر بخير، وإنما ينهى عن شر[٣] .

وإذا كان - عليه الصلاة والسلام - لا يأمر إلا بالإصلاح، ولا ينهى إلا عن الإفساد، فإنه ينتج منها أن كل ما أمر به النبي ﷺ أمر من الله، وأن كل ما نهى عنه نهي من الله[٤] .

---

(١) جامع البيان: ١٤/٣٩ بتصرف.
(٢) التفسير الكبير: ٢٨٧/٢٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣٣٦/٤.
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين: ٣٩٢/٤ بتصرف.

وهكذا نجد أن الآية وإن كانت واردة في شأن الغنائم، فإن جميع أوامره ﷺ ونواهيه داخلة فيها، قال الصاوي- رحمه الله-: «فقد جمعت أمور الدين كما هو معلوم»[(١)] .

قال سيد- رحمه الله تَعَالَى-: «فأما القاعدة الثانية- وهو يقصد هذه الآية- فهي تمثل النظرية الدستورية الإسلامية، فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول ﷺ قرآنًا أو سنة، والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول، فإذا شرعت ما يخالفه، لم يكن لتشريعها هذا سلطان؛ لأنه فَقَدَ السند الأول الذي يستمد منه السلطان،.. وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية، بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات.. وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان. فمصدر السلطات في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول ﷺ ، والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها، والإمام نائب عن الأمة في هذا، وفي هذا تنحصر حقوق الأمة فليس لها أن تخالف عما أتاها الرسول في أي تشريع»[(٢)] .

* ومما يبرز قيمتها- أيضًا- حضورها المتميز في فتاوى الصحابة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- فقد جعلوها مجمعًا للأوامر والنواهي واتخذوها أصلًا في إصدار فتواهم.

- فهذا عبد الله بن مسعود- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: لعن الله الواشمات والمتوشمات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يُقال لها: أم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك لعنتَ كَيْتَ وكَيْتَ، فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ . ومن هو في كتاب الله، فقالت: لقد قرأتُ ما بين اللوحين، فما وجدتُ فيه ما تقول، قال: لئن كنتِ قرأتيه، لقد وجدتيه، أما قرأتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧] ؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه[(٣)].

(١) حاشية الصاوي على الجلالين: ٣٩٢/٤ بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن: ٣٥٢٥/٦.

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٦٣٠/٨ (كتاب التفسير، باب وما آتاكم الرسول فخذوه).

- ومثله قوله- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لرجل حين لقيه محرمًا وعليه ثيابه فأمره بنزعها عنه، فقال الرجل: أتقرأ عليَّ بهذا آية من كتاب اللَّه- تَعَالَى-؟ قال: نعم: ﴿وَمَآ ءَاتَنكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَنكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1] [الحشر: ٧].

- ويمضي الشافعي- رحمه اللَّه- في منهج الصحابة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-، فقد نقل القرطبي- رحمه اللَّه- عنه أنه قال: سلوني عما شئتم أخبركم من كتاب اللَّه- تَعَالَى- وسنة نبيكم ﷺ. قال الفريابي: فقلتُ له: ما تقول- أصلحك اللَّه!- في المحرم يقتل الزنبور؟ قال: فقال: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، قال اللَّه- تَعَالَى-: ﴿وَمَآ ءَاتَنكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَنكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].. وقال حذيفة بن اليمان- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: إن رسول اللَّه ﷺ قال: «اقتدوا بالذَيْنِ من بعدي أبي بكر وعمر».. وقد أمر عمر بقتل الزنبور، قال القرطبي: فأفتى بجواز قتل الزنبور في الإحرام، وبين أنه يقتدي فيه بعمر، وأن النبي ﷺ أمر بالاقتداء به، وأن اللَّه- تَعَالَى- أمر بقبول ما يقوله النبي ﷺ، فجواز قتله مستنبط من الكتاب والسنة، وهو جواب في غاية الحسن[2].

- ومن ها هنا قال العلماء: «كل ما ثبت عن رسول اللَّه يَصِحُّ أن يقال عنه في القرآن أخذًا من هذه الآية»[3]، وكل ذلك فيه وجوب امتثال أوامره ونواهيه، قال ابن عاشور- رحمه اللَّه-: «وهذه الآية جامعة للأمر باتباع ما يصدر عن النبي ﷺ من قولٍ أو فعلٍ، فيندرج فيها جميع أدلة السنة»[4].

* * *

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/١٧ والكشاف: ٤/٨٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/١٧، ١٨.

(٣) محاسن التأويل: ١٦/٩٩.

(٤) التحرير والتنوير: ٢٨/٨٧.

المطلب الثالث :

تطبيقات

وفي القرآن الكريم نماذج مبثوثة هنا وهناك، من المسارعة إلى الطاعة والإنقياد لأوامر اللَّه- تَعَالَى- دون أدنى تردد، فالإيمان قدَ وقَرَ في الصدور وتشربته القلوب، وكلما دعاء داعي الحق، تزاحم الناس على بوابته، وتنافسوا في النزول عند طاعته، وأقبلوا بانكسار وخضوع على سيدهم طمعا في فضله ورحمته، وإليك من هذه النماذج:

أ- طاعة الصحابة عند أمرهم بالهجرة :

حين كان المسلمون الأول في مكة يحيون لدينهم ولربهم، لم يطل بهم التفكير لمَّا قيل لهم: هاجروا إلى موطن تحيون فيه، وتعيشون لهذا الدين فينتعش بكم وتنتعشون به، وتربطوا مصالحكم الخاصة بمصالحه.

لقد كانت نتيجة هذا العرض أن جمهرة من المسلمين تخلت عن مصالحها لتهاجر إلى اللَّه ورسوله.

إنه اختيار يُعْرض على هؤلاء حتى يتبين الصادق من الدعيّ، ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران، الآية:١٤١].

والحقُّ أن الفتنة كانت فتنتين: فتنة الإبقاء على حال الإيذاء والإذلال، وفتنة التخلّي عن الديار والأموال، فكان الموقف إيثار الآخرة على الأولى، فهاجر الصحب طاعة للَّه ورسوله ونزولًا عند أمره بكل ثبات وعزم عنيدين.

وهو المثل الحق في الإخلاص للدين والطاعة للَّه وللرسول، فاستأهلوا بذلك المدح الإلهي المسطور في كتابه، قال- تَعَالَى-: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن

دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر، الآية:٨]، «الذين قالوا كلمة الإيمان بألسنتهم وصدقوها بعملهم، وكانوا صادقين مع اللَّه في أنهم اختاروه، وصادقين مع رسوله في أنهم اتبعوه، وصادقين مع الحق في أنهم كانوا صورة منه»[(١)] .

ب- طاعة الصحابيات- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنْ- عند تلقيهن لآية الحجاب :

وذلك حين نزل قوله- تَعَالَى-: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور، الآية:٣١]، قالت عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: «يرحم اللَّه نساء المهاجرات الأُوَّل لما أنزل اللَّه: «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» شققن مروطهن فاختمرن بها. وفي رواية: «أخذن أزرهن فشققنها من قبيل الحواشي فاختمرن بها»[(٢)] ، قال ابن حجر- رحمه اللَّه-: ولابن أبي حاتم من طريق عبد اللَّه بن عثمان عن صفية- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: «ذكرنا عند عائشة نساء قريش وفضلهن، فقالت: إن نساء قريش لفضلاء، ولكني واللَّه ما رأيتُ أفضل من نساء الأنصار، أشد تصديقًا بكتاب اللَّه ولا إيمانًا بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل فيها، ما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها، فأصبحن يصلين الصبح معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان»، ويمكن الجمع بين الروايتين بأن نساء الأنصار كن سبَّاقات إلى هذا[(٣)] كما يستشف من الرواية الثانية طاعة الرجال الذين لم يتوانوا في التبليغ.

---

(١) في ظلال القرآن: ٣٥٢٦/٦.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٤٨٩/٨ (كتاب التفسير، باب وليضربن بخمرهن على جيوبهن).

(٣) انظر فتح الباري: ٤٩٠/٨.

ج- طاعة الصحابة- رضوان الله عليهم- وهم يتلقون التحريم البات للخمر:

روى البخاري في صحيحه أن أنس بن مالك- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: «ما كان لنا غير فضيخكم هذا الذي تسمونه الفضيخ، فإني لقائم أسقي أبا طلحة وفلانًا وفلانًا؛ إذ جاء رجل، فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: حُرِّمتُ الخمر، قالوا: أهرق هذه القلال يا أنس، قال: فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل»(١) ، وعن أبي بريدة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عن أبيه قال: بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلًّا إذ قمتُ حتى آتي رسول اللَّه ﷺ فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ إلى آخر الآيتين ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة، الآيتان: ٩٠،٩١] فجئتُ أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة، الآية: ٩١]، قال: وبعض القوم شربته في يده قد شرب بعضًا وبقي بعض في الإناء، فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام، ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا: انتهينا ربنا انتهينا ربنا(٢) .

د- طاعة الصحابة وهم يستقبلون نبأ تحويل القبلة:

فحين تحولت القبلة شطر المسجد الحرام سفه من سفه وتبين المتبع للرسول ممن انقلب على عقبيه، ولعلها إحدى الحكم التربوية التشريعية التي كان من أجلها هذا التحويل، قال- تَعَالَى-: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾ [البقرة، الآية: ١٤٣]، فلم تكن دالة على حقيقة الاتباع

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٧٧/٨ (كتاب التفسير، باب إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجز من عمل الشيطان).

(٢) جامع البيان: ٣٤/٧.

والانقلاب إلا؛ لأنها أمر عظيم وامتحان عسير خفَّ وطؤه على الذين هدى اللّٰه بحيث كانت الهداية جُنَّة ووقاية من الضلال، وكبرت على الذين في قلوبهم استعداد وقابلية الفتنة واتباع الهوى.

عن البراء- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «أن رسول اللّٰه ﷺ صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشرة شهرًا وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت وإنه صلّى- أو صلاها- صلاة العصر، وصلّى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمرَّ على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهدُ باللّٰه لقد صليتُ مع النبي ﷺ قِبَلَ مكة، فداروا كما هم قِبَلَ البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قِبَلَ البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل اللّٰه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة، الآية:١٤٣]»[1]، وفي رواية له عن ابن عمر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: «بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء؛ إذ جاء فقال: أنزل اللّٰه على النبي ﷺ قرآنًا أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها فتوجهوا إلى الكعبة»[2].

و- طاعة الصحابة للرسول ﷺ وهو يُرغِّب في الإنفاق:

روى مسلم- رحمه اللّٰه- في صحيحه عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول اللّٰه ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار- أو العباء- متقلدي السيوف، عامتُّهم من مُضَر، بل كلهم من مضر، فتمعر وجه رسول اللّٰه ﷺ لِما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالا، فأذَّن وأقام فصلى ثم خطب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾إلى آخر الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

---

(١) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٧١/٨ (كتاب التفسير باب سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها...).

(٢) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٧١/٨ (كتاب التفسير باب سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها...).

عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء، الآية:١]، والآية التي في الحشر ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر، الآية:١٨]، تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة، قال: فجاءه رجل بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»(١) .

* * *

(١) صحيح مسلم: ٨٦/٣، ٨٧ (كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار).

الفصل الثاني :

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾

المبحث الأول : ذكر بعض مظان ورود الكلية

المبحث الثاني : فقهها

المبحث الثالث : قيمتها

المبحث الرابع : أنواع الجزاء

المبحث الخامس : الجزاء الأخروي وبعض مظاهره

المبحث السادس : الجزاء بين الاستعجال والاستبطاء

المبحث السابع : ما يمكن أن يتفرع عن اللكية من القواعد

بين يدي الكلية :

هاتان الجملتان جدير بأن تتجسد فيهما كلية الجزاء العظمى التي تناولها القرآن في كثير من السور والآيات، فهي معدودة من جوامع الكلم.

وذلك عائد لأمور منها:

- أن رسول اللَّه ﷺ وصفها بوصفين، وصفها بالجامعة وبالفاذّة، ففي البخاري أنه ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، ولرجل وزر، فأما الذي له أجر؛ فرجل ربطها في سبيل اللَّه فأطال في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفًا أو شرفين كانت أرواثها وآثارها حسنات له، ولو أنها مرَّت بنهَر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له، فأما الرجل الذي عليه وزر، فهو رجل ربطها فخرًا ونواءً لأهل الإسلام فهي وزر على ذلك، وسئل رسول اللَّه ﷺ عن الحُمُر، فقال: ما أُنزل عليَّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾[1] [الزلزلة، الآيتان:٧،٨]؛ «فسماها جامعة؛ لشمولها لجميع الأنواع من طاعة ومعصية، وسماها فاذة؛ لانفرادها في معناها»[2] .

وهو الفهم الذي سرى إلى الصحابة- رَضِيَ اللَّهُ عَنۡهُمۡ-، فهذا عبد اللَّه بن مسعود يَسِمُها بأحكم آية في القرآن ويروي الحسن البصري- رحمه اللَّه- أن صعصعة بن

---

(١) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٦/٦٣، ٦٤ (كتاب الجهاد، باب الخيل لثلاثة...)، سنن ابن ماجة ٢/٩٣٢ (كتاب الجهاد، باب ارتباط الخيل في سبيل اللَّه).

(٢) فتح الباري: ٦/٦٥.

معاوية- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَدِمَ على النبي ﷺ يستقرئه، فقرأ عليه هذه الآية، فقال صعصعة: حسبي، قد انتهت الموعظة، لا أبالي ألَّا أسمع من القرآن غيرها!

وقال كعب الأحبار: «لقد أنزل اللَّه على محمدٍ آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف ثم قرأهما»[1].

- إلى جانب هذا ما قررته من مبدأ الجزاء تقريرًا وافيًا برز من خلال التعبير بالذرة في أسلوب جمع بين التصريح والإطناب، فبلغت بذلك أقصى غاية الترغيب والترهيب، كاشفة عن حقيقة الجزاء، وأنه لا محالة كائن، جلَّ شأن الأعمال أو قلَّ.

- ومن ثم حق لهاتين الآيتين أن تتصدرا موضوع الجزاء؛ باعتبارهما الكلية القرآنية التي يرجع إليها متى احتيج إلى الاستدلال على الجزاء في أجلى صورة له على أكمل وجه.

* * *

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/٤٩٥، وانظر محاسن التأويل: ١٧/٢٣١.

المبحث الأول :

ذكر بعض مظانها في القرآن

إنه لمن العسير استقراء مواطن الجزاء في القرآن استقراءً تامًّا؛ يحيط إحاطة كاملة بالآيات؛ إذ العمل يستدعي تقييد معظم الأجزاء القرآنية، فالسور لا تكاد تخلو من حديث عن الجزاء.

ولما كان منهج البحث يقتضي ذكر مواطن الكلية المراد تحليلها؛ فإننا سنجتهد في عرض بعض الآيات، على أن تكون حاوية لمجمل صنوف الجزاء الواردة في كتاب اللَّه، مع مراعاة بسطها في شكل موضوعات مصدرة بتقديم يتناول إيماءات قرآنية إلى مبدأ الجزاء في القرآن.



المطلب الأول :

إيماءات إلى الجزاء

أ- الرجوع إلى الله- تعالى- :

- قوله- تعالى-: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)﴾ [البقرة، الآية:٢٨].

- قوله- تعالى-: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ [آل عمران، الآية:٨٣].

- قوله- تعالى-: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦)﴾ [الأنعام، الآية:٣٦].

- قوله- تعالى-: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)﴾ [آل عمران، الآية:٢٨].

- قوله- تعالى-: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [التوبة، الآية:١٠٥].

- قوله- تعالى-: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣)﴾ [يس، الآية:٥٣].

- قوله- تعالى-: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢)﴾ [النجم، الآية:٤٢].

- قوله- تعالى-: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥)﴾ [الغاشية، الآية:٢٥].

ب- الملك لله يوم القيامة :

- قوله- تعالى-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة، الآيات: ٢-٤].

- قوله- تعالى-: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج، الآيات:٥٦].

- قوله- تعالى-: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾ [الفرقان، الآية:٢٦].

- قوله- تعالى-: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر، الآية:١٦].

- قوله- تعالى-: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الإنفطار، الآية:١٩].

* * *

المطلب الثاني :

التنصيص على الجزاء

١- ذكر محاسبة الناس يوم القيامة وإيفاؤهم جزاءهم :

أ- ذكر المحاسبة :

- قوله- تَعَالَى-: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة، الآية:٢٨٤].

- قوله- تَعَالَى-: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٖ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء، الآية:١].

- قوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ﴿٦﴾﴾ [الذاريات، الآيتان:٥،٦].

- قوله- تَعَالَى-: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمٗا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٖ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة، الآية:٢٨٠].

ب- إيفاء الجزاء :

- قوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه، الآية:١٥].

- قوله- تعالى-: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزمر، الآيتان:٦٩،٧٠].

- قوله- تعالى-: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم، الآيات:٣٩-٤١].

٢- أصناف الناس المجزيين :

أ- المسلمون وجزاؤهم :

- قوله- تعالى-: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة، الآية:١١٢].

- قوله- تعالى-: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزخرف، الآيات:٦٨-٧٠].

ب- الكافرون وجزاؤهم :

١- المغضوب عليهم :

- قوله- تعالى-: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة، الآيتان: ٥٩،٦٠].

٢- الضالون :

- قوله- تعالى-: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة، الآيتان:٦،٧].

- قوله- تعالى- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ۝٥٢﴾ [الواقعة، الآية:٥١،٥٢].

٣- المشركون :

- قوله- تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء، الآية:٤٨].

- قوله- تعالى-: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة، الآية:٧٢].

- قوله- تعالى-: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ﴾ [الأنعام، الآية:٨٨].

ج- المنافقون وجزاؤهم :

- قوله- تعالى-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ۝١٦﴾ [البقرة، الآية:١٦].

- قوله- تعالى-: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ [النساء، الآية:١٣٨،١٣٩].

- قوله- تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ۝١٤٥﴾ [النساء، الآية:١٤٥].

- قوله- تعالى-: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة، الآية:١٠١].

* * *

المطلب الثالث :

من آيات الجزاء في مجال العقيدة

أ- جزاء المؤمنين بالغيب :

- قوله- تعالى-: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة، الآيات:١-٥].

- قوله- تعالى-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝٤٩﴾ [الأنبياء، الآية:٤٨،٤٩].

- قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾ [الملك، الآية:١٢].

ب- المخلصون وجزاؤهم :

- قوله- تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ

فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء، الآيتان:١٤٥،١٤٦].

- قوله- تعالى-: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونِۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ [الصافات، الآيات:٣٦-٤١].

- قوله- تعالى-: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الصافات، الآية:٧١-٧٤].

ح- أولياء الرحمن وجزاؤهم :

- قوله- تعالى-: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة، الآية:٢٥٦].

- قوله- تعالى-: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران، الآية:٦٧].

- قوله- تعالى-: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية، الآية:١٨].

- قوله- تعالى-: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس، الآية:٦٢].

د- أولياء الشيطان وجزاؤهم :

- قوله- تعالى-: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء، الآية:١١٩].

- قوله- تعالى-: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل، الآية:٦٣].

هـ- أولياء الكفار والمنافقين وجزاؤهم :

- قوله- تعالى-: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة، الآية:٥١].

- قوله- تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة، الآية:٢٣].

- قوله- تعالى-: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة، الآية:٩].

و- التائبون وجزاؤهم :

- قوله- تعالى-: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ

ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة، الآية:٣٩].

- قول- تعالَى-: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف، الآية:١٥٣].

- قوله- تعالَى-: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور، الآية:٣١].

- قوله- تعالَى-: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ [هود، الآية:٣].

- قوله- تعالَى-: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود، الآية:٥٢].

* * *

المطلب الرابع :

من آيات الجزاء في مجالي العبادات والمعاملات

أ- جزاء العابدين :

- قوله- تعالى-: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور، الآية:٥٥].

- قوله- تعالى-: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء، الآيتان: ١٠٥،١٠٦].

- قوله- تعالى-: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم، الآية:٦٣].

- قوله- تعالى-: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف، الآية:٦٨].

ب- جزاء المتقين :

- قوله- تعالى-: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾ [الطلاق، الآية:٢،٣].

- قوله- تعالى-: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، الآية:١٩٤].

- قوله- تعالى-: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة، الآية:٢٨٢].

- قوله- تعالى-: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ﴾ [الرعد، الآية:٣٥].

ج- جزاء الخاضعين:

- قوله- تعالى-: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة، الآيتان:١٥-١٧].

د- جزاء الشاكرين:

- قوله- تعالى-: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۢ بِٱلنُّذُرِ ٣٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥﴾ [القمر، الآية:٣٣-٣٥].

- قوله- تعالى-: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم، الآية:٧].

- قوله- تعالى-: ﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران، الآية:١٤٥].

هـ- جزاء المصلين:

- قوله- تعالى-: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾ [المؤمنون، الآيتان:١-٢].

- قوله- تعالى-: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾ [الأعلى، الآيتان:١٤،١٥].

- قوله- تعالى-: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه، الآية:١٣٢].

- قوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [فاطر، الآية:٢٩، ٣٠].

و- جزاء الصائمين:

- قوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب، الآية:٣٥].

ز- جزاء عمار بيت الله الحرام:

- قوله- تَعَالَى-: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الحج، الآية:٣٠].

ح- جزاء المنفقين في سبيل الله:

- قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ، الآية:٣٩].

- قوله- تَعَالَى-: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة، الآية:٢٦٢].

- قوله- تَعَالَى-: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الحديد، الآية:٧].

- قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [الأنفال، الآية:٦٠].

ط- جزاء آكلي أموال الناس بالباطل:

- قوله- تعالى-: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء، الآيتان:١٦٠، ١٦١].

- قوله- تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء، الآيتان: ٢٩، ٣٠].

- قوله- تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء، الآية: ١٠].

- قوله- تعالى-: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة، الآية:٢٧٥].

ي- جزاء المطففين:

- قوله- تعالى-: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين، الآيات:١-٦].

- قوله- تعالى-: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود، الآية:٨٤].

المطلب الخامس:

من آيات الجزاء في المجال الخلقي

أ- جزاء الصادقين:

- قوله- تعالى-: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾ [المائدة، الآية:١١٩].

- قوله- تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ ٧٠﴾ [الأحزاب، الآية:٧٠، ٧١].

- قوله- تعالى-: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣﴾ [الزمر، الآية:٣٣].

ب- جزاء الصابرين:

- قوله- تعالى-: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة، الآية:١٥٣].

- قوله- تعالى-: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [النحل، الآية:٩٦].

- قوله- تعالى-: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾ [القصص، الآية:٨٠].

- قوله- تعالى-: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر، الآية:١٠].

- قوله- تعالى-: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢﴾ [الإنسان، الآية:١٢].

ج- جزاء المحسنين :

- قوله- تعالى-: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس، الآية:٢٦].

- قوله- تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم، الآية:٣١].

- قوله- تعالى-: ﴿وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة، الآية:١٩٥].

- قوله- تعالى-: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ ﴿٢٣﴾﴾ [الشورى، الآية:٢٣].

د- جزاء الكاذبين :

- قوله- تعالى-: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر، الآية:٦٠].

- قوله- تعالى-: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام، الآية:١٥٧].

- قوله- تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة، الآية:٣٩].

هـ- جزاء الفاسقين :

- قوله- تعالى-: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف، الآية:٣٥].

- قوله- تعالى-: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ٥﴾ [الصف، الآية:٥].

- قوله- تعالى-: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ٨٠﴾ [التوبة، الآية:٨٠].

- قوله- تعالى-: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ٣٤﴾ [العنكبوت، الآية:٣٤].

- قوله- تعالى-: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ١٩﴾ [الحشر، الآية:١٩].

- قوله- تعالى-: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾ [الإنفطار، الآيات:١٤-١٦].

- قوله- تعالى-: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١٠﴾ [المطففين، الآيات:٧-١٠].

و- جزاء المستهزئين:

- قوله- تعالى-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ ٦٦﴾ [التوبة، الآية:٦٥،٦٦].

- قوله- تعالى-: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ١٠﴾ [الأنعام، الآية:١٠والأنبياء، الآية:٤١].

- قوله- تعالى-: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ٩٥﴾ [الحجر، الآية:٩٥].

- قوله- تعالى-: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾ [الجاثية، الآية:٩].

ح- جزاء المتكبرين:

- قوله- تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٢٩﴾ [النحل، الآيتان:٢٨،٢٩].

- قوله- تعالى-: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨﴾ [لقمان، الآية:١٨].

- قوله- تعالى-: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٧٣﴾ [المائدة، الآية:١٧٣].

- قوله- تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر، الآية:٦٠].

ط- جزاء الخائنين:

- قوله- تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝١٠٧﴾ [النساء، الآية:١٠٧].

- قوله- تعالى-: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [الحج، الآية:٣٨].

- قوله- تعالى-: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾ [يوسف، الآية:٥٢].

- قوله- تعالى-: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم، الآية: ١٠].

ي- جزاء الممسكين:

- قوله- تعالى-: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [آل عمران، الآية: ١٨٠].

- قوله- تعالى-: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة، الآيتان: ٧٦، ٧٧].

- قوله- تعالى-: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل، الآيات: ٨-١٠].

* * *

المطلب السادس :

من آيات الجزاء في مجال السياسة الشرعية

أ- جزاء المقسطين :

- قوله- تعالَى-: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة، الآية:٤٢].

ب- جزاء القاسطين :

- قوله- تعالَى-: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن، الآية:١٥].

ج- جزاء الموفون بالعهد :

- قوله- تعالَى-: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة، الآية:٤٠].

- قوله- تعالَى-: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: الآية:٧٦].

- قوله- تعالَى-: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح، الآية:١٠].

د- جزاء الناكثين بالعهد :

- قوله- تعالَى-: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة،الآية:١٢].

- قوله- تعالى-: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء، الآية:١٥٥].

- قوله- تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة، الآية:٢٧].

هـ- جزاء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر:

- قوله- تعالى-: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران، الآية:١١٠].

- قوله- تعالى-: ﴿ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة، الآية:١١٢].

و- جزاء الذين لا يتناهون عن المنكر:

- قوله- تعالى-: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة، الآيتان:٧٨،٧٩].

ز- جزاء من يقتل النفس بغير حق:

- قوله- تعالى-: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء، الآية:٩٣].

- قوله- تعالى-: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء، الآية:٢٩،٣٠].

ح- جزاء حُفَّاظ الأمانة :

- قوله- تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون، الآيات:٨-١١].

ي- جزاء المعتدين على حدود الله :

- قوله- تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة، الآية:٨٧].

- قوله- تعالى-: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه، الآية:٨١].

- قوله- تعالى-: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء، الآية:١٤].

- قوله- تعالى-: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة، الآية:١٩٠].

ك- جزاء السارقين :

- قوله- تعالى-: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة، الآية:٣٨].

ل- جزاء الزناة:

- قوله- تعالى-: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ﴾ [النور، الآية:٢].

ن- جزاء القاذفين للمحصنات:

- قوله- تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [النور، الآية:٤،٥].

* * *

المطلب السابع :

من إطلاقات القرآن على الجزاء

فهذه جملة من الآيات تناولت الجزاء بنوعيه ثوابًا وعقابًا، ومعاشًا ومعادًا. ولئن كان معظمها خلوا من التعبير بلفظة: « الجزاء »؛ فإن ذلك لا يعني أن القرآن لم يورده بل قد استُعمل في كثير من الآيات تربو على المائة والعشرين موضعًا، ومن ذلك قوله- تعالَى-: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة، الآية:٨٥].

- وقوله- تعالَى-: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المائدة، الآية:٢٩]. وقوله- تعالَى-: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة، الآية:٣٣]، وقوله- تعالَى-: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء، الآية:١٢٣].

ومما وظَّفه القرآن من الألفاظ- أيضًا- مريدًا به الجزاء لفظة: « العاقبة » ومن ذلك قوله- تعالَى-: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف، الآية:١٠٣]، وقوله- تعالَى-: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل، الآيتان ٥٠،٥١].

وقوله - تعالى -: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص، الآية:٨٣].

كما ترد لفظة: «العقبى» ويراد بها الجزاء بنوعيه، ومما يرد في ذلك قوله - تعالى-: ﴿۞ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد، الآية:٣٥].

ومن الإطلاقات - أيضًا - لفظة: «الدين»، ومن ذلك قوله- تعالى-: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ أي الجزاء، وقوله- تعالى-: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الصافات، الآية:٥٣]، وقوله- تعالى-: ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة، الآيتان:٨٦،٨٧].

* * *

المبحث الثاني :

فقـه الكلية

معناها: إن لفظ « من » الذي تكرّر عند مطلع كلا الآيتين دال على شمول الجزاء بقسميه للمؤمن والكافر على السواء[١] . والمعنى أنّ « من يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فإنه يراه ويجد جزاءه لا فرق في ذلك بين المؤمن والكافر »[٢] ، فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير ثوابه هناك، ومن كان عمل في الدنيا وزن ذرة من شر يرى جزاءه هنالك »[٣] ، وقيل- أيضًا-: « فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر، يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند اللّٰه خير، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في ماله وفي نفسه وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند اللّٰه شر »[٤] . ويؤيد هذه الرواية ما أخرجه ابن جرير في تفسيره عن أنس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: « كان أبو بكر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يأكل مع النبي ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾، فرفع أبو بكر يده من الطعام، وقال: يا رسول اللّٰه: إني أجزى بما عملت من مثقال ذرة من شر، فقال: يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا مما تكره فمثاقيل الشر، ويدخر لك اللّٰه مثاقيل الخير حتى توفاه يوم القيامة »[٥] .

---

(١) نظر محاسن التأويل: ٢٣٢/١٧.

(٢) نظر محاسن التأويل: ٢٣٢/١٧.

(٣) جامع البيان ٢٦٧/١٥.

(٤) جامع البيان: ٢٦٨/١٥ وانظر فتح القدير ٤٨٠/٥.

(٥) جامع البيان: ٢٦٨/١٥

كما أن فيه إشارة إلى الترغيب لإتيان أعمال الخير والترهيب للكف عن أضدادها، عَظُمَ شأن العمل أم صَغُرَ، ونظيره قوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء، الآية:٤٠]، حيث صرَّح بكونه- عَزَّ وَجَلَّ- لا ينقص أحدًا من أجر عمله والجزاء عليه شيئًا وإن صغر كالذرة، وإنما يُوفيّه أجره، وفيه من الدلالة على عدله- سبحانه- وقسطاسه ما لا يخفى.

ومن نظائره- أيضًا- قوله- تَعَالَى-: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء، الآية:٤٧]، فعبّر بالخردل هنا بدلًا من الذرة هناك، وأفادت الجملة نفي جنس الظلم عن كل نفس مما دل على ألا بقاء لظلم بدون جزاء، كما أن ذيل الآية دل على تأمين الناس من أن يجازى أحدهم بما لا يستحق، وفي ثناياه ما يشعر بالتحذير من العذاب، والترغيب في الثواب، فهو كسابقه فيما نصت عليه الكلية القرآنية، ومما يقرب من هذا قوله- تَعَالَى-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء، الآية:٤٩]، والفتيل: شبه خيط في شق نواة التمرة، وقد شاع استعارته للقلة؛ إذ هو لا يُنتفع به وله مرأى واضح(١) ، وقوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء، الآية:١٢٤]، والنقير: هو النكتة التي تكون في ظهر النواة وهي ثقبة صغيرة، وتسمى نقرة كأنها حصلت بنقر منقار صغير، وهي- أيضًا- مضرب مثل في القلة(٢).

* * *

---

(١) التحرير والتنوير: ٥/٨٤-٨٥.

(٢) تفسير المنار: ٥/٤٣٦.

المبحث الثالث :

قيمتها

المطلب الأول :

عموم الجزاء في الشرائع

اقتضت حكمة الحق- سبحانه- أن يُزكي رجالًا ويصطفيهم على خلقه ويصطنعهم لنفسه وينشئهم على ما أراد من إعدادهم؛ لتلقي الرسالة في الإبان لتربية خلقه رحمة منه- تَعَالَى- بهم وعلمًا منه بأنهم لا يصلحهم إلا ذاك، ولا يبقي على إصلاحهم إلا هذه الجملة من الأوامر والنواهي الإلهية التي تعصمهم من عذابه، فهي الحاملة على بعث الأنبياء والرسل، وإليها الإشارة في الحديث المروي عن أبي بردة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني اللّه به؛ كمثل رجل أتى قوما، فقال: يا قوم إني رأيتُ الجيشَ بعيني، وإني أنا النذير العريان»، فلا يكون الجزاء- إذًا- إلَّا بعد كشف الشبهة وصحّة التبليغ «ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيٍّ عن بينة»[(١)] .

لذلك تم التنصيص في القرآن على انتقاء العبثية من حيث إيجاد الإنسان، قال- تَعَالَى-: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٥﴾ [المؤمنون، الآية:١١٥]، و« وبيان كونه عبثًا أنه لو خلق الخلق فأحسن المُحسن وأساء المُسيء ولم يلق

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٥٠/١٣ (كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول اللّه ﷺ) وخص العريان لأنه أبين للعين، وأغرب وأشنع عند المبصر، وذلك لأن ربيئة القوم وعينهم يكون على مكان عال، فإذا رأى العدو وقد أقبل نزع ثوبه وألاح به لينذر قومه، النهاية في غريب الحديث ٢٢٥/٣.

جزاءه، لكان ذلك إضاعة لحق المحسن، وإغضاء عما حصل من فساد المسيء، فكان ذلك تسليطًا للعبث »[١] ، فحق أن يتبع بما يقرر التنزيه عن هذه العبثية، وذلك في قوله- تَعَالَى-: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون، الآية:١١٦]، ومنه- أيضًا- قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: « أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ [القيامة، الآية:٣٥]، « فإن الذي خلقه في أحسن تقويم وأَبدَع تركيبه ووهبه القوى العقلية التي لم يعطها غيره من أنواع الحيوان ليستعملها في منافع لا تنحصر وفي ضد ذلك من مفاسد جسيمة، لا يليق بحكمته أن يهمله مثل الحيوان، فيجعل الصالحين كالمفسدين، والطائعين لربهم كالمجرمين، وهو العليم القدير المتمكن بحكمته وقدرته أن يجعل إليه المصير، فلو أهمله لفاز أهل الفساد في عالم الكساد؛ ولم يلاق الصالحون من صلاحهم إلَّا الأنكاد، ولا يناسب حكمة الحكيم إهمال الناس يهيمون في كل وادي، وتركهم مضربًا لقول المثل: « فإن الريح للعادي »[٢] ، وهو الأصل الذي تقرّر عند بعثة أبي الأنبياء إبراهيم- عليه السلام-، قال- تَعَالَى-: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم، الآيات:٣٦-٤٠]، فالإنسان في- قوله-: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أُريدَ به جنس الإنسان، فظهر أنه ليس لأي إنسان كائنًا ما كان إلا سعيه وعمله فلا يجزى بعمل غيره، « وقد يدخل في عموم عمله ما يكون سببًا له كالذي يَسِنُّ سنة حسنة أو سيئة، فله مثل جزاء من يعمل بهما من بعده »[٣] ، وهي حقيقة سُطِّرت في أثناء الدعوات السالفة ونصبت علامة على الاستجابة والتولي معًا، ويكفي أن نستعرض آيات من سورة هود، في ثناياها ما ينص على أن مرجع الناس إلى اللَّه- تَعَالَى- وأنه ما خلقهم إلا للجزاء قال- تَعَالَى-: ﴿إِلَى

(١) التحرير والتنوير: ١٣٤/١٨.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٦٦/٢٩.

(٣) الوحي المحمدي، ص: ١٣٢، وسيرد التفصيل في هذا عند التعرض لقاعدة: « لا تزر وازرة وزر أخرى » .

ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾ [هود، الآية:٤]، وقال- تعالَى-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ [هود، الآية:٧]، كما تنصُّ- كذلك- على عرض أحوال الأمم البائدة من قوم نوح وتفصل ما حل بهم، وقوم عاد، وثمود، وإبراهيم، ولوط، ومدين، وموسى، وعيسى تعريفًا بما في جميع ذلك من العِبَر وما ينبغي من الحذر، وأن ملاك ضلال الضالين، عدم خوفهم عذاب اللَّه وتكذيبهم بما سيحل بهم جزاءً وفاقًا.

فهذا نبي اللَّه لوط- عليه السلام- حين أعياه أن يستجيب قومه وآثروا المنكر على المعروف، والرذيلة على الفضيلة، وركبوا مَهْيع الفاحشة، أمره ربه بقوله: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ۞ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ [هو، الآية:٨١،٨٢]، وهكذا يأتي نصر اللَّه وإعلاء كلمته وهي سنة كائنة في الأنبياء والرسل قال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١١٠﴾ [يوسف، الآية:١١٠]، حيث إن لوطًا- عليه السلام- يبلُغ به توقع أذى ضيفه مبلغ الجزَع ونفاد الحيلة إلى حد استبطائه نزول العذاب، فيجد لما كان يَجيشُ في صدره من هذا الاستبطاء جوابًا، هو قوله- تَعَالَى- على لسان الملائكة: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾[1] ، قال بعض المفسرين: « وقد جاء في التوراة: أن اللَّه أرسل عليهم كبريتًا ونارًا من السماء، ولعل الخسف فجرٌ من الأرض براكين قذفت عليهم حجارة ومعادن محرقة كالكبريت[1].

وهذا شعيب أخو مدين- عليه السلام- الذي كان يدعو في قومه وكانت دعوته تنصب في إصلاح الاعتقاد، وإصلاح الأعمال وعلى رأسها ما خصهم بالنهي عنه؛ إذ

---

(١) التحرير والتنوير ١٣١/١٢-١٣٤.

إن إقدامهم عليه نما واستفحل حتى غدا فيهم عادة، وهذا المنهي عنه هو نقص المكيال والميزان وهي مظلمة جمعت بين خصلتي السرقة والغدر، كما نهاهم عن الإفساد عامة، حادثًا إيَّاهم على شكر النعم الحافة بهم- فحق عليهم شكرها- ولما لم يجد من وقع الدعوة شيئًا وأعرضوا، حذرهم من عاقبة مكرهم، ولقرب الزمان بينهم وبين قوم لوط ذكرهم بما حل بهؤلاء غير أنهم لم يرعووا ، ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود، الآية:٩٤]، ولشدة الصلة التي تربط بين شعيب وموسى- عليهما السلام-، تمضي الصورة لتستعرض أنحاء من دعوة هذا الأخير المعزّزة بالآيات الباهرات، المُظْهِرة لصدق الجائي بها، إلا أن الملأ آثر اتباع فرعون حيث أملى عليهم بالتكذيب، فكان ذلك الإملاء سفها نأى بالقوم عن سبيل العقلاء؛ إذ أنهم اتبعوا ما ليس فيه أمارة الرشد ولا سداد الرأي- ومن ثم استحقاقه أن يتبع- فأتبعوا بذلك اللعنة، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود، الآية:٩٩].

هذه بعض أنباء الذين ظلموا أنفسهم كما تحكيها هذه السورة، وما كان اللّٰه ليظلمهم لأن ما أصابهم من العذاب كان جزاء عن سوء أعمالهم، وجعل اللّٰه عذاب الدنيا آية دالة على عذاب الآخرة؛ لأن هذه القرى التي ظلمت تَوعَّدَها اللّٰه بالعذابين الدُنيوي والأُخروي كما ذكره- عَزَّ وَجَلَّ- في قوله: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الطور، الآية:٤٧]، وهو بهذا يقرر حصول الجزاء بلا ريب، فتكون هذه الصورة ومثيلاتها[1] ناصة على هذا الأصل الجامع، ولا يلتفت إلى أسفار العهد القديم التي غيبت هذا المبدأ تمامًا إلى أن أضحى هذا الإغفال مؤثرًا على

---

(١) كما سبق بسطه في مظان الكلية حيث إن الجزاء يتكرر التذكير به في القرآن بأساليب عجيبة فيها من حسن البيان وتقريب البعيد من الأذهان تارة بالحجة والبرهان وتارة بضرب الأمثال مما ينبئ عن الإعجاز، فهي لا تمل على كثرة تردادها ولا يكاد يشعر قارئها بتكرار معانيها وإن تقاربت، ويمكن تأمل هذا في سور المفصل، فقد جاء الحديث عن البعث والجزاء فيها تترى لا سيما تلك السور المناسبة المتصلة كالمرسلات مع النبأ والنازعات مع عبس والتكوير مع الانفطار والمطففين مع الانشقاق وغيرهن.

النفس اليهودية، التي أخلدت إلى الأرض وهبطت بالفكر العقدي إلى حضيض، «ولئن كانت بعض الأسفار منها يلفت الأنظار إلى وجود الجنة والنار، فإن ذلك اللّفت، لم يفلح في تخفيف نهمة اليهود إلى الحياة الدنيا، وتعلقهم بها وحدها، والزعم بأنهم لو كانت هناك آخرة فهم ورثتها، على حد ذلك القائل: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾(١) [فصلت، الآية:٥٠]، وبراءة موسى من هذا الزعم قضى بها كتاب اللّه المهيمن، حيث إن أول لقاء له مع ربه كانت التعليمات الأولى هي قوله- تَعالَى-: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ * إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه، الآيتان:١٤-١٦]، فالمسألة عند اللّه ليست مسألة محاباة، وإنما هي ذات مبدإ عام، وحكم عام، إن تحقق المبدأ تحقق الحكم، قال- تَعالَى-: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء، الآية:١٢٣]، فالقرآن- إذًا- جاء بهذا الإصلاح، فإنه أعاد لدين الأنبياء قاطبة أصله المعقول، في الجزاء وهو ما كرم اللّه- تَعالَى- به الإنسان من جعل سعادته وشقائه مَنُوطَيْنِ بإيمانه وعمله اللذين هما من كسبه وسعيه، وأن هذا الجزاء سيكون بعدله- سبحانه- بين جميع خلقه دون محاباة.

من أجل ذلك سَخِّرت طاقات الأنبياء والمرسلين في مجالي الترغيب والترهيب والوعد والوعيد بأساليب عديدة وأنفاس مديدة، حتى غدت الرسائل كلها ناطقة بهذا الأسلوب التربوي المتميز، ولذلك وجدنا من العلماء الألباء من استقرى مواطنها- أعني الترغيب والترهيب والوعد والوعيد- فاستنبط قاعدة ذهبية في هذا المقام، ومن هؤلاء الإمام الشاطبي- رحمه اللّه- الذي يقول: «إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه وبالعكس، وكذلك الترجية مع التخويف» ثم يضرب

(١) انظر المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ص: ١٥٠.

لذلك الأمثال مبينا ما تقتضيه الأحوال من تغليب أحد الطرفين على الآخر حيث يرد التخويف ويتسع مجاله دون انفكاك الترجية عنه، كما ترد الترجية- أيضًا- ويتسع مجالها وذلك عند مواطن القنوط، على أن الغالب هو جانب التخويف؛ وذلك راجع إلى غلبة جانب الإخلال من قبل العباد؛ حيث يرد في مظانه الخاصة لا على الإطلاق، فإنه إذا لم يكن مظنة هذا ولا هذا أتى الأمر معتدلًا[١] .

وهذا هو القانون الشائع ولا ينقض بجزئيات إن كان ثمة جزئيات؛ لأنه كما يقول: «فالكلية إذا كانت أكثرية في الوضعيات انعقدت واعتمدت في الحكم بها»[٢].

هذا هو منهج القرآن في الترغيب والترهيب والقصد منه التربية والتأديب، ومن ثم البلوغ إلى ما عبر عنه الشاطبي- رحمه اللَّه- بقوله: «ومن هنا يتصور للعباد أن يكونوا دائرين بين الخوف والرجاء لأن حقيقة الإيمان دائرة بينهما، وقد دل على ذلك الكتاب العزيز على الخصوص فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾[٣] [المؤمنون، الآيات:٥٧-٦١]، والاستيقان بيوم الرجوع إلى اللَّه ليس تصورًا حالمًا ليوم بعيد، ولكنه- كما أسلفنا- نوع من التربية يقمع طبائع الشر بالرهبة، ويغري حوافز الخير بالرغبة، فإن المؤمن حين يلمح ببصيرته ما أعد اللَّه لعباده في الجنة والنار يغريه الطموح الشريف إلى الظفر بنعمة اللَّه ورضوانه، ويزعجه القلق البالغ من عذاب اللَّه وسخطه فيكون سلوكه بين هذين الشعورين كريمًا مستقيمًا.

---

(١) الموافقات: ٣/٣٢٢ وما بعدها.

(٢) نفسه.

(٣) انظر الموافقات: ٣/٣٢٩، ٣٣٠.

المطلب الثاني :

الجزاء والنية والعمل

إن النية بالنسبة للجزاء تشكل المعيار الحقيقي للقيمة العملية، كما تشكل الشرط النهائي للجزاء؛ سواء كان هذا الجزاء ثوابًا أوعقابًا، قال البيضاوي: « النية هي انبعاث القلب نحو ما يراه موافقًا لغرض من جلب نفع أو دفع ضر حالًا أو مآلًا »[١] ، وهو ما يفصح عنه رسول اللّٰه ﷺ في حديثه الجامع: « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى اللّٰه ورسوله فهجرته إلى اللّٰه ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[٢]، فالحديث يصوّر المنبع الأصلي لصدور الأعمال، ويقدرها بحسب ذات النية التي ليست بمعزل عن الرقابة الربانية قال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق، الآية:١٦]، لذلك نجد الدعوة القرآنية تشير في الشعور الإنساني إلى إخضاع ضميره لهذا القانون الذي يثمر الإخلاص، قال- تَعَالَى-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة، الآية:٥]، وقال- تَعَالَى-: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال، الآية:٧٠]، ومن ها هنا وجدنا المكلف مطالبًا بممارسة جهد من أجل تحرير نفسه من جميع المؤثرات إلا من المؤثر الذي يفرضه الشرع ويرضاه ولا استمداد لذلك إلا بالإيمان القوي الذي يصل صاحبه باللّٰه- عَزَّ وَجَلَّ- ويثمر حبه- تَعَالَى-، وتقديره حق قدره، فيكون هذا الإيمان هو الدافع الحقيقي المتعمق في النفس المنبت للنية الحقة بعيدًا عن النية السطحية المصطنعة.

---

(١) فتح الباري: ١٣/١.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٩/١. (كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول اللّٰه ﷺ).

وإذا كان القرآن قد بيّن القصد الأعظم من الخلق، وذلك في قوله- تعَالَى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات، الآية:٥٦]، فإن هذا البيان نجده مشفوعًا بشيء هو الإخلاص في هذه العبادة، قال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر، الآية:٢]، وقال- تعَالَى-: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر، الآية:١١]، وقال- تعَالَى-: ﴿وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة، الآية:١٣٩]، وسبيل تنمية الإخلاص هو التجرّد من سلطان الهوى حيث يلح القرآن على هذه المسألة، فيقول- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص، الآية:٥٠]، فكل الأعمال المملاة من قبل الإرادة الناشئة عن الهوى والشهوة قمين بأن يكون صاحبها أضل؛ لما فيها من اتباع مع إلغاء إعمال النظر ومراجعته من أجل النجاة[(١)] .

وبعد هذا يمضي كتاب اللَّه ليفصل بين نيتين حسنة وسيئة من خلال ما يترتب على كليهما.

أما النية الحسنة فإن هناك مواطن عديدة تدلنا عليها، منها قوله- تعَالَى-: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ [الليل، الآيات:١٧-٢١]، والآيات تبرز تلك الإرادة الطائعة في الظاهر والباطن المتوجهة نحو صاحب الأمر متصلة به منفصلة عن كل جهة أخرى، وفي قوله- تعَالَى-: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ وعدٌ بالثواب الجزيل الذي يرضي صاحبه وهو تتميم لقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧﴾[(٢)] ؛ ومثلها قوله- تعَالَى-: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء، الآية:١١٣]، وقوله- تعَالَى-: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم، الآية:٣٩]؛ وبذلك يكون القرآن هدفًا إلى اجتذاب الأنفس من

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ٢٠/١٤٠ وما بعدها.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/٣٩٢.

كل وجهة سوى وجهة سيطرة الفكرة الربانية التي تحكم هذا التوجه، وهو الدور الذي تمليه النية الحسنة، بحيث يتم بها اختيار الحل الأسلم من حيث هو حسن.

أما النية السيئة فحين يكون السعي إلى الحياة سعيًا غير مشروع؛ نتيجة اختيار مضلل منطلق من عدم التمييز بين الخير والشر، تغيب معه النية الحسنة التي تحذرنا من المُحرَّم، وتخضع الرغبة إلى ما هو حلال، وتحل محله النية السيئة التي تضعف الإحساس بالإجلال والتوقير نحو اللَّه- تَعَالَى-: قال الحكيم الترمذي: «والعباد محتاجون في انقطاع الوسوسة إلى الخوف لا خوف العقاب، ولكن خوف العظمة، حتى تذهل النفس وتنقطع وسوستها»(١) ، ومتى تبعثرت الجهود ولم يقتصر المكلف على جهة واحدة خالصة، وقع في المحظور وهو ما نهى اللَّه عنه من الشرك، بحيث رتب عليه وعيدًا شديدًا تمثل في جعل العملية كلها افتراء على اللَّه قال- تَعَالَى-: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء، الآية:٤٨]، ووسمها بالضلال؛ فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء، الآية:١١٥]، كما أن العملية تتسبب في إحباط العمل، قال- تَعَالَى-: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام، الآية:٨٨]، بل وتبلغ بصاحبها إلى الجزاء المسخط، قال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة، الآية:٧٢]؛ ولهذا امتنع في فعل العباد عند ضرورتهم ودعائهم وتمام قصدهم، ألا يتوجهوا إلا إليه توجهًا مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا أمتًا؛ لأنه الصراط المستقيم القريب، وما سواه فيه من البعد والانحراف والطول ما فيه، فمع القصد التام الذي هو الداعي للعابد إلى العبودية المحضة الخالصة يمتنع أن يتوجه إلى سواه، فالمعول عليه- إذًا- هو المطابقة بين النية ومقاصد الشرع، فإن جاءت مطابقة فهي النية الحسنة الموجهة التوجيه الحسن، وإلا كانت النية مفضية إلى الإثم والغواية، فتستأهل تلك الجزاء الجميل، وتستأهل هذه الجزاء المبتذل.

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن، ص: ٤٩٨.

والنية التي قصدنا إليها فيما سبق هي النية المنشئة للعزم، الذي يغدو مَعْبَرًا تلقائيا إلى الواقعية والتنفيذ، لا تلك النية الهشة اللينة التي لا اعتبار لها في ميزان اللَّه؛ كتلك التي تحدث عنها- عَزَّ وَجَلَّ- في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء، الآيات:٩٧-٩٨]، والآية خطاب لأولئك الذين لم يهاجروا متعلّلين بأعذار تشفع بالتخلف عن الهجرة، حيث وبخوا على صنيعهم، وكان الأجدى بهم أن يظهروا نياتهم فيخرجوا من الأرض التي استضعفتهم وبذلك يظهروا إيمانهم.

فالمراد- إذًا- النية التي استقرت على الاختيار الحسن- في معيار الشرع- وأصبحت قاب قوسين من الإخراج إلى الواقع، على مستوى الفعل والترك؛ «لأن الإسلام منهج حياة واقعية لا تكفي فيه المشاعر والنيات ما لم تتحول إلى حركة واقعية، وللنية الطيبة مكانها، ولكنها بذاتها ليست مناط الحكم والجزاء، إنما تحسب مع العمل، فتحدد قيمة العمل، وهذا هو معنى الحديث: «إنما الأعمال بالنيات» الأعمال... لا مجرد النيات[1] ، فما لم يكن هناك عمل في الخارج، ناشئ عن هذه النية لا يكون ثمة جزاء، فعن أبي هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول اللَّه ﷺ : «إن اللَّه تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل به أو تكلم[2]، ولا تنخرم القاعدة ببعض الصور المستثناة والتي يمكن إبرازها في صور ثلاث:

الصورة الأولى: وهي التي ترد فيها النية مقرونة بمحاولة التنفيذ، فعن أبي بكرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل

(١) في ظلال القرآن: ١٧٠٩/٣.
(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٦٠/٥ (كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان والعتاقة والطلاق ونحوه...).

والمقتول في النار! » فقلتُ: يا رسول اللّه! هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه[١] ، فليس من الصعب في هذه الصورة، أن نتصور أن يعامل المنهزم بنفس القسوة التي يعامل بها المنتصر، لا لأنه كان يتحرك بروح عدوانية حاقدة فحسب، بل لأنه كان مسخرًا كل قواه من أجل الفتك بصاحبه، ومن ثم إنجاز ما أملته عليه طويته الخبيثة، فقد أراد بذلك كله إرادة جازمة وفعل ما قدر عليه، وإن لم يدرك مطلوبه فهو بمنزلة امرأة العزيز، حيث كان همها هَمَّ إصرار، وأجهدت نفسها في تحصيل مرادها وإن لم يحصل لها المطلوب[٢] ، فلا فرق- إذًا- بين الاثنين إلا في نتيجة جهد كل منهما.

الصورة الثانية : وفيها يتمثل فعل النية وهو ممنوع بطارئ، ومن مثل هذا ما رواه أنس بن مالك- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: « أن رسول اللّه ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة، فقال: إن بالمدينة رجالًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا، إلا كانوا معكم، قالوا: يا رسول اللّه! وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر »[٣] .

الصورة الثالثة : حيث وردت فيها النية فرضية فقط وتتمثل فيما رواه الصحابي أبو كبشة الأنماري- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: « ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثًا فاحفظوه، قال: فأما الثلاث التي أقسم عليهنْ: فإنه ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد بمظلمة فيصبر عليها إلا زاده اللّه- عَزَّ وَجَلَّ- بها عزًّا، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح اللّه له باب فقر، وأما الذي أحدثكم حديثًا فاحفظوه، فإنه قال إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه اللّه- عَزَّ وَجَلَّ- مالًا فهو يتقي فيه ربه، ويصل به رحمه، ويعلم للّه- عَزَّ وَجَلَّ- فيه حقه، فقال: فهذا بأفضل المنازل،

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٨٥/١ (كتاب الإيمان، باب وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما).

(٢) الفتاوى: ٥٧٥/٦.

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٢٦/٨ (كتاب المغازي، باب عن المغيرة بن شعبة قال: ذهب النبي ﷺ لبعض حاجته فقمت أسكب عليه الماء...).

قال: وعبد رزقه اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- علمًا ولم يرزقه مالًا قال: فهو يقول: لو كان لي مال عملتُ بعمل فلان، قال: فأجرهما سواء، قال: وعبد رزقه اللَّه مالًا ولم يرزقه علمًا فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه ولا يصل به رحمه، ولا يعلم للَّه فيه حقه، فهذا بأخبث المنازل، قال: وعبد لم يرزقه اللَّه لا مالًا ولا علمًا فهو يقول: لو كان لي مال لعملتُ بعمل فلان قال في نيته فوزرهما فيه سواء[1].

فالنية في الصور الثلاث لم تخرج عن حديث النفس، والهم بالفعل، ورغم ذلك ألفينا الشرع يرتب عليها الثواب أو العقاب، وأيًّا ما كان فإن للنية ما يناسبها من الجزاء وإن كان مظهر الجزاء يبدو واضحًا جليًّا عند ملابسة الفعل وذلك من خلال الاستقراء للعديد من النصوص، بل قد يرد الفرق بين النية المتحققة والنية المتحدث بها، ومن ذلك قوله- تعَالَى-: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء، الآية:٩٥]، وهذا كله مُصَدرٌ بقوله- تعَالَى-: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ﴾ [النساء، الآية:٩٥]، فنفي التساوي في الفضل مع ذكر ما للباذل في سبيل اللَّه لنفسه وماله من مظاهر الجزاء التي أفصحت عنه الدرجة والدرجات والأجر العظيم، ما ينبئ عن الدليل؛ إذ من أين تجيء هذه الرفعة إن لم يكن هناك بون بين المجاهدين الباذلين للأنفس والأموال، وبين الضعفاء القاعدين الذين لم يتعدوا أن حدثوا أنفسهم بالغزو؟

ونجد القرآن الكريم يرتقي في بيان قوة الجزاء بالنسبة للنية الفاعلة ومن، ذلك قوله- تعَالَى-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة، الآية:١٢٠]، وبذلك يتبيّن أن النية يجازى عليها، فهي خير إلا أن الفعل خير أرفع، به تقوم النيات، ثم يحصل

(١) مسند أحمد ٤/٢٣١.

الجزاء من جنس الفعل، فالقيمة التامة التي تبلغها النية لا تبلغها إلا في العمل التام[١] .

وبعد تبيان قيمة العمل حيال مسألة الجزاء، فإن ها هنا مسألة ينبغي معرفتها، وهي أن العمل لا يقابل الجزاء وإن كان سببًا للجزاء؛ لأن المكلف لا يزال مقصرًا محتاجًا إلى عفو اللَّه ومغفرته، وقد ثبت في الصحيح عن عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أن النبي ﷺ قال: «لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول اللَّه؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني اللَّه برحمة منه وفضل». وقوله ﷺ : «إن اللَّه لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم»[٢] ، فما من أحد من العباد إلا وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة اللَّه، قال اللَّه- تَعَالَى-: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر، الآية:٤٥].

وناظرَ عبد اللَّه بن مسعود- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يومًا أحد التابعين في قضية الإيمان، فقال عبد اللَّه: لو قلت إني مؤمن لقلت إني في الجنة؟ فقال له التابعي: يا صاحب رسول اللَّه! هذه زلة منك، وهل الإيمان إلا أن تؤمن باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث، والميزان وتقيم الصلاة، والصوم، والزكاة؟ ولنا ذنوب لو نعلم أنها تغفر لنا لعلمنا أننا من أهل الجنة، فمن أجل ذلك نقول إنا مؤمنون، ولا نقول إنا من أهل الجنة، فقال ابن مسعود- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: صدقت إنها مني زلة[٣] ، قال ابن تيمية- رحمه اللَّه-: «ولهذا من ظن أنه قام بما يجب عليه وأنه لا يحتاج إلى مغفرة الرب- تَعَالَى- وعفوه فهو ضال»[٤] .

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن، ص: ٤٦٧.

(٢) الفتاوى: ٢١٧/٦.

(٣) إحياء علوم الدين: ٩٦/١.

(٤) الفتاوى: ٢١٧/١ ويمكن أن يكون كلام رسول اللَّه ﷺ ، وأثر عبداللَّه بن مسعود - رضي اللَّه عنه - من قبيل المكلفين للعمل دون الاتكال على العمل والاغترار به.

المطلب الثالث:

الجزاء من أركان الإيمان

إن أول ما تَصدَّر كتاب اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- سورة الفاتحة، وهي سورة أحصت مقاصد القرآن جملة ومن بين هذه المقاصد: البعث والجزاء على الأعمال المعبّر عنهما في قوله- تَعَالَى-: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ فهي الصفة التي دلت على كونه- سبحانه- صاحب الحكم يوم الجزاء المخبر عنه في آيات أخرى؛ كقوله- تَعَالَى-: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾ [غافر، الآية:٣٧]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٥١﴾ [إبراهيم، الآية:٥٣]؛ لأن الجزاء على الفعل سبب في الامتثال والاجتناب، وجعل مصداق ذلك الجزاء يوم القيامة؛ ولذلك اختير وصف الملك مضافًا إلى يوم الدين لما يشعره من تدبير وإصلاح وإقامة الجزاء على أوفق كيفياته بالأفعال المجزي عنها.

وغير بعيد عن هذه السورة الأساس نجد سورة البقرة، وقد استهلت بقضية هي أم القضايا، إنها قضية الإيمان حيث يسجل الكتاب أن هذه التعاليم التي ستتلى على المخاطب لن تكون نبراسًا ودليلًا يوصل إلى البغية إلا لمن له الأهلية، هذه الأهلية التي تمثلت في طلب الوقاية والصيانة والحفظ من المكروه.- وهي غير مدركة شرعًا إلا بالامتثال للأوامر واجتناب النواهي، فكل من تجرد عن المكابرة، ونزه نفسه عن حضيض التقليد، وخشي العاقبة، وصان نفسه من خطر غضب اللَّه، وتلقى الأوامر بعزم، وابتعد عن النواهي بحزم، فذلك هو المؤهل للخطاب- ولن يتم ذلك إلا بشيء اسمه الإيمان بالغيب الذي لا دخل للحس فيه قال- تَعَالَى-: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة، الآية:١،٢]، أي الذين سلموا لما أخبر به الرسول مما لا مجال للإدراك بالحواس مما غاب من العوالم العلوية والأخروية؛

كالإخبار عن الذات الإلهية والصفات، والملائكة، والبعث، والروح، ونحو ذلك مما هو في عالم الغيب، وهذا هو الأصل في اعتقاد إمكان ما تُخْبِر به الرسل؛ لأن إيمان المرء به حافز لسماع دعوة الرسول والنظر فيما يبلغه عن اللَّه- تَعَالَى-، لذلك ألفينا موضوع الجزاء آخذا بحيزٍّ كبير من القرآن، فالإيمان به ركن من أركان الإيمان في جميع الأديان، وهو من لوازم الركن الأول؛ الذي هو الإيمان باللَّه المتصف بجميع صفات الكمال المنزه عن العبث في أفعاله وأحكامه، وكفر الإنسان بهذا الركن من أركان الإيمان يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله في خلقه، كما يستلزم جهله بما وهبه اللَّه من المشاعر والقوى العقلية... ومن لوازمه- أيضًا- احتقاره لنفسه باعتقاده أنه خلق عبثًا لا لحكمة بالغة، وأن وجوده في الأرض موقوت محدود بهذا العمر القصير المنغص بالهموم والمصائب والظلم والبغي والآثام، وأنه يترك سدى دون أن ينال جزاءه[1] .

قال سيد- رحمه اللَّه- عند قوله- تَعَالَى-: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء، الآية:٧]، «إنها القاعدة التي لا تتغير في الدنيا والآخرة، والتي تجعل عمل الإنسان كله له بكل ثماره ونتائجه، وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل، منه تنتج وبه تتكيف، وتجعل الإنسان مسئولًا عن نفسه؛ إن شاء أحسن إليها، وإن شاء أساء إليها، لا يلومنَّ إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء»[2] ، فها أنت ترى كيف جعل اللَّه في الأوامر إذا امتثلت وفي النواهي إذا اجتنبت أجورا منتظرة ولو شاء لم يفعل، وجعل في الأوامر إذا تُركت والنواهي إذا ارتكبت جزاء على خلاف الأول؛ ليكون جميع ذلك منهضًا لعزائم المكلفين في الامتثال، ولا يصدنك عن هذه السنة الكونية العامة القاطعة التي تسري على جميع الخلق ولا تتخلف عن فرد أو أمة أو جماعة - فاللَّه - تَعَالَى - هو رب العالمين والكل أمام هذه السنة سواء.

---

(١) انظر تفسير المنار: ٢١١/١،٢١٢.

(٢) في ظلال القرآن: ٢٢١٤/٤.

ولا يصدنك عن هذه الحقيقة مقولة طائفة ممن يؤولون النصوص ويلوون ألسنتهم بالكتاب متلاعبين؛ ليفصلوا بين الجزاء وعلاقته بالعمل، محتالين بذلك على تحقير مظهر الخير في العمل الطيب، ومظر الشر في العمل الفاسد.

ومن الحيل التي يتذرعون بها، إيهام العامة أن الجزاء مرتبط بالمشيئة العليا، لا بعمل الإنسان، ومن ثم يجوز لمرتكب الكبائر أن يدخل الجنة كما يجوز للقانت العابد أن يلج النار، واللَّه- تَعَالَى- لا يسأل عما يفعل، وهو كلام سفسطائي مخالف للحقائق المقررة في دين اللَّه والقصد منه- كما أسلفنا- إسقاط قيم الأعمال فتنمحي الرهبة من قلوب العباد وتخبو الرغبة في أحشائهم، وذلك قصدهم ومرادهم حتى يُهمَّش الدين ويُهان ويلوث المجتمع بكل ألوان الفاحشة والرذيلة واللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- يكذب ذلك كله بأسلوب صريح فيقول- تَعَالَى-: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية، الآية:٢١]، فقد أنكر الحق- سبحانه- أن يستوي الكفار مع المؤمنين لا في الحياة ولا بعد الممات، فكما خالف اللَّه بين حاليهم في الحياة الدنيا، فجعل فريقا كفرة مسيئين وفريقًا مؤمنين، فكذلك سيخالف بين حاليهم في الممات، فيموت المشركون على اليأس من رحمة اللَّه؛ إذ لا يوقنون بالبعث ويلاقون بعد الموت هول ما توعدهم اللَّه به، ويموت المؤمنون رجاء رحمة اللَّه والبشرى بما وعدوا به ويلاقون بعد الممات ثواب اللَّه ورضوانه[١].

هذا هو الحق الصُّراح الذي كان يُبْكِي السلف الصالح كلما هم أحدهم أن يتلو هذه الآية حتى غدا يطلق عليها مبكاة العابدين[١]، ونظيرها قوله- تَعَالَى-: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت، الآية:٤]، فكان هذا إبطالًا لكلامهم ومزاعمهم وردًا على تطاولهم على اللَّه- تَعَالَى-.

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٥٣/٢٥.

المطلب الرابع :

الجزاء من ثمرات الإيمان

حين تستيقن الأنفس الجزاء وتراه من خلال أنبائه العظيمة؛ كأنه عين اليقين، فإن ذلك يثمر بداخلها ولا شك داعي الخير ويقمع باغي الشر فتلوح على قلب العبد ولسانه وجوارحه وحياته كلها ثمرات طيبة ومن بين هذه الثمرات :

١- العبدية الخالصة :

وحقيقتها الطاعة والمتابعة للرسول ﷺ ، فالموقن بيوم اللقاء تلقاه حريصًا على أن يقدم عملًا غير مشوب بما يحبطه، وكلما عظم اليقين زاد هذا الحرص حتى لا تضيع منه الأعمال الصالحة الخالصة المخلصة، يوم يكون في أشد الحاجة إليها؛ لذلك، فهو يجتهد أثناء حياته في تسييجها؛ لئلا يهجم عليها ما يكدرها من شرك أو رياء أو عُجب أو مَنٍّ أو طلب جاه وشرف، لعل اللَّه- تَعَالَى- ينفعه بها، كما أن هذه الأعمال لا تخلو من متابعة لرسول اللَّه ﷺ ، بعيدة عن الابتداع؛ لأن اللَّه- تَعَالَى- لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا صوابًا، قال- تَعَالَى-: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ [الكهف، الآية: ١١٠].

٢- إعطاء كل ذي حق حقه :

وذلك منوط ولا شك بتذكر العبد هذا اليوم العصيب الذي لا يضيع فيه عند اللَّه

شيء كما قال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء، الآية:٤٧]، فإذا هو أيقن بتحققه، هرع إلى الاجتهاد لإيصال الحقوق لذويها والعمل على أن لا تتخلف عنده مظلمة في دم أو مال أو عِرْض خاصة وأن حقوق العباد مبنية على المُشاحة والحرص على استيفاء الحق من الخصم، وبالذات في يوم الفزع الأكبر، يوم هم بارزون فيُقْضَى بينهم بالحق. على أن التقاضي عُمْلَتُه يُومئذ الحسنات والسيئات لا الدراهم والدنانير.

٣- بسط العدل في أرجاء المجتمع :

لأن مجتمعًا يسود بين أهله اليقين بالآخرة والجزاء والحساب، لا شك أنه مجتمع تجمع بينه الألفة والمحبة، ومن ثم يعمُّه السلام، ولأن تعظيم اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- سيجعل هذه النفوس لا ترضى بغير شرع اللَّه بديلا، ولا تقبل الرضوخ والاستسلام إلا لحكمه، وهو ما سيجعل من الأمن والأمان يستتبان؛ لأن أهلها يخافون اللَّه ويخافون يوم الفصل والجزاء، فلا تحاكم إلا لشرع اللَّه ولا تعامل إلا بأخلاق الإسلام. وهذا لا يعني قطع دابر الظلم بالكلية لأنه لم يَسْلَم أي عصر من هذا البلاء لكن هذه المخالفات تبقى حالات فردية يؤدب أفرادها بحكم اللَّه وحدوده، أما إذا قل الوازع الديني يكون التحاكم إلى الأهواء وهو البلاء العظيم والفساد العريض، حيث تُداس القيم والحرمات ويأكل القوي الضعيف فلا يأمن الناس على أديانهم ولا أموالهم ولا أعراضهم وكفى بذلك تهارجًا وتمارجًا وفوت حياة.

٤- سلامة التفكير وانضباط الموازين :

حين يتشبع العبد بهذه العقيدة يعلو على سواه ويفوقه، وهل يستوي ذاك الذي يؤمن بيوم الجزاء ويوقن به ولا يكاد يغفل عنه، والذي يؤمن ذلك الإيمان الذي لا يتجاوز ترقوته وهو في مُتَع الحياة غافل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر، الآية:٩]، إنهما لا يلتقيان في التصور ولا في التفكير ولا في الميزان الضابط للأشياء والأحداث، فالهوة متباعدة، فبقدر ما تسمو أخلاق الأول ويصفو تصوره وميزانه بقدر ما ينحدر الآخر إلى أسفل فترذل أخلاقه لرذالة تصوره وفساد ضوابطه.

٥- الفوز برضا الله والجنة :

وهي غاية الغايات؛ إذ الفوز بالجنة يعني الدخول في جوار الله ورحمته وهو مسك الختام في هذا الشأن، قال- تعالى-: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران، الآية:١٨٥].

* * *

المطلب الخامس:

الجزاء يعُمُّ المكلَّفِين ذكورا وإناثًا

لم يبق السياق القرآني في مجال السعي والجزاء مجملا، من حيث مخاطبته للمكلفين، وإنما فُصِّلَ في مواضع، ومن نوع هذا التفصيل بيان كون الذكر والأنثى فيه سواء، من ذلك قوله- تَعَالَى-: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ [آل عمران، الآية:١٩٥]، فبعد حكايته- سبحانه- عن هؤلاء أنهم عرفوه بالدليل وذلك من خلال قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران، الآية:١٩٠]، ثم حكايته عنهم المواظبة على الذكر وعلى التفكر والثناء عليه- سبحانه- والشهادة بانتفاء العبثية من خلق هذا الكون واشتغالهم بالدعاء، يتبع كل ذلك بأن بشَّرَهم أن هذه الأعمال الإيجابية قد آتت ثمارها المرجوة؛ وهي القبول والاستجابة لكل عامل وعاملة، فلا تفاوت ولا محاباة، فهما سيان إذا كانا جميعًا في التمسك بالطاعة على السوية وفيه ما فيه من درء توهم النساء؛ أنه لا حظ لهن في تحقيق هذا الوعد، فهن كالرجال ولا اعتبار لاختلاف الجنس في هذا المقام، كلهم سواء ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾[1] ، وكما أن في ذكر هذه المساواة أيضًا بين الذكر والأنثى عند اللّٰه في الجزاء ما يدرأ عن الرجل من الاغترار بقوته وقوامته على المرأة، فيظن أنه أقرب إلى اللّٰه منها، ولا تسيء المرأة بنفسها فتتوهم أن قوامة الرجل تقتضي أن يكون أرفع منزلة عند اللّٰه، وقد بين- تَعَالَى- علة هذه المساواة بقوله ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ فلا فرق بين الرجل والمرأة في البشرية ولا تفاضل بينهما إلا في الأعمال[2] ؛ ومثل هذا يقال في قوله- تَعَالَى-:

---

(١) انظر التفسير الكبير: ١٥٦/٩ وما بعدها.

(٢) تفسير المنار: ٣٠٥/٤-٣٠٦.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء، الآية:١٢٤]، ونظير هذه الآية قوله- تَعَالَى-: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النساء، الآية:٣٢]، فجميع الحظوظ المستحقة سواء كان مما أنجر من الثواب على العمل أوكان من منافع الدنيا فبحسب ما يستحقه كل شخص من سعيه الذي سعاه ذكرًا كان أو أنثى[١] .

ومن نظائرها- أيضًا- ما ورد في شأن المنافقين حيث يقول- تَعَالَى-: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة، الآيتان:٦٧،٦٨]، فآية آل عمران تحدّثت عن الوعد بالنسبة للجنسين، وهذه تتحدّث عن وعيدهما، ففي ذكر المنافقات في الآية ما يظهر أن ذكرانهم وإناثهم من حيث المجازاة سواء، فجميع المتصفين بالنفاق يستوون في الأحكام، قال ابن عاشور- رحمه اللَّه-: «كي لا يخطر بالبال أن العفو يصادف نساءهم والمؤاخذة خاصة بذكرانهم»[٢] .

* * *

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ٣٢/٥.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٥٤/١٠.

المطلب السادس:

الجزاء من عدل الله

لا ريب أن من ضمن المقاصد القرآنية إقامة العدل بين الناس، وتلك دعوة القرآن فيما من آية، قال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل، الآية:٩٠]، وقال لنبيه ﷺ ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى، الآية:١٥]، وأومأ إلى مقصده فقال ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة، الآية:٨].

وما هذا العدل الذي يريده- تَعَالَى- في هذه الحياة الدنيا إلا نموذجًا لعدله المطلق في اليوم الآخر، فإذا كان حُكَّام الدنيا مطالبين بإعطاء الحقوق لأهلها، وتوعد المخالفين عن أمره والقاسطين على خلقه، وذلك في مثل قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة، الآية:٤٤]، وقال- تَعَالَى-: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة، الآية:٤٥]، وقال- تَعَالَى-: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة، الآية:٤٧]، حيث وسمهم بما يستلزم العذاب، وما ذلك إلا دليل على وجوب التقيد بقانون الجزاء على منوال قانون الله وسنته.

ومن يطالع آيات الجزاء يقف على بعض أسبابه والتي من بينها:

* ما يقدمه المرء من خير أو شر بحيث يكون أوجب لحصول الثواب أو العقاب.

* عدله- سبحانه وتعالى- الذي يوجب كون هذه العقوبة أو المثوبة في مقداريهما المشاهدَين، لا يظن أن في ذلك إفراطا أو تفريطا لذلك يقول- تَعَالَى-: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا

قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، ثم قال مباشرة: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: الآية:١٨٢]، فهذا العذاب الذي يصيب البعض لا يصيبهم إلا بما كسبوا، وهو من عدله- سبحانه- فلا جور ولا ظلم، ولا تماثل بين البر والفاجر، ولا المؤمن والكافر، ولا المحسن والمسيء، ولو جاز في حقه الظلم- تَعَالَى عن ذلك علوًّا كبيرًا- لجاز أن يفلت الذين أجرموا بكفرهم واستهزائهم بآيات اللّه وقتلهم النبيين بغير حق، فيلحقوا بالمتقين والأبرار الذين آمنوا برسله وعزروهم ووقروهم واتبعوا النور الذي جاءوا به و- إذًا- لكان الدين عبثًا، قال- تَعَالَى-: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص، الآية:٢٨]، وقال- تَعَالَى-: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم، الآيتان:٣٥-٣٦]، والاستفهام في الآية يفيد الإنكار الدال على أن التسوية بين الفريقين من قبيل وضع الشيء في غير موضعه مناف للحكمة ناهيك به ظلمًا كبيرًا، فكانت المثوبة أو العقوبة عدلًا منه- تَعَالَى- وقسطاسًا مستقيمًا.

ولا يزال كتاب اللّه يقرر هذه المسألة في مبدإ الجزاء ومن ذلك قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [النحل، الآية:١١١]، وذلك حين يحاول المكلف الدفاع عن نفسه بالقول للتخلص من تبعة أعماله، فيكون عدل اللّه هو الحاسم؛ حيث تعطى كل نفس في التو والحين عطاء كاملا غير منقوص؛ جزاء ما عملت من ثواب أو عقاب «وتوفية الجزاء على العمل تستلزم كون تلك التوفية عدلا، فصرح اللّه بهذا اللازم بطريقة نفي الضد وهو نفي الظلم عنهم، وللتنبيه على أن العدل من صفات اللّه- تَعَالَى»(١)، ونظير هذا في القرآن كثير، بل نجد من الآي من يذهب بعيدًا في هذا المجال ليعبر عن ذلك بأحقر الأشياء، وذلك في مثل قوله- تَعَالَى- ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ

(١) التحرير والتنوير ١٤/٣٠٣.

فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ [الإسراء، الآية:٧١] فبعد أخذ الكتاب باليمين- وهي علامة على عناية المأخوذ- وبعد الاطلاع على فحوى الكتاب، يجدون فيه ما يثلج الصدر وتقر به العين محصى ضمن الثواب، لا ينقصون منه شيئًا ولو كان حقيرًا تافهًا.

* * *

المطلب السابع :

الجزاء والتوبة

إن مكان التوبة عند مفترق طرقي الجزاء من حيث الرضا أو الألم ومن حيث النعيم أو الجحيم.

ومن ثم ألفينا خطاب اللّه الرحيم يمنح المكلف آخر فرصة من أجل تصحيح المسار نحو الفضيلة والنكوب عن الرذيلة.

فالتوبة- إذا- دعوة إلى تعويض التقصير في الواجب- بل، الإخلال به- والقرآن الكريم في دعوته ينص على المسارعة والتعجيل، قال- تَعَالَى-: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور، الآية:٣١]، وقال- تَعَالَى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم، الآية:٨]، وفي هذه الدعوة المفيدة للفور ما يدل على أنه « متى صادفت إرجاء إلا وعرّضها لخطر، وأول هذه الأخطار يتمثل في استمرار الإرادة على موقفها الخاطئ ينشئ في كل لحظة خطأ جديدًا »(١) .

واللّه- عَزَّ وَجَلَّ- يسم المتقين بسمة عدم الإصرار على الذنب؛ وذلك في مثل قوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران، الآية:١٣٥]، حيث انتفت عنهم صفة المقام على الذنب، قال ابن عاشور- رحمه اللّه-: « وحذف مفعول يعلمون لظهوره من المقام؛ أي يعلمون سوء فعلهم وعظم غضب الرب عليهم، ووجوب التوبة إليه وأنه تفضل بقبول التوبة فمحا بها الذنوب الواقعة »(٢) ، ولا ينبثق هذا إلا ممن أوتي شعورًا وإحساسًا بعظم الذنب، ثم بما ينتظره من الجزاء.

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن، ص: ٢٥٠

(٢) التحرير والتنوير ٤/٩٣

لذلك فكل رغبة من المكلف في أن يأخذ من متع الحياة ما لذَّ وطاب غير عابئ بساعة اللقاء، يرجئ عملية التوبة إلى حين النزع الأخير، ليست سوى وهم باطل وظل زائل؛ لأن القرآن حسم الموقف، فقال: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء، الآية:١٨]. وبين التوبة القريبة العاجلة والإصرار على الذنب والتمادي فيه يجثم الحل البليد؛ الذي يتمثل في أسف المكلف على الحاضر، ثم يسوف في إصلاحه إلى حين، والقرآن الكريم نص على أن مغفرة الذنب ليست إلالمن يتوب على الفور قال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء، الآية:١٧].

فجعل من قيود هذه التوبة أن يكون الإقلاع عن الذنب من زمن قريب من وقت عمل السوء؛ لذلك فمن الحكمة أن يكون المرء على أهبة الاستعداد ليوم الجزاء، قال الغزالي- رحمه اللَّه-: «فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة، كان هذا من علامات الخذلان»(١) ، ومن ها هنا أمكن القول: إن التوبة من قبيل الإصلاح الجزائي أو الإجراء الوقائي الذي يكون منيعًا بين المكلف وعاقبة السوء، بحيث يتدارك الموقف قبل حلول العذاب؛ ويتمثل هذا الإجراء في انطلاق المكلف ليس من اتخاذ خط سوي لسلوكه فحسب، ولكن من تجديد البناء الممسوس بالصدع، ولربما بالهدم، وتعبير القرآن في هذا المجال صريح، حيث نجده يلحق دائما بالتوبة ألفاظًا مشعرة بذلك كعبارات الإصلاح والإحسان والإيمان والتبيين قال- تَعَالَى-: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة، الآية:١٥٩]، وقال- تَعَالَى-: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾ [المائدة، الآية:٩٣]، فلكي تنشأ التوبة لا بد من الإصلاح والتبيين، كما أن التقوى الواردة

---

(١) إحياء علوم الدين: ٤/٤٥.

في الآية الثانية لا يمكن اعتبارها والتنويه بها إلا إذا قرنت بالمداومة على الإيمان ثم الارتقاء به إلى مقام الإحسان، ولا شك أن هذه العبارات مطلوبة مضامينها على الوجه الأكمل، وذلك من أجل كسب الغفران الموعود وتغيير مسار الجزاء نحو الأمل المعقود والفضل المنشود.



المبحث الرابع :

أنواع الجزاء

يتوزع الجزاء ليشمل الدنيوي والأُخروي للفريقين معًا؛ لذا يتعين إبراز مظاهر كل منهما في الحياتين المعاشية والمعادية.

ولقد رتب بعض العلماء الناس حيال الجزاء أربع مراتب :

الأولى : صالح الدارين وفائز الكونين وعليه يدل قوله- تَعَالَى- في إبراهيم- عليه السلام-: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل، الآية:١٢٢]، وهذا أفضل المراتب وأكملها وإليه ندب سبحانه- بعميم كرمه وتمام رحمته- أمة محمد ﷺ ، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة، الآية:٢٠١].

الثانية : خاسر الدارين ومردود النشأتين وهو الذي ذكره- سبحانه- في هذه الآية.

الثالثة : من سعد في الآخرة وخسر في الدنيا أي بإعدام أسبابها وآلاتها الفنية وإيثار المحن والمشاق في سبيل اللَّه على اللذات الحسية المتلاشية عن قريب، وهذه المرتبة ليست بدون من المرتبة الأولى، وإليها الإشارة بقوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ [ص، الآية:٤٦].

الرابعة : فائز الدنيا وخاسر العاقبة- ونعوذ باللَّه من هؤلاء- وهم الأكثرون الخارجون عن الحصر والعدد، وإليه الإشارة في قوله- تَعَالَى-: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾[1] [البقرة، الآية:٢٠٠].

---

(١) انظر الدين الخالص: ٢/٣٥-٣٦.

المطلب الأول :

الجزاء الدنيوي وبعض مظاهره

١- الجزاء الدنيوي قصير المدى :

وهو مظهر لصيق بتلكم السنة الكونية المتجسدة في فناء الإنسان ونهايته، قال- تعالَى-: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ﴾ [آل عمران، الآية:١٨٥]، ومن ثَمّ ألفينا القرآن يطلق على هذه الحياة إطلاقات دالة على زوالها، وقصر زمانها ومن مثل ذلك قوله- تعَالَى-: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء، الآية:١٨]، وقال- تعَالَى-: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾ [القيامة، الآية:٢٠]، وقال- تعَالَى-: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [الإنسان، الآية:٢٧] فالمراد بالعاجلة: «الحياة العاجلة أو الدار العاجلة وهي مدة الحياة الدنيا»[١] .

ومما ضربه اللّه مثلًا للحياة الدنيا بأطوارها من شباب وكهولة وهِرَم ومن جدة وتبذل وبلى وإقبال الأمور في زمن إقبالها ثم إدبارها بعد ذلك، مما ضربه مثلًا قوله- تعَالَى-: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًاۖ﴾ [الحديد، الآية:٢٠].

فأطوار الزرع غيث كلها أعراض زائلة وآخرها فناء، وهو مثل لهذه الدنيا كاشف عن الحالة المحقرة لها، وكونها زائلة يجب التزهد فيها، لما في التعلق بها من إعاقة عن الفلاح، لذلك وجب اتخاذها وسيلة للحياة الأبدية في النعيم الأبدي الحق.

---

(١) التحرير والتنوير: ٤٠٧/٢٩.

وإذ قد علم يقينا أن حقيقة هذه الحياة الدنيا الزوال والاندثار، عَلِم- أيضًا- أنما فيها من جزاءات وما يدركه المرء من أعطيات هي لا محالة زائلة، يستوي في ذلك البر والفاجر والمؤمن والكافر، وكل إخبار في القرآن الكريم على الجزاء فيها سواء الحسنة أو السيئة إنما هو: «عينات ومقدمات للعدالة الكلية، فالجزاءات الإلهية التي تَبْرُز لنا في هذا العالم ليست شاملة ولا كاملة، وهي ليست في ذلك أكثر من الجزاءات الطبيعية والجزاءات الإنسانية، فأما أنها ليست شاملة فلأن اللَّه- تَعَالَى- يقول: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى، الآية: ٣٠]، وأما أنها ليست كاملة فلأن اللَّه- تَعَالَى- يقول: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران، الآية: ١٨٥]، ويقول- تَعَالَى-: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ٢٥]؛ إذ التوفية معناها «بذل الشيء وافيا والبلوغ به إلى التمام»[1].

كما أن هذه الجزاءات ليست مطبوعة بطابع الأبدية، وهو واقع تكشفه حياة النعيم المخلوع على أشد النفوس تعنتًا وأحلك القلوب ظُلمة، ولعل هذا الجزاء المتجلي في التنعم إنما هو مقابل لأعمال الخير التي قامت بها هذه النفوس، فقوبلت بذلك الجزاء الفوري من طيبات هذه الحياة، حيث تبقى جرائرها دون مقاصة تنتظر الفصل يوم الدين قال- تَعَالَى-: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود، الآيتان: ١٥،١٦]، فمهد سبحانه بأن نبه على بوارق الغرور ومزالق الذهول لئلا تغتر النفس بالمتاع العاجل، ثم حذرها بأن من وراء ذلك العذاب الدائم[2] .

---

(١) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص:٥٢٨، (كتاب الواو) وانظر دستور الأخلاق في القرآن، ص: ٣٦١.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٢/١٢.

فإذا نظرنا إلى خصائص الجزاء الدنيوي المذكورة والمتجلية في كونه غير كامل ولا شامل ولا دائم، أدركنا أن هناك جزاء أخرويًا له مواصفات هي أضداد ما ذكر، ضرورة كونه يمثل الثمرة النهائية للعامل والخامل على السواء، حيث يتسم بالشمول والكمال والديمومة، أما الشمول والكمال فقد عبر القرآن عنهما في مثل قوله- تعالَى-: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم، الآيات:٣٩-٤١]، وأما الديمومة ففي مثل قوله- تعالَى-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف، الآية:١٣]، وقوله- تعالَى-: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن، الآية:٢٣].

٢- الجزاء الدنيوي في حياة طلاب الآخرة :

وهي طائفة أهل الفضائل والتقوى، فلا ريب أن الله سينيلها من الثواب في هذه الحياة ما تقر به العين وتهنأ به الروح.

ولئن كان القرآن يحرص على إبراز الجزاء المعادي في صورة أفضل، فإنه لم يغفل الوعد ببعض الخير العاجل في هذه الحياة.

ومن يستقري مواطن الوعد، يجد أنه معبر عنه تارة بالإجمال وأخرى بالتفصيل حيث يجيء في صور جلية واضحة مغرية.

فمن الأول قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل، الآيات:٩٧]، هذا العموم الوارد في عبارة «الحياة الطيبة» أدى بأهل التفسير إلى سَوق أقاويل، علم من خلالها كيف أطلقوا العنان لاجتهاداتهم، فمنهم القائل: «إن الحياة الطيبة هي الحياة التي فيها ثلج الصدور بلذة

اليقين، وحلاوة الإيمان، والرغبة في الموعود والرضا بالقضاء، وعتق الروح مما كانوا يستعبدون له، والاستكانة إلى معبود واحد، والتنور بسر الوجود الذي قام به، وغير ذلك من مزاياه المقررة في مواضعها »[(١)] ولا شك أن ما ذكر تشمله العبارة، والنفوس تتفاوت في نيله بحسب النصيب الإيماني قوة وضعفا، وهو مقام دقيق فيه من التنافس ما يمنح اللّه به من الأعُطيات على مراتب الهمم والآمال.

ومن أشباه الآية المذكورة قوله- تعَالَى-: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [الزمر، الآية:١١]، فعلى قول من قال: إن الحسنة أريد بها الجزاء الدُنيوي يرى أنها ممثلة في الصحة والعافية وحملها على الثلاثة المذكورة في الأثر: «ثلاثة ليس لها نهاية الأمن والصحة والكفاية »[(٢)] ومن نظائرها- أيضًا- قوله- تعَالَى-: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق، الآيتان:٢-٣]، وقوله- تعَالَى-: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق، الآية:٤].

ومن الثاني: ما يجيء الجزاء فيه مفصّلًا؛ حيث ترتدي السعادة المعلنة الصفة التفصيلية في أثناء الخطاب، ومن أمثاله قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [لنور، الآية:٥٣]، فالوعد الوارد في الآية المقرون بالإيمان والعمل الصالح اللذين وردًا كالشرطين للخروج من عهدة التكليف، كان السبب في إقبال هذه المسببات تنهال على الأمة برزت من خلالها مقومات مهمة جالبة للسعد والهناء، وأولها البشارة بالاستخلاف الذي يعني «القيام بتنفيذ مراد اللّه- تعَالَى- من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي، وتلقين الذرية مراد اللّه من هذا العالم الأرضي »[(٣)] .

---

(١) محاسن التأويل: ١٠/١٥٦.

(٢) التفسير الكبير: ٢٦/٢٥٦.

(٣) التحرير والتنوير: ١/٣٩٩.

ولا يخفى ما في هذا من التشريف، خصوصًا حين أضيف الدين إلى ضميرهم كما أنه لا يخلو من جانب التكليف أيضًا.

ثانيها: تمكين الدين الذي هو من عناصر السعادة بلا ريب؛ إذ التمكين مشعر « بأن سنة اللَّه ألا تأمن أمة بأس أخرى حتى تكون قوية مكينة مهيمنة على أصقاعها »[(١)]، فالتمكين- إذًا- مستلزم للأمن؛ لذلك أتبعه به وجعله ثالث؛ الثلاثة حيث إن الخوف النازل بساحتهم سيبدل أمنًا وأمانًا.

فهذه من أنواع الجزاء المفصلة مظاهره، وقد يجيء في بعض الآي ما يعبر عن هذا في صورة إجمالية كما في قوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء، الآية:١٠٥]، ولا شك أن الوراثة تتضمن تلك العناصر الثلاث المذكورة آنفًا بل وزيادة، لكن تبقى هذه الوعود القرآنية في غالبها واضحة صريحة كما في قوله: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد، الآية:٧]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال، الآية:١٩]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون، الآية:٨]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة، الآية:٥٦]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج، الآية:٣٨].

فالوعد بالاستخلاف، والتمكين للدين، واستتباب الأمن، ووراثة الأرض، والغلبة والنصرة والمعية الربانية، والعزة والمدافعة والولاية، كلها آثار الجزاء واضحة صريحة في الدنيا تتحقق ما تحققت شروطها ولو بعد حين؛ لأن المكتوب الإلهي ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾- كما رأينا-. وأهم الفضائل المطلوبة لهذه الأهلية هي الفضيلة الاجتماعية المعبر عنها بشتى التعبيرات في القرآن.

---

(١) التحرير والتنوير: ١٨/٢٨٢.

٣- الجزاء الدنيوي في حياة طلاب الدنيا :

وهم أهل الرذائل الذين سقطت همتهم؛ إذ لم تتجاوز الأرض، قال- تَعَالَى-: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود، الآيتان:١٥،١٦]، وهي جُمل أفادت الإخبار عن نوعية إنسانية قد أهمتهم أنفسهم؛ يريدون أن يحيوا للدنيا وحدها، غير عابئين بما وراءها، وسوف يبذلون قصارى جهدهم وقواهم ومواهبهم للاستحواذ على ما في الحياة من خيرات والاستمتاع بها دون أن يكون لهم اتصال بالسماء.

وها هو الحق- سبحانه وتعالى- يخبر عن أنه سيعطون ما طلبوا، وسيمكن لهم في هذه الحياة بقدر جهدهم دون بخس ولا حيف، أما الآخرة فلا نصيب لهم فيها إلا أن ينالوا الجزاء الأوفى على تكذيبهم ونسيانهم لربهم قال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران، الآيتان:١٩٦،١٩٧]، فلا يُحسب أن الكفر يوجب تعجيل العذاب كما لا ينبغي أن يظن أن المكذب سيحرم من بعض أقساط السعادة الدنيوية ما دام يكدح في جنباتها ويرغب في الفوز بطيباتها؛ لذلك ورد التوضيح في هذا الشأن بقوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء، الآيتان:١٨،١٩]، « فالمكلفون يتحرّكون داخل نطاق محكم من المشيئة العليا في البسط والسعة والضيق، وهو تفاوت له صلة بطبيعة الاختبار الإلهي للناس ولا دلالة على الرضا أو السخط، قال- تَعَالَى-: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ

هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾[1] [الإسراء، الآية:٢٠]، ويبدو أن هذه الطائفة- رغم أن حياتها الدنيوية لا تخلو من طيبات- إلا أن اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- يخبر عن حياة مشوبة بنكد يعبّر عنه في القرآن بالضنك وإحباط العمل والخسران، قال- تعالَى-: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه، الآية:١٢٤]، وقال- تعالَى-: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة، الآية:٦٩]، فوفرة الأموال والأولاد لا توجب طمأنينة؛ لأن مآل ذلك كله الحبط «وهو الزوال والبطلان والاستئصال والإتلاف وذلك بحلول مختلف ألوان العذاب بأولئك الأمم، وفي الآخرة بعدم تعويض شيء مما ذكر من النعم»[2] ، ولذلك ذيّل الآية بقوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

ويعتبر هذا من قبيل الجزاء الدنيوي لهؤلاء، وإذا جاء وروده في هذه الآيات السابقات مجملًا فإنا سنقف على بعض التفصيلات التي تتجلى فيها مظاهر هذا النوع من الجزاء بالنسبة لهذه الطائفة.

- من ذلك ما أخبر به- سبحانه- في قوله: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران، الآية:١٥١]، فهذا الرعب المذكور في الآية جزاء دنيوي رتبه- سبحانه- على الإشراك به، فإن الشرك لما كان اعتقاد تأثير من لا تأثير له، وكان ذلك الاعتقاد يرتكز في نفوس معتقديه على غير دليل، كان من شأن معتقده أن يكون مضطرب النفس متحيرًا في العاقبة في تغلب بعض الآلهة على بعض، ومن

(١) انظر المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ص: ١٥٦.

(٢) التحرير والتنوير: ١٠/٢٦٠.

هذا هو حاله لا يستقر له قرار في الثقة واليقين فيما أشرك واعتقد فقلبه وَجِل مزلزل؛ إذ الرعب صاد له عن الطمأنينة والثبات[١] .

ومنه- أيضًا- قوله- عزَّ وَجلَّ-: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة، الآية:٨٥]، «والآية دالة على أن اللَّه يعاقب الحائد عن الطريق بعقوبات في الدنيا، ومنها الخزي الذي يعني ذلا في النفس طارئًا عليها فجأة لإهانة لحقتها، أو مَعرَّة صدرت منها أو حيلة تمشت عليها»[٢] ، فكل من نقض ميثاق الدين والشريعة التي هي مناط الأحكام، إلا وعوجل بالخزي في الدنيا والعذاب الآجل في الآخرة، قال صاحب المنار- رحمه اللَّه-: «وقد دل المعقول وشهد الوجود بأنه، ما من أمة فسقت عن أمر ربها، واعتدت حدود شريعتها إلا وانتكث فتلها، وتفرق شملها، ونزل بها الذل والهوان وهو الخزي المراد في القرآن، وهذه هي سنة الخليقة يذكرها اللَّه لمن صرفته الغفلة عن الاعتبار»[٣] ، وما الرعب والخزي والخسران وحبوط الأعمال إلا نوع عقوبات معنوية، وقد يتحدث القرآن عن نوع آخر حسي يلحق الأبدان ويتجلى في مثل الحرمان من الطيبات والخسف والإغراق والجوع والخوف وغيرها، قال اللَّه- عزَّ وَجلَّ-: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء، الآيتان:١٦٠،١٦١]، «والآية اقتضت أن تحريم ما حُرِّم عليهم إنما كان عقابًا لهم»[٤] ؛ لأنهم حين استمرؤوا المنكرات وأضحت من

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ١٢٤/٤.
(٢) التحرير والتنوير: ٥٩١/١.
(٣) تفسير المنار: ٣٧٣/١.
(٤) التحرير والتنوير: ٢٦/٦.

الجبلات عوقبوا بالحرمان من الطيبات بعد أن كانت حلالًا لهم، وليس الأمر موقوفًا على أناس بأعيانهم أو جنسًا بذاته وإنما الأمر يشمل كل من كان عدوًّا للحق وأهله، وللهدى وحملته، في كل جيل وفي كل زمان.

ومن هذه العقوبات- أيضًا- ما ورد في قوله- تعالَى-: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل، الآية:١١٢]، وفي التعبير بالإذاقة، ما يدل على إحساس الألم والأذى إحساسا مكينا، كتمكن ذوق الطعام من فم ذائقه، كما أن في اللباس ما يدل على غشيان العذاب لأصحابه، وملازمته لهم كملازمة اللباس لابسه، كل ذلك بما كانوا يصنعون جزاء على كفرهم، ونسيانهم لنعمتي الأمان والاطمئنان النفسيين، والأمن الغذائي الوافر الهنيء[1].

وهكذا نقف على تعداد النقم التي حلت بالناكبين عن الطريق المحبين للدنيا، قال- تعالَى-: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت، الآية:٤٠].

* * *

(١) انظر التحرير والتنوير: ١٤/٣٠٥.

المبحث الخامس :

الجزاء الأخروي وبعض مظاهره

المطلب الأول :

الجزاء الأخروي في حياة طلاب الآخرة

إن أول ما يتلقى هؤلاء منذ اللحظة الأولى التي تدعى فيها أرواحهم إلى بارئها، هو ذلك الاستقبال الضخم المتجلي في التحية، حيث تتلقاهم الملائكة، وعن هذا يحدثنا القرآن، فيقول- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل، الآية:٣٢]، ويقول- تَعَالَى-: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر، الآية:٧٣] ويقول- تَعَالَى-: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان، الآية:٧٥]، وهو إعراب عن السرور باللقاء يحمل في طياته البشرى بالسلامة، والأمن من المكروه المشاهد في هذه القيامة، وبعد هذا التلقي والإخبار بأنه ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء، الآية:١٠٣] يتحدد النعيم الروحي من السعادة العلوية بما بثه- عَزَّ وَجَلَّ- في وعوده التي يصورها القرآن الكريم، والتي منها:

- الاستقبال الرباني، قال- تَعَالَى-: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب، الآية:٤٤]، وقال- تَعَالَى-: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس، الآية:٥٨].

- الأمن من الخوف والحزن، قال- تعالَى-: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة، الآية:٣٨].

- إبعادهم عن مواطن العذاب، قال- تعالَى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء، الآيتان:١٠١-١٠٢].

- انتفاء الخزي، وهو مستلزم للتكريم، قال- تعالَى-: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ﴾ [التحريم، الآية:٨].

- نضارة الوجه وتشريفه بالنظر إلى اللَّه- عَزَّ وَجلَّ-، قال- تعَالَى-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة، الآيتان:٣٢].

- الحُظوة بمقام المقربين، قال- تعَالَى-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة، الآية:١١] وقال- تعَالَى- ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ﴾ [النساء، الآية:٦٩].

- الفوز برضوان اللَّه، قال- تعَالَى-: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ﴾ [الحديد، الآية:٢٠].

- الرضا بالعاقبة، قال- تعَالَى-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الزمر، الآية:٧٤].

- ضمان هذا الجزاء في ظل الأبدية، قال- تعَالَى-: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [الدخان، الآية:٥٦].

ناهيك عما يصوّره القرآن، في الجنان من مظاهر جمالية فيصفها بالرحابة، حيث يقول- تعَالَى-: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران، الآية:١٣٣]، ويصفها بأنها ذات ظل ظليل،

فيقول- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ [النساء، الآية:٥٧] وأنها تتفجر ينابيع قال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ٤٥﴾ [الحجر، الآية:٤٥]، وهذه الجنات غالبًا ما يتحدث عنها، فيصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار، قال- تَعَالَى-: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التوبة، الآية:٧٢]، وذكر الجنات مقرونة بالأنهار الجارية، من تحتها أربى على الأربعين مرة في كتاب اللَّه، أما الغذاء، والكساء، والنساء، فقد يُجمع في مثل قوله- تَعَالَى-: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ [الزخرف، الآية:٧١].

وكل ذلك جزاء لعباده الخُلَّص بل إن ﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ [الفرقان، الآية:١٦]، بل أزيد، قال- تَعَالَى-: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق، الآية:٣٥].

والواقع أن ما من إنسان يعلم ما أعد لهؤلاء المحسنين من إنعام، فقد ألفينا القرآن يعرب عن ذلك، حيث يقول- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة، الآية:١٧]، وفي الحديث القدسي يقول- تَعَالَى-: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[١] ، مما جعل عبد اللَّه بن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يقول: «ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء»[٢] .

* * *

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : ٥١٥/٨ (كتاب التفسير، باب فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين).

(٢) جامع البيان: ١٧٤/١.

المطلب الثاني:

الجزاء الأخروي في حياة طلاب الدنيا

وهم الذين أذهبوا طيباتهم في الحياة الدنيا، واستمتعوا بها فليس لهم في ذلك اليوم جزاء، إلا العذاب، قال- تَعَالَى-: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ [غافر، الآية:٤٦].

ويتناول القرآن الكريم في حديثه عن جزاء هؤلاء صورًا شتى، نذكر منها ما يأتي:

إخباره- عَزَّ وَجَلَّ- عن:

- استحقاقهم للعذاب، قال- تَعَالَى-: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١﴾ [الزمر، الآية:٧١].

- مثولهم بين يدي اللَّه منكوسي الرءوس، قال- تَعَالَى-: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾ [السجدة، الآية:١٢].

- يأسهم من رحمة اللَّه ومغفرته، قال- تَعَالَى-: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣﴾ [العنكبوت، الآية:٢٣].

- لن تفتح لهم أبواب السماء، قال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف، الآية:٤٠].

- حرمانهم من أدوات الإدراك لحظة البعث، قال- تَعَالَى-: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء، الآية:٩٧].

- حرمانهم من كل اشتهاءاتهم، قال- تَعَالَى-: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ، الآية:٥٤].

- يأسهم من رؤية اللّه وتزكيته، قال- تَعَالَى-: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين، الآية:١٥]، وقال- تَعَالَى-: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران، الآية:٧٧].

- إلباسهم سرابيل من الخزي والعار، قال- تَعَالَى-: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأنعام، الآية:١٢٤].

- عبوسة الوجوه وكلاحتها، قال- تَعَالَى-: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القيامة، الآية:٢٤]، وقال- تَعَالَى-: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ [عبس، الآيتان:٤٠،٤١].

- ندمهم وتمنيهم أن لو باعد اللّه بينهم وبين خطاياهم، قال- تَعَالَى-: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران، الآية:٣٠].

- وإذا ما اطلعوا على حسابهم تمنوا أن لو لم يكونوا عرفوه، قال- تَعَالَى-: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ [الحاقة، الآيتان:٢٥،٢٦]، وفي كلمة جامعة: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1] [البقرة، الآية:١٢١].

---

(١) أما الألام البدنية التي سيتعرض لها هؤلاء بعد الحساب الأخير، فقد تحدث عنها القرآن بإسهاب وذلك قصدًا للترهيب المقارن للترغيب، فانظره في محاله من الآيات الكثيرة.

المبحث السادس :

الجزاء بين الاستعجال والاستبطاء

المطلب الأول :

الجزاء والاستعجال

وهي قضية لها وثوق الصلة بما جرى بين المنذِرين والمنذَرين، في أثناء المحاورة والمجادلة، التي- غالبًا- ما تنتهي بهذا اللون من التحدي، إشعارًا منهم أنهم موقنون بألا صدق لهذا الوعيد.

ويعرض القرآن هذه القضية، تارة في أسلوب صريح، فيه إخبار عن هذه الحال كما جاء في قوله- تَعَالَى-: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج، الآية:٤٧]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص، الآية:١٦].

وتارة يرد الاستعجال للعذاب، في معرض الحوار بين الأنبياء والرسل، وبين الجاحدين من أقوامهم وذلك بعد أخذ ورد.

* فقد قيل لهود- عليه السلام-: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأعراف، الآية:٧٠].

* وقيل لصالح- عليه السلام-: ﴿يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف، الآية:٧٧].

* وقيل لشعيب- عليه السلام-: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء، الآية:١٨٧].

* وقيل للوط: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت، الآية:٢٩].

وهي مقولات كلها شبيهة بما قيل لرسول الله ﷺ، فقد أخبر القرآن عن حال قومه، فقال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج، الآية:٤٧]، وقال- تَعَالَى-: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ [هود، الآية:٨]، «فإذا أنذرهم الرسول بعقوبة العذاب استعجلوه، فإذا تأخر عنهم إلى أجل اقتضته الحكمة الربانية، استفهموا عن سبب حبسه عنهم استفهام تهكم ظنًّا أن تأخره عجز»(١)، وهذا الموقف، إنما أثمره عدم الفهم، والتحدي للنذير والاستهزاء والتكذيب والإصرار على الباطل، والتبجح في وجه الإنذار، والشرود الذي لا تنتظره أوبة.

ولعلي سأجمل هذا كله في سببين رئيسيين هما:

١- الاستكبار والعناد:

وهو ما يحكيه- عَزَّ وَجَلَّ- في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال، الآية:٣٢]، عن قتادة- رحمه الله- قال: «قال ذلك سفهة هذه الأمة»(٢)، والعاقل لا يصدر منه كلام مثل هذا، ومن هذا الدعاء عُلِمَ أن كفرهم عناد، وكبرياء، وعتو، وعلو في الأرض، «روي أن معاوية- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة؟! فقال: أجهل من قومي قومك حين قالوا:

(١) التحرير والتنوير: ١٢/١٠.

(٢) فتح الباري: ٨/٣٨٨ وانظر تفسير المنار: ٩/٦٥٥.

﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال، الآية:٣٢]، ولم يقولوا: اهدنا له[١] ، وهو الأصلح لهم، ولكن لشدة عتوهم وعنادهم، استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا تقديم العقوبة.

والظاهر أنهم كانوا من غرورهم يحسبون تصرفات اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- كتصرفات الناس من الاندفاع إلى الانتقام عند الغضب اندفاعًا سريعًا، وأن الرسل مبعوثون لإظهار الخوارق نكاية بهم، فكانوا إذا ركبوا رءوسهم ولم تصبهم على إثر ذلك مصائب ازدادوا غرورًا؛ لذلك ألفينا القرآن الكريم يرد عليهم ويصحح لهم، فيقول- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس، الآية:١١]، ولم تكن الآية ردًّا على شبهتهم فحسب؛ وإنما تناولت في خواتيمها ما يطمئن فئة المؤمنين الذين لا يزالون يتربصون بالمكذبين ويستبطئون مجيء النصر، كاشفة عن نظام الرفق بالمخلوقات واستبقاء النوع إلى آجاله وهو نظام مستمر على عباده غير منقطع عنهم[٢] .

٢- الجهل والغفلة :

حيث غفلوا عن قياس حالهم بحال أهل القرى السالفين؛ فأعرضوا بذلك عن التذكر في آيات اللَّه، وأبوا النظر في دلائل صدق الأنبياء والرسل؛ فكانت الغفلة عن الجزاء غير مقبولة من نفوسهم؛ بسبب تعطيلهم ما شأنه أن يقلع الغفلة؛ وهو الإعراض عن الدلائل المورثة للعلم، قال- تَعَالَى-: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ

(١) تفسير المنار: ٦٥٦/٩، أضواء البيان: ٣٥٠/٢.

(٢) انظر التحرير والتنوير: ١٠٥/١١-١٠٦.

مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء، الآية:١] هذه الغفلة هي التي أملت عليهم أن يقولوا ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص، الآية:١٦] استخفافًا؛ فهم يسألون التعجيل بنصيبهم من العذاب في الدنيا، قبل يوم الحساب؛ إظهارًا لعدم اكتراثهم بالوعيد الدنيوي، بَلْهَ الأخروي(١) ، كل ذلك ما أصله في نفوسهم إلا الجهل؛ لذلك يقرر القرآن أن وقوع الجزاء حق، وأن أكثر الناس يقيمون على الجهل استبعادًا واستحالة لحصوله بعد الفناء، قال- تعالى-: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [النحل، الآية:٣٨]، وقال: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ [الروم، الآية:٦]، فدل بصريح العبارة أن وعد اللَّه محقق بلا ريب، وأنه مأتي، وألا مجال للحسبان أن اللَّه ﴿مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ﴾ [إبراهيم، الآية:٤٧]، فللمكذبين- إذًا- ﴿مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ [الكهف، الآية:٥٨]، فلا ملجأ لهم من العذاب، ومراهنتهم عن عدم وقوعه بشتى ألوان الأساليب الساخرة إنما هو ناشيء عن قصور إدراك وجهل.

* * *

(١) انظر التحرير والتنوير: ٢٢٥/٢٣.

المطلب الثاني :

الجزاء والاستبطاء

وحال الاستبطاء، ليست بمنفكة عما أسلفناه من الدواعي والأسباب، التي أوجدت استعجال الجزاء، فهذه آيات تعبر عن جرأة المكذبين على اللَّه،- عَزَّ وَجَلَّ- من حيث استبطاؤهم للجزاء، قال- تَعَالَى-: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المعارج، الآيتان:١،٢،٣] وكان سؤالهم سؤال مستهزئ؛ لذلك أعقبه بقوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾ [المعارج، الآيتان:٦،٧]، فحكى حالهم تجهيلا لهم؛ إذ اغتروا بما هم فيه من الأمن والحياة الناعمة، حتى أضحوا يرون العذاب الموعود بعيدًا[(١)] ، ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾ [يونس، الآية:٤٨] فكان سؤالهم من قبيل الاستهزاء، والتهكم، قال ابن عاشور- رحمه اللَّه-: «وحكي قولهم بصيغة المضارع؛ لقصد استحضار الحالة الدالة على تكرار صدوره منهم... وهو سؤال مستعمل في الاستبطاء، كناية عن عدم اكتراثهم به، وأنهم لا يأبهون به.[(٢)] ، ولما كان هذا حال الطوائف المكذبة، وديدنها مع الرسل، تكررت الآية في مواطن عدة؛ للتدليل على أن هذه الحال لا تنفك عنهم[(٣)] .

* * *

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ٢٩/١٣٨.

(٢) التحرير والتنوير: ١١/١٨٩.

(٣) انظر الآية في الأنبياء: ٣٨، والنمل: ٧١ وسبأ: ٢٩، والملك: ٢٥.

المطلب الثالث :

الجزاء والابتلاء

الابتلاء: معناه الاختبار، وفي القرآن الكريم نجد له مظهرين اثنين «فتارة يكون بالمسار؛ ليشكر المكلف، وتارة بالمضار؛ ليصبر، فصارت المحنة والمنحة جميعًا بلاء»[١]، «وإطلاق البلوى على ما يبدو من الناس، من تجلد، ووهن، وشكر، وكفر على ما ينالهم من اللذات والآلام مما بنى اللَّه- تَعَالَى- عليه نظام الحياة، وهو دال على اختلاف أحوال الناس في تصرفهم فيه، وتلقيهم إياه، أشبه اختبار المختَبِر، ليعلم أحوال من يختبرهم»[٢] ، وفي كتاب اللَّه منهج مرسوم لقضية الابتلاء، حيث يقرّر- عَزَّ وَجَلَّ- في بادئ الأمر أنه كائن ولا بد، فيقول- تَعَالَى-: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت، الآيتان:٢،٣]، فنص على أن الابتلاء سنة اللَّه في سالف أهل الإيمان، القصد منه استخلاص الحق من الكذب، حتى يتبين الراسخ من المذبذب، فدعوى الإيمان عارية من الدليل، دعوى عريضة لا بد لها من دليل تستند إليه، ومثل هذه الآية قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ۝٢١٤﴾ [البقرة، الآية:٢١٤]، فدخول الجنة لا يكون إلا بعد سبق عناء، وبلوى، وإزعاج، واضطراب إلى غاية يقول عندها المبتلى: متى نصر اللَّه، فيكون الدخول إلى الجنة حينئذٍ دخولًا مستأهلًا؛ لأنه وقع بعد تمحيص أثمر الطائفة الناجية، ثم يطالعنا القرآن ببيان مادتي الاختبار والابتلاء،

---

(١) المفردات، ص:١٦.

(٢) التحرير والتنوير: ١٧/٦٥.

وهما: الخير والشر، قال- تعالى-: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء، الآية:٣٥]، وقال- تعالى-: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف، الآية:١٦٨]، حيث تنص الآيتان على أن الحياة يعتري فيها الخير والشر سائر البشر، اختبارًا وامتحانًا، هذا الخير والشر اللذان يفصِّلُهما القرآن الكريم، فيعرض ألوانا ومظاهر منهما معا، من ذلك قوله- تعالى-: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة، الآية:١٥٥]، فهذه المذكورات في الآية، مثلت ضروبًا من البلاء، وألوانًا من المصائب، وذلك « ليعلم هؤلاء أن تمام النعمة ومنزلة الكرامة عند اللَّه، لا يحول بينهم وبين لحاق المصائب الدنيوية المرتبطة بأسبابها، وأن تلك المصائب كاشفة لثباتهم على الإيمان، ومحبة اللَّه، والتسليم لقضائه، فينالون بذلك بهجة النفوس، بما أصابهم في مرضاة اللَّه، ويزدادون به رفعة، وزكاء ويزدادون يقينا بأن اتباعهم لهذا الدين لم يكن لنوال حظوظهم من الدنيا، وينجر لهم من ذلك الثواب العظيم »[(١)] ؛ لذلك أتبع سبحانه تلك البلايا بالتبشير بالصبر، وكأنه الغرض والقصد، من ذلك حيث يريد- سبحانه وتعالى- أن يربي في المكلفين هذه الملكة المثمرة، للتحمل والثبات « ومتى رسخت هذه الملكة، سمي صاحبها صبورا أو صبارا »[(٢)] ، واللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر، الآية:١٠]، وفيه الحث على الصبر، بتعظيم أجر الصابرين، ليكون إعلامًا للمخاطب، بأن أجره على ذلك عظيم، ووفير لا يحاط بمقداره، وذلك هو شأن جزاء الآخرة، الذي لا يخطر على قلب بشر[(٣)] . وأي جزاء أعظم لمن رام التلبس بمنقبة الصبر من التزكية والرحمة والاهتداء، وكل ذلك أخبرت به الآية حيث يقول اللَّه- تعالى-: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة، الآية:١٥٧].

---

(١) التحرير والتنوير: ٥٤/٢.

(٢) تفسير المنار: ٣٥/٢.

(٣) التحرير والتنوير: ٣٥٥/٢٣.

فمقام الابتلاء من خلال هذه الرؤيا- بالنسبة للجزاء- مقام موجه للمكلف، مقام على مفترق الطريقين- كما أسلفنا في النية- فإما الصبر والشكر، ومن ثم الظفر بالمراد، وإما الوهن والكفر، فتكون العاقبة خسرى.

والذي يستنبط من حديث القرآن، أن ما يلحق المكلَّف من خير أو شر في هذه الحياة، لا ينبغي أن يتصور أنه جزاء على العمل- نعم، قد يكون نوعًا من الجزاء العرضي الدنيوي- بل، هو ابتلاءٌ القصد منه تحريك الجهد المسمى، تارة بالصدق، قال- تَعَالَى-: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت، الآية:٣]، وتارة بالصبر والجهاد، قال- تَعَالَى-: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد، الآية:٣١]، وأحيانا بالإحسان في العمل، قال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف، الآية:٧]، فهو بمثابة الإجراء الوقائي، الذي يتمثل فيه نوع من التصدي لعناصر الابتلاء؛ لإثبات استحقاق الجزاء النهائي الأوفى، ولا يخفى ما أعده الله للصادقين، والصابرين، والمجاهدين، والمحسنين. وما يقال في البلايا والنقم، يقال في المنح والنعم، بل إن الصبر على الشهوات، أشد بلاء من الصبر على المكاره، قال عمر- رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-: «بلينا بالضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر، وقال أمير المؤمنين علي: من وسَّعَ عليه في دنياه، ولم يعلم أن قد مكر به، فهو مخدوع عن عقله»[1]، ومن الآيات الدالة على هذا قوله- تَعَالَى-: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ [الأنفال، الآية:٢٨]، فجعل الأموال والأولاد فتنة؛ لأنها من أقوى دواعي الافتتان، حقا لكثرة حدوث فتنة المرء من جراء أحوالهما، وقد ذيلت الآية بالتنصيص على الجزاء الأوفى، فيما لو حصل كف النفس عن المنهيَّات التي تترائى أنها منافع.

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٦١.

وقال- تعالى-: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه، الآية:١٣١]، والشاهد عندنا في الآية هو قوله: ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾، وهي الزينة المعجبة المبهتة من: اللباس، والأنعام، والنساء، والبنين كل ذلك ليحصل به الافتتان، أما خاتمة الآية، فهي مفيدة أن ما يبدو للناظر، من حسن شارتهم مشوب ومبطن بفتنة في النفس، وشقاء في العيش، وعقاب عليه في الآخرة، ورزقه- عَزَّ وَجَلَّ- خير من ذلك وأبقى في الدنيا لما يقارنه من الشكر، وأنفع في الآخرة، وفيه إيماء إلى أن الخيرية حقيقة اعتبارية، تختلف باختلاف نواحيها فمنها خير لصاحبه في العاجل، شر عليه في الآجل، ومنها خير مشوب بفتن، ومنها ما هو صاف من ذلك[1] .

* * *

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ١٦/٣٤٠ وما بعدها.

المطلب الرابع :

الجزاء والإملاء

والإملاء سنة من سنن اللَّه- تَعَالَى- مع المكذبين، حيث يرخي لهم العنان، ويملي لهم في العصيان والطغيان؛ استدراجًا لهم في طريق الهلكة، وإمعانًا في الكيد لهم، قال- تَعَالَى-: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف، الآيتان:١٨٢،١٨٣] وهي السبيل التي انتهجها القرآن للتعامل مع المكذبين من المستهزئين، والظالمين، والمعرضين الناسين.

أما المستهزؤون، فقد أخبر عنهم بقوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد، الآية:٣٢]، لقد استهزئ بنوح، فكان من هذا الاستهزاء أنه ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود، الآية:٣٨]، واستهزئ بهود في قوله ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف، الآية:٦٦]، واستهزئ بموسى حيث قال فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف، الآيتان: ٥٢]، واستهزئ بشعيب، فقيل له من قبل قومه: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود، الآية:٨٧]، على سبيل السخرية، واستهزئ بسواهم من الأنبياء والمرسلين، فكان أن قابل اللَّه هذه السخرية والامتهان، بالأخذ بعد الإمهال، واللبث بعد مدة، وأما الظالمون، فقد حكى القرآن الكريم عن القرى الظالمة، وما أصابها بعد الإملاء من عذاب أتاها على حين غِرَّة قال- تَعَالَى-: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج، الآية:٤٨]، فحين أُمْهِلوا ظنوا أنه قد أريد بهم خير، وما دروا أن العذاب مدخر لهم، إذا صاروا إلى باريهم، فالغرور أعمى بصائرهم،

خصوصًا حين رأوا النعمة بدل النقمة، والكثرة بدل القلة، والعمارة بدل الخراب، « قال الحسن- رحمه اللَّه-: والسبب في تأخر العذاب عنهم واستئصالهم، أن العذاب مشروط بأمرين: أحدهما أن عند اللَّه حدًّا من الكفر من بلغه عذَّبه. والثاني: أن اللَّه لا يعذب قومًا حتى يعلم أن أحدًا منهم لا يؤمن، فحينئذ يأمر أنبياءه فيدعون على أممهم فيستجيب اللَّه دعاءهم، فيعذبهم بعذاب الاستئصال، وهو المراد بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾(١) [يوسف، الآية:١١٠].

وأما المعرضون، فقد أخبر عنهم القرآن- أيضًا- في قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ حيث انصرفوا عن فطنة ما ذكروا به، ولم يهتدوا إلى تدارك أمرهم، فحينئذ بادر الحق- سبحانه- إلى فتح أبواب الخيرات على سبيل الاستدراج، وهو نظير قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف، الآيتان:٩٤،٩٥] فكان إحلال الخيرات بهم عساهم أن يتذكروا وكان هذا الابتلاء بالضر والخير ليستقصي لهم سببيْ التذكر والخوف(٢) .

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران، الآية:١٧٨] وهي الحقيقة التي ينبغي ألا تغيب عن الأذهان؛ لأنه إذا لم يرعووا، فإن الإثم المقترف إبان الإمهال، سيضاف إلى الآثام السابقة، فهو مقدر محسوب عليهم ولا يظنون أن بقاءهم فيه نفع، إنما هو من أجل أن يزدادوا مع آثامهم ليكون بعد ذلك أخذه- تَعَالَى- أليمًا شديدًا(٣) .

---

(١) انظر التفسير الكبير: ٤٤/٢٣.

(٢) انظر التحرير والتنوير: ٢٣٠/٧-٢٣١.

(٣) انظر التحرير والتنوير: ١٧٥/٤ وما بعدها.

فتبين من خلال هذه الإطلالة على أفناء الآيات، أن الاستدراج شأنه خطير، يخالف الابتلاء؛ لأن هذا الأخير يمس المؤمن والكافر، أما الاستدراج فهو نوع احتجاج غير مباشر شديد اللَّهجة، يسجل أضعافًا من الخطايا التي يبوء بها صاحبها، وهو مخصوص بطائفة آثرت المعاندة والمكابرة على الطاعة والانصياع.

* * *

المبحث السابع :

ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد

* ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام، الآية:١٦٤، الإسراء، الآية:١٥، فاطر، الآية:١٨، الزمر، الآية:٧، النجم، الآية:٣٨].

المطلب الأول :

ذكر بعض مظان ورودها تنصيصًا ودلالة

١- مظان ورودها لفظًا :

* في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام، الآية:١٦٤].

* في سورة الإسراء: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء، الآية:١٥].

* في سورة فاطر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر، الآية:١٨].

* في سورة الزمر: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزمر، الآية:٧].

* في سورة النجم: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [النجم، الآيتان:٣٧-٣٨].

٢- مظان ورودها معنى:

* في سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة، الآية:١٢٣]، وقوله- تعالى-: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة، الآية:١٣٤].

* في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام، الآية:٣١].

* في سورة النساء: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [النساء، الآية:١١١].

* في سورة النحل: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل، الآية:٢٥].

* في سورة الإسراء: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء، الآية:١٣]، وقوله- تعالى-: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء، الآية:٧].

* في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت، الآيتان:١٢،١٣].

* في سورة لقمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ﴾ [لقمان، الآية:٣٣].

* في سورة غافر: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر، الآية:٤٧].

* في سورة الدخان: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الدخان، الآية:٤١].

* في سورة عبس: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس، الآيات:٣٤-٣٧].

* في سورة الانفطار: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار، الآية:١٩].

* * *

المطلب الثاني :

فقه القاعدة

الوِزر- بكسر الواو-: الحمل الثقيل، يقال: وزر يزر: إذا حمل ما يثقل ظهره من الأشياء المثقلة ومن الذنوب.

والآثام تسمى أوزارًا؛ لأنها أحمال تثقل[١] «وتسمية الإثم وزرا؛ لأنه يتخيل ثقيلا على نفس المؤمن»[٢] .

ومعنى الآية: «أن وزر أحد لا يحمله غيره، فإذا كان قد تسبب بوزره في إيقاع غيره في الوزر، حُمِل عليه وزر بوزر غيره؛ لأنه متسبب فيه، وليس ذلك بحمل وزر الغير عليه، ولكنه حمل وزر نفسه عليها، وهو وزر التسبب في الأوزار»[٣] .

فكل أحد إنما يحاسب على نفسه لا عن غيره.

وبهذه الآية نزعت عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَليها- في الرد على من قال: إن الميت يعذب ببكاء الحي عليه[٤] «فكل نفس تزر وزر نفسها، فلا تبعة لأحد من وزر غيره من قريب أو صديق»[٥] .

* * *

(١) لسان العرب، مادة «وزر» ، وبصائر ذوي التمييز: ٢٠٣/٥، بصيرة في «وزر» .
(٢) التحرير والتنوير: ٢٠٨/٨.
(٣) التحرير والتنوير: ٥٠/١٤.
(٤) المحرر الوجيز ٢٧٠/١٠، وسيرد الكلام في هذا الحديث.
(٥) التحرير والتنوير: ٢٠٨/٨.

المطلب الثالث :

قيمتها

أ- تجلى عدل اللَّه في رحابها :

لقد رأينا من خلال هذه الآية القاعدة أن هذا الجزاء الجزري الذي أقامه القرآن مطبوع بطابع العدل، وموسوم بميسم الرحمة والرأفة، فقوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ نص على الضابط المتجلي في « فردية التبعة، وشخصية الجزاء، وهو مبدأ إسلامي كبير؛ لتحقيق العدل في أجلى مظاهره، وأفضل أوضاعه »[1] ، والواقع أن شخصية العقوبة وفردية التبعة، هو عين ما يقتضيه العدل ويمليه الإنصاف، فلا يصح في الأذهان أن يؤاخذ الفرد بجريرة غيره؛ إذ العقاب لم يشرع إلا لزجر مرتكب الجناية، ومؤاخذته على سوء ما اقترفه في جنب اللَّه وجنب المجتمع، فلو أن العقوبة سرت إلى غيره من الأبرياء- قريبًا أو بعيدًا- لعدَّ ذلك من المفاسد المضادة لحكمة تشريع هذه العقوبة، قال ابن القيم- رحمه اللَّه-: قوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ آيتان محكمتان، يقتضيهما عدل الرب- تَعَالَى- وحكمه، وكماله المقدس، والعقل والفطرة شاهدان بهما، فالأولى تقتضي أنه لا يعاقب بجُرم غيره، والثانية تقتضي أنه لا يفلح بعمله وسعيه، فالأولى تؤمن العبد من أخذه بجريرة غيره كما يفعله ملوك الدنيا، والثانية تقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه، كما هو عليه أصحاب الطمع الكاذب.

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٧٢٤/٥.

ونظيره قوله- تَعَالَى-: ﴿مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾ [الإسراء، الآية:١٥]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء، الآية:١٥] فحكم- سبحانه- لأعدائه بأربعة أحكام هي غاية العدل والحكمة:

أحدها: أن هدى العباد بالإيمان والعمل الصالح لنفسه لا لغيره.

الثاني: أن ضلاله بفوات ذلك وتخلفه عنه على نفسه لا على غيره.

الثالث: أن أحدًا لا يؤاخذ على جريرة غيره.

الرابع: أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد إقامة الحجة عليه برسله، فتأمل ما في ضمن هذه الأحكام الأربعة من حكمته- تَعَالَى- وعدله وفضله، والرد على أهل الغرور والأطماع الكاذبة، وعلى أهل الجهل بالله وأسمائه وصفاته(١).

وكذلك قوله- تَعَالَى-: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس، الآية:٥٤]، فهي من أصرح الآيات في الدلالة على نفي العقوبة بعمل الغير، حيث نفى الحق- تَعَالَى- أن يظلم أحد، فيزاد عليه في سيئاته، أو ينقص من حسناته، أو يعاقب بعمل غيره.

ومن صور العدل المسطرة في القرآن الكريم، النهي عن الإسراف في القتل، وتجاوز المقدار الذي يمليه الشرع، قال- تَعَالَى-: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء، الآية:٣٣]، فالسرف في الآية، يعني: أن يقتل غير القاتل، فسيقت الآية مساق التشريع للأمة، ومثلت مبدأً عظيمًا لصلاح المجتمع الإسلامي، وذلك بنبذ ما

---

(١) الروح، ص: ١٧٢-١٧٧٣.

كان على عهد الجاهلية من قتل الجماعة بالواحد؛ إذ إن أولياء المقتول، قلما يرضون بقتل القاتل، فيعمدون إلى الأخذ بالثأر وذلك بقتل أكثر من واحد، كما أنهم عرفوا بتكايل الدماء، فيجعلونها متفاوتة بحسب الشرف[١] .

ب- شموليتها :

حيث إنها أُثبتت في كل دين قويم، وعند كل ذي عقل سليم، فإذا كان قد تقرر في كلية الجزاء العظمى؛ أن القصد من الجزاء هو جلب المصالح ودرء المفاسد عن المكلف- وذلك لأجل الدفع نحو مجتمعات مستقيمة عادلة- فإنا رأينا أن المنهج القرآني في مجال التربية قد أقام بناءه على دعامتين أساسيتين قبل البلوغ إلى مرحلة الجزاء وهما:

- الوازع الخلقي، الذي يعتبر ضرورة حتمية، قال ﷺ : «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[٢] ، هذا الوازع الذي لا ريب أنه ينبثق من الإيمان، والحافز إليه هو الترغيب الذي يعتبر أحد شقي هذه الدعامة.

- الإجراء الجزري، وذلك عند الجانب السلبي من الجزاء، وهو الذي يتمثل فيه جانب الترهيب.

وهذا الإصلاح تناوله القرآن فيما أوحاه اللَّه- تَعَالَى- إلى إبراهيم أبي الأنبياء، ثم من بعده من الذين ساروا على ملته، قال- تَعَالَى-: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ٩٤/١٤ بتصرف يسير.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٥١٠/٦ (كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٥٤).

(٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١)﴾[(١)] [النجم، الآيات: ٣٥-٤١].

ولو تأملنا السياق من أوله إلى آخره، فإنه كالصريح في إرادة العموم لقوله- تَعَالَى- : ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١)﴾ وهو عام في الخير والشر قطعًا، ويتناول البر والفاجر، والمؤمن والكافر؛ كقوله في الحديث القدسي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[(٢)]، قال ابن القيم في قوله- تَعَالَى-: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩)﴾: «لا تغترَّ بقول كثير من المفسرين في لفظ الإنسان في القرآن: الإنسان ها هنا أبو جهل، والإنسان ها هنا: عقبة بن أبي معيط، والإنسان هاهنا: الوليد بن المغيرة، فالقرآن أجل من ذلك، بل الإنسان هو الإنسان من حيث هو من غير اختصاص بواحد بعينه؛ كقوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ (٢)﴾ [العصر، الآية:٢]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ (٦)﴾ [العاديات، الآية:٦]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩)﴾ [المعارج، الآية:١٩]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق، الآية:٦]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم، الآية:٣٤]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب، الآية:٧٢]، فهذا الإنسان من حيث ذاته ونفسه وخروجه عن هذه

---

(١) ولقد وجدنا من العلماء من تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩)﴾ بتأويلات بعيدة تارة بدعوى النسخ وتارة بدعوى كونهما من شريعة إبراهيم وموسى لا من شرعنا وتارة بتخصيصهما بالكفار دون المسلمين، وغفلوا كون مضمونهما من قواعد الدين وأصول الإسلام الثابتة على ألسنة جميع الرسل مؤيدًا بآيات كثيرة بلفظها ومعناها، كما أثبتناه تحت عنوان: «مظان ورود القاعدة»، وانظر هذه التأويلات في تفسير التحرير والتنوير ١٣٣/٢٧.

(٢) صحيح مسلم: ١٧/٨ (كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم...).

الصفات بفضل ربه وتوفيقه له ومنته عليه لا من ذاته، وما به من نعمة فمن اللّه وحده[١] .

فتكون آيات النجم- إذًا- ناصة على أن أصل دين اللّه- تَعَالَى- لجميع رسله هو أنه لا تحمل نفس خاطئة خطيئة نفس أخرى، بفداء ولا غيره، فلا يُجزىَ بعمل غيره أحد ولا ينفعه عمل غيره ولا يضره.

وهذا مما كان في صحف إبراهيم، وقد قصَّ اللّه عنه في القرآن- أيضًا-: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء، الآيات:٨٧،٨٩]، وحكى اللّه عن موسى- عليه السلام- قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف، الآية:١٥٥]، وفي التوراة: (لايقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يُقتل)[٢] ، ولذلك قال الحق- سبحانه وتعالى- لبني إسرائيل: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٨﴾ [البقرة، الآية:٤٨]، مريدًا بذلك انتزاع عقيدة رسخت في صدورهم، وتمكنت من عقولهم، وذلك؛ لأنهم «توهموا أن نسبتهم إلى الأنبياء وكرامة أجدادهم عند اللّه كفيلة بأن تقيهم العذاب، وقد أشير إلى هذا التوهم في غير ما آية من ذلك قوله- تَعَالَى-: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة، الآية: ١٨]، فجاء الجواب أنه لا غناء لأحد كائنًا من كان على أحد، وذلك في طيات قوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾؟ ونظيره قوله- تَعَالَى-: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الإنفطار، الآية:١٩]؛ إذ لا تقدر نفس على شيء لأجل نفس أخرى، «وعموم لفظ نفس الأولى والثانية في سياق النفي يقتضي عموم الحكم في كل نفس»[٣] كل ذلك روعي فيه إبطال أوهام القوم، حيث ظنوا أن أوزارهم محمولة

(١) الروح، ص:١٧٠.
(٢) سفر التثنية إصحاح: ٢٤.
(٣) التحرير والتنوير: ١٨٥/٣٠.

عنهم فبين سبحانه- إبطال ذلك إنقاذًا لكل من غرتهم أنسابهم، وحسبوها ملجأً وملاذًا، وبذلك اعتبرت هذه الآية- كما قال ابن عاشور رحمه اللَّه- أصلًا عظيمًا في التشريع وتفرع عنها أحكام كثيرة[١] .

ج- دفع إيهام التعارض :

إذا ثبت أنَّ هذه الآية قاعدة، كما هو منصوص عليه في القرآن، فكيف ببعض الآيات التي قد يظن أنها معارضة من ذلك قوله- تَعَالَى-: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت، الآية:١٢]، وقوله- تَعَالَى-: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل، الآية:٢٥]، وكذلك بعض الأحاديث منها:

- ما رواه مسلم- رحمه اللَّه- في صحيحه عن جرير بن عبد اللَّه- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: جاء ناس من الأعراب إلى رسول اللَّه ﷺ عليهم الصوف فرأى سوء حالهم، وقد أصابتهم حاجة، فحث الناس على الصدقة فأبطأوا عنه حتى رؤي ذلك في وجهه، قال: ثم إن رجلًا من الأنصار جاء بصرة من ورق، ثم جاء آخر، ثم تتابعوا حتى عرف السرور في وجهه، فقال ﷺ : « من سن في الإسلام سنة حسنة فَعُمِل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء »[٢] .

---

(١) التحرير والتنوير: ١٥/٥٠.
(٢) صحيح مسلم: ٨٧/٣ (كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة).

- ما رواه الإمام أحمد- رحمه اللَّه- عن أبي هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن رسول اللَّه ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه مِثل الإثم من آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»[١] .

- ما جاء في كتابه ﷺ الذي وجّهه إلى هرقل عظيم الروم يدعوه إلى الإسلام، وفيه: «فإن توليتَ فإن عليك إثم الأريسيين»[٢] .

- ما جاء في صحيح البخاري عن عمر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن النبي ﷺ قال: «إن الميتَ ليعذب ببكاء الحي»[٣] .

---

(١) مسند أحمد: ٢/٥٠٥.

(٢) مسند أحمد: ١/٢٦٣.

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٣/١٥٢ (كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ : «يعذب الميت ببكاء أهله عليه» وحديث تعذيب الميت ببكاء أهله ذهب العلماء فيه مذاهب شتى رأينا أن نعرضها من خلال ما ساقه ابن حجر في كتابه الفتح مراعين في ذلك الاقتضاب وإليك ما قاله ابن حجر: «منهم من حمل هذا الحديث على ظاهره كما جاء في حديث أبي بردة عن أبيه قال: «لما أصيب عمر- رضي اللَّه عنه- جعل صهيب يقول: ما أخاه، فقال عمر: أما علمت أن النبي ﷺ قال: إن الميت ليعذب ببكاء الحي»؟، ويحتمل أن يكون عمر يرى أن المؤاخذة تقع على الميت إذا كان قادرًا على النهي ولم يقع منه، فلذلك بادر إلى نهي صهيب».
ومنهم من رد الحديث وعارضه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وممن روي عنه الإنكار مطلقا أبو هريرة- رضي اللَّه عنه- «واللَّه لئن انطلق رجل مجاهد في سبيل اللَّه فاستشهد فعمدت امرأة سفهًا وجهلاً فبكت عليه ليعذبن هذا الشهيد بذنب هذه السفيهة»!
ومنهم من أوّل فقال في قوله ﷺ : «ببكاء أهله» الباء هنا للحال أي أن مبدأ عذاب الميت يقع عند بكاء أهله عليه، فكان معنى الحديث: أن الميت يعذب حالة بكاء أهله عليه ولعل قائل هذا إنما أخذه من قول عائشة-رضي اللَّه عنها-: «إنما قال رسول اللَّه ﷺ : إنه ليعذب بمعصيته أو بذنبه وإن أهله ليبكون عليه الآن». صحيح مسلم: ٣/ ٤٤ (كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه).
=

- ما جاء في صحيح البخاري- أيضًا- من قوله ﷺ : «لا تقتل نفس ظلمًا، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها»[١] .

- ما نصَّت عليه بعض القواعد المتفق عليها، أو كالمتفق عليها[٢] ، «كقاعدة الصدقة عن الغير، وهي عبادة؛ لأنها إنما تكون صدقة إذا قصد بها وجه اللَّه- تَعَالَى-، وامتثال أمره، فإذا تصدق الرجل عن الرجل أجزأه ذلك عن المتصدق عنه، وانتفع به

= ومنهم من أوّله على أن الراوي سمع بعض الحديث ولم يسمع بعضه وأن اللام في «الميت» لمعهود معين وحجة هؤلاء، رواية عمرة بنت عبدالرحمن -رضي اللَّه عنها - أنها سمعت عائشة-رضي اللَّه عنها - قالت: «إنما مر رسول اللَّه ﷺ على يهودية يبكي عليها أهلها، فقال: إنهم ليبكون عليها، وإنها لتعذب في قبرها» صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٣/ ١٥٢ (كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ : يعذب الميت ببكاء أهله عليه).

ومنهم من أوّله على أن ذلك مختص بالكافر وأن المؤمن لا يعذب بذنب غيره أصلا وهو الظاهر من رواية عبداللَّه بن عباس عن عائشة - رضي اللَّه عنهم - قال: «فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة - رضي اللَّه عنها - فقالت: رحم اللَّه عمر واللَّه ما حدث رسول اللَّه ﷺ أن اللَّه ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه ولكن رسول اللَّه ﷺ قال: إن اللَّه ليزيد الكافر بعذاب أهله عليه» نفسه.
ومن الناس من ذهب إلى أن قوله: «يعذب الميت ببكاء أهله» أي بنظير ما يبكيه أهله به من تعداد لمناقب ليست فيه فيمدح بما ليس فيه أو بما هو منهي عنه.
وقيل: إن التعذيب الذي يعذب به، هو توبيخ الملائكة له بما يندبه أهله.
وقيل: إنه التألم الذي يحصل له بما يقع من أهله من النياحة، وقد رجح هذا القول صفوة من العلماء كالطبري، والقاضي عياض ونصره ابن تيمية وجماعة من المتأخرين، واستشهد لهذا التأويل بحديث قيلة بنت مخرمة قلت: يا رسول اللَّه! لقد ولدته فقاتل معك يوم الربذة، ثم أصابته الحمى فمات ونزل علي البكاء، فقال رسول اللَّه ﷺ : أيغلب أحدكم أن يصاحب صويحبه في الدنيا معروفًا وإذا مات استرجع فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليبكي فيستعبر إليه صويحبه، فيا عباد اللَّه لا تعذبوا موتاكم قال ابن حجر - رحمه اللَّه - نقلًا عن ابن المرابط - رحمه اللَّه-: حديث قيلة هذا نص في المسألة فلا يعدل عنه فتح الباري: ٣/ ١٥٠-١٥٣ والفروق ٢/ ١٧٦و١٨٢ .

(١) نفسه.
(٢) المسألة خلافية كما نصَّ عليها ابن القيم، انظر إعلام الموقعين.

ولا سيما إن كان ميتًا، فهذه عبادة حصلت فيها النيابة، ويؤكد ذلك ما كان من الصدقة فرضًا، كالزكاة فإن إخراجها عن الغير جائز وجاز عن ذلك الغير »[١] .

فهذه النصوص القرآنية والحديثية مع القاعدة المذكورة، وكذا القاعدة تنص على أن الإنسان لا يؤاخذ بفعل غيره، وهي قاعدة صحيحة[٢] ، مما يتوهم أنه معارض للقاعدة القرآنية بحيث يتوجه السؤال إلى الآيتين، فيقال: ما وجه تحملهم أوزار الغير؟

والجواب : أن رؤساء الضلال وقادته تحملوا وزرين :

أحدهما : وزر ضلالهم في أنفسهم.

الثاني : وزر إضلالهم غيرهم، وإنما أوخذوا بعمل غيرهم؛ لأنهم هم الذين تسببوا فيه فعوقبوا عليه من هذه الجهة، فصار غير مناف للآيتين، فليس- إذًا- حمل المتسبب في وزر غيره حملًا زائدًا على وزره، ولكنه من قبيل زيادة العقاب لأجل تضليل الغير[٣] .

أما الأحاديث، فالمتأمل فيها يلحظ أن المسألة من حيث الجملة لا تعدو ما قيل في الآيتين، إذ الأمر متعلق بالتسبب- أيضًا-، ألا ترى أن البخاري- رحمه اللَّه-، حين أورد حديث: « لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها » عقّب بقوله: « إن كان ذلك من سنته » وهو مظهر من مظاهر فقهه- رحمه اللَّه- في أثناء تبويبه.

ومثل هذا يقال في حديث تعذيب الميت ببكاء أهله عليه، فقد ذيل الباب بقوله: « إن كان النوح من سنته ».

---

(١) الموافقات: ٥٢٦/١.

(٢) الفروق: ١٧٦/٢.

(٣) انظر أضواء البيان: ٢٥٥/٣-٢٥٦ وأنوار التنزيل ١٣٦/٤.

قال الشاطبي- رحمه الله-: « وحديث تعذيب الميت ببكاء الحي ظاهر حمله على عادة العرب في تحريض المريض- إذا ظن الموت- أهله على البكاء عليه، وأما حديث: « من سن سنة »، وحديث: « ابن آدم الأول »، وحديث: « انقطاع العمل إلا من ثلاث » وما أشبه ذلك، فإن الجزاء فيها راجع إلى عمل المأجور أو المأزور؛ لأنه الذي تسبب فيه أولا، فعلى جريان سببه تجري المسببات، والكفل الراجع إلى المتسبب ناشئ عن عمله لا عن عمل المتسبب الثاني. وإلى هذا المعنى يرجع قوله- تَعَالَى-: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور، الآية:٢١]؛ لأن ولده كسب من كسبه، فما جرى عليه من خير فكأنه منسوب إلى الأب، وبذلك فسر قوله- تَعَالَى-: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ [المسد، الآية:٢]، أن ولده من كسبه، فلا غرو أن يرجع إلى منزلته وتقر عينه به، كما تقر عينه بسائر أعماله الصالحة، وذلك قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾(١) .

ومن هاهنا يكون استدلال عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- بالقاعدة القرآنية موافقًا لهذا التقييد- الذي هو التسبب- ويكون إنكارها حينئذ محمولًا على إنكار عموم التعذيب لكل ميت بُكِي عليه، وقد وقفنا على بعض الروايات المعضدة لهذا المنحى؛ منها ما رواه عامر بن سعد- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن أبي مسعود الأنصاري- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قال: « رُخِّص لنا في البكاء عند المصيبة في غير نوح »(٢) ، وقال عمر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لمن منع نسوة بني المغيرة اللاتي أردن البكاء على خالد بن الوليد- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: « دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة »(٣) .

---

(١) الموافقات: ٥٣٠/١.

(٢) المستدرك: ٣٨٣/١ (كتاب الجنائز، باب استثناء النياحة).

(٣) فتح الباري: ١٦٠/٣. والنقع: وضع التراب على الرءوس، واللقلقة: الصوت. النهاية في غريب الحديث والأثر: ١٠٩/٥.

أما كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل، فإنه يفيد أن توليه ينشأ عنه تولي أمته، فيكون بذلك قد فتح لهم باب الضلال، ونهج لهم الطريق إليه.

وأما قاعدة الصدقة عن الغير، فإن من العلماء من لم يجعلها في عداد العبادات واعتبر أنها ليست من هذا الباب، وإنما هي من قبيل التصرفات المالية[١] .

فهذه الأحاديث والآثار دالة على أن المكلف لا يعذب بفعل غيره ما لم يكن متسببا في ذلك، وهو قول عامة أهل العلم كما نقله ابن حجر في الفتح، وكذا نقله النووي عن الجمهور[٢] . وبه قال ابن القيم كما نصَّ عليه في كتابه الروح[٣] .

* * *

(١) انظر الموافقات: ٥٢٩/١.

(٢) انظر فتح الباري: ١٦٠/٣.

(٣) انظر الروح، ص: ١٥٩.

المطلب الرابع :

تطبيقات

النيابة في التعبدات الشرعية ولحوق ثواب الأعمال إلى غير عاملها.

أ- النيابة في التعبدات الشرعية :

وهي صورة تستدعي تبيان محل هذه النيابة؛ «لأن المطلوب الشرعي إما أن يكون من قبيل العاديات الجارية بين الخلق في الاكتساب، وسائر المحاولات الدنيوية كالعقود على اختلافها والتصاريف المالية على تنوعها، فالنيابة في هذا صحيحة ما لم يكن مشروعًا لحكمة موقوفة على ذلك المكلف بعينه عادة وشرعًا؛ كالأكل، واللبس، والشراب، والسكن والنكاح- وأحكامه التابعة له من وجوه الاستمتاع التي لا تصح النيابة فيه شرعًا- وإما أن يكون من قبيل العبادات اللازمة للمكلف من جهة توجهه إلى خالقه المعبود»[(١)] ، وفي هذا يقول ابن عاشور- رحمه اللّه-: «ومما يجب تقديمه أن التكاليف الواجبة على العين فرضًا أو سنة مرتبة، المقصد من مطالبة المكلف بها ما يحصل بسببها من تزكية نفسه ليكون جزءًا صالحًا، فإذا قام بها غيره عنه فات المقصود من مطالبة أعيان المسلمين بها، وكذا اجتناب منهيات لا تتصور فيها النيابة، فهذا النوع ليس للإنسان فيه إلا ما سعى، ولا تجزئ فيه نيابة عنه في أدائها»[(٢)] .

وفي موضع آخر يقول: «فأما ما هو منها- أي من شرائع الإسلام الواجبة- من عمل الأبدان فليس للإنسان إلا ما سعى منه، ولا يجزئ عنه سعي غيره؛ لأن المقصود

(١) الموافقات: ٥٢٣/١-٥٢٤ بتصرف يسير.

(٢) التحرير والتنوير: ١٣٥/٢٧.

من الأمور المطالب بها المرء بنفسه، هو ما فيها من تزكية النفس وارتياضها على الخير، ما لم تكن هذه القربات غير معينة بالطلب، والقصد منها تكثير الخير في جماعة المسلمين بالأعمال والأقوال، فإن هذا الاعتبار لا تفيته النيابة »[١] ؛ لأنه لو صحت النيابة في الأعمال البدنية لعذي ذلك إلى الأعمال القلبية؛ كالإيمان، مما يفضي إلى جعل التكاليف غير محتومة على المكلف عينًا، وهو باطل باتفاق[٢] ؛ ولأن التكاليف ما هي إلا ابتلاءات غير قابلة للبدل، والمقصود منها المكلف العامل المنهي، فلا بدل للمكلف الممتحن بغيره، ولا ينوب غيره عنه في ذلك، وكيف يتم ذلك والمراد طاعته هو، وعبوديته هو، والقرآن قد حكم أنه لن ينتفع إلا بسعيه، وهذه سنة اللَّه أجراها على خلقه، ولو نفعه عمل غيره لنفعته توبته عنه، ولكن اللَّه- تَعَالَى- لا يقبل إسلام أحد عن أحد، ولا صلاته عن صلاته »[٣] ، وهو ما نقله ابن الفرس في الأحكام ونصَّ على أنه مجمع عليه[٤] .

والأدلة على ألا نيابة في العبادات البدنية والقلبية، هي جماع القاعدة وفيها يقول الشاطبي- رحمه اللَّه-: « وهي كلها عمومات لا تحتمل التخصيص؛ لأنها محكمات نزلت بمكة احتجاجًا على الكفار وردًّا عليهم في اعتقادهم حمل بعضهم على بعض، ولو كانت تحتمل الخصوص، لم يكن فيها رد عليهم، ولما قامت عليهم بها حجة »[٥].

ولكنا وجدنا من النصوص ما يعارض هذه الآدلة، حيث نصت على جواز النيابة في العبادات، واكتساب الأجر والثواب من الغير وعلى من يعمل، ومن هذه النصوص:

---

(١) نفسه بتصرف يسير.

(٢) انظر الموافقات: ٥٢٤/١.

(٣) انظر الروح، ص: ١٦٧/١٦٨.

(٤) انظر أحكام القرآن: ٦٥/١ (بحث مرقوم).

(٥) الموافقات: ٥٢٤/١.

* **ما ورد في شأن الحج:**

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: «أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: نعم حجي عنها، أرأيتِ لو كان على أملكِ دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء[1].

ما أخرجه الإمام مالك في الموطإ من حديث عبد الله بن عباس- أيضًا-: «أن امرأة من خثعم سألت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله! إن فريضة الله في الحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال نعم» وذلك في حجة الوداع[2].

* ما رواه أبو داود من حديث عبد الله بن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: «أن رجلًا قال: يا رسول الله! إن أمي توفيت أفينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: نعم».

* ما رواه- أيضًا- عن عبد الله بن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: أن سعد بن عبادة استفتى رسول الله ﷺ، فقال: إن أمي ماتت وعليها نذر لم تقضه، فقال: اقض عنها[3].

* ما أخرجه أبو داود- أيضًا- عن عروة عن عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أن النبي ﷺ قال: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»[4].

فكانت هذه الأخبار مجالًا لأنظار الفقهاء في الجمع بينها وبين الآية القاعدة أو الأخذ بظاهر الآية، والاقتصار على نوع ما ورد فيه الإذن من النبي ﷺ أو القياس.

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ٦٤/٤ (كتاب جزاء الصيد، باب الحج والنذور عن الميت..).
(٢) المسوى شرح الموطأ ٤٠٥/١ (كتاب الحج، باب الحج عمن لا يستطيع أن يثبت على الراحلة).
(٣) معالم السنن شرح سنن أبي داود ٦٠/٤-٦١ (كتاب النذر، باب النذر على الميت).
(٤) معالم السنن شرح سنن أبي داود: ٦١/٤ (كتاب النذر، باب من مات وعليه صيام).

أما حديث النيابة في الحج، فقد نقل ابن العربي- رحمه الله- في الأحكام أنه قول جماعة من المتقدّمين، وهو اختيار الشافعي من المتأخرين، وأبى ذلك الحنفية والمالكية، قال- رحمه الله-: «وهم فيه أعدل قضية، فإن المقصود من الحديث الحثّ على بر الوالدين، والنظر في مصالحهم دينًا ودنيا، وجلب المنفعة إليها جبلة وشرعًا، فإنه رأى من المرأة انفعالًا بينا وطواعية ظاهرة ورغبة صادقة في برِّ أبيها، وتأسفت أن تفوته بركة الحج ويكون عن ثواب هذه العبادة بمعزل، وطاعت بأن تحج عنه فأذن لها النبي ﷺ فيه»[١] ، واختيار المالكية ناجم عن كون ظاهر حديث الخثعمية مخالفًا لظاهر القرآن، فرجحوا ظاهر القرآن- كما نقله ابن حجر عن القرطبي-[٢] ، وهوما نقل عن الإمام مالك- رحمه الله- فإنه سئل عن الصلاة والصيام والحج، فقال: «أما الصلاة والصيام والحج فلا نرى ذلك»[٣] ، وقال في المدونة: «يتطوع عنه بغير هذا أحب إليَّ: يهدي عنه أو يتصدق عنه أو يعتق عنه».

وعقَّب الباجي على ما جاء في المدونة بقوله: «ففصل بينهما وبين النفقات»[٤] ولا يتنافى ما ذكره الإمام مالك مع ما نقل عنه؛ من أن الميت إذا أوصى بالحج عنه، نفذت وصيته؛ لأنه يرى ذلك من قبيل سعي الميت[٥] .

ومن ثم اعتبر مالك- رحمه الله- ومن تبعه ممن جعلوا العبادات ثلاثة أقسام: مالية، وبدنية، ومركبة منهما:

- فَقِسْم البدنية لا تدخله النيابة بحال؛ كالإسلام والصلاة والصيام- كما سنراه- فهو قسم يختص ثوابه بفاعله لا يتعداه ولا ينقل عنه، كما أنه في الحياة لا يفعله أحد

---

(١) أحكام القرآن: ٢٨٩/١.

(٢) انظر فتح الباري: ٧٠/٤.

(٣) التحرير والتنوير: ١٣٦/٢٧.

(٤) نقلاً عن المرجع السابق.

(٥) نفسه: ١٣٦/٢٧.

عن أحد ولا ينوب فيه عن فاعله غيره.

- وقسم المالية تدخله النيابة؛ كرد الودائع، وأداء الديون، وإخراج الصدقة.

- وقسم مركب من المالية والبدنية، ومنها الحج، ومن ها هنا ساغ لابن العربي- رحمه الله- القول بجواز حج الغير عن الغير حيث علل بقوله: «لأنها عبادة بدنية مالية، والبدن وإن كان لا يحتمل النيابة، فإن المال يحتملها، فروعي في هذه العبادة جهة المال، وجازت فيه النيابة»[١] .

ومن العلماء من نظر إلى الطاعات المفروضة ففرق بينها وبين النذور فرأى أن النذور جائزة فيها النيابة دون الفرائض، «وسرُّ الفرق أن النذر: التزام المكلف لما شغل به ذمته لا أن الشارع ألزمه به ابتداء، فهو أخف حكما مما جعله الشارع حقًّا له عليه شاء أم أبى، والذمة تسع المقدور عليه، والمعجوز عنه؛ ولهذا تقبل أن يشغلها المكلف بما لا قدرة له عليه، بخلاف واجبات الشرع فإنها على قدرة طاقة البدن، لا تجب على عاجز، فواجب الذمة أوسع من واجب الشرع الأصلي؛ لأن المكلَّفَ متمكنٌ من إيجاب واجبات كثيرة على نفسه لم يوجبها عليه الشارع، والذمة واسعة وطريق أداء واجبها أوسع من طريق أداء واجب الشرع، فلا يلزم من دخول النيابة في واجبها بعد الموت دخولها في واجب الشرع، وهذا يبين أن الصحابة أفقه الخلق وأعمقهم علمًا، وأعرفهم بأسرار الشرع ومقاصده وحكمه»[٢] .

وأما حديث التصدق فقد رأينا أن بعض العلماء لم يعتبر ذلك من العبادات وإنما عدَّه من قبيل التصرفات[٣] .

---

(١) أحكام القرآن: ٢٨٩/١.

(٢) عون المعبود: ٣٨/٧ (كتاب الصيام. باب من قال: يصوم عنه وليه).

(٣) انظر الموافقات: ٥٢٩/١.

أما أحاديث الصيام فإن الجواب عنها من وجوه:

* ما روته عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: «لا تصوموا عن موتاكم وأطعموا عنهم»(١)، وقد حاول الخطابي- في معالم السنن- توجيه الحديث فرأى أنه يحتمل وجهين: أحدهما: مباشرة الصيام- وهو ما ذهب إليه قوم من أصحاب الحديث- والوجه الآخر: أن يكون معناه الكفارة، فعبّر بالصوم عنها؛ لأنها كانت بدلًا عنه، قال- رحمه الله-: وعلى هذا قول أكثر الفقهاء(٢) ، وفي مقام آخر نجده يتأول بعض ألفاظ الحديث فيقول: «فإذا فعل ذلك- أي الإطعام- فكأنه قد صام عنه، وسمى الإطعام صيامًا على سبيل المجال والاتساع؛ إذ الطعام ينوب عنه، وقد قال- سبحانه-: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة:٩٥]، فدل على أنهما يتناوبان(٣) ، وبمثله يتأول الماوردي الحديث، فيقول: «وهو نظير قوله: «التراب وضوء المسلم إذا لم يجد الماء» فسمى البدل باسم المبدل، فكذلك هنا(٤) .

* ما رواه ابن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي ﷺ قال: «لا يصلي أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن آخر، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مُدًّا من حِنْطَة»(٥) ، فهو كالمنقول عن عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- وإن كان حديثها مطلقًا، وهذا مقيد-.

قال صاحب عون المعبود: «ويكون المراد بالصيام صيام النذر»(٦) ، وبهذا يظهر اتفاق الروايتين، وموافقة فتاوى الصحابة لها، وهو مقتضى الدليل والقياس؛ لأن النذر ليس واجبًا بأصل الشرع، وإنما أوجبه العبد على نفسه فصار بمنزلة الدين الذي

---

(١) السنن الكبرى: ٢٥٧/٤ (كتاب الصيام، باب من قال يصوم عنه وليه).
(٢) معالم السنن: ٦١/٤.
(٣) معالم السنن: ١٢٢/٢.
(٤) فتح الباري: ١١٤/٤.
(٥) نقله ابن حجر انظر فتح الباري: ١٩٤/٤.
(٦) عون المعبود: ٣٧/٧.

استدانه؛ ولهذا شبهه الرسول ﷺ بالدَّين في حديث ابن عباس، والمسئول عنه فيه أنه كان صوم نذر، والدين تدخله النيابة، وأما الصوم الذي افترضه عليه ابتداء فهو أحد أركان الإسلام، فلا تدخله النيابة بحال كما لا يدخل الصلاة والشهادتين، فإن المقصود منها طاعة العبد بنفسه، وقيامه بحق العبودية التي خلق لها وأمر بها، وهذا الأمر لا يؤديه غيره كما لا يُسْلم عنه غيره ولا يصلي عنه غيره[١] ، «وهو قول الإمام الشافعي في الجديد والإمامين مالك وأبي حنيفة»[٢] .

* «أن هذه الأحاديث معارضة بالقياس على الصلاة والإسلام والتوبة فإن أحدًا لا يفعلها عن أحد»[٣] .

ب- لحوق ثواب الأعمال إلى غير عاملها:

وهي من متممات الصورة، وقد أجمع العلماء- كما نقله ابن القيم-[٤] على أن الميت يلحقه سعي الحي وينتفع به وذلك في أمرين:

١- ما تسبب إليه الميت أثناء حياته؛ كانتفاع الوالدين المؤمنين ببعض أعمال أولادهم بالتبع والسببية، وقد قال ﷺ : «أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وولده من كسبه»[٥] ، كما أنه أجاب من ذكر له: أن والده يريد ماله بقوله ﷺ : «أنت ومالك لأبيك»[٦] ، وقد ورد أن اللَّه- تَعَالَى- يرفع درجة

---

(١) انظر عون المعبود: ٣٨/٧.
(٢) فتح الباري: ١٩٤/٤.
(٣) الروح، ص: ١٦٩.
(٤) انظر الروح، ص: ١٥٩.
(٥) سنن الدارمي: ٢٤٧/٢ (كتاب البيوع، باب في الكسب وعمل الرجل بيده).
(٦) انظر نصه في سنن ابن ماجة: ٧٦٩/٢ (كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده).

الرجل في الجنة «فيقول: أنى هذا؟، فيقال: باستغفار ولدك لك»[١] ، قال صاحب المنار: «وأحاديث الصدقة من الولد تلحق الوالدين بعد موتهما بدون وصية منهما، ويصل إليهما ثوابهما، فتكون هذه النصوص الثابتة مخصصة قوله- تَعَالَى-: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم،الآية:٣٩]، وقد ثبت أن ولد الإنسان من سعيه فلا حاجة إلى التخصيص»[٢] .

ومسألة التسبب لا ينبغي حصرها في الأولاد؛ لأن من النصوص ما يدل على عدم هذا التقييد، كما في عموم انتفاع «من سن في الإسلام سنة حسنة فعُمِل بها بعده كتب له من مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيء»[٣] .

«ومن ثَمَّ يعلم أن ثواب الأعمال ليس أعيانًا مملوكة للعامل يتصرف فيها كيف يشاء بل هو جزاء من فضل اللَّه- تَعَالَى- وهو نوعان:

* ما يكون مرتبًا على تأثير الأعمال في تزكية النفس مباشرة وهو ما بينّاه آنفًا.

* ما يترتب على الأعمال التي يتعدى فيها النفع إلى غير العامل، كالصدقة الجارية والعلم الذي يبث في صدور الناس، والولد الصالح الذي يدعو له والسنة الحسنة وهو ما نحن بصدد الحديث عنه.

٢- الأمر الثاني، وهو الذي منه دعاء المسلمين واستغفارهم له، والدليل على انتفاعه بمثل هذا قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر، الآية:١٠]، قال ابن القيم- رحمه اللَّه-: «فأثنى اللَّه- سبحانه وتعالى- عليهم باستغفارهم

(١) سنن ابن ماجة: ١٢٠٦/٢ (كتاب الأدب، باب بر الوالدين).

(٢) تفسير المنار: ٢٦٤/٨ بتصرف يسير.

(٣) صحيح مسلم: ٨٧/٣ (كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة).

للمؤمنين قبلهم، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء»[١] ، وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يقول: صلَّى رسول الله ﷺ على جنازة، فحفظتُ من دعائه وهو يقول: اللَّهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسّع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلًا خيرًا من أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدْخِله الجنة وأعذه من عذاب القبر، أو من عذاب النار، قال: حتى ذلك تمنيت أن أكون الميت[٢] ، ودعا رسول اللَّه ﷺ لأهل البقيع بقوله: «السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم اللَّه المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء اللَّه بكم للاحقون»[٣] .

وقد أمر ﷺ بالدعاء للميت، فعن عثمان بن عفان- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت، وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل»[٤] ، ودعاء النبي ﷺ للأموات فعلًا وتعليمًا، ودعاء الصحابة والتابعين والمسلمين عصرًا بعد عصر، أكثر من أن يذكر، وأشهر من أن ينكر[٥] .

* * *

(١) الروح، ص: ١٦١.
(٢) صحيح مسلم: ٥٩/٣ (كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت في الصلاة).
(٣) صحيح مسلم: ٦٤/٣.
(٤) سنن أبي داود: ٤٩٦/٨ (كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت).
(٥) انظر الروح، ص: ١٦١، ١٦٢.

الفصل الثالث :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

المبحـــث الأول : حول السنن الكونية

المبحث الثـانـي : نماذج منها في القرآن الكريم

المبحث الثالـث : بسط بعض مظان كلية التغيير

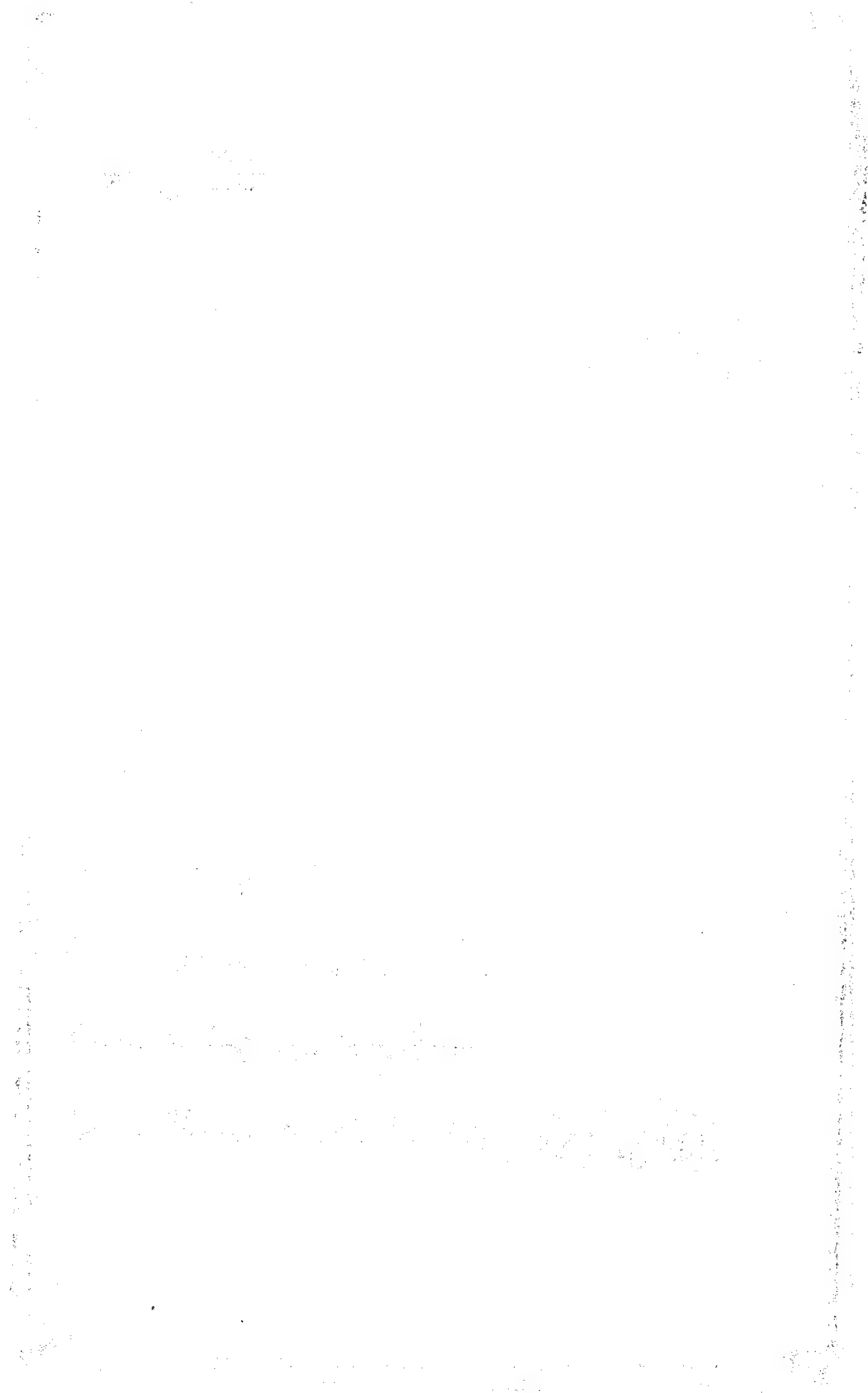
المبحث الرابــع : فقهها

المبحث الخامس : قيمتها

المبحث السادس : من مقومات التغيير

المبحث السـابـع : من عوائق التغيير

المبحث الثامــن : ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد



المبحث الأول :

حول السنن الكونية

المطلب الأول :

مفهوم السنة الكونية

لقد وردت لفظة « السنة » في القرآن الكريم- بالإفراد والجمع- مضافة إلى اللَّه- تعَالَى- أحيانًا كما في قوله- تَعَالَى-: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ۝٦٢﴾ [الأحزاب، الآية:٦٢]، وفي قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء، الآية:٧٧]، وأحيانًا تَرِد مضافة إلى أنبياء اللَّه كما في قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ﴾ [الإسراء، الآية:٧٧]. وقد تجيء مضافة إلى الأولين أو الذين من قبل، ومنه قوله- تَعَالَى-: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٢٦﴾ [النساء، الآية:٢٦]، وسواء أضيفت السنن إلى اللَّه، أو إلى غيره، فهي عائدة إليه سبحانه، فهو خالقها وفاعلها « وإضافتها إلى الأولين، باعتبار تعلقها بهم وإنما هي سنة اللَّه فيهم »(١) ، لذلك فإن التعريف سيتناول المركب الإضافي الذي هو « سنة اللَّه ».

جاء في اللسان: السنة: الطريقة، والسنن أيضًا.. وفي التهذيب، السنة: الطريقة المحمودة المستقيمة، ولذلك قيل: فلان من أهل السنة أي من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة ... وهي في الأصل: سنة الطريق وهو طريق سنَّهُ أوائل الناس، فصار مسلكًا لمن بعدهم، وسنَّ فلانٌ طريقًا من الخير يسنه، إذا ابتدأ أمرًا من البر، لم يعرفه قومه

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٥/١٤.

فاستنُّوا به وسلكوه[١] .

فمدار الكلمة- إذًا- على معنى الطريقة المسلوكة أو المتبعة. وبذلك تكون سنة اللَّه هي: طريقته المتبعة في معاملته- تَعَالَى- للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع اللَّه وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة[٢] ، أو «العادة المألوفة التي تتضمن أن يفعل في الثانية مثلما فعل بنظيره الأول»[٣] ،وقد يخبرنا- عَزَّ وَجَلَّ- عن السنن بغير لفظها، كأن يعبر بتقرير نتيجة معينة، حصولها مرتبط بأسباب أو شروط معينة، فيكون هذا الإخبار بهذه الصيغ إخبارًا عن سنة ثابتة له- عَزَّ وَجَلَّ- كما في قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الكهف، الآية:٥٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام، الآية:١٠]، وقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف، الآية:١٢٨].

وعليه فموارد السنة الكونية إما بالتنصيص عليها، وإما بالدلالة والفحوى، وحيث إن سنة اللَّه المتعلقة بأفعال البشر وسلوكهم، هي طريقته- سبحانه- المتبعة في معاملته إياهم- كما ذكر- وما يترتب على ذلك من نتائج معينة في الدنيا والآخرة، فإن هذا يعني أن معنى السنة هو القانون العام الذي يضبط أحوال البشر، ويخضع سلوكهم إلى أحكام معينة.

لذلك أمكن تسميتها- أيضًا- بالقانون العام[٤] . «أو علم الاجتماع، أو علم السياسة الدينية»[٥] ، «فإن أمر البشر في اجتماعهم، وما يعرض فيه من مصارعة الحق

(١) لسان العرب: ٢٢٦/١٣، مادة "سنن".
(٢) السنن الإلهية، ص: ١٣.
(٣) الفتاوى: ٢٠/١٣.
(٤) السنن الإلهية، ص: ١٤.
(٥) تفسير المنار: ١٣٩/٤.

للباطل، وما يتبع ذلك من الحرب والنزال والملك والسيادة وغير ذلك، قد جرى على طرق قويمة، وقواعد ثابتة، اقتضاها ذلك القانون العام، وليس الأمر أُنُفًا كما يزعمه القدرية »[(١)] .

* * *

(١) تفسير المنار: ٤/١٤٠.

المطلب الثاني :

ضرورة فقه السنن الربانية

ما بسطتُ هذه القواعد والقوانين في أرجاء الكتاب والسنة إلا لأجل تدبرها، ومن ثم فقهها، قال- تعالى-: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد، الآية:٢٤]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون، الآية:٦٨] فاعتبر فقه السنن من الواجبات على أهل القرآن؛ لئلا يشملهم التعريض بأن قلوبهم من ذوات الأقفال، وعلم من ذلك أن فقه السنن من الدين، قال- تعالَى-: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل، الآية:٨٩]، قال الألوسي- رحمه اللَّه- عند شرحه لهذه الآية: « والمراد بكل شيء » ما يتعلق بأمور الدين أي بيانًا بليغًا لكل شيء يتعلق بذلك، ومن جملته أحوال الأمم مع أنبيائهم[1] ، فكان من فقهه- رحمه اللَّه- للآية أن جعل أحوال الأمم مع أنبيائهم في « كل شيء » واعتباره من جملة الدين، بما فيها من صراعات وتحولات، ومواقف مع الدعاة، وكل ذلك معدود ضمن القواعد العامة التي تضبط حركات البشرية، وتفرز تطوراتها سلبًا وإيجابًا، ولما كان التعليم بالقول وحده من غير تطبيق على الواقع مما ينسي أو يقل الاعتبار به، نبّه- سبحانه- على هذا التطبيق في الأنفس، فأرشد إلى تطبيقه على أحوال الأمم فقال- عزَّ وَجلَّ-: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران، الآية:١٣٧]، فيتحصل من هذا أن فقه السنن جزء لا يتجزأ عن فقه الدين؛ لأنه يبصرنا بواقع أولئك وأسباب الرقي والانحطاط فيهم، وما ينبغي إتيانه وتركه؛ لئلا يقع الخَلَفُ فيما وقع فيه السلف، وبذلك تكون النجاة والظفر بالمكرمات، وذلك هو الاعتبار والاتعاظ والنظر في العاقبة،

---

(١) روح المعاني: ١٤/٢١٤.

وهو من مقاصد القرآن، قال- تَعَالَى-: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء، الآية:٢٦]. ومن ثم تكون السنن مرتبطة بالأمر والنهي والطاعة والمعصية والإيمان والكفر، والتوحيد والشرك. فمتى جاء المكلف بالأمر، وجانب النهي، ووقف عند حدود اللّه؛ أصاب خير السنة الربانية، وإذا أهمل الأمر وخالفه وارتكب المنهي عنه، ووقع في حدود اللّه؛ أصاب شر السنة الربانية(١) . وممن تنبه إلى أثر السنن في المجتمعات والاعتبار بها ابن تيمية- رحمه اللّه-، حيث يقول: « ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطراد فعله وسننه، لم يصلح الاعتبار بها؛ لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره؛ كالأمثال المضروبة في القرآن »(٢) ، فالإلمام، والإحاطة بها، وبأثرها في الأنفس أمر ضروري لمعرفة طبيعة هذا الدين، وطبيعة الجاهلية المقابلة، وما الحديث عنها في القرآن المكي- على وجه الخصوص- إلا ليلمس المسلمون حقيقة الصراع بين الحق والباطل حتى يكونوا على بينة من تباين السبل، واختلاف المناهج والتوجهات، ومن ثم اختلاف الأهداف، قال- تَعَالَى-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم، الآيتان:١٣،١٤]، ويطالعنا- من خلال هذه الآية- الترابط العضوي بين الجهد والعمل بالنسبة لعمال الحقل الدعوي وفق سنن اللّه التي لا تعرف المحاباة، فالنتائج التي يطمح إليها أكثر المؤمنين إيمانًا وأشدهم تصديقًا، سوف يجنيها أشد الكافرين كفرًا وأعتاهم تكذيبًا وفسقًا، إن هو إلا ربط الأسباب بمسبباتها « فمعركة التعامل مع سنن اللّه، أمر يشمل الفريقين معًا، وفقه هذه السنن يعطي النتائج حتى للكافر، ولهذا حين قال اللّه- تَعَالَى-: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال،الآية:٦٥]، أعقبه مباشرة بقوله:

(١) انظر كيف نفسر التاريخ، مقال لمحمد بن حامل السلمي، مجلة البيان، عدد: ٥٠ ص:٩٨.
(٢) جامع الرسائل، ص: ٥٥.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال، الآية:٦٥]، مما يدل على تدخل فقه الكافر- أيضًا- كمًّا وكيفًا، ولا سيما الفقه لسنن الحياة الدنيا؛ لأن اللَّه- تَعَالَى- يمد الجميع: المؤمن والكافر قال- تَعَالَى-: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾[1] [الإسراء، الآية:٢٠]، ومَرْجع ذلك كله أن السنن لا تميل ولا تحابي، ولا تتأثر بالأماني وإنما بالأعمال، قال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء، الآية:١٢٣]، إنه بيان اللَّه لسنة الجزاء، فالأمر ليس منوطًا بالأماني والتشهيات، وإنما باتباع الحق والوقوف على حكم اللَّه، وأن الجزاء في ذلك بحسب تلك القاعدة الإلهية التي لن تجد لها تبديلا أو تحويلا[2] .

ونجزم أن هذه الكثرة من الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر السنة الإلهية وتطبيقاتها، تدل دلالة قاطعة على أهمية فقهها وسبر أغوارها من قِبَلِ المسلمين، فهي والعبادات سواء؛ لأنه- تَعَالَى- لا يخص بالذكر في القرآن إلا ما يلزم ذكره، ويحتاج الناس إلى معرفته، ولهذا جاء في هذه الآيات- كما أشرنا من قبل- إلى ما يدعو إلى التأمل والاتعاظ في هذه السنن، كما وردت فيها دعوة صريحة إلى وجوب عقلها[3] . فلم يبق للمجتمعات الإسلامية إلا أن تحل عنها وثاقها، وتعي وزر فشلها، وتفهم شرعة اللَّه ومنهاجه في جميع نواحيه، وأن تأخذ بكل سبب وكل شرط وكل عنصر من العناصر المحركة الفاعلة.

* * *

(١) انظر حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص: ٤٠.
(٢) انظر تفسير المنار: ٥/٤٣٤.
(٣) انظر السنن الإلهية، ص: ٢٥.

المطلب الثالث :

بعض خصائصها

أ- الاطراد: لا ريب أن الخصيصة الأولى، التي تتسم بها السنة الإلهية هي الربانية، وهي ملحوظة من خلال ما أوردناه في أثناء حديثنا عن المفهوم اللغوي، أضف إلى هذه الخصيصة؛ أن السنة مطردة، وهو ما نبه عليه القرآن الكريم عند قوله- تَعَالَى- : ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر، الآية:٤٣]، ومن أمارات اطرادها وثبوتها أنها قد بسطت في وحي اللّٰه، وعلمها أناس قبل أن تتلى في القرآن، فهذا ورقة بن نوفل- الذي كان لديه علم الكتاب- يقول للنبي ﷺ بعد سماعه خبر الوحي لأول مرة-: يا ليتني فيها جذعًا ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك، فيسأله النبي ﷺ أو مخرجي هم؟ فيقول له ورقة « نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي »[١] ، وهذا قيصر الروم يقول في أثناء حديثه مع أبي سفيان « سألتك كيف كان قتالكم إياه، فزعمت أن الحرب سجال ودول، فكذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة »[٢] ، وجاء في الحديث الصحيح « إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائمًا ويقظان، وإن اللّٰه أمرني أن أحرق قريشًا، فقلت: رب إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة، قال: استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نُغْزِكَ، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشًا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك »[٣] ففي الحديث دلالة اعتبار ذلك الواقع الضخم

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٢/١ (كتاب بدء الوحي باب، حدثنا يحيى بن بكير).

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٠/٦ (كتاب الجهاد، باب قول اللّٰه عز وجل ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾).

(٣) صحيح مسلم: ١٥٩/٨ (كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار).

ومراعاته، وكذلك جسامة التكليف في بدء حمل رسالة الله، كما يجلي الحديث- إلى جانب ذلك- كيفية التقاء السنن الربانية، كسنة اشتراط الجهد البشري، وابتلاء بعض الناس ببعض مع سنة العهد الإلهي بالنصر والتمكين لحزبه ولو طال أمد الابتلاء.

والجدير بالذكر في هذا المقام أن الحكمة من اطراد السنن، هي انضباط الموازين واستقرار معايير الحكم على الأشياء والأحداث والرجال. على أنه لا ينبغي اغترار المؤمن بهذا الاطراد الذي قد تورثه الغفلة، قال- تعالى-: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٩٧﴾ [آل عمران، الآيتان:١٩٦،١٩٧]، فإن عاين المؤمن ما عليه أهل العصيان من التمكين، فليقطع بأن ذلك ليس من قبيل تمكين الرضا، وإنما يندرج ذلك ضمن تمكين الاستدراج، أو لنقل: ضمن سنة الإملاء، وهي من السنن الجارية على المترفين الذين يؤمرون بالطاعات فيفسقون ويفسدون، قال- تعالى-: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ۝٤٨﴾ [الحج، الآية:٤٨].

ب- **الشمول**: لأن سنة الله لا تكون كذلك إلا إذا كانت عامة، فهي سنن اجتماعية وليست فردية، فحين قال الحق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾ [الرعد،الآية:١١] بين أن هذه السنة عامة، وذلك من التعبير بلفظ ﴿قَوْمٍ﴾ فعملية التغيير هذه تخص مجتمعا، أو أمة، أو قوم، بكل محتويات القوم أو المجتمع أو الأمة، وينتج عن هذه الملاحظة في الآية الكريمة أنه لا يشترط أن يغير الله ما بشخص، إذا غير ما بنفسه أو العكس؛ لأن القضية تخص المجتمعات برمتها وليس فردا أو أفرادا بأعيانهم[(١)].

* * *

(١) انظر حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص: ٣٨.

المبحث الثاني :

نماذج منها في القرآن الكريم

المطلب الأول :

سنة اللّٰه في الأخذ بالأسباب

إن السبب هو كل ما يتوصل به إلى غيره كما بينته اللغة(١) .

وبهذا المفهوم نطق القرآن الكريم قال- تَعَالَى-: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۞ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف، الآيتين:٨٣-٨٤]، قال الفيروزآبادي- رحمه اللّٰه-: « أي آتاه اللّٰه من كل شيء معرفة وذريعة يتوصل بها، فأتبع واحدًا من تلك الأسباب »(٢) .

وفي القرآن الكريم ما يدل على أن هذا القانون يحكم كل المخلوقات، فهو عام وشامل لكل ما في العالم بما فيه الإنسان، قال ابن تيمية- رحمه اللّٰه-: « فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، واللّٰه خالق الأسباب والمسببات »(٣) . فالقرآن الكريم- كما يذكر ابن القيم- رحمه اللّٰه- مملوء من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية، والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة، فيأتي أحيانًا بباء السببية، كقوله- تَعَالَى-: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة، الآية:٢٤]، وأحيانًا يأتي باللام؛ كقوله- تَعَالَى-: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ

(١) انظر لسان العرب: ٤٥٨/١، مادة « سبب » .
(٢) بصائر ذوي التمييز: ١٦٩/٣ بصيرة في « السبب » .
(٣) الفتاوى .

﴿ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ [إبراهيم، الآية:١]، وتارة يأتي بذكر الوصف المقتضي للحكم؛ كقوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق، الآية:١]، وتارة أخرى يذكر صريح التعليل كقوله- تَعَالَى-: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة، الآية:٨٥].

فكان من هذا كله أن اقتضت حكمته- تَعَالَى- ربط المسببات بأسبابها(١) . وفي السنة ما يلزمنا أن نأخذ بالأسباب بعيدًا عن التواكل، فعن علي- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «عن النبي ﷺ أنه كان في جنازة، فأخذ عودًا ينكت في الأرض، فقال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة، قالوا: يا رسول اللَّه! أفلا نتكل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له ..»(٢) ، فهي سنة اللَّه وسنة رسوله كما قال القرطبي- رحمه اللَّه-: وهو الحق المبين والطريق المستقيم الذي انعقد عليه إجماع المسلمين... ثم قال: وفي التنزيل حيث خاطب موسى الكليم ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ [الشعراء، الآية:٦٣]، وقد كان قادرًا على فلق البحر دون ضرب عصا، وكذلك مريم- عليها السلام-: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم، الآية:٢٥]، وقد كان قادرًا على هزّ الرطب دون هز ولا تعب، ومع هذا كله فلا ننكر أن يكون رجل يلطف به ويعان، أو تجاب دعوته، أو يكرم بكرامة في خاصة نفسه أو لأجل غيره، ولا تهدم لذلك القواعد الكلية والأمور الجُمَلية هيهات هيهات، لا يقال: فقد قال اللَّه- تَعَالَى-: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [الذاريات، الآية:٢٢]، فإنما نقول صدق اللَّه العظيم، وصدق رسوله الكريم، وأن الرزق هنا المطر بإجماع أهل التأويل بدليل قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾ [غافر، الآية:١٣]، ولم يشاهد ينزل من السماء على الخلق أطباق الخبز

---

(١) مدارج السالكين: ٤٩٨،٤٧٨/٣.
(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٥٢١/١٣ (كتاب التوحيد، باب قوله تعالى فاقرؤوا ما تيسر منه).

ولا جفان اللحم، بل الأسباب أصل وجود ذلك وهو معنى قوله ﷺ «اطلبوا الرزق في خبايا الأرض»، أي بالحرث والحفر والغرس[١] .

ويتجلى احترام منطق السببية في هجرة الرسول ﷺ واضحًا فلقد نبئ ﷺ وهو على رأس الأربعين، وكان القرآن يتنزل عليه يطمئنه إلى أن المستقبل له، وأن عاقبة الصراع مع الوثنية ستختم بالنصر، فقد أصغى بكل اطمئنان لقوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات، الآيات:١٧١-١٧٣]، كما أصغى لقوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم، الآية:٤٧]، ولقوله- تَعَالَى-: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر، الآية:٥١]، لقد أصغى إلى هذا كله حتى غدا ينظر إلى النصر كأنما ينظر إليه من خلال ستر رقيق. لكن لم يثنه هذا اليقين لأن يتخذ الأسباب- عليه الصلاة والسلام-.

لقد رأيناه يهيئ الإجراءات الوقائية ويجتهد فيها، فقد هاجر ﷺ مستخفيًا بليل واتخذ صاحبًا- تمثلت فيه البطانة الصالحة والحاشية الناصحة- كما اتخذ خريتًا، وانتقى رواحل قوية أعلفها وأراحها؛ حتى تستطيع تحمل متاعب السفر ووعثائه، واختفى في الغار ثلاث ليال حتى يؤمن له الطريق. كل ذلك جاء تطبيقًا لقانون الأخذ بالأسباب.

فلا بد- إذًا- من رعاية هذا القانون وألا يعبث بمقدماته ونتائجه باسم التوكل الذي هو في الحقيقة تواكل وفوضى، لابد لمن سلك سبيله أن يجني المر.

* * *

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧/١٥-١٦.

المطلب الثاني :

سنة التداول

وهي من السنن الإلهية المبثوثة في الكتاب، قال- تَعالَى-: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران، الآية:١٤٠] قال محمد عبده- رحمه اللَّه- « هذه قاعدة كقاعدة ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران، الآية:١٣٨]، أي هذه سنة من تلك السنن، وهي ظاهرة بين الناس بصرف النظر عن المحققين والمبطلين، على أن هذه المداولة تكون مبنية على أعمال الناس، فلا تكون الدولة لفريق دون آخر جزافًا، وإنما تكون لمن عرف أسبابها ورعاها حق رعايتها »[(١)] .

وهي سنة نافذة بحسب ما تقتضيه سنة تغيير ما بالأنفس، قال- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ﴾ [الأنفال، الآية:٥٣]، وعليه فالمداولة منوطة بالأعمال التي تفضي إليها كالاجتماع والثبات وصحة النظر، وقوة العزيمة، وأخذ الأهبة، وإعداد ما يستطاع من القوة ووسائل إرهاب العدو، كل هذا ينبغي الأخذ به، وإحكامه، أشد الإحكام واستيفاء أسبابه، مع الإيمان بأن ذلك اقتضته سنة من سنن اللَّه في الاجتماع البشري، وأن أزمنة الظفر والفوز والعلو مرة للمبطل ومرة للمحق، على أن المضمون لصاحب الحق أن تكون له العاقبة، قال- تَعالَى-: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف، الآية:١٢٨].

---

(١) تفسير المنار: ١٤٨/٤.

هذه العاقبة التي لا تأتي- بحسب سنة اللَّه- دون جهد يبذل، وتضحية تقدم، ومدافعة لأهل الباطل والطغيان، بل لا بد من هذا ومعه الأذى الشديد من قِبَل قوى الباطل وغلبة لهم- في بعض الأحيان- وهو مما لا يتعارض وسنة اللَّه في المداولة؛ إذ إن الأمور بخواتيمها، قال- تعَالَى-: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات، الآيات: ١٧١-١٧٣]، فهو وعد منه- تعَالَى- بعلوهم على عدوهم، ولا يلزم من انهزامهم في بعض المشاهد أن يكون نقضًا للغلبة[١] ، وله- تعَالَى- الحكمة البالغة فيما يصيب حزبه من أذى قبل بلوغ النصر الحاسم، فلا ينبغي أن يضعف المحق، وأن تفتر همته ما دام على هدى من اللَّه وعدوه على ضلالة.

* * *

(١) الكشاف: ٤/٦٧.

المطلب الثالث:

سنة اللَّه في الاستدراج والإملاء

والاستدراج: الإدناء على التدريج[١] ، قال- تَعَالَى-: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ [الأعراف، الآيتين:١٨٢-١٨٣]، قال الراغب- رحمه اللَّه-: «سنستدرجهم معناه: نأخذهم درجة فدرجة، وذلك إدناؤهم من الشيء شيئًا فشيئًا؛ كالمراقي والمنازل في ارتفاعها ونزولها[٢] ، وقال القرطبي- رحمه اللَّه-: «الاستدراج هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة»[٣] ، فمن سنة اللَّه- تَعَالَى- الاستدراج، ومعنى الآية أن اللَّه يستدني «الكفرة والعصاة قلْيلا إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم، وذلك أن يواتر اللَّه نعمه عليهم مع انهماكهم في الغي، فكلما جدد عليهم نعمة، ازدادوا بطرًا، وجددوا معصية، فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم، ظانين أن مواترة النعم أثرة من اللَّه وتقريب، وإنما هي خذلان منه وتبعيد، فهو استدراج منه- عَزَّ وَجَلَّ- »[٤] ؛ قال- تَعَالَى-: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام، الآية:٤٤]، وذلك بفعل الاستدراج الذي يوصلهم إلى الهلكة.

ولا ريب أن النصَّ القرآني دائمًا أبعد مدى من المناسبة الخاصة، والعموم سمة من سمات السنن الكونية، فكل من اغتر بمجتمعه الكثير وبماله الوفير اغترارًا ينسيه التوبة

---

(١) لسان العرب: ٩٢/٣. مادة «درج».

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ١٦٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٣٢٩/٧.

(٤) انظر الكشاف: ١٣٣/٢.

إلى اللَّه والأوبة إليه، ويلهيه عن شكر النعم إلى أن ينخدع ولا يفطن، حتى ينتهي إلى ما يسوءه من مخبره وغايته، كان ممن شملتهم سنة اللَّه هذه.

وفي الحديث الشريف ما ينبئ عن هذه القاعدة، فعن أبي موسى- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: ﷺ : «إن اللَّه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾[1] [هود، الآية:١٠٢]، «فمضت سنة اللَّه ولا راد لسنته في الأمم والأفراد بمقتضى الأسباب التي قام بها نظام الخلق، والشعوب والمجتمعات الظالمة لا بد أن يزول سلطانها وتدول دولتها ولو بعد حين»[2] ، والعاقل من اتعظ بالسنن. وحتى يظن المجتمع أنه أريد به خيرًا لا إملاء، ينبغي أن يسارع إلى شكر النعم لا بطرها، ليكون ذلك من أمارات الترجيح أن هذه النعم إكرام وإنعام، وليس استدراجًا وإمهالًا، ثم يواصل من كل ما من شأنه أن يطيل عمر هذا العطاء؛ فيضعه في موضعه، ويزيد عليه في طاعته، ويأتي ويذر بكل ما يحبه اللَّه ويرضاه[3] .



(١) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٣٥٤/٨ (كتاب التفسير، باب: وكذلك أخذ ربك إذا أخذى القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد).

(٢) انظر تفسير المنار: ٤٥٢/٩.

(٣) هذه النماذج المعروضة إنما هي على سبيل التمثيل لا الحصر، وإلا فهناك من السنن المودعة في القرآن شيء كثير، منها: سنة التدافع، وسنة الأجل المسمى، وسنة الاختلاف، وسنة التدرج وغيرها...

المبحث الثالث :

بسط بعض مظان كلية التغيير في القرآن

أ- بعض مظانها تنصيصًا :

- قوله- تعالى-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال، الآية:٥٣].

ب- بعض مظانها دلالة :

- قوله- تعالى-: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة، الآية:٢٥٨].

- قوله- تعالى-: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة، الآية:١٣].

- قوله- تعالى-: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة، الآية:٦٦].

- قوله- تعالى-: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام، الآية:٤٤].

- قوله- تعالى-: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف، الآية:٩٦].

- قوله- تعالى-: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام، الآية:١١٠].

- قوله- تعالى-: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء، الآية:١٦].

- قوله- تعالى-: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾ [سبأ، الآيتان:١٥، ١٦، ١٧].

- قوله- تعالى-: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف، الآية:٥].

- قوله- تعالى-: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾ [الليل، الآيات: ٥،٦،٧،٨،٩،١٠].

- قوله- تعالى-: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين، الآية:٤، ٥].

* * *

المبحث الرابع :

فقهها

المطلب الأول :

مفهوم التغير في اللغة

جاء في اللسان: تغير الشيء عن حاله: تحول، وغيره: حوله وبدله كأنه جعله غير ما كان، وفي التنزيل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال، الآية:٥٣]، قال ثعلب: معناه حتى يبدلوا ما أمرهم الله ... يقال غير فلان عن بعيره: إذا حط عنه رحله وأصلح من شأنه... وورد في حديث الاستسقاء: «من يكفر الله يلق الغير»، أي تغير الحال وانتقالها من الصلاح إلى الفساد[١] والتغيير: التبديل بالمغاير[٢] .



(١) لسان العرب: ٥/٤٠ مادة «غير» .

(٢) التحرير والتنوير: ١٣/١٠٢.

المطلب الثاني :

مفهوم التغير في الاصطلاح

ولم ينأ المفهوم الاصطلاحي عن المعنى اللغوي؛ حيث بقيت مادة التحويل والتبديل والانتقال بارزة في الاصطلاح.

قال الجرجاني- رحمه اللَّه-: «التغيير: هو انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى[١] . وقال الراغب: التغيير يقال على وجهين: أحدهما لتغيير صورة الشيء دون ذاته، والثاني، لتبديله بغيره نحو غيرت غلامي ودابتي إذا أبدلت بهما غيرهما»[٢] ، وعرفه جودة سعيد بقوله: «التغيير: هو انتقال من حالة لا يرضى عنها إلى أخرى خير منها، وهذا الانتقال يخضع لقانون يتخذ علاقة بين الهدف والوسيلة وطاقة الإنسان، وبين هذه الأركان توازن»[٣] .

فالتغيير- إذًا- هو ذلك التغير الكمي والكيفي المعلن لانتهاء فترة وانتقال لفترة أخرى أو لنقل: اللحظة الحاسمة بين عهدين متناقضين يتجاور فيهما الماضي والمستقبل تفصلهما الإرادة بكل عناصرها الفاترة أو الحية. وليس من شك في أن المراد هنا هو استئناف حياة طيبة، والبحث عن كل وسيلة موصلة إليها؛ فكرية كانت أو مادية.

فالتغيير المنشود، هو ذلك الانتقال من عهد الفوضى والجمود إلى عهد التنظيم والتوجيه والبعث من جديد.

---

(١) التعريفات، ص: ٦٣.

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٣٨٢.

(٣) حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص: ٢٧.

ومن هنا ندرك سر دعوة القرآن الكريم المؤمنين إلى التأمل في أيام الذين خلوا من قبل؛ لاستخلاص العبر والعظات وأن يدركوا سنن الله في التغيير، والحق أنهم لو فعلوا فبدءوا بالسير في الأرض لمعرفة أحوال الأمم البائدة وأسباب هلاكها، ثم اعتبروا بحال الأمم القائمة وبحثوا عن أسباب عزها وثباتها، لعلموا أنهم أمسوا من أجهل الناس بسنن التغيير وأبعدهم عن معرفة أحوال خلق الله، ولرأوا أن غيرهم أكثر منهم سيرًا في الأرض، وأشد منهم استنباطًا لسنن الاجتماع، وأعرف منهم في الاعتبار بما أصاب الأولين، والاتعاظ بجهل المعاصرين.

فالمؤمن هو من يهتدي بهذا الكتاب ويتعظ بمواعظه، ومن مواعظه هذه السنة التي يجب فقهها والقيام بحقوقها التي وردت بنص صريح لا يحتمل التأويل لا في شكله ولا في مضمونه، قال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد، الآية:١١]. ولقد تناولها المفسرون بالشرح والتحليل، فأجمعوا على أن المراد لا يغير الله ما بقوم مما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام، إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد(١) . وفي خطبة للإمام علي- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- كما ينقلها- رحمه الله-، قال: قال علي- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: كنتُ إذا أمسكتُ عن رسول الله ﷺ ابتدأني، وإذا سألته عن الخبر أنبأني، وإنه حدثني عن ربه- عَزَّ وَجَلَّ- قال: «قال الرب: وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي، ما من قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعة، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي». قال ابن كثير: وهذا غريب وفي إسناده من لا أعرفه(٢) . قال صاحب الظلال- رحمه الله-: «وإنها لحقيقة تلقي على

---

(١) انظر التفسير الكبير: ١٩/٢٣، وانظر فتح القدير: ٣/٦٩، وأنوار التنزيل: ٣/١٤٨، ومحاسن التأويل ٩/٣٣٩، وتفسير القرآن العظيم: ٢/٥٠٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/٥٠٤.

البشر تبعة ثقيلة، فقد مضت مشيئة اللّه، وجرت بها سنته أن تترتب مشيئته- تَعَالَى- بالبشر على تصرف هؤلاء البشر، وأن تنفد فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم»[١] .

* * *

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٠٤٩.

المبحث الخامس :

قيمتها

المطلب الأول :

ضرورة فقه سنة التغير

أ- في المجال التربوي :

إن مفعول القرآن كله سيتعطل إذا ما أصبحت توجيهاته التربوية مجرد شعارات جوفاء، وغدت آياته يتبرك بها، وصار منتهى الدين هي تلك الطقوس الباردة التي لا تحدث في النفس أي انتباه أو حركة.

والآفة كل الآفة في هذه الظاهرة التي نسميها للأسف الإسلام، والتي أبعدت المسلمين عن ممارستهم العملية لمفاهيم القرآن الكريم، «فالأسس التي وضعها القرآن للتكامل الاجتماعي والفردي قد غابت عن ذهنية الإنسان المسلم، وأضحى أفراد المجتمع الإسلامي يتخبطون في النطاق الضيق لذاتياتهم»[(١)] ، إن المسلمين تعوزهم الحاجة إلى حقيقة الترابط بين السلوك والعقيدة، ولن يتحقق ذلك إلا بعد البحث والتحصيل لإدراك هذه النتيجة التي يمكن تلخيصها في معرفة أركان الإيمان والإسلام وشروطهما «التي نعني بها الشروط النفسية؛ لأن مثل هذا الفقه ينتج ثمرات الإيمان أي شروط مطابقة العمل مع العقيدة»[(٢)] فتغدو هذه الأمكنة والأزمنة العبادية مجرد

---

(١) الإسلام ومتطلبات التغيير الإجتماعي، ص: ٣١.

(٢) حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص: ١٢، ١٣.

وقفات شحن طاقاتها مثمرة للإرادة الفاعلة التي يتوصل بها إلى ماهية النفس وما أحدق بها من أسقام أحالتها إلى عين كليلة لا تطيق أن ترى النور؛ مما يعطي حق البقاء لهذه الأسقام، فيشعر المسلم بثقل وطأتها عليه وفي الوقت ذاته لا يدري كيف يتخلص منها.

وفي القرآن الكريم المراقي للصعود والإشراف على لب المشكلة وهي أن «ما بالنفس ليس بالظلم الذي يحيق بالإنسان من الخارج، بل من الظلم الذي أنزله بنفسه وهو ما تقرره الآيات القرآنية..

كما أنه من أكبر الظلم الذي ينزله المسلم بنفسه أن لا يرى العلاقة التسخيرية الموجودة بينه وبين الكون والمجتمع، فيهمل نفسه ولا يضعها في المكان الذي يسخر الآفاق والأنفس على أساس السنن المودعة فيهما[١] سلبًا أو إيجابًا، فكلما انقشعت قاعدة الإسلام في فكره، إلا وتبلور ذلك في عمله وعلاقاته، وفي تمثله للحياة كلها، وصارت لديه الحصانة التي تعصمه من أن يرتد عن ذاته، فلا بد- إذا- من العمل على إبقاء الفكرة الإسلامية يقظة بداخله؛ لأنها ضمان لاستمرار الحاضر، وتطلع إلى المستقبل[٢] .

ومن ها هنا يمكن القول: إن فهم المسلم للفكرة الإسلامية مبدأ أساسي وركيزة لتشييد بناء التغيير- وأعني به البناء العملي- لأن المشكلة تكمن في التفاعل مع الإسلام، فالقضية آيلة إلى المسلم نفسه الذي هو في حاجة إلى تفكير، ثم إلى تدبير؛ لأنه محور الفاعلية، وفعاليته رهينة بتفعيل مبدئه الذي من خلاله سينطلق.

فالانطلاقة الأولى لعملية التفعيل هي الإسلام، مما يدل على أن مرحلة الروح مرحلة حساسة، تؤسس في فكر الإنسان أول ما تؤسس: العبودية للّٰه، والاستخلاف في

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص: ١٥.

(٢) انظر المشروع الحضاري، ص: ٤٣، ٤٤.

الأرض، وسيادة الأخلاق، وكلها عناصر فاعلة في توجيه المسيرة الإنسانية نحو خط إيجابي، كما أنها تعتبر الأساس المعنوي الملازم للشعور بالتغيير، والقرآن الكريم يقرر هذا في قوله- تَعَالَى-: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة، الآية:٣٠]، حيث تبرز الآية دور الإنسان المتمثل في الاستخلاف، والذي هو بجَعْلٍ من اللَّه- عَزَّ وَجَلَّ- مقصوده عمارة الأرض على أساس منهج اللَّه وعطاء اللَّه، الذي ينبغي أن يُسَخَّر في كل ما هو إيجابي ومفيد فلا استغراب- بعد هذا- من كون الوحي محطة تفعيلية- كما قررناه- ذلك لأن الكثير من الدارسين غالبًا ما ينظمون الوحي في دائرة الغيب، حيث انسداد باب الفهم والتلقي، لا لعقم ذاتي في الوحي، ولكن لسوء تعاطيهم وتفاعلهم مع نصوص الوحي.

وخير نموذج لهذا التفعيل، رسول اللَّه ﷺ حيث تطالعنا تلك اللحظات الأولى المؤذنة بميلاد حياة جديدة، والتي يبدو فيها الاستعداد الكامل للتفاعل بين الرسول ﷺ وبين الوحي، وذلك في قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ① قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ④﴾ [المزمل، الآيات:١،٢،٣،٤]، إن الوقت وقت فعالية واستعداد، لا وقت تزميل وخمول، إنه وقت الصلاة، وقت الإعداد الروحي، وتكوين الأساس النفسي من أجل النهوض والفعالية.

ولماذا كان هذا الإعداد؟ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⑤﴾ [المزمل، الآية:٥]، إنه القرآن وما وراءه من التكليف، ولا ريب أن تلقي هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه أمر ثقيل في حاجة إلى استعداد طويل[1] . وعرض القرآن للعملية التفعيلية بين الذات النبوية والوحي ما هو إلا نموذج للإنسان المسلم؛ لترسيخ البذور الفكرية من خلال المنهجية القرآنية أثناء التعامل مع محتوياته.

---

(١) انظر في ظلال القرآن: ٦/٣٧٤٥.

أ- في المجال الدعوي:

إن الداعية شأنه كشأن الطبيب العارف، لا بد له- كي يحدث تغييرًا من السقم إلى البرء- أن يحيط بقوانين المرض، وكلما توغل علمه في كشف الظواهر المرضية، كلما كان حظه وفيرا لتحويل خلل الجسم إلى توازن.

والمجتمعات الإسلامية- بَلْهَ غيرها- تبدو عليها الأمراض التي لن تستعصي على كل ذي كفاءة دعوية- رغم ضخامة الكم- إذ من شأنه قبل أن يباشر العمل- أن يبحث عن مآتى الخلل بكل أسبابه ومقدماته إذا ما خابر السنن الاجتماعية التي يخضع لها هذا المجتمع أو ذاك؛ لأن الخبير يمكنه- بعد إدراكها- أن يتخذ إجراءات تغييرية، «ويفرض نظام الحمية على الأغذية الفكرية التي يتناولها، لما تحمل هذه الأغذية من جراثيم فكرية تعطل قوى المجتمع، وتحل من تماسكه، فكما يمكن استخدام الحجر الصحي لإيقاف الأوبئة في مستوى المرض الصحي، يمكن كذلك استخدامه في مستوى المرض الاجتماعي بإعطاء اللقاحات والمناعات الفكرية ضد أفكار مرضية»[1].

وأول طريق الداعية العالم بالسنن هو التفاؤل بالتغيير؛ إذ إنه ينفخ في روعه الإقبال على العمل التغييري وكله ثقة واطمئنان وطمع في نجاح العملية التغييرية، وحسبك بهذا زاد يضمن النفس الطويل رغم وعورة المسالك، كما إن هذا النوع من الفقه يجعله محسوبا ضمن حملة هموم المجتمع ومشاكله، لا باعتبارها مشاكل مزمنة يقف بين يديها مع الواقفين مشدوها يحوقل، بل باعتبارها مشاكل في حاجة إلى مصارعة فكرية لإيجاد الحلول ولو بعد حين بكل شجاعة وجرأة ومزاحمة لسير الزمان

---

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص: ٢١ بتصرف.

المنحرف، وكلما عظم هذا في نفسه ووجدانه نادى منادي التجديد والتغيير الذي ينتهي به إلى أبعد مرحلة؛ وهي المتاركة والمفاصلة مع الجاهلية بكل ألوانها، حتى لا يكاد يصبر على رؤية أدنى أثر من آثارها في أي جزء من بناء الإسلام مهما كان تافهًا.

والمجتمع الإسلامي أحوج ما يكون إلى هذه العينة التي تكونت في جوهرها من الإرادت والذكاء والانتباه والمعاناة، وهي عناصر رئيسة في منهج التغيير؛ تحصر الضوابط والوسائل أولا، ثم تربط العمل بالهدف مع عدم إغفال سير العملية في ضوء كتاب اللّٰه وسنة رسوله وقواعدهما الكلية.

وهي عملية أول ما يطالعنا- من خلالها- تصحيح العقيدة في النفوس وتعظيمها في القلوب؛ لأنه أول مرض تشكو منه المجتمعات الإسلامية، وليس غريبًا أن نجد القرآن الكريم حين يذكر المرض في القلب- في عدة مواضع- لا يذكره على أساس أنه مرض عضوي في جسم الفرد، وإنما على أساس أنه مرض اجتماعي في نفس المجتمع... يقصد به مرضًا فكريًّا يصيب الإنسان في علاقته بالمثل الأعلى؛ فيحيل الشخص إلى عاجز عن القيام بأداء وظيفته الاجتماعية في جسم الأمة[١] . وذلك هو الإفراز الذي يوجده الإيمان الجدبي الذي يعني النزعة الفردية، كإيمان الرهبان الذي يقطعون صِلَاتهم بالحياة ويتخلون عن واجباتهم ومسئولياتهم[٢] . ومصيبة المجتمعات الإسلامية هو هذا النوع من الإيمان الذي لم تدرك فيه أغوار « لا إله إلا اللّٰه » وعمقها؛ فقعد أفرادها بكل صراط يرددونها بألسنتهم دون أن تعيها قلوبهم، وهي في الواقع أول شرارة تمدهم بالحاجة إلى التحول من أزمنة الذل والعار، إلى مقامات العزة والكرامة في دنياهم وآخرتهم.



(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص: ٢٢.
(٢) انظر وجهة العالم الإسلامي، ص: ٢٨.

المبحث السادس :

من مقومات التغيير

المطلب الأول :

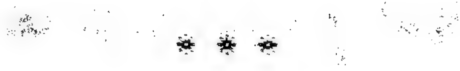
فقه الإنسان لدوره في الحياة

لقد سبقت الكلمة في أن وجود الإنسان مُغَيًّى بالعبدية للَّه، فلابد - إذًا - من خصائص يتسم بها ووظيفة يمارسها.

من ذلك؛ إشراب قلبه وجهة الإسلام، ونظرته، وأسلوبه الفكري، وسلوكه الخلقي، بحيث يغدو في طريق تفكيره، ومقصد حياته، ومنهج عمله وميزانه لقيم الأشياء وأقدارها، متطبعا بطابع الإسلام، وهذه هي وجهة الإنسان، وهذه هي طريقه، باعتبارها الوسيلة المؤدية إلى الكمال الإنساني الذي يريده اللَّه- تَعَالَى-، وذلك هو مغزى قوله- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة، الآية:٢١].

وتعظم هذه الوجهة الربانية كلما عظم سواد الميممين شطرها -؛ لآن الأمر يحتاج إلى تآزر وتعاون- حيث يتكون المجتمع ذو التركيبة المحكمة، مجتمع البنيان المرصوص، ذو الرابطة القلبية التي ستظل وحدها الرابطة الوثيقة الموحدة بين الأفراد والمؤهلة لتأدية الوظيفة والرسالة.

وإنما يقع هذا، حين يتم الإقبال على الله بقلوب واعية وآذان صاغية وأبصار نافذة، قال- تَعَالَى-: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق، الآية:٣٧]، «فصاحب القلب الحي، بين قلبه وبين معاني الوحي أتم اتصال»[1] ، هذه المعاني التي تنطلق به نحو توحيد الله- عَزَّ وَجَلَّ- ثم إلى دعوة رسول الله؛ التي هي منهاج شرع الله، ليجد في نهاية الطريق المعاد الذي يجعله يقف من جديد بين يدي الله، فأول الطريق- إذن- خضوعه لمنهج الله الذي يعتبر مقياس حركته.



(١) التفسير القيم، ص: ٤٤٥.

المطلب الثاني :

إدراك السنن الفاعلة في التغيير

إنه بقدر ما يتم توظيف الحواس في مجال التفكير والنظر بقدر ما يكون الطريق موصلا نحو عقل الأشياء وإدراكها.

فمتى ألغي دور هذه الحواس فقد الإنسان إنسانيته وصار أقرب ما يكون إلى العجماوات، بل أضل، قال- تَعَالَى-: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف، الآية:١٧٩]، فعدم الانتفاع بمواهب القلوب والأسماع والأبصار؛ التي هي آلات العلم والعرفان وطرق الهداية والإيمان، وتوجيه ذلك كله إلى التأمل والتفكر في أخبار التاريخ والقصص الدالة على سننه- تَعَالَى- في خلقه، غفلة تردي في دركة الأنعام، بل فوق ذلك في الضلالة؛ «لأن للأنعام استعدادات فطرية تهديها، أما الجن والإنس فقد زودوا بالقلب الواعي والعين المبصرة والأذن الملتقطة، فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا... فإنهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهادية»[١] . ألا ترى إلى القرآن- وهو يتحدث عن عملية الإخراج من البطون؛ فيمتن على الإنسان بأن ركب فيه آلات الإدراك- حيث يقول- عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل، الآية:٧٨]. قال القرطبي- رحمه اللَّه-: «أي التي تعلمون بها وتدركون»[٢] ، وقال الزمخشري- رحمه اللَّه-:

(١) في ظلال القرآن: ١٤٠١/٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٥١/١٠.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ أي وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به »[1] .

ولعمري إن في قوله- تَعَالَى-: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أسرارًا تستأهل الشكر، وكأني أرى أن الشكر مستمر جنبًا إلى جنب مع ما تنتجه المدركات من طاقات معرفية هائلة، وكأن هذا الشكر بدوره عنصر من عناصر التفعيل الإدراكي والاعتباري، قال الألوسي- في معنى الآية- « والمعنى: جعل لكم هذه الأشياء آلات تحصلون بها العلم والمعرفة بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الأشياء وتدركوها بأفئدتكم- أي بعقولكم- وتنتبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرير الإحساس فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية »[2] .

ولقد أمر القرآن بالنظر والتفكير في آيات اللَّه- تَعَالَى-: في الأنفس والآفاق؛ ليزداد الناس يقينا بأنه هو الخالق، وليعلموا أن كل شيء خلقه فقدره تقديرا، وأن كل ما فيه يجري بأمره وفق ما وضعه به من نظام.

ومن هذه الآيات الداعية إلى النظر في الكون والتأمل فيه قوله- تَعَالَى-: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس، الآية:١٠١]، فكأن الأصل في معرفة هذا القانون العام، هو النظر والمشاهدة والتأمل والتجارب والاستقراء، وقال- تَعَالَى-: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة، الآية:٢٦،٢٧]، وهما مثالان للآيات البصرية والسمعية وحافز إلى التتبع بفقه الأحداث الكونية العامة

(١) الكشاف: ٤٢٢/٢.
(٢) روح المعاني: ٢٠١/١٤.

والخاصة بالإنسان، وما هذه الحضارات البائدة إلا دليل قوي على الحاجة الملحة لإدراك السنن ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر، الآية:٢].

على أن هذا العلم مشاع للجميع، لا اختصاص لأحد به إلا إذا استثنينا القصد من تعلمه وأوجه الانتفاع به؛ لأن قصد المسلم فيما يتعلم وفيما يعلم، محكوم بحكم شرع الله.



المبحث السابع :

من عوائق التغيير

المطلب الأول :

المقلدة

كلما أعرض الإنسان ونأى بجانبه عن المبدإ الحق- مبدإ العقيدة السليمة- وانغمس في واقع فكري متعفن وتصور عقدي آسن، إلا وضرب بينه وبين التغيير بسور، فلا يجد التغيير إليه سبيلًا؛ لأجل أنه لم يعد قابلًا للتحرر والانعتاق، والانتقال من حال الجمود الفكري إلى حال التحرر والتنوير. تلك هي حقيقة من أخلدوا إلى الأرض واتبعوا آباءهم، قال- تعالى-: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة، الآية:١٧٠]، « والآية تندد بتلقي شيء في أمر العقيدة من غير اللّه، وتندد بالتقليد في هذا الشأن، والنقل بلا تعقل ولا إدراك، ثم ترسم صورة مزرية تليق بهذا التقليد وهذا الجمود، صورة البهيمة السارحة التي لا تفقه ما يقال لها »[1] ، وذلك حين يمضي السياق القرآني فينعتهم بقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة، الآية:١٧١].

والقرآن الكريم يدين الذين يلزمون ما كان عليه الآباء، ويقدسونهم، ثم يصير ذلك حسبهم، قال- تعالى-: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة، الآية:١٠٤]، لقد عميت عليهم الأنباء، فأشربوا في قلوبهم الإعراض، وتمسكوا بما كان عليه الآباء، ورفضوا نداء التحرر من عبودية العباد للعباد، واختاروا عبودية العقل والضمير للآباء والأجداد.

(١) في ظلال القرآن: ١/١٥٥.

وأحسب أن استمراء مثل هذه العقائد تورث الدعة والاستكانة والرضا بالواقع الذليل، ومن ثَمَّ تشل حركة الحياة التي قصدها القرآن في قوله- تَعَالَى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات، الآية:٥٦].

كما أنها تقطع السبيل على الذين يرغبون في استئناف حياة إسلامية تحت ظلال الشريعة وتعاليمها، والقرآن يحكي نموذجًا من هذا القبيل، وذلك حين تأتي البينات على أيدي الرسل- حاملي راية التغيير- فيقول- تَعَالَى-: ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ [إبراهيم، الآية:١٠] إنهم جعلوا اختيار الرسل مثار شك وريبة، وعللوا دعوتهم بأنها رغبة في تحويلهم عما كان عليه الآباء.

قال سيد- رحمه الله-: «... ولا يسألون أنفسهم: لماذا يرغب الرسل في تحويلهم؟ وبطبيعة الجمود العقلي الذي تطبعه الوثنيات في العقول، لا يفكرون فيما كان يعبد آباؤهم: ما قيمته؟ ما حقيقته؟ ماذا يساوي في معرض النقد والتفكير، وبطبيعة الجمود العقلي كذلك، لا يفكرون في الدعوة الجديدة، إنما يطلبون خارقة ترغمهم على التصديق!»[١]. لمثل هؤلاء يتهيأ الحق للصراع، ويتوكل على الله في مواجهة «الطغيان بالإيمان والأذى بالثبات»[٢]، قال- تَعَالَى-: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢﴾ [إبراهيم، الآية:١٢]، ولعمري إن في الآية تجسيدًا لموقف المصلح الذي يطمح إلى التغيير وسط زحمة المقلدة دون تغييب آلياته؛ من توكل على الله، واطمئنان بالهدى، والصبر على الأذى، وكل ذلك محسوب ضمن عناصر معركة التغيير، كما أنه من سمات الأهلية الموهوبة للقيادة والكفاءة للبناء والإنشاء.

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٠٩١/٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٢٠٩١/٤.

المطلب الثاني :

المستكبرون

إن من أهداف الإسلام الرئيسة «تحرير إرادة الإنسان من الخضوع لتأثير القوة الظاهرة التي يتميز بها المترفون والمستكبرون، باعتبارها سبيلًا من سبل تحرير حياة الإنسان من الاستسلام لأفكار هؤلاء ونزواتهم ومخططاتهم التي لا تسير غالبًا في اتجاه الخير، وإنما تظل ممعنة في دروب الشر؛ لذا فمن البدهي أن يمثل هؤلاء عبر العصور الحاجز الأساس في طريق عملية التغيير؛ لأن أي تغيير يكون انعتاقًا لأمة من الناس من نير العبودية العقدية والفكرية، وحينها ستنكس أعلام المستكبرين، ويضعف نفوذهم، وتخور قواهم. لذلك فهم لا يزالون- بحكم هذا الاستعلاء وهذا الكبرياء- يحاولون الاستبداد بالأمور، فيطمحون إلى تأليه أنفسهم وإحاطتها بخصوصية الخلود والأبدية، ولنستمع إلى إحدى الظواهر الاستكبارية، إلى فرعون وهو يلقي بالكلمة الفاجرة في أسماع الملإ الذين تلقوها بالإقرار والتسليم- قال- تَعَالَى-: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص، الآية:٣٨] لقد اعتمد في مقولته هذه- كما يقول سيد- رحمه الله-: «على الأساطير التي كانت سائدة من نسب الملوك للآلهة، ثم على القهر الذي لا يدع لعقل أن يفكر ولا للسان أن يعبِّر، وهم يرونه بشرًا مثلهم يحيى ويموت، ولكنه يقول فيهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراف أو تعقيب»[(١)] ! ثم يعلل القرآن مقولة فرعون فيقول- تَعَالَى-: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [القصص، الآية:٣٩]، وذلك هو منطق المستكبرين في كل عصرٍ ومصر، فهم على صعيد قلب واحد، إنهم غير مستعدين للإيمان بالمثل الأعلى الذي دعت إليه الرسل؛ إذ هو الذي سيزعزع ألوهيتهم، ويهدد

(١) في ظلال القرآن: ٥/٢٦٩٤.

عروشهم، ويعيد الحاكمية إلى الإله الحق بعد أن اغتصبوها، ومعها كرامة المجتمعات وحرية الشعوب التي سيمت ألوانا من العذاب، ومنعت الإنصاف.

إن دعوة الأديان- وخصوصًا الإسلام- أرادت في أول ما أرادت أن تقطع دابر الذين تسنموا ذروة الألوهية؛ فاستعبدوا الناس بحيلهم ومكايدهم وتحكموا في رقابهم، فأرادت دعوة الإسلام أن تقطع دابرهم وتستأصل شأفتهم.

فليس غريبًا أن نجد المترفين والجبابرة يثورون على دعوات الإصلاح ويحاولون إجهاضها بشتى العراقيل، لما ستحدثه هذه الدعوة من انقلاب اجتماعي، تنهار معه طموحاتهم وأحلامهم وتقبر آمالهم ومتمنياتهم.

ولا تزال عدوى المستكبرين في الحياة الاجتماعية تسري وتدب فيها دبيب السرطان في الجسد، «ومن آفة الآفات أن المستكبرين كانوا ولا يزالون يتقنعون بلبوس ديني علانيتهم الإقرار بالتوحيد والإيمان بالرسالة، والمحافظة على الفرائض، والاستشهاد بالكتاب والسنة، وفي باطن أمرهم كانت الجاهلية تعمل عملها من وراء حجاب»[(١)]، ولا ريب أنها إحدى معضلات التغيير التي ليس من السهل إخمادها، لاسيما وقاعدة المجتمعات مطبوعة بطابع الجهل، الذي يفتح على هؤلاء باب انطلاء الحيلة عليهم، وتستمر الطغمة الغاشمة في اللعبة تسعفها إمداداتها المادية وغطرستها الفرعونية، مما يجعل الأمر صعبًا وعسيرًا. غير أن الأمل عريض ومناهج التغيير مختلفة ولو طال أمله وبعدت شقته، فهو كائن- إن شاء اللَّه- تَعَالَى-، وهو ما قرّرناه آنفًا.



(١) واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، ص: ٣٦.

المبحث الثامن :

ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد القرآنية

المطلب الأول :

قاعـــدة : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف، الآية:٩٦] .

أ- فقهها :

تقرر الآية أن الإيمان الصحيح والدين الحق سبب للسعادة الدنيوية وانتفاء الضلال والشقاء كما في قوله- عَزَّ وَجَلَّ- ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه، الآية:١٢٣]، وما يفتح اللّٰه على المؤمنين يكون بركة ونعمة، ويكون أثره فيهم الشكر للّٰه عليه والرضا منه والاغتباط بفضله، واستعماله في سبيل الخير دون الشر، وفي الإصلاح دون الإفساد، ويكون جزاؤهم عليه من اللّٰه- تَعَالَىٰ- زيادة النعم ونموها في الدنيا وتوسعتها عليهم وتيسيرها لهم من كل جانب بفتح أبوابها في سهولة تناولها[1] .

(١) انظر تفسير المنار: ٩/٢٥.

ب- قيمتها :

كما أنها تقرر أمرا عظيما، وهو أن العقيدة الإيمانية في الله وتقواه ليست بمعزل عن واقع الحياة.

فمتى تفاعل هذان العنصران، عنصر الإيمان الحق وعنصر التقوى القائم مقام التسييج والرعاية لهذا الإيمان، متى تفاعلا، أهلًا لفيض البركات من السماء والأرض. وأثمرا القوة كما في قوله- تعالى-: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود، الآية:٥٢].

فالمتأمل للآية القاعدة ونظيرتها يرى أن الوعد فيهما منوط بالإيمان، والتقوى، والاستغفار- وهو من لوازم الإيمان- وكلها أمور تجري فيها سنة الله وفق قوانين ثابتة في نظام هذا الوجود[١] .

ولا ريب أن البركات والقوة إنما هي كناية عن مظاهر حضارة ضاربة بفضل سيادة شريعة الله الصالحة التي تطلق الناس أحرارًا لا يدينون لغير الله، كما إنها تطلق طاقاتهم نحو العمل والإنتاج وتأدية تكاليف الخلافة في الأرض؛ لأن الإيمان الحق المسيج بالتقوى، لا شك أنه سيثمر الإدراك الإنساني الكامل، ومن ثم الحيوية ورحابة الإحساس بحقائق الوجود التي منها؛ إحساس الإنسان بدوره في هذه الحياة، وشعوره بانتفاء العبثية من خلقه وتلك هي كوة الإشراف على النجاح في الحياة الواقعية.

فالإيمان الذي عنته الآية، هو هذا النوع الذي يشكل القوة الدافعة لتحقيق مشيئة الله في عمارة الأرض؛ بإحلال الخير فيها، ومدافعة الفساد والشر؛ لترقيةالحياة ونمائها.

---

(١) انظر في ظلال القرآن: ١٨٩٧/٤.

فلا مقارنة- إذًا- بين هذا الإيمان وما تعيشه المجتمعات الإسلامية من إيمان متخيل في صورة تعبدية بحتة مقطوع الصلة بواقع الناس، فإنه من غمط الحق وقصور النظر أن نحسب هذا الإيمان على الإيمان المحرك، وأن ننظمه في سلك الإيمان المنتج لتنمية حضارة حافلة، وهي تلك البركات الموعودة في الكتاب، وما حال الأمة عنا ببعيد، والخلل لا ينجم عنه إلا الخلل.

ولقد قرّر صاحب الظلال- رحمه اللَّه- حقيقة الإيمان الحي الذي يغدو مُوصَّلًا بالملإ الأعلى فيثمر الإنسان المكلف، الإنسان المشبع بالإحساس بالمسئولية، ثم يتخذ الأسباب لأجل تحقيق هذا التكليف، لقد قرّر- رحمه اللَّه- هذا بقوله: « ... وحين تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح، عاملة في الأرض منطلقة إلى السماء متحرّرة من الهوى والطغيان البشري، عابدة خاشعة للَّه، تسير سيرة صالحة منتجة، تستحق مدد اللَّه بعد رضاه، فلا جرم تحفها البركة ويعمها الخير ويظلها الفلاح »[1] .



(١) في ظلال القرآن: ١٣٣٩/٣.

المطلب الثاني :

قاعدة : ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام، الآية:٤٤].

أ- فقهها :

والمعنى أنه لما تركوا الاتعاظ بما وعظهم به الرسل، وأعرضوا عما أنذروهم به، كثرت لهم النعم والخيرات من صنوف السعادة وراحة البال والرغائب؛ ظنًّا منهم أن ذلك باستحقاقهم وإنما هو استدراج وإملاء ومكر بهم(١) .

ب- قيمتها :

والآية القاعدة تجسد سنة الاستدراج في الذين خلوا من قبل وهي مقررة في غير ما آية، قال- تعالَى-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر، الآيات:٦-١٤]، «فقد جمع في هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم والذي طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، وليس وراء الطغيان إلا الفساد، الفساد الذي يحول الحياة عن خطها السليم النظيف المعمر الباني، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال»(٢) .

---

(١) انظر التفسير الكبير: ٢٣٧/١٢، وتفسير المنار: ٤١٥/٧، ومحاسن التأويل: ٥٢٩/٦.

(٢) في ظلال القرآن: ٣٩٠٤/٦.

ولقد أخذ اللَّه- تَعَالَى- هؤلاء ونظائرهم في الطغيان والجبروت ونسيان ما ذكروا به، أخذهم بهذه السنة، ووراء ازدهار حضاراتهم ثم تدميرها ذلك السر المغيب من قدر اللَّه، وهذا القدر الظاهر من سنته، وهذا التفسير الرباني لهذا الواقع التاريخي المعروف[(١)] .

وكل ذلك كان مأتاه الجهل بالسنة الكونية، وعدم الشعور بالاستدراج وفق هذه السنة.

وتأمل القاعدتين لتدرك البون بينهما: فالقاعدة الأولى تتحدث عن الفتح الرباني المبشر بالرضا والإنعام، وهذه تتحدث عن الفتح المنذر بالسخط والانتقام، فالفتح الأول إعلان عن بداية خير وولادة إنسان سيقيض له اللَّه أن يحيى حياة طيبة في ظلال شريعة اللَّه الوارفة.

والفتح الثاني بلاغ عن انقراض الشر واستئصال شأفته، وتطهير الأرض من الذين ظلموا: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام، الآية:٤٧]، ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف، الآية:٣٥].



(١) في ظلال القرآن: ١٠٩١/٢.

المطلب الثالث:

تطبيقات

أ- نموذج أحد:

ويعتبر من النماذج المهمة في سنة التغيير، وفي ذلك يقول- تَعَالَى-: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران، الآية:١٦٥]، والآية بيان وإرشاد عام؛ أن جريان الأمور على السنن المطردة حجة على جميع الناس؛ مؤمنهم وكافرهم، تقيهم وفاجرهم، كما أنها دحض لشبهة المشركين والمنافقين؛ إذ قالوا: لو كان محمد ﷺ رسولا من عند الله لما نيل منه، فكأن الآية أجابتهم بأن سنن الله حاكمة على رسله وأنبيائه، كما هي حاكمة على سائر خلقه، فما من جند يكون في الحالة التي كان عليها المسلمون يوم أحد ويتصرف كما تصرفوا إلا ويُنال منه؛ نتيجة مخالفة أوامر القيادة، وتركهم للثغر الذي أوتوا من قبله، وتخليتهم بينهم وبين عدوهم، أضف إلى هذا فشلهم جراء تنازعهم.

كما أن في الآية نكتة تأديب المسلمين؛ لأن النصر المحرز من قبل المشركين لم يكن سوى نصر آني، سرعان ما تخبو جذوته، إلا إن في ثناياه غمزا للمسلمين؛ لإيقاظهم وانتباههم؛ لئلا يغيبوا الأسباب التي منها عدم الخروج على القائد ومخالفة أمره، فكان ذلك وقفة تربوية وتعليمية مفادها: أن من خرج عن سنة الله في أسباب الظفر حلَّت به النكبات؛ لأن سنن الله لا تحابي أحدًا من خلقه ولا تجاري أهواءه، وإنما تساير عمله، فلا نصر بغير اتخاذ الأسباب الجارية «في النصر والهزيمة؛ حتى تتعلم الجماعة وتزداد طاعة لله وتوكلًا عليه والتصاقًا بركنه، وتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليف معرفة اليقين»[1].

(١) في ظلال القرآن: ٤٨١/١.

ب- نموذج سحرة فرعون :

وهو نموذج يشي بعدم اكتراث الحق بالباطل، كما أن مشاهده صورت إجراء مباراة كانت نتائجها قلب موازين قوى الباطل، وتحويل أتباع فرعون إلى زمرة من المنافحين عن الدين.

فبعد أن كان جمهرة السحرة يسبحون بعزة فرعون ويجعلونها سندًا ومعينًا قال- تَعَالَى-: ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء، الآية:٤٤]، كان ذلك في أول الجولة، حتى إذا أتى عليهم آخرها قلبوا له ظهر المجن- لِمَا رأوا من حق ويقين لا تطيقه البطلة- فإذا هم بقلوب غير التي عهدها فرعون يواجهون الطاغية بقولهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه، الآية:٧٢]، «إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون، وتعد القربى منه مغنمًا يتسابق إليه المتسابقون، فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة وترخص ملكه وزخرفه وسلطانه»[(١)] فبعد أن كان الحرص والخوف يفعلان فعلهما في إضعاف النفوس، وإحناء الرؤوس، وإذلال الأعناق، إذ بالإيمان يحل في القلوب، فيحيل الخوف إلى شجاعة، والإذلال إلى عزة، والحرص إلى استهانة بكل زخارف الحياة، بل انقلب القوم إلى دعاة يبشرون وينذرون وذلك حين أخبر الحق عن قولهم ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾[(٢)] [طه، الآية:١٧٣] فانظر إلى القلوب كيف تحيى ثم يغدو أصحابها ضمن الدعاة الذين يرغبون في التغيير؛ إذ لم يكفهم أن يتغيروا، بل رغبوا في الإسهام في عملية التغيير، وهي من مقامات التوبة النصوح ودلائلها قال- تَعَالَى-: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان، الآية:٧٠].

---

(١) في الظلال: ٢٣٤٣/٤.

(٢) انظر الإيمان والحياة، ص: ٢٣٦.

الخاتمة

والآن بعد أن أتينا على عرض الكليات الثمان التي عليها مدار القرآن- كما قررناه- فإنه يمكن استخلاص النتائج الآتية:

* قصد القرآن الكريم إلى إيداع أكثر المضامين والمعاني في أقل القوالب والمباني، فالعبرة عنده بالمضمون والكيف والمنهج، دون الكثرة والشكل، وهو من مظاهر الإعجاز البياني فيه.

* كليات القرآن على كثرتها تئول إلى الأصول الثمانية المسطرة، وهذه الأصول الثمانية هي بذاتها تنتظم في ثلاث دوائر كبرى، وهي:

العقيدة، والعبادة، والجزاء.

* تجلي عنصر التكامل والتفرع في كليات القرآن، وهو ملحوظ في ذلك الترتيب الذي لم يجيء اعتباطًا، كما أن التفريع نلمسه من خلال القواعد المذيلة لهذه الكليات.

* صلاحية التشريع القرآني لكل زمان ومكان وإنسان نابعة من كليات القرآن.

* وعالمية الكليات تعتبر نوعًا من أنواع إعجاز القرآن التشريعي، وهو ما ينطبق على قوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء، الآية:٨٨].

* إبراز كليات القرآن وأصولها الكبرى، هو الجواب العلمي لمسألة: ضبط نصوص الشرع- وهي محدودة- قضايا الناس- وهي غير محدودة ولا متناهية-.

* كليات القرآن كلها مودعة في أم الكتاب.

* كليات القرآن مجموعة في الأصول الثمانية، والأصول الثمانية ترجع إلى الأنواع الثلاثة الكبرى، وهي آيلة إلى النوع الأول، (وهو العقيدة)، فتحصَّل من هذا أن أصل الأصول هو العلم بالله- عَزَّ وَجَلَّ- وهو دليل على وحدانيته- سبحانه وتعالى-.

* القرآن المكي أغزر وأكثر كليات وأصولًا.

* أصول الإسلام وقواعده وفكرته العامة، كل ذلك مستوفى في القرآن المكي عن طريق الكليات.

* النظر في القرآن من جهة ما فيه من الكليات يربي في الناظر العقلية التركيبية الشمولية الواسعة المستوعبة.

كما يخلصه من العقلية التجزيئية التي تنظر إلى الأمور من زوايا دون أخرى، ومن ثم تحكم على الأشياء أحكاما قاصرة وتزنها بالميزان المختل.

* بالنظر في الكليات القرآنية ودراستها نتعرف على ما هو ثابت وما هو متغير في التشريع الإسلامي.

* * *

قائمة المصادر والمراجع

* **القرآن الكريم.**

* **الإتقان في علوم القرآن.**

* لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، (ت٩١١هـ).

* تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم.

المكتبة العصرية - بيروت - طبعة ١٤٠٧هـ/١٩٨٩م.

* **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان.**

للأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، (ت٧٣٩هـ).

قدم له وضبط نصه: كمال يوسف الحوت.

دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

* **الإحكام في أصول الأحكام.**

لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم (ت٤٥٦هـ).

تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، تقديم الدكتور إحسان عباس.

دار الآفاق - بيروت - الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

* **أحكام القرآن.**

لابن الفرس، بحث مرقوم أعده محمد الدبلالي لنيل دبلوم الدراسات الإسلامية جامعة مولاي إسماعيل، السنة الجامعية، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

* إحياء علوم الدين.

لأبي حامد محمد الغزالي (ت٥٠٥هـ).

دار المعرفة - بيروت - طبعة (د. ت).

* الإخلاص.

للدكتور عمر سليمان الأشقر.

دار النفائس - عمان - الأردن، الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

* إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول.

لمحمد علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ).

تحقيق: أبي مصعب محمد سعيد البدري.

مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة السادسة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

* أساس البلاغة.

لجار الله أبي القاسم الزمخشري (ت٥٣٨هـ).

دار الفكر - بيروت - طبعة (د- ت).

* أسباب النزول.

لأبي الحسين علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت٤٦٨هـ).

دار الفكر - بيروت - طبعة (د. ت).

* أسد الغابة في معرفة الصحابة.

لابن الأثير الجزري.

دار الفكر - بيروت - طبعة (د.ت).

* **الإسلام.**

لتوماس كرليل.

* **الإسلام والدولة.**

لمحمد حسن الوزاني.

مؤسسة محمد حسن الوزاني - فاس - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

* **الإسلام ومتطلبات التغيير الاجتماعي.**

للشيخ محمد حسين الطباطبائي.

تعريب محمد علي آذرشب.

منشورات المكتبة الإسلامية الكبرى وقسم الإعلام الخارجي لمؤسسة البعثة.

الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ.

* **الأشباه والنظائر.**

لتاج الدين بن علي السبكي (ت٧٧١هـ).

تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد عوض.

دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م.

* **الأشباه والنظائر.**

لزين الدين بن إبراهيم المعروف بابن نجيم الحنفي (ت٩٧٠هـ).

تحقيق وتقديم: محمد مطيع الحافظ.

دار الفكر، تصوير ١٩٨٦ عن الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

* **الأشباه والنظائر.**

لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ).

ضبط وتعليق: الشيخ علي المكي.

مطبعة محمد بمصر، طبعة (د.ت).

* **الإشراف في مسائل الخلاف.**

للقاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي (ت٤٢٢هـ).

مطبعة الإرادة (تونس) طبعة (د.ت).

* **أصول الفقه.**

لمحمد أبي زهرة.

دار الفكر العربي، طبعة (د.ت).

* **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام.**

لمحمد الطاهر بن عاشور.

الشركة التونسية للتوزيع، طبعة (د.ت).

* **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.**

لمحمد الأمين الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ).

عالم الكتب - بيروت - طبعة ١٣٨٣هـ.

* **الاعتصام.**

لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت٧٩٠هـ).

در الفكر - بيروت - طبعة (د.ت).

* **الاعتقاد على مذهب السلف.**

لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ).

صححه: محمد الشيخ أحمد المرسي.

الناشر: حديث أكادمي نشاط آبا، وفيصل آباد باكستان طبعة (د.ت).

* **إعلام الموقعين عن رب العالمين.**

لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ).

راجعه وقدم له وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد.

دار الجيل - بيروت - طبعة (د.ت).

* **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان.**

لابن قيم الجوزية.

تحقيق: محمد سيد الكيلاني.

مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر - طبعة ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

* **أنوار التنزيل وأسرار التأويل.**

لناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي.

دار صادر - بيروت - طبعة (د.ت).

* **الإيمان والحياة.**

للدكتور يوسف القرضاوي.

مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة التاسعة عشرة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

* **بدائع الفوائد.**

لابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ).

ضبط نصه وخرج آياته: أحمد عبد السلام.

دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

* **بداية المجتهد ونهاية المقتصد.**

لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الأندلسي (ت٥٩٥هـ).

دار الفكر، طبعة (د.ت).

* **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز.**

لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ).

تحقيق: محمد علي النجار.

المكتبة العلمية - بيروت - طبعة (د.ت).

* **تاريخ الأمم والملوك.**

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ).

دار الفكر - بيروت - طبعة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

* **تاريخ الفقه الإسلامي ونظرية ملكية العقود.**

لبدران أبي العينين بدران.

دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - طبعة (د.ت).

* **التحرير والتنوير.**

للشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

الدار التونسية للنشر، طبعة ١٩٨٤م.

* **تفسير الخازن المسمى «لباب التأويل في معاني التنزيل».**

لعلاء الدين محمد بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف بالخازن (ت٧٢٥هـ).

دار الفكر - بيروت - طبعة (د.ت).

* **تفسير سورة النور.**

لأبي الأعلى المودودي.

تعريب محمد عاصم الحداد.

دار الفكر، طبعة (د.ت).

* **تفسير القرآن العظيم.**

لأبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت٧٧٤هـ).

صححها نخبة من العلماء.

دار إحياء التراث العربي- بيروت- طبعة ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

* **التفسير القيم.**

لابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ).

جمعه: محمد أويس الندوي، وحققه: محمد حامد الفقي.

دار العلوم الحديثة - بيروت - طبعة (د.ت).

* **التفسير الكبير.**

لفخر الدين الرازي (ت٦٠٤هـ).

دار الفكر- بيروت- الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

* **تفسير الماوردي (النكت والعيون).**

لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (ت٥٤٠هـ).

دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

* **تفسير القرآن المسمى «تبصير الرحمن وتيسير المنان».**

لعلي بن أحمد بن إبراهيم المهافي (ت٨٣٥هـ) عالم الكتب - بيروت - ط٢ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

* **تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار.**

للأستاذ محمد عبده .

دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الثانية (د.ت) .

* **تفسير النصوص في الفقه الإسلامي .**

للدكتور محمد أديب صالح .

المكتب الإسلامي. الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

* **توضيح المقاصد وتصحيح القواعد .**

لابن عيسى .

المكتب الإسلامي الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

* **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد .**

لسليمان بن عبد اللّه بن محمد بن عبد الوهاب (ت١٢٣٣هـ) .

المكتب الإسلامي الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ .

* **جامع الأصول في أحاديث الرسول .**

لمجد الدين أبي السعادات ابن الأثير الجزري (ت٦٠٦هـ) .

تحقيق عبد القادر الأرناؤوط .

دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٠٣م .

* **جامع بيان العلم وفضله .**

لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي (ت٤٦٣هـ).

دارالفكر - بيروت - طبعة (د.ت).

* **جامع البيان عن تأويل آي القرآن.**

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ).

دار الفكر - بيروت - طبعة ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

* **جامع الرسائل لابن تيمية.**

تحقيق: محمد رشاد سالم، مطبعة المدني، ط١ (د.ت).

* **الجامع الصحيح.**

لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت...هـ).

منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر - بيروت - طبعة (د.ت).

* **الجامع لأحكام القرآن.**

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ).

تصحيح: أحمد بن عبد الحليم البردوني.

دار الكتب المصرية، طبعة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

* **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.**

لتقي الدين أحمد بن تيمية (ت٧٢٨هـ).

مطابع المجد التجارية، طبعة (د.ت).

* **جواهر القرآن.**

لأبي حامد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ).

تحقيق الدكتور محمد رشيد رضا القباني.

دار إحياء العلوم - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

* حاشية ابن عابدين.

* حاشية الصاوي على الجلالين.

لأحمد الصاوي المالكي (ت١٢٤١هـ) دار الفكر - بيروت - طبعة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

* الحسبة في الإسلام.

لتقي الدين أحمد بن تيمية.

مؤسسة مكة للطباعة والإعلام، طبعة (د.ت).

* خصائص الشريعة الإسلامية.

للدكتور عمر سليمان الأشقر.

مكتبة الفلاح - الكويت - الطبعة الأولى ١٩٨٢م.

* الخصائص العامة للإسلام.

للدكتور يوسف القرضاوي.

دار المعرفة- الدار البيضاء طبعة (د.ت).

* خطب الرسول.

لعبد الحميد شاكر.

جروس بريس، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

* **الدرر البهية في إيضاح القواعد الفقهية.**

لمحمد نور الدين مربو بنجر المكي.

مجلس إحياء دار التراث، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

* **دستور الأخلاق في القرآن.**

للدكتور محمد عبد اللّه دراز.

تعريب وتحقيق وتعليق عبد الصبور شاهين.

مراجعة الدكتور السيد محمد البدوي.

مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة التاسعة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

* **دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية.**

جمع وتقديم وتحقيق: الدكتور محمد السيد الجليند.

مؤسسة علوم القرآن - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

* **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة.**

لأبي بكر محمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨).

وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: الدكتور عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

* **الدين الخالص.**

للسيد محمد صديق خان القنوجي.

دار التراث- القاهرة- طبعة (د.ت).

* **الرسالة.**

للإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ).

تحقيق أحمد محمد شاكر.

دار الفكر- بيروت- طبعة ١٣٠٩هـ.

* **رفع الحرج في الشريعة الإسلامية.**

للدكتور عدنان محمد جمعة.

دار العلوم الإنسانية- دمشق- الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

* **روح المعاني.**

لشهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ).

دار الفكر- بيروت- طبعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

* **زاد المعاد لابن قيم الجوزية.**

راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف طه.

مطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر- طبعة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

* **السنن الإلهية.**

للدكتور عبد الكريم زيدان.

مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

* **سنن الترمذي.**

لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت٢٧٩هـ).

حققه وصححه: عبد الوهاب عبد اللطيف.

دار الفكر- بيروت- الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

* **سنن الدارمي.**

لأبي محمد عبدالله بن عبد الرحمن الدارمي (ت٢٥٥هـ).

دار الفكر - القاهرة - طبعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

* **السنن الكبرى.**

لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ).

دار الفكر - بيروت - طبعة (د.ت).

* **سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي.**

دار الفكر - بيروت - الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م.

* **سير أعلام النبلاء.**

لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ).

أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: شعيب الأرناؤوط.

مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الرابعة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

* **السيرة النبوية.**

لابن هشام.

حققها وضبطها وشرحها مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر - الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ/١٩٥٥م.

* **شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول.**

للإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي المالكي (ت٦٨٤هـ).

تحقيق طه عبد الرؤوف سعد - دار الفكر - القاهرة طبعة أولى ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

* **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب وإجماع الصحابة والتابعين.**

لأبي القاسم هبة الله بن الحسين بن منصور الطبري اللالكائي (ت٤١٨هـ).

تحقيق: الدكتور أحمد سعد حمدان.

دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض.

الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

* **شرح السنة.**

للحسين بن مسعود البغوي (ت٥١٦هـ).

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش.

المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

* **شرح العقيدة الطحاوية.**

للقاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي (ت٧٩٢هـ).

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وقدم له: الدكتور عبد اللّٰه بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرناؤوط.

مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثامنة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

* **صفوة التفاسير.**

لمحمد علي الصابوني.

دار القرآن الكريم - بيروت - الطبعة الخامسة، طبع بألمانيا الغربية شتوتغارت ١٤٠٢هـ/١٩٨١م.

* **ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة.**

لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني.

دار القلم - دمشق - الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

* **الطبقات الكبرى.**

لابن سعد.

دار صادر - بيروت - طبعة (د.ت).

* **عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي.**

لابن العربي المالكي (ت٥٤٣هـ).

دار الفكر - بيروت - طبعة (د.ت).

* **العبادة في الإسلام.**

للدكتور: يوسف القرضاوي.

مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبة الثامنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

* **العبودية.**

لتقي الدين أحمد بن تيمية (ت٧٢٨هـ).

دار الكتب العلمية - بيروت - طبعة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

* **إحكام الأحكام في شرح عمدة الأحكام.**

لابن دقيق العيد (ت٧٠٢هـ).

طبعة دار الشعب - نشر مكتبة عالم الفكر - القاهرة الطبعة الأولى ١٩٧٦م.

* **عون المعبود في شرح سنن أبي داود.**

لأبي الطيب محمد شمس الحق آبادي.

ضبط وتحقيق، عبد الرحمن بن عثمان.

دار الفكر - بيروت - الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

* **غاية الأماني في الرد على النبهاني.**

لأبي المعالي محمود شكري الألوسي (ت١٣٤٢هـ).

الطبعة الثانية عام ١٣٩١هـ.

* **غريب القرآن وتفسيره.**

لأبي عبد الرحمن عبد اللَّه بن يحيى المعروف بابن اليزيدي.

تحقيق: الدكتور عبد الرزاق حسين.

مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

* **فتح الباري بشرح صحيح البخاري.**

لأحمد بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ).

قرأ أصله تصحيحا وتحقيقا عبد العزيزبن عبد اللَّه بن باز.

المطبعة السلفية - القاهرة - طبعة ١٣٨٠هـ.

* **الفرائد البهية في القواعد والفوائد الفقهية.**

لمفتي دمشق محمود حمزة (ت١٣٠٥هـ).

دار الفكر - بيروت - طبعة ١٩٨٦م.

* **الفروق.**

لشهاب الدين أبي العباس الصنهاجي القرافي.

واضعه: محمد رواس قلعجي.

دار المعرفة - بيروت - طبعة (د.ت).

* **الفروق اللغوية.**

لابن عساكر.

مكتب القدمي.

* **الفصل في الملل والأهواء والنحل.**

لأبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري (ت٤٥٦هـ).

تحقيق الدكتور: محمد إبراهيم نصر والدكتور عبد الرحمن عميرة.

دار الجيل - بيروت - الطبعة الثانية ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

* **فقه الزكاة دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة.**

للدكتور: يوسف القرضاوي.

مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة السادسة ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

* **الفوائد.**

لابن قيم الجوزية.

الناشر زكريا علي يوسف.

مطبعة الإمام - القاهرة - طبعة (د.ت).

* **الفوز الكبير في أصول التفسير.**

لولي اللّٰه الدهلوي (ت١١٧٦هـ).

عربه من الفارسية: سلمان الحسيني الندوي.

دار الصحوة بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

* **في ظلال القرآن.**

لسيد قطب (ت١٣٨٦هـ).

دار الشروق، الطبعة الشرعية التاسعة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

* **القاموس المحيط.**

لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ).

تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

* **القواعد.**

لأبي عبد اللَّه محمد بن أحمد المقري (ت٧٥٨هـ).

تحقيق ودراسة: أحمد بن عبد اللَّه بن حميد.

مركز إحياء التراث الإسلامي - مكة - طبعة (د.ت).

* **قواعد الأحكام في مصالح الأنام.**

لأبي محمد عز الدين بن عبد السلام السلمي (ت٦٦٠هـ).

مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - طبعة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

* **القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة.**

لعبد الرحمن بن ناصر السعدي.

مكتبة المعارف الرياض - طبعة جديدة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

* **القواعد الكلية للأسماء والصفات.**

للدكتور: إبراهيم بن محمد بن عبد اللَّه البريكان.

دار الهجرة للنشر والتوزيع، طبعة (د.ت) .

* **الكامل في التاريخ .**

لابن الأثير. دار صادر - بيروت - طبعة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

* **كتاب الأسماء والصفات .**

لأبي بكر البيهقي .

دار الكتب العلمية - بيروت - طبعة (د.ت) .

* **كتاب الأموال .**

لأبي عبيد القاسم بن سلام .

تصحيح وتعليق محمد حامد الفقهي .

مطبعة عبد اللطيف حجازي، طبعة ١٣٥٣هـ .

* **كتاب الحدائق في علم الحديث والزهديات .**

لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت٥٩٧هـ) .

حققه وعلق عليه: مصطفى السبكي .

دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

* **كتاب الخراج .**

لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة (ت١٨٢هـ) .

دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - .

اعتمد فيها على نسخة مخطوطة في الخزانة التيمورية رقم ٦٧٤ فقه - مع معارضتها بطبعة بولاق سنة ١٣٠٢هـ.

* **كتاب فهم القرآن ومعانيه.**

للحارث بن أسد المحاسبي (ت٢٤٣هـ).

تحقيق وتقديم: حسين القوتلي.

دار الفكر - بيروت - الطبعة الأولى ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

* **كتب العهد القديم والجديد.**

دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

Arabic. Bible 053

UBS. EPF. 1987-407M

* **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.**

لأبي القاسم جار الله الزمخشري (ت٥٣٨هـ).

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

* **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية.**

لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي (ت١٠٩٤هـ).

قابله وأعده للطبع: دكتور عدنان درويش ومحمد المصري.

مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى عام ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

* **كنز العمال.**

لعلاء الدين الهندي، ضبطه وفسر غريبه: بكري حياني، صححه ووضع فهارسه ومفاتيحه ضوة السقا- مؤسسة الرسالة- بيروت- طبعة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

* **كيف نتعامل مع القرآن.**

لمحمد الغزالي.

دار الوفاء، الطبعة الثانية عام ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

* **لسان العرب.**

لابن منظور.

دار صادر- بيروت- الطبعة الأولى (د.ت).

* **ما أنا عليه وأصحابي.**

لأحمد سلام.

دار ابن حزم- بيروت- الطبعة الأولى عام ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

* **مجاز القرآن.**

لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت٢٠٦هـ).

تحقيق محمد فؤاد سزكين.

مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

* **مجلة البيان،** عدد: ٥٠، شوال ١٤١٢هـ أبريل ١٩٩٢م.

* **مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية.**

السنة الأولى نوفمبر ١٩٨٤م.

* **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد.**

لعلي بن أبي بكر الهيثمي (ت٨٠٧هـ).

بتحرير الحافظين الجليلين: العراقي وابن حجر.

الناشر: مؤسسة المعارف - بيروت - طبعة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦.

* **مجموع فتاوى ابن تيمية** (ت٧٢٨هـ).

جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم.

أشرف على الطباعة والإخراج: المكتب التعليمي السعودي بالمغرب.

مكتبة المعارف- الرباط- طبعة (د.ت).

* **المحاور الخمسة.**

للشيخ محمد الغزالي.

دار الوفاء للطباعة والنشر - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

* **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.**

لأبي محمد إسحاق بن عطية الأندلسي (ت٥٤٦هـ).

تحقيق: نخبة من أعضاء المجالس العلمية بالمغرب.

الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

* **المسوى شرح الموطأ.**

لولي الله الدهلوي (ت١١٧٦هـ).

علق عليها وصححها جماعة من العلماء بإشراف الناشر.

دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

* **المشروع الحضاري في الإسلام.**

في حوار مع السيد محمد فضل الله.

مؤسسة المعارف للمطبوعات - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م.

* **معالم السنن.**

لأبي سليمان أحمد بن محمد الخطابي (ت٣٨٨هـ).

منشورات المكتبة العلمية - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

* **معجم مفردات ألفاظ القرآن.**

للراغب الأصبهاني.

تحقيق: نديم مرعشلي.

دار الفكر - بيروت - طبعة (د.ت).

* **مجموعة الرسائل المفيدة.**

للشيخ حافظ الحكمي.

تحقيق وتعليق: الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين، على نفقة الراجحي طبعة(د.ت).

* **محاسن التأويل.**

لمحمد جمال الدين القاسمي (ت١٣٣٢هـ).

وقف على طبعه وتصحيحه وترقيمه وتخريج آياته وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

* **مدارج السالكين.**

لابن قيم الجوزية.

تحقيق: محمد حامد الفقي.

دار الفكر - بيروت - الطبعة الأخيرة عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٨م.

* **المستدرك على الصحيحين.**

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم (ت٤٠٥هـ).

دار الفكر - بيروت - طبعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

* **مسند الإمام أحمد بن حنبل** (ت٢٠٤هـ).

دار الفكر- بيروت- طبعة (د.ت).

* **المستصفى.**

لأبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ).

دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

* **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير.**

لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت٧٧٠هـ).

مكتبة لبنان طبعة (د.ت).

* **المصلحة في التشريع الإسلامي ونجم الدين الطوفي.**

لمصطفى زيد.

دار الفكر العربي - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٦٤م.

* **معاني القرآن.**

لأبي زكريا زياد الفراء (ت٢٠٧هـ).

عالم الكتب - بيروت - الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

* **المعتمد في أصول الفقه.**

لأبي الحسين محمد بن علي البصري (ت٤٣٦هـ).

قدم له وضبطه: الشيخ خليل الميس.

دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

* **مفاهيم إسلامية.**

لعبد الله كنون.

دار الكتاب اللبناني، طبعة أولى ١٩٦٤م.

* **مفتاح دار السعادة.**

لابن قيم الجوزية .

تصحيح ومراقبة: د. فكري أبو النصر، دار الفكر للطباعة والنشر طبعة (د.ت) .

* **مقاصد الشريعة .**

لمحمد الطاهر بن عاشور .

الشركة التونسية للتوزيع، طبعة (د.ت) .

* **مقدمة ابن خلدون .**

الطبعة البهية المصرية، طبعة (د.ت) .

* **المنثور في القواعد .**

لبدر الدين محمد الشافعي الزركشي (ت٧٩٤هـ) .

تحقيق: الدكتور. تيسير فائق أحمد محمود، راجعه الدكتور. عبد الستار أبو غدة، مصورة بالأوفست عن الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

* **منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات .**

للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ) .

توزيع المكتب التعليمي السعودي بالمغرب. مكتبة المعارف - الرباط - طبعة (د.ت) .

* **الموافقات في أصول الأحكام .**

لأبي إسحاق الشاطبي (ت٧٩٠هـ) .

طبعة دار الفكر التي عليها تعليقات الأستاذ السيد محمد الخضر حسين التولسي، طبعة (د.ت) .

وطبعة دار المعرفة التي عليها تعليقات وشرح الشيخ عبد اللّٰه دراز.

وضبط أحاديثها وخرج آياتها الشيخ إبراهيم رمضان. الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

* **مواهب الجليل لشرح مختصر خليل.**

لأبي عبد اللّٰه بن محمد بن عبدالرحمن المغربي المعروف بالحطاب (ت٩٥٤هـ).

دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

* **ميزان الاعتدال في نقد الرجال.**

لأحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ).

تحقيق: علي محمد البجاوي.

دار الفكر - بيروت - طبعة (د.ت).

* **نحن والحضارة الغربية.**

لأبي الأعلى المودودي.

دار السعودية للنشر والتوزيع.

طبعة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

* **نظم الدرر من تناسب الآيات والسور.**

لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ).

طبع بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالية حيدر آباد.

تحت إشراف: محمد عبد المعين خان، الطبعة الأولى ١٣٨٩م.

* **النهاية في غريب الحديث والأثر.**

لابن الأثير (ت٦٠٦هـ).

تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي.

المكتبة العلمية- بيروت- طبعة (د.ت).

* **نهج البلاغة.**

للإمام علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضى.

شرح محمد عبده.

طبعة دار الفكر (د.ت).

* **نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار.**

لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت١٢٥٥هـ).

مكتبة الدعوة الإسلامية، شباب الأزهر - القاهرة - طبعة (د.ت).

* **واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم.**

لأبي الأعلى المودودي.

مؤسسة الرسالة، طبعة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

* **وجهة العالم الإسلامي.**

لمالك بن نبي (ت١٣٩٢هـ).

ترجمة عبد الصبور شاهين.

إصدار ندوة مالك بن نبي دار الفكر- دمشق -، طبعة (د.ت).

* **الوحي المحمدي.**

لمحمد رشيد رضا.

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر- بيروت- الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.

* * *

فهرس الموضوعات

الباب الأول : كليات في الاعتقاد

الفصل الأول : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

الفصل الثاني : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾

الباب الثاني : كليات في مقاصد الشرع

الفصل الأول : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾

الفصل الثاني : «أصلح ولا تتبع سبيل المفسدين»

الفصل الثالث : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

الفصل الثاني: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾

الفصل الثالث: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

